

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة
محمد بدراف

الجزء الثاني من المجلد السابع

١٣



تونس



بيروت

حقوق الطبع محفوظة

قلا الجيد : ص.ب. ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - فاكس: ٩٣٤٣٠٠
العنوان البرقي: دله هيلاب - بيروت - لبنان



(شكل ١) قبة الصخرة في المسجد الأقصى

الفهرس

الكتاب الثاني - الحضارة الإسلامية

الموضوع	الصفحة
١ - مقدمة الترجمة	١

ثبت مسلسل بالحوادث التاريخية

الباب الثامن : محمد (صلى الله عليه وسلم)

الفصل الأول : جزيرة العرب	٦
الفصل الثاني : محمد في مكة	٢١
الفصل الثالث : محمد في المدينة	٣٢
الفصل الرابع : انتصار النبي	٤١

الباب التاسع : القرآن (الكريم)

الفصل الأول : شكله	٤٨
الفصل الثاني : المقائد	٥٣
الفصل الثالث : القرآن والأخلاق	٥٩
الفصل الرابع : القرآن والدين والدولة	١٥

الباب العاشر : سيف الإسلام

الفصل الأول : الخلفاء الراشدون	٧٠
الفصل الثاني : الخلافة الأموية	٨١
الفصل الثالث : الخلافة العباسية	٨٨
١ - هرون الرشيد	٨٨
٢ - اضمحلال الدولة العباسية	٩٥
الفصل الرابع : أرمينية	١٠٤

الباب الحادى عشر : أحوال البلاد الإسلامية

١٠٦	الفصل الأول : الحال الاقتصادية
١١٦	الفصل الثانى : الإيمان
١٢٤	الفصل الثالث : الشعب
١٤٥	الفصل الرابع : الحكومة
١٥٢	الفصل الخامس : المدن

الباب الثانى عشر : الفكر والفن فى بلاد الإسلام الشرقية

١٦٧	الفصل الأول : التعليم
١٧٧	الفصل الثانى : العلوم
١٨٩	الفصل الثالث : الطب
١٩٧	الفصل الرابع : الفلسفة
٢١٤	الفصل الخامس : التصوف والإلحاد
٢٢٣	الفصل السادس : الأدب
٢٣٩	الفصل السابع : الفن
٢٥٦	الفصل الثامن : الموسيقى

الباب الثالث عشر : الإسلام فى الغرب

٢٦١	الفصل الأول : فتح إفريقيا
٢٦٩	الفصل الثانى : الحضارة الإسلامية فى إفريقيا
٢٧٧	الفصل الثالث : الإسلام فى البحر المتوسط
٢٨١	الفصل الرابع : الإسلام فى أسبانيا
٢٨١	الخلفاء والأمراء
٢٩٢	الحضارة فى بلاد الأندلس الإسلامية

الباب الرابع عشر : عظمة المسلمين واضمحلالهم

٣١٤	الفصل الأول : الشرق الإسلامى
٣٢٣	الفصل الثانى : المسلمون فى الغرب

الصفحة	الموضوع
٣٢٩	الفصل الثالث : نظرات عاطفة في الفن الإسلامي
٣٣٩	الفصل الرابع : عصر عمر الخيام
٣٤٨	الفصل الخامس : عصر السعدي
٣٥٦	الفصل السادس : علوم المسلمين
٣٦٢	الفصل السابع : الفزالي والنهضة الدينية
٣٦٨	الفصل الثامن : ابن رشد
٣٧٧	الفصل التاسع : غارة المغول
٣٨٢	الفصل العاشر : الإسلام والعالم المسيحي
٣٨٩	المراجع

فهرس الصور والخرائط

رقم الصفحة	مدلوها	رقم الصورة أو الخريطة
...	قبة الصخرة ...	الشكل ١
١٥٤	منبر المسجد الأقصى ...	٢ »
١٥٨	المسجد الأموى بدمشق ...	٣ »
١٥٨	نقش بارز على الصخر ببلاد الشام	٤ »
٢٧٠	حصن الجامع الأزهر بالقاهرة ...	٥ »
٣٠٤	داخل مسجد قرطبة ...	٦ »
٣٠٣	هو السباع في قصر الحمراء بشريفناطة	٧ »

مقدمة الترجمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله (وبعد)
فهذا هو الجزء الخاص بالحضارة الإسلامية من المجلد الرابع من قصة
الحضارة ، وهو المجلد المسمى « عصر الإيمان » ، وقد عانينا فى ترجمته من
الصعاب ما لم نعاناه فى سائر ما ترجمناه حتى الآن من أجزاء الكتاب البالغ
عددنا نحو عشرين جزءاً ما طبع منها وما لم يطبع . ذلك أن المؤلف قد نقل
الشيء الكثير عن المؤرخين ، والأدباء والشعراء ، والعلماء ، ورجال الدين ،
والفلاسفة ، والمتصوفة ، والحكماء . فليس فى الكتاب صفحة تخلو من نص
منقول عن واحد من هؤلاء ، وقد يكون فى الصفحة الواحدة ما لا يقل
عن عشرة نصوص . هذا إلى ما ورد فيه من أسماء هؤلاء جميعاً وأسماء
مؤلفاتهم ، وبلدانهم ، وأصدقائهم ، والملوك ، والسلاطين ، والأمراء ،
والوزراء الذى اتصلوا بهم ؛ وكان لا بد لنا أن نرجع هذا كله إلى
المصادر العربية وترجمتها الأجنبية التى نقل عنها المؤلف وأشار إلى بعضها ولم
يشر إلى البعض الآخر ، فكان علينا نحن أن نبحث عن أسماء المصادر أولاً
ثم عن النصوص بعدئذ .

على أن هذا ليس هو كل شيء ، فقد كانت أسماء من نقل عنهم ترد أحياناً
معرفة تحريفاً يتطلب تصحيحه الكثير من الجهد . وكم من نص نسب إلى غير
قائله لخطأ فى المراجع التى نقل عنها المؤلف ، كالأبيات التى يعزوها نقلاً عن
أمين الريحاني لأبي العلاء المعرى وليست هى له بل من أقوال محيى الدين بن
عربي ، والتي كان علينا أن نتصل من أجلها بنيورك لنبحث فيها عن نسخة

من كتاب «رباعيات أبي العلاء» ، لأمين الريحاني لأننا لم نجدده في مصر .
وأكثر من هذا أن المؤلف ينقل في كثير من الأحيان عن تراجم المستشرقين
للكتب العربية ، وهؤلاء قد يطلقون عليها أسماء غير أسمائها العربية
أو يترجمونها ترجمة يصعب معها الاهتداء إليها كتسمية الجزء الأول من
كتاب نفع الطيب للمقرى باسم «تاريخ الأسر الإسلامية بالأندلس» ،
وكتاب «اليميني» أو «السيرة اليمينية» باسم «تاريخ الأمير سيكتجين ومحمود
الغزنوى» الذى لا توجد منه إلا نسخة مخطوطة في دار الكتب ، تتطلب
قراءتها والبحث فيها كثيراً من الجهد ، وترجمة «تذكرة الكحالين» باسم
«رسالة في الرمذ» الخ .

وقد وفقنا بحمد الله إلى تدليل هذه الصعاب فصححنا ما حرف أو كتب
خطأ من أسماء الأشخاص والأماكن والكتب ، واهتدينا إلى النصوص من
مصادرها ، وصححنا بعض الأخطاء التى وقع فيها المؤلف كخلطه بين
الكندى الفيلسوف وعبد المسيح بن إسحاق الكندى الذى كتب رسالة في الدفاع عن
المسيحية عزها المؤلف إلى الكندى الفيلسوف . وقد عاوننا في ذلك غير
قليل من العلماء والأصدقاء نذكرهم هنا اعترفا بفضلهم السيد الحاجام
الأكبر الذى ساعدنا في تحقيق كثير من الأسماء والنصوص العبرية في هذا
الجزء والجزء الذى يليه والذى اغترفنا من بحر علمه ما ورى غلتنا في هذا
الميدان ، ومنهم صديقنا الأديب الأستاذ كامل كيلانى الحجة فى أبى العلاء
الذى هدانا إلى كثير من النصوص المنقولة عنه وعن غيره من الشعراء ،
والدكتور عبد الوهاب عزام ، والدكتور يحيى الخشاب اللذان أعانانا على
تحقيق بعض الأسماء الفارسية ، والأستاذ درينى خشبة الذى ترجم لنا
شعرا رباعيتين لعمر الخيام لم نجدهما فى التراجم المطبوعة فضلاً عما استخراج
لنا من النصوص الأدبية الأخرى ، والأستاذ أمين الشريف الذى وفر علينا
كثيراً من المشقة بالبحث عن كثير من الأحاديث النبوية الشريفة ،
وأصدقائنا فى دار الكتب ، ومكتبة وزارة التربية اللذين يسروا لنا

سبيل الحصول على المراجع أعظم تيسير . فلهؤلاء جميعاً أقدم خالص الشكر عن نفسى وعن القراء . وإذا كان قد فاتنا شيء من هذه الناحية فإننا نعتذر عنه مقدماً ونتقبل شاكرين ما يهدينا إليه القراء لتتداركه فى الطبعة الثانية إن شاء الله ، وعذرنا أننا بدلنا كل ما نستطيع من جهد للوصول إلى الحقيقة كاملة ، ونقول كما يقول ابن خلكان ، والتمثيل مع الفارق بطبيعة الحال : « فن وقف على هذا الكتاب من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل فلا يعمل بالموأخذة فيه ، فإنى توخيت فيه الصحة حسبما ظهر لى ، مع أنه كما يقال : أبى الله أن يصح لإكتابه . لكن هذا جهد المقل ، وبذل الاستطاعة ، وما يكلف الإنسان إلا ما تصل قدرته إليه ، وفوق كل ذى علم . . . والله يستر عيوبنا بكرمه الصافى ، ولا يكدر علينا ما منحنا من مشرع عظاته النخير الصافى إن شاء الله تعالى بمنه وكرمه » .

هذا وسيرى القارىء أن المؤلف قد أنصف الحضارة الإسلامية فشاد بفضلها وأوضح ما كان لها من أثر خالداً فى حضارة أوروبا والعالم أجمع وما يدين به العالم الحديث لهذه الحضارة ، ثم هو يعتذر فى آخر هذا الجزء عن تقصيره فى هذه الناحية . وكان لا بد له أن يمهد لوصفه تلك الحضارة بفصول عن باعها عايمه الصلاة والسلام وعن القرآن والدين ، ولم تفته الإشادة بمحاسنه وفضائله . على أننا لم نشأ أن نترك هذه الفصول كما هى لما عساه أن يكون فيها من أخطاء أو سوء فهم أو نستقل برأينا فيها ، فعرضنا الأمر على الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية فعهدت إلى الأستاذ الجليل الدكتور محمد يوسف موسى أن يعلق على هذه الفصول فكتب التعليق القيم الوارد فى هوامشها والذى ذيل باسمه (ى) . وقد أضفنا نحن من عندنا تعليقات أخرى على هذه الأجزاء وعلى سائر فصول الكتاب ذيلناها بلفظ (المترجم) .

وكان هذا أيضاً هو رأى إخواننا أعضاء مجلس إدارة لجنة التأليف ،
ونرجو أن نكون قد سلكنا فى هذا الطريق الصحيح :

ولا يسعنا أن نختم هذه المقدمة قبل أن نقدم جزيل الشكر مرة أخرى
للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية صاحبة المشروع وأكبر عون فيه ،
وللجنة التأليف والترجمة والنشر ناشرة الكتاب ، والقراء الكرام فى مصر
والبلاد العربية الذين شجعونا بإقبالهم على الأجزاء السابقة على مواصلة الجهد
فى هذا العمل الشاق ، وفقنا الله وإياهم إلى الخير ، وهدانا الصراط المستقيم .

محمد برراوه

الكتاب الثاني

الحضارة الإسلامية

١٢٥٨ - ٥٦٩

ثبت مسلسل بالحوادث التاريخية الواردة

في الكتاب الثاني

- ٥٧٠ - ٦٣٢ : محمد (صلى الله عليه وسلم)
٦١٠ : الوحي .
٦٢٢ : هجرة النبي إلى المدينة .
٦٣٠ : فتح مكة .
٦٣٢ - ٦٣٤ : خلافة أبي بكر .
٦٣٤ - ٦٤٤ : خلافة عمر بن الخطاب .
٦٣٥ : استيلاء المسلمين على دمشق .
٦٣٧ : استيلاء المسلمين على بيت المقدس والمدائن .
٦٤١ : فتح بلاد الفرس ومصر
٦٤١ : إنشاء الفسطاط .
٦٤٢ : إنشاء مسجد عمرو في الفسطاط .
٦٤٤ - ٦٥٦ : خلافة عثمان بن عفان .
٦٥٦ - ٦٦٠ : خلافة علي بن أبي طالب
٦٦٠ - ٦٨٠ : خلافة معاوية بن أبي سفيان .
٦٦٠ - ٧٥٠ : الخلافة الأموية في دمشق .
٦٦٢ : استعمال الأرقام الهندية في الشام .
٦٨٠ : مقتل الحسين في كربلاء
٦٨٣ - ٦٨٥ : خلافة يزيد الأول .
٦٨٤ - ٦٨٧ : خلافة معاوية الثاني .
٦٨٥ - ٧٠٥ : خلافة عبد الملك ابن مروان .
- ٦٩١ - ٦٩٤ : بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة في بيت المقدس
٦٩٣ - ٨٦٢ : حكم المسلمين في أرمينية
٦٩٨ : استيلاء المسلمين على قرطاجنة .
٧٠٥ - ٧١٥ : خلافة الوليد الأول .
٧٠٥ وما بعدها - بناء الجامع العظيم في دمشق
٧١١ : دخول المسلمين أسبانيا
٧١٥ - ٧١٧ : خلافة سليمان الأول .
٧١٧ - ٧٢٠ : خلافة عمر بن عبد العزيز
٧٢٠ - ٧٢٤ : خلافة يزيد الثاني .
٧٢٤ - ٧٤٣ : خلافة هشام بن عبد الملك .
٧٣١ : واقعة تور وارتداد المسلمين .
٧٤٣ - ٧٤٤ : خلافة الوليد الثاني .
٧٥٠ : أبو العباس السفاح يؤسس الدولة العباسية
٧٥٤ - ٧٧٥ : خلافة المنصور واتخاذ بغداد عاصمة .
٧٥٥ - ٧٨٨ : عبد الرحمن الأول أمير قرطبة .
٧٥٧ - ٨٤٧ : فلاسفة المعرزة .
٧٦٠ : نشأة الطائفة الإسماعيلية
٧٧٥ - ٧٨٦ : خلافة المهدي .
٧٨٦ : الجامع الأزرق في قرطبة

- ٩٣٤ - ١٠٢٠ : الفردوسى الشاعر .
٩٤٠ - ٩٩٨ : أبو الوفا العالم
الرياضى .
٩٤٥ - ١٠٥٨ : سيادة بنى بويه على
بغداد .
٩٥١ : وفاة المسعودى
الجغرافى .
٩٥٢ - ٩٧٧ : أشوط الثالث :
عصر أرمينية الذهبى
٩٩٠ - ١٠٢٠ : كاجيك الأول فى
المصور الوسطى .
٩٦١ - ٩٧٦ : خلافة الحكيم فى
قرطبة .
٩٦٥ - ١٠٣٩ : ابن الهيثم العالم فى
الطبيعة .
٩٦٧ - ١٠٤٩ : أبو سعيد الشاعر
الصوفى .
٩٩٩ - ١١٧١ : الأسرة الفاطمية
فى مصر .
٩٧٠ : بناء الجامع الأزهر
فى القاهرة .
٩٧٣ - ١٠٤٨ : البيرونى ، العالم .
٩٧٣ - ١٠٥٨ : المعرى ، الشاعر .
٩٧٦ - ١٠١٠ : خلافة هشام فى
قرطبة .
٩٧٨ - ١٠٠٢ : المنصور الوزير فى
قرطبة .
٩٨٠ - ١٠٣٧ : ابن سينا الفيلسوف
٩٨٣ وما بعدها : إخوان الصفا .
٩٩٠ - ١٠١٢ : بغاه جامع الحاكم
فى القاهرة .
٩٩٨ - ١٠٣٠ : السلطان محمود
الغزنوى .
١٠١٢ : ثورة البربر فى قرطبة
١٠١٧ - ١٠٩٢ : الوزير نظام الملك
١٠٣١ : خاتمة الخلافة فى قرطبة
- ٧٨٦ - ٨٠٩ : خلافة هرون الرشيد .
٧٨٩ - ٩٧٤ : قيام أسرة الأدارسة
فى فاس .
٨٠٣ : نكتة البرامكة .
٨٠٣ وما بعدها : الكندي
الفيلسوف .
٨٠٨ - ٩٠٩ : بنو الأغلبي فى القيروان
٨٠٩ - ٨١٠ : استيلاء المسلمين على
ورسقة وسردانية .
٨٠٩ - ٨٧٧ : حنين بن إسحق العالم .
٨١٣ - ٨٣٣ : خلافة المأمون .
٨٢٠ - ٨٧٢ : بنو طاهر فى فارس .
٨٢٢ - ٨٥٢ : عبد الرحمن الثانى أمير
قرطبة .
٨٢٧ وما بعدها : استيلاء المسلمين على
صقلية .
٨٣٠ : إنشاء بيت الحكمة فى
بغداد .
٨٣٠ : وضع الخوارزمى علم الجبر
٨٤٤ - ٩٢٦ : الرازى ، الطبيب .
٨٤٦ : هجوم المسلمين على
رومة .
٨٧٠ - ٩٥٠ : الفارابى ، الفيلسوف .
٨٧٢ - ٩٠٣ : الصفاريون فى فارس .
٨٧٣ - ٩٣٥ : الأشعرى الفقيه .
٨٧٨ : بناء مسجد ابن طولون
فى القطائع
٩٠٩ وما بعدها : الخلافة الفاطمية فى
القيروان .
٩١٣ - ٩٦١ : عبد الرحمن خليفة فى
قرطبة .
٩١٥ وما بعدها : الطبرى المؤرخ .
٩١٥ - ٩٦٥ : المتنبى الشاعر .

- ١١٤٨ - ١٢٤٨ : أسرة الموحدين في أسبانيا .
١١٦٢ - ١٢٢٧ : جنكيز خان .
١١٧٥ - ١٢٤٩ : الأسرة الأيوبية .
١١٧٩ - ١٢٢٠ : ياقوت الجغرافي .
١١٨١ وما بعدها : قصر أشبيلية .
١١٤٨ - ١٢٩١ : السعدي ، الشاعر .
١١٨٧ : صلاح الدين يهزم الصليبيين في حطين ويستول على بيت المقدس .
١١٨٨ : مجد النظمي الشاعر .
١٢٩٦ : برج الخردة في أشبيلية .
١٢٠١ - ١٢٧٣ : جلال الدين الرومي ، الشاعر .
١٢١١ - ١٢٨٢ : ابن خلكان كاتب السير .
١٢١٢ : المسيحيون يهزمون المسلمين في واقعة العقاب عند طليطلة .
١٢١٨ - ١٢٣٨ : الكامل ، سلطان مصر .
١٢١٩ : جنكيز خان يفتزو ما وراء جيحون .
١٢٤٥ : استيلاء المغول على بيت المقدس .
١٢٤٨ وما بعدها : قصر الحمراء .
١٢٥٠ - ١٥١٧ : حكم المماليك في مصر .
١٢٥٢ : انحصار ملك المسلمين بالأندلس في غرناطة .
١٢٥٨ : المغول يهبطون بغداد ويقضون على الخلافة العباسية .
١٢٦٠ : المماليك يصدون المغول في واقعة عين جالوت .
١٢٦٠ - ١٢٧٧ : بيبرس سلطان المماليك .
١٠٣٨ : الأتراك السلاجقة يفتزون بلاد الشام .
١٠٣٨ - ١١٢٣ : الشاعر عمر الخيام .
١٠٤٠ - ١٠٩٥ : المعتمد الأمير والشاعر .
١٠٥٨ : استيلاء السلاجقة على بغداد .
١٠٥٨ - ١١١١ : الإمام الغزالي .
١٠٥٩ - ١٠٦٣ : طغرل بك سلطان في بغداد .
١٠٦٠ : استيلاء السلاجقة على أرمينية .
١٠٦٣ - ١٠٧٢ : السلطان ألب أرسلان .
١٠٧١ : الأتراك يهزمون اليونان في ملازكرت .
١٠٧٢ - ١٠٩٢ : السلطان ملك شاه .
١٠٧٧ - ١٣٢٧ : سلطنة الروم في آسيا الصغرى .
١٠٨٨ وما بعدها : المسجد الجامع في إصفهان .
١٠٩٥ : قيام طائفة الحشاشين .
١٠٩٠ - ١١٤٧ : أسرة المرابطين في الأندلس .
١٠٩١ - ١١٦٢ : ابن زهر الطبيب .
١٠٩٨ : استيلاء الفاطميين على بيت المقدس .
١١٠٠ - ١٠٦٦ : الإدريسي الجغرافي .
١١٠٦ وما بعدها : مجسد ابن باجة الفيلسوف .
١١٠٧ - ٦١٨٥ : ابن طفيل الفيلسوف .
١١١٧ - ١١٥١ : سنجر سلطان السلاجقة .
١١٢٦ - ١١٩٨ : ابن رشد الفيلسوف .
١١٣٠ - ١٢٦٩ : أسرة الموحدين في مراکش .
١١٣٨ - ١١٩٣ : صلاح الدين الأيوبي

الباب الثامن

محمد (صلى الله عليه وسلم)

٥٧٠ - ٦٣٢

الفضل الأول

جزيرة العرب (*)

توفي جستنيان في عام ٥٦٥ وهو سيد إمبراطورية عظيمة ، وبعد خمس سنين من وفاته ولد محمد (صلعم) في أسرة فقيرة في إقليم ثلاثة أرباعه صحراء

(*) إن إعادة كشف بلاد العرب على يد الأوربيين في العصر الحديث لمن أكبر الأدلة على سعة أفق العلماء في القرن التاسع عشر وعلى أن العلم كان في ذلك القرن يمد العالم كله وطناً له . وقد بدأ هذا الكشف في أعوام ١٧٦١ - ١٧٦٤ حين اخترق كارستن ناييهر Carsten Niebuhr شبه الجزيرة برعاية حكومة الدنمركة . وكان كتابه الذي نشره في عام ١٧٧٢ أوسع وصف لبلاد العرب حتى ذلك الوقت . وفي عام ١٨٠٧ تزى دمنجو باديا أى ليبلتس Dominge Badis Y. Leblisch الأسباني بزى المغاربة وزار مكة ثم نشر بعد رجوعه أول وصف دقيق لمناسك الحج . وفي عام ١٨١٤ - ١٨١٥ قضى جوهان لدفج بيركهاردت John Ludwig Burckhardt ، وهو رجل سويسرى تزى بزى المسلمين ، عدة أشهر في مكة والمدينة وقد أيد الرحالة اللذين وفدوا على جزيرة العرب من بعده ما جاء في تقاريره الوافية من معلومات كثيرة . وفي عام ١٨٥٣ زار مكة والمدينة الرحالة رتشرد بيرتن Richard Burton وهو رجل إنجليزي تزى بزى حاج أفغانى ، ثم وصف رحلته الشاقة الخطرة في مجلدين بيمين .

وفي عام ١٨٦٩ - ١٨٧٠ ارتاد ج . هليفيسى J. Holvey ، وهو يهودى فرنسى ، مواضع ممالك الميعنيين وسبأ والحميريين الأقدمين ونقل ما وجده في تلك المواضع من نقوش على الصخور .

وفي عام ١٨٧٥ سافر تشارلس منتجيرو دوتن Charles Montague Doughton الإنجليزي من دمشق مع قافلة الحججاج ونشر ما وقع له في كتابه بلاد العرب الصحراوية . =

مجديّة قليلة السكان ، أهله من قبائل البدو الرحل ، إذا جمعت ثروتهم كلها فإنها لا تكاد تكفي لإنشاء كنيسة أياصوفيا . ولم يكن أحد في ذلك الوقت يحلم أنه لن يمضي قرن من الزمان حتى يكون أولئك البدو قد فتحوا نصف أملاك الدولة البيزنطية في آسية ، وجميع بلاد الفرس ، ومصر ، ومعظم شمالي أفريقية ، وساروا في طريقهم إلى أسبانيا . والحق أن ذلك الحادث الجلل الذي تمخضت عنه جزيرة العرب ، والذي أعقبه استيلاؤها على نصف عالم البحر المتوسط ونشر دينها الحديد في ربوعه ، لهو أعجب الظواهر الاجتماعية في العصور الوسطى .

وبلاد العرب أكبر أشباه الجزائر في العالم ، يبلغ أكبر أطوالها ١٤٠٠ ميل وأكبر عرضها ١٢٥٠ ميلا ، وهي من الوجهة الجيولوجية امتداد للصحراء الكبرى ، وجزء من الإقليم الصحراوي الرمل الذي يمتد إلى صحراء جوبي محترقا بلاد الفرس : ومعنى « عرب » قحل (*) . وبلاد العرب هضبة واسعة ترتفع على مسافة ثلاثين ميلا من البحر الأحمر ارتفاعا فجائيا إلى ١٢٠٠٠ قدم ، ثم تنحدر نحو الشرق انحدارا سهلا في أرض جبلية جدباء حتى تصل إلى الخليج الفارسي . وفي وسط الجزيرة عدد من الواحات الكئيبة ، والقري ذات النخيل ، نشأت حيث يمكن الحصول على الماء بجفر الآبار . وتمتد الرمال حول هذه المراكز مئات الأميال في جميع الجهات . ويسقط الثلج في تلك البلاد مرة كل أربعين عاما ، وتنخفض درجة الحرارة فيها بالليل إلى ٣° ، أما شمس النهار فتلغح الوجوه وتغلي الدم في الغروق ، والهواء المحمل بالرمال يضطر الأهلين إلى لبس الأثواب الطوال ،

- Arabia Deserta (١٨٨٨) التي يعد من زوائج النثر الإنجليزي م
وفيما بين ١٨٨٢ - ١٨٨٨ قام ا. جلازر E. Glaser النمساوي بثلاث رحلات شاقة
خطرة في قلب الجزيرة نقل في خلالها ١٠٣٢ نقشا هي الآن أهم مصدر لتاريخ بلاد العرب
قبل الاسلام .
(*) ورد في القاموس المحيط : تعرب أقام بالبادية ولعل المؤلف أخذ من هذا قوله
- إن حرب مغناه قحل (المترجم) .

وشد غطاء الرأس بالعقال لوقاية الجسم والشعر ٥ وتكاد السماء تكون على الدوام صافية خالية من الغيوم ، والهواء « يشبه النيذ البراق » ٥ ويسقط المطر أحيانا قرب شاطئ البحر فيجعله صالحا لقيام الحضارة ، وأكثر ما يكون ذلك على الساحل الغربي في بلاد الحجاز حيث نشأت بلدتا مكة والمدينة ، وفي الطرف الجنوبي الغربي من بلاد اليمن موطن الممالك العربية القديمة .

ويسجل نقش بابلي (يرجع تاريخه إلى حوالي عام ٢٤٠٠ ق م) ٥ هزيمة لحقت بملك ماجان(*) على يد نارام سن الحاكم البابلي . وقد كانت ماجان هذه عاصمة المملكة المعينية التي كانت قائمة في الجنوب الغربي من جزيرة العرب . وقد عرف خمسة وعشرون من ملوكها الذين حكموا بعد هذه الهزيمة من نقوش عربية يرجع تاريخها إلى عام ٨٠٠ ق م . وثمة نقش آخر يرجعه بعضهم إلى ٢٣٠٠ ق م وإن كانوا غير واثقين من هذا . وقد ورد في هذا النقش اسم مملكة عربية أخرى هي مملكة سبأ في بلاد اليمن . ومن سبأ أو من مستعمراتها في القسم الشمالي من بلاد العرب - لأن هذا موضع خلاف بين المؤرخين - « ذهب » ملكة سبأ إلى سليمان حوالي عام ٩٥٠ ق م . وقد اتخذ ملوك سبأ مأرب عاصمة لهم ، وخاضوا حروب « الدفاع » المعتادة ، وأنشأوا أعمالا عظيمة للرى كسدود مأرب (التي لاتزال آثارها باقية إلى الآن) ، وشادوا الحصون والهياكل الضخمة ، ووهبوا كثيراً من المال للشئون الدينية . واتخذوا الدين وسيلة للحكم^(٢) . والنقوش التي خلفوها - والتي لا ترجع في أغلب الظن إلى ما قبل عام ٩٠٠ ق م - منحوتة نحتاً جميلاً بجروف هجائية . وكانت بلادهم تنتج الكندر والمر اللذين كان لهما شأن أيما شأن في الشعائر الدينية الآسيوية والمصرية ، وكانوا يسيطرون على التجارة البحرية بين الهند ومصر ، وعلى الطرف الجنوبي

(*) لعل ماجان التي وردت في النقوش البابلية هي بعينها معين التي تنتسب إلى المملكة المعينية والتي اشتقت منها كلمتا معان اسم البلد ومعين بمعنى ينبوع . (المترجم) .

من طريق القوافل الذهب إلى البتراء وبيت المقدس مارا بمكة والمدينة .
وحدث حولي عام ١١٥ ق . م أن قامت مملكة صغيرة أخرى في الجنوب .
الغربي من بلاد العرب هي مملكة الحميريين ، فهاجت مملكة سبأ ، وغلبتها على
أمرها ، وظلت بعد هذا الوقت تسيطر على تجارة بلاد العرب عدة قرون ،
وفي عام ٢٥ ق . م غضب أغسطس من سيطرة بلاد العرب على التجارة
المبادلة بين مصر والهند فسير جيشا بقيادة جالوس Aelius Gallus للاستيلاء
على مأرب . وأضل الأدلاء العرب الفيالق الرومانية ، وأهلكهم الحر والمرض ،
وعجزت الحملة عن تحقيق غرضها ، ولكن جيشا رومانيا آخر نجح في الاستيلاء
على عدن ، وانتقلت بذلك السيطرة على التجارة بين مصر والهند إلى يد رومة .
(وقد فعل البريطانيون ذلك بعينه في الوقت الحاضر) .

وفي القرن الثاني قبل الميلاد عبر بعض الحميريين البحر الأحمر .
واستعمروا بلاد الحبشة ، ونشروا الثقافة السامية بين أهلها الزنوج ، كما
أدخلوا فيها كثيرا من الدم السامي (*) . وتلقى الأحباش من مصر وبيزنطية اللدين
المسيحي والصناعات اليدوية والفنون . وكانت سفنهم التجارية تجوب البحار
وتوغل فيها حتى تصل إلى الهند وسرنديب (٢) . وكانت سبع ممالك صغيرة
تقر بالسيادة للنجاشي (***) .

(*) يطلق اسم الساميين على الشعوب التي تنسب إلى سام بن نوح ما هو وارد في سفر
التكوين (١٠ : ١) . وليس في استطاعتنا أن نقول بالدقة ما هي هذه الشعوب السامية ،
ولكننا نستطيع أن نقول بوجه عام إن سكان سوريا ، وفلسطين وأرض البحرين ، وبلاد
العرب ، والسكان العرب في أفريقية ساميون ، إذا فهمنا من هذا اللفظ أنهم يتكلمون لغات
سامية . كما نستطيع أن نسمي السكان الأقدمين في آسية الصغرى وأرمينية ، وبلاد القفقاس :
وأهل فارس ، وشمالي الهند ، ومعظم أوروبا وجميع سكان أمريكا الذين من أصل أوربي
« هندوربيين » لأنهم يتكلمون لغات هندية جرمانية .

(**) جين Gibbon أضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها Decline and Fall
of the Roman Empire طبعة Everman's Library المجلد الرابع ص ٣٢٢ . ولقد كان من
مفاخر جين أنه أدرك ما للإسلام من شأن عظيم في تاريخ العصور الوسطى ، وأنه كتب تاريخه
السياسي كتابة تم عن علم غزير ، وكتبه بدقة وبلاغة منقطعي النظر .

هذا في الحبشة أما في بلاد العرب نفسها فإن كثيرين من الحميريين ساروا على سنة ملكهم ذى نواس ، واعتنقوا الدين اليهودى ، واندفع ذونواس في حماسه الدينية فأخذ يضطهد المسيحيين المقيمين في الجنوب الغربى من جزيرة العرب ، فاستغاث هؤلاء ببني دينهم ، واستجاب الأحباش إلى دعوتهم ، وهزموا ملوك الحميريين (٥٢٢ م) ، وأجلسوا على عرش البلاد أسرة حبشية . وتحالف جستنيان مع الدولة الجديدة ، ورد الفرس على هذا بأن انحازوا إلى جانب ملوك حمير المخلوعين وطردهوا الأحباش ، وأقاموا في بلاد اليمن حكماً فارسياً (٥٧٥) انتهى بعد ستين عاماً أو نحوها حين فتح المسلمون بلاد الفرس .

وازدهوت بعض الممالك العربية الصغرى في الجزء الشمال من شبه الجزيرة ، ولكنها لم تدم طويلاً . فقد ظل مشايخ بنى غسان يحكمون الجزء الشمال الغربى والقسم المحيط بتدمر من بلاد سوريا من القرن الثالث إلى القرن السابع تحت سيادة بيزنطية . وأنشأ ملوك بنى لخم في الحيرة القرية من بابل في هذا الوقت عينه بلاطاً نصف فارسى ، وثقفوا ثقافة فارسية اشتهرت بموسيقاها وشعرها . ويرى من هذا أن العرب انتشروا شمالاً في سوريا والعراق قبل الإسلام بزمن طويل .

وكان النظام السياسى السائد في بلاد العرب قبل الإسلام ، إذا استثنينا هذه الممالك الصغرى في الجنوب والشمال ، هو النظام البدائى الذى يقوم على رابطة القرابة والذى تجتمع الأسر بمقتضاه في عشائر وقبائل . بل إن هذه الممالك الصغرى نفسها لم تكن تخلو من قسط كبير من هذا النظام القبلى . وكانت القبيلة تسمى باسم أب لها مزعوم عام ، فالغساسنة مثلاً كانوا يعتقدون أنهم « أبناء غسان » ، ولم يكن لبلاد العرب بوصفها وحدة سياسية وجود قبل غضر النبى إلا فى مسميات اليونان غير الدقيقة ، فقد كانوا يسمون جميع الساكنين في شبه الجزيرة باسم السركنوى Sarakenoi ، ومن هذا الاسم اشتق اللفظ الإنجليزى Saracens ، ويلوح أنه هو

نفسه مشتق من لفظ « الشرقيين » العربى . وكانت قلة سبل الاتصال وصعوبتها مما اضطر أهل البلاد إلى أن يعملوا على الاكتفاء بأنفسهم عن غيرهم ، كما أنهما كانتا سبباً فى نمو روح العزلة فيهم ، فالعربى لم يكن يشعر بواجب أو ولاء لأية جماعة أكبر من القبيلة ، وكانت قوة ولائه تناسب تناسباً عكسياً مع سعة الجماعة التى يدين لها بهذا الولاء ، فلم يكن يتردد فى أن يقدم وهو مرتاح الضمير على ما لا يقدم عليه الرجل المتحضر إلا من أجل بلاده أو دينه أو « عنصره » ، أى أن يكذب ، ويسرق ، ويقتل ، ويموت . وكان يحكم كل قبيلة أو بطن من قبيلة شيخ يختاره رؤساء العشائر فيها من بيت اشتهر من زمن بعيد بثرائه ، أو سداد رأيه ، أو شدة بأسه فى القتال .

وكان الرجال فى القرى ينتزعون بعض الحب والخضر من التربة الضئيلة ، ويربون بعض الماشية القليلة العدد ، وبعض الحياض الكريمة ، ولكنهم كانوا يجدون أن زراعة بساتين النخل ، والخوخ ، والمشمش ، والرمان ، والليمون ، والبرتقال ، والموز ، والتين أجدى لهم وأعود بالربح عليهم . ومنهم من كان يعنى بزراعة النباتات العطرية كالكندر ، والسعر ، والياسمين ، والخزامى ؛ وكان بعضهم يستخرجون العطر من ورد الجبال ، وبعضهم يحفرون سيقان الأشجار ليستخرجوا منها المر أو البلسم . وربما كان جزء من اثنى عشر جزءاً من السكان يعيشون فى المدن القائمة على الساحل الغربى أو بالقرب منه . وكان فى هذا الساحل عدد من المرافئ والأسواق تتبادل منها تجارة البحر الأحمر . وفى داخل البلاد كانت تسير طرق القوافل الكبرى إلى بلاد الشام .

ونحن نسمع عن تجارة بين بلاد العرب ومصر منذ عام ٢٧٤٣ ق.م.؛ وأكبر الظن أن الاتجار مع الهند لم يكن يقل قدماً عن الاتجار مع مصر . وكانت الأسواق والمواسم السنوية تستدعى التجار إلى هذه المدينة تارة وإلى تلك تارة أخرى ، وكان

يجتمع في سوق عكاظ الشهيرة القريبة من مكة مئات من التجار ، والممثلين ، والخطباء ، والمقامرين ، والشعراء ، والعاهرات .

وكان خمسة أسداس السكان بدواً رحلاً ، يشتغلون بالرعى وينتقلون بقطعاتهم من مرعى إلى مرعى حسب فصول السنة وأمطار الشتاء . والبدوى يحب الخيل ، ولكن الحمل أعز أصدقائه في الصحراء ، فهو يسير ويهتز في وقار ، وإن كان لا يقطع إلا ثمانية أميال في الساعة ، ولكنه يستطيع أن يصبر على الماء خمسة أيام طوال في الصيف ، وخمسة وعشرين يوماً في الشتاء . والناقة تدر اللبن ، وبول الحمل مفيد في تقوية الشعر (*) ، وروثه يمكن أن يتخذ وقوداً ، وإذا ذبح أكل لحمه ، وصنعت الثياب والخيام من جلده ووبره . وبهذه المقومات المختلفة الأنواع كان في وسع البدوى أن يواجه حياة الصحراء متجلداً كجمله ، مرهف الحس نشيطاً كجواده . والبدوى قصير القامة ، نحيف الجسم ، مفتول العضلات ، قوى البنية ، في وسعه أن يعيش أياماً متوالية على قليل من التمر واللبن ، وكان يستخرج من البلح نفسه خمرًا يرتفع بها من تراب الأرض إلى خيال الشعراء . وكان يدفع عن نفسه ملل الحياة الرتيبة وسآمتها بالحلب والحرب ، وكان يسرع كما يسرع الأسباني (الذي ورث عنه سرعة غضبه) إلى الانتقام لما عساه أن يوجه إليه أو إلى قبيلته من إهانة أو أذى . وكان يقضي جزءاً كبيراً من حياته في الحرب التي تستمر ناراها بين القبائل المختلفة ، ولما أن فتح بلاد الشام ، وفارس ، ومصر ، وأسبانيا لم يكن عمله هذا إلا توسعاً منه في غارات النهب التي كان يشنها في أيام الجاهلية وإن اختلف الغرض في هذه عن تلك .

وكان يجعل من بعض أوقات السنة هدنة مقدسة للحج أو للتجارة ، أما في غير هذه الأوقات فكان يرى أن الصحراء ملكه الخاص ، وأن كل من

(*) يقول دوق Doughty إن نساء البدو « يغسلن أطفالهن ببول الجمال » ظناً منهن أن ذلك يبعد عنهن الحشرات . . . ويمشط الرجال والنساء شعرهم الطويل بهذا الماء .

يدخلها في غير هذه الأشهر الحرم ومن غير أن يؤدي له ما يفرضه من إتاوة ، معتد عليه وعلى وطنه ، وأن نهب أموال هذا المعتدى ليس إلا ضريبة تجبي منه بأهون السبل . وكان يحترق حياة الحضر ، لأن معناها الخضوع لمطالب القانون والتجارة ، ويجب الصحراء القاسية لأنه يتمتع فيها بكامل حرية ، وكان البدوي رحياً وسفاكاً للدماء ، كريماً وبخيلاً ، غادراً وأمينا ، حذراً وشجاعاً ، ومهما يكن فقراً ، فإنه كان يواجه العالم بمهابة وأنفة ، يزهو ببقاء دمه ويولع بأن يضيف إلى اسمه سلسلة نسبه .

وكان لدى البدوي أمر لا يقبل فيه جدلاً ، ذلك هو جمال نسائه الذي لا يدانيه في نظره جمال . لقد كان جمالاً أسمر ، قويا ، يفتن اللب ، خليقاً بأن يتفزل فيه بعشرات المئات من الأغاني الشعرية ، ولكنه جمال قصير الأجل سرعان ما يذوى في جو الصحراء القائظ . وكانت حياة المرأة العربية قبل أيام النبي تنتقل من حب الرجل لها حباً يقرب من العبادة إلى الكدح طوال ما بقي من حياتها ، ولم تتغير هذه الحياة فيما بعد إلا قليلاً(*) . وكان في وسع أبيها أن يثدها حين مولدها إذا رغب في هذا ، فإن لم يفعل فلا أقل من أن يحزن لمولدها ، ويوارى وجهه خجلاً من الناس ، لأنه يحس لسبب ما أن جهوده قد ذهبت أدراج الرياح ، وكانت طفولتها الجذابة تستحوذ على قلبه بضع سنين ، ولكنها حين تبلغ السنة السابعة أو الثامنة من عمرها كانت تزوج لأي شاب من شبان القبيلة يرضى والده أن يؤدي للعروس ثمنها(**) . وكان حينها وزوجها يحارب العالم كله إذا لزم الأمر ليحميها ، أو يدافع عن شرفها . وقد انتقلت بعض مبادئ هذه الشهامة المتطرفة مع

(*) سجد في فصول الكتاب الآتية ما يدل على أثر الإسلام في رفع منزلة المرأة إلى درجة لم تسم لإنها في كثير من البلدان ؛ وسيذكر المؤلف نفسه كثيراً من النساء اللاتي كان من أعظم شأن في الحياة العامة العملية والسياسية والاجتماعية . (المترجم) .

هو لاء العشاق المتيمين إلى إسبانيا . ولكن هذه المعبودة كانت إلى هذا سلعة من السلع ، فقد كانت جزءاً من أملاك أبيها ، أو زوجها ، أو ابنا ، تورث مع هذه الأملاك ، وكانت على الدوام من خدم الرجل ، وقلما كانت رفيقته . وكان يطلب إليها أن تلده له كثيراً من الأبناء ، الأبناء الذكور بطبيعة الحال ، لأن واجبها أن تنجب المحاربين ، ولم تكن في كثير من الأحوال إلا زوجة واحدة من كثيرات من الزوجات وكان في وسع الرجل أن يخرجها من بيته متى شاء .

لكن مفاتها لم تكن تقل عن الحرب إلهاماً لخيال الشعراء ، وموضوعاً لشعرهم ، وكان العربي قبل الإسلام أمياً ولكن حبه للشعر لم يكن يزيد عليه إلا حبه للخيال والنساء والخمر . ولم يكن بين العرب في الجاهلية علماء أو مؤرخون(*) ولكنهم كانوا مولعين بفصاحة اللسان ، وصحة الكلام ، والشعر المختلف المعقد الأوزان . وكانت اللغة العربية قريبة الشبه باللغة العبرية ، معقدة في تصريفها ، غنية بمفرداتها ، دقيقة في الفروق بين ألفاظها ، قادرة في ذلك الوقت على التعبير عن جميع أحاسيس الشعراء وفيما بعده عن جميع دقائق الفلسفة . وكان العرب يفخرون بقدم لغتهم وكما لها ، يولعون بتريد مقاطعها العذبة في خطبهم الرنانة وشعرهم الجدل ونثرهم الرصين ، يأخذ بلبهم شعر الشعراء الذين كانوا يعيدون على أسماعهم في القرى والمدن ، وفي مخيمات الصحراء أو الأسواق ، مغامرات أبطالهم أو قبائلهم أو ملوكهم في الحُب أو الحرب في قصائد طوال من الشعر الموزون المقفى . وكان الشاعر العربي مؤرخ العرب ، وجامع أنسابهم ، وهجاءهم ، والمتغنى بفضائلهم ، وناقل أخبارهم ، وملهمهم ، وداعهم إلى القتال . وإذا ناز الشاعر جائزة في إحدى المباريات الشعرية الكثيرة التي كانت تعقد من آن إلى

(*) من الحق أن العرب في جاهليتهم لم ينووا بالعلوم كما عني بها غيرهم من الأمم كأهل مصر والهند والفرس واليونان ، ولكن كان منهم من عني ببناء من العلوم الضرورية كالطب المبنى على التجربة وأحوال الكواكب والنجوم . (ي)

آن ، كانت قبيلته كلها تعد ذلك شرفاً لها تبهج له أعظم ابتهاج . وكانت أهم هذه المباريات كلها تعقد كل عام في سوق عكاظ ، حيث كانت تنافس القبائل في كل يوم تقريباً مدى شهر كامل على لسان شعرائها . ولم يكن في السوق محكمون غير الجماهير المنصتة التي تبدى استحسانها لما تسمع أو احتقارها له (*) . وكانت أحسن القصائد التي تقال في هذه السوق تكتب بحروف جميلة براقة فسميت من أجل ذلك « بالمذهبات » ، وكان يحتفظ بها في خزائن الأمراء والملوك تراثاً خالداً قياً . وكان العرب يسمون هذه القصائد أيضاً بالمعلقات لأن الفائزة منها - كما تقول القصص المتواترة - قد كتبت على الحرير المصرى بأحرف من الذهب وعلقت على جدران الكعبة في مكة .

وقد بقيت من هذه المعلقات التي قيلت في الجاهلية سبع قصائد يرجع تاريخها إلى القرن السادس الميلادي ، وهي قصائد طوال من الشعر المقتضب المعقد الأوزان ، وموضوعها في العادة هو الحب أو الحرب . وتقص إحداها وهي معلقة ليبد قصة جندي عاد من الحرب إلى قريته وبيته حيث كان قد ترك زوجته ، فوجد بيته خالياً ، وقد غادرت زوجته مع رجل غيره ، ويصف ليبد منظر هذا البيت الخيالي بحنان لا يقل عن حنان جولدميث (*) . ويزيد عليه في فصاحة الشعر وقوة التعبير . وفي معلقة أخرى تستحث النساء الرجال إلى الحرب بقولهن :

ويها بنى عبد الدار . ويها حماسة الديار

ضرباً بكل بتار

نحن بنات طارق لا نثنى لواءه

(*) كانت هناك سوقان غير سوق عكاظ ، وهما سوقا حجة وذو الحجاز وكان فيها أحياناً محكمون من ذوى المكانة . (المترجم)
(***) آثرنا أن نبق هذا التمييز كما هو ، وإن كان لا يقرب للمعنى القارئ العرب ، لما فيه من مفاضلة بين شاعرين من أمتين مختلفتين وهي في رأينا مفاضلة فيها كثير من الفائدة . (المترجم)

تمشى على النمارق المسك في المفارق
والدر في المخائق إن تقبلوا نعانق
ونفرش النمارق أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق(*)

وفي معلقة لامرئ القيس أبيات ثم عن حب شهواني سافر :

ويبضة خدر لا يرام خباؤها	تمتعت من لوبها غير معجل
تجاوزت أحراساً إليها ومعشرا	على حراساً لو يسرون مقتلي
إذا ما الثريا في السماء تعرضت	تعرض أثناء الوشاح المفصل
فجئت وقد نضت أنوم ثيابها	لدى السر إلا لبسة المتفضل
فقالن يمين الله مالك حيلة	وما أن أرى عنك الغواية تنجلي
خرجت بها أمشى تجر وراءنا	على أثرينا ذيل مرط مرحل
فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى	بنا بطن نخت ذى حقاف عقنقل
هصرت بفودى رأسها فتأملت	على هضم الكشح ريباً المخلخل
مهفهفة بيضاء غير مفاضة	تراثها مصقولة كالسجنجل
تصد وتبدي عن أسيل وتتي	بناظرة من وحش وجرة مطفل
وجيد كجيد الرثم ليس بفاحش	إذا هى نضته ولا بمعطل
وفرع يزين المتن أسود فاحم	أثيث كقنؤ النخلة المتعشکل
غدائره مستشزرات إلى العلا	تضل العقاص فى مثنى ومرسل
وكشح لطيف كالجديل محصر	وساق كأنبوب السقى المذل
وتضحى فتيت المسك فوق فراشها	نووم الضحى لم تنطق عن تفضل
وتعطو برخص غير شئن كأنه	أساربع ظبي أو مساويك أسحل
تضىء الظلام بالعشاء كأنها	منارة ممس راهب مثبتل

(*) لا حاجة إلى القول بأن هذا الرجز ليس المعلقات ؛ وقد أنشدته هند بنت عتبة

تعرض قومها على القتال في يوم أحد . (الترجم)

وكان شعراء الجاهلية ينشدون أشعارهم على نغمات الموسيقى ، فجمعوا بذلك بين الشعر والموسيقى في صورة واحدة . وكان الناي ، والمزهر ، والدف أحب الآلات الموسيقية لإلهم ، وكثيرا ما كانت الفتيات المغنيات يستدعين لتسليّة الأضياف في الولائم ، وكان في مجال الشراب عدد منهن ، وكان عند ملوك الغساسنة عدد كبير من الفتيات ليفرجن عنهن متاعب الملك ، ولما خرج أهل مكة لقتال النبي في عام ٦٢٤ أخذوا معهم سرّيا من القيان ليسلّينهم ويشجعنهم على القتال ، وكانت الأغاني العربية حتى في أيام الجاهلية أناشيد مشجّية حزينة ، لا تستخدم فيها إلا ألفاظ قليلة نغمتها على الدوام في الدرجات العليا من السلم الموسيقي ، وتكفي فيها أبيات قليلة لتشغل المغنى ساعة كاملة .

وكان للعربي ساكن الصحراء دينه الدال على حذقه ودهائه رغم بدائيته ، فكان يهاب ويعبد أربابا لا حصر لها في النجوم ، والقمر ، وفي أطباق الأرض ، وكان من حين إلى حين يطلب الرحمة من السماء المنتقمة ، ولكنه لم يكن في الغالب يستعين بسبل الرشاد بين الجحش المحيطين به ، ولا يرى أملا في استرضائهم ، فغلبت عليه من أجل ذلك نزعة الجبرية والاستسلام ، فإذا دعاهم دعاهم في رجولة ولم يطل الدعاء ، ويستهزئ بالأبدية ولا يعبا بها ، ويبدو أنه لم يكن يفكر كثيرا في الحياة بعد الموت ، على أنه كان في بعض الأحيان يطلب أن يربط جملة بجوار قبره ، وأن يمنع عنه الطعام حتى يلحق به بعد قليل في الدار الآخرة ، وينجيه من مذلة السير على قدميه في الجنة ، وكان بين الفينة والفينة يقدم لآلهته الضحايا البشرية ، كما كان في بعض الأماكن يعبد الأصنام الحجرية .

وكانت مكة مركز عبادة الأصنام ، ولم يكن سبب قيام هذه المدينة المقدسة في موضعها الذي قامت فيه هو جودة مناخها ، ذلك أن الجبال الجرداء التي تكاد تطبق عليها من جميع الجهات تجعل صيفها حارا لا يطاق . وكان الوادي الذي تقوم

فيه غير ذى زرع ، ولا يكاد يوجد في البلدة كلها كما عرفها محمد حديقة واحدة ، ولكن موقعها في منتصف ساحل البلاد الغربي ، وعلى بعد ثمانية وأربعين ميلا من البحر الأحمر ، جعلها محطة صالحة في طرق القوافل الطوال التي تجمع في بعض الأحيان ألف جمل بعضها وراء بعض ، والتي كانت تحمل المتاجر بين جنوبي بلاد العرب (ومن ثم بين الهند وأفريقية الوسطى) وبين مصر ، وفلسطين ، وبلاد الشام . وكان التجار أصحاب هذه التجارة يؤلفون فيما بينهم شركات محاصة ، ويسيطرون على أسواق عكاظ ، ويقومون بالشعائر الدينية الحزبية حول الكعبة وحجرتها الأسود المقدسة .

ومعنى الكعبة البيت المربع . واللفظ ذو صلة باللفظ الإنجليزي Cube (مكعب) (*) ومن المعتقدات الشائعة أن الكعبة بنيت ثم أعيد بناؤها عشر مرات ، فقد بناها في فجر التاريخ ملائكة السماء ، وبناها في المرة الثانية آدم أبو البشر ، وفي المرة الثالثة ابنه شيث ، ثم بناها في المرة الرابعة إبراهيم وإسماعيل ابنه من هاجر وبناها في المرة السابعة قصي زعيم قبيلة قريش ، وبناها في المرة الثامنة كبار قريش في حياة محمد (٦٠٥) ، وبناها * المرتين التاسعة والعاشره زعماء المسلمين عامي ٦٨١ و ٦٩٦ . والكعبة كما بنيت في المرة العاشرة هي كعبة هذه الأيام في معظم أجزائها . وهي متامة في داخل بناء واسع هو المسجد الحرام . وهي بناء مربع من الحجر طولها أربعون قدما ، وعرضها خمس وثلاثون ، وارتفاعها خمسون ، وفي ركنها الجنوبي الشرقي ، وعلى بعد خمس أقدام من سطح الأرض ، الحجر الأسود ، وهو حجر قائم اللون بيضى الشكل قطره سبع بوصات . ويعتقد الكثيرون أن هذا الحجر قد نزل من السماء - ولعله كان صاعقة ؛ ويقول معظمهم

(*) في المحيط الكعبة البيت الحرام زاده الله تشریفاً وكل بيت مربع . (المترجم)

إنه وجد بالكعبة من أيام إبراهيم ، ويرى علماء المسلمين أنه رمز لذلك الفرع من أبناء إبراهيم فرع إسماعيل وأبنائه الذى نبذه بنو إسرائيل فكان منه آباء قبيلة قريش : ويؤيدون قولهم هذا بما جاء فى المزمور الثامن عشر بعد المائة فى الآيتين ٢٢ و ٢٣ « الحجر الذى رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية » ، وفى الآيتين ٤٢ و ٤٣ من الإصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى ، وهو قول عيسى بعد أن نطق بهذه العبارة العجيبة : « لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره » وإن لم يكن فى وسع المسلمين أن يقولوا إنهم قد حققوا ما قاله عنهم المسيح (*).

وكان فى الكعبة قبل الإسلام عدد من الأصنام تمثل معبودات العرب . منها اللات ، والعزى ، ومناة . وفى وسعنا أن ندرك قدم عهد هذه الآلهة العربية إذا عرفنا أن هيرودوت قد ذكر الإلات (اللات) على أنها من أكبر أرباب العرب . وكانوا يقولون لأهل مكة إن إلههم الأكبر رب أرضهم ، وإن عليهم أن يؤدوا لها عشر محاصيلهم ، والثمرة الأولى من نتاج قطعائهم . وكانت قريش ، وهى التى تعزو نسبها إلى إبراهيم وإسماعيل ، تختار من بين رجالها سدنة الكعبة وخدامها والمشرفين على مواردها المالية : وكانت أقلية أرسقراطية منهم هم بنو قصى يتولون زمام الحكومة المدنية فى مكة .

وكانت قريش فى بداية القرن السادس منقسمة إلى فئتين متنافستين ، إحداهما يتزعمها التاجر الثرى الخبير هاشم ، والأخرى يتزعمها ابن أخيه أمية .

(*) إن كان المؤلف يقصد ما جاء به المسيح من التسامح والرحمة فإن التاريخ لا يعرف كالمسلمين فى تراجمهم ودعوتهم للسلام والمحبة . والقرآن ووصايا الرسول والخلفاء أكبر شاهد على هذا ، ولكن التسامح والرحمة والدعوة إلى السلام والمحبة فى الدين الإسلامى مزوجة كلها بالقوة وعزة النفس . (المترجم)

وكان لهذا التنافس الشديد شأنه العظيم في تاريخ العرب بعد الرسالة : ولما توفي هاشم خلفه في زعامة بيته ابنه أو أخوه الأصغر عبد المطلب - وفي عام ٥٦٨ تزوج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة ، وهي أيضاً من قصي ، وأقام عبد الله مع عروسه أياماً قليلة سافر بعدها في بعثة تجارية ، ومات في المدينة وهو راجع من سفره وبعد شهرين من وفاته (٥٦٩) ولدت آمنة أعظم شخصية في تاريخ العصور الوسطى (*) .

(*) وفي التاريخ كله .

الفصل الثاني

محمد في مكة

٥٦٩ - ٦٢٢

[نكرر هنا ما ذكرناه في مقدمة هذا الجزء من أننا آثرنا أن نثبت هذه الفصول التي يتحدث فيها المؤلف عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن القرآن والدين الإسلامى كما أوردتها حرصاً منا على الأمانة في الترجمة من جهة ولكي يطلع قراء العربية على بعض آراء الكتاب غير المسلمين من جهة أخرى سواء كانت هذه الآراء مما يتفق مع ما أجمع عليه أولئك القراء أولاً يتفق معه . يضاف إلى ذلك أن هذه الفصول لا تخلو من كثير من الثناء على النبي وتمجيد للإسلام يصحح أن يطلع عليه القراء . على أن إثباتنا لأقوال المؤاف لا يعنى مطلقاً أننا نوافقها عليها . وقد ذكر وهو مسيحي في كلامه على المسيحية ما لا يوافق عليه كثيرون من أبنائها كما ذكر عن اليهودية ما لا يوافق عليه كثيرون من اليهود ، ويجب ألا يغفل القراء التعليقات التي أثبتناها في هوامش هذه الفصول] .

لقد كان محمد من أسرة كريمة ممتازة ، ولكنه لم يرث منها إلا ثروة متواضعة ، فقد ترك له عبد الله خمسة من الإبل ، وقطيعاً من المعز ، وبيتاً ، وأمة عنيت بتربيته في طفولته . ولفظ محمد مشتق من الحمد وهو مبالغة فيه ، كأنه حمد مرة بعد مرة ، ويمكن أن تنطبق عليه بعض فقرات في التوراة تبشر به . وقد توفيت أمه وهو في السادسة من عمره وكفله أولاً جده وكان وقتئذ في السادسة والسبعين من عمره ثم عمه أبو طالب ولقى منهما كثيراً من الحب والرعاية ، ولكن يبدو أن أحداً لم يعن بتعليمه القراءة والكتابة . ولم تكن لهذه الميزة قيمة عند العرب في ذلك الوقت ، ولهذا لم يكن في قبيلة قريش كلها إلا سبعة عشر يقرعون ويكتبون . ولم يعرف عن محمد أنه كتب شيئاً بنفسه ، وكان بعد الرسالة يستخدم كاتباً خاصاً له ولكن هذا لم يحل بينه وبين الهجاء بأشهر(*) وأبلغ كتاب

(*) هذا رأى المؤلف بطبيعة الحال وليس من حقنا أن نطلب إليه أن يقول إنه منزل من عند الله . (المترجم)

في اللغة العربية ، أو بين قدرته على تعرف شئون الناس تعرفا قلما يصل إليه أرقى الناس تعليماً .

ولانكاد نعرف عن شباب محمد إلا القليل ، وكان ما يروى عنه من القصص قد ملأ عشرة آلاف مجلد . وتقول إحدى الروايات إن عمه أبا طالب قد أخذه معه وهو في الثانية عشرة من عمره في قافلة إلى بصرى ببلاد الشام ، وليس ببعيد أن يكون قد عرف في هذه الرحلة قليلا من القصص الشعبية اليهودية والمسيحية . وتصوره قصة أخرى بعد بضعة سنين من الرحلة السابقة مسافراً إلى بصرى في تجارة إلى السيدة خديجة وكانت وقتئذ أرملة غنية ، ثم نراه في الخامسة والعشرين من عمره وقد تزوج فجأة بهذه السيدة وهي وقتئذ في الأربعين من عمرها وأم لعدة أبناء . ولم يتزوج غيرها حتى توفيت بعد ذلك بستة وعشرين عاماً ، ولم يكن الاقتصار على زوجة واحدة أمراً مألوفاً عند أغنياء العرب في ذلك الوقت ، ولكن لعله كان طبيعياً في حالتهما . وقد رزق منها عدة بنات أشهرهن كلهن فاطمة ، كما رزق بولدين توفيا في طفولتهما . وقد وجد سلواه في تبنى (*) على بن أبي طالب الذي مات عنه والده . وكانت خديجة سيدة طيبة ، وزوجة صالحة ، وتاجرة بارعة ظلت وفية لمحمد في صروف حياته الروحية ، وظل يذكرها بعد وفاتها على أنها خير نساته كلهن .

ويصف على زوج فاطمة محمداً وهو في سن الخامسة والأربعين بقوله :

لم يكن الطويل الممغط ولا القصير المتردد ، وكان ربعة من القوم ، ولم يكن بالجدد القطط ولا السبط ، كان جعداً رجلاً ، ولم يكن بالمطهم ولا المكائم ، وكان أبيض مشرباً أدهج العينين أهدب الأشفار ، جليل المشاش والكتد ، دقيق

(*) لم يكن هذا تبنياً بالمعنى المعروف عند الغربيين ولكن الرسول آوى علياً وكفله في تربيته تخفيفاً عن أبيه في الأزمة الشديدة التي أصابت قريشا - راجع سيرة ابن هشام .
(المترجم)

المشربة ، أجود شثن الكفين والقدمين ، إذا مشى تعلق كأنما يمشى في صيب ، وإذا التفت التفت معا ، . . . أجود الناس كفاً وأجراً الناس صدرأ ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من آره بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه ، يقول ناعته « لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم » .

وكان محمد مهيب الطلعة ، لا يضحك إلا قليلا ، قادرا على الفكاهة ولكنه لا يترك العنان لهذه الموهبة ، لأنه كان يعرف خطورة المزاح إذا نطق به من يتولى أمور الناس . ولم يكن قوى البنية ، ولهذا كان مرهف الحس سريع التأثر ، ميالا إلى الانقباض كثير التفكير . كان إذا غضب أو تهيج انتفخت عروق وجهه بدرجة يرتاع لها من حوله(*) ، ولكنه كان يعرف متى يهدئ من انفعاله ، وكان في وسعه أن يعفو من فوره عن عدوه الأعزل إذا تاب .

وكان في بلاد العرب كثيرون من المسيحيين ، وكان منهم عدد قليل في مكة ، وكان محمد على صلة وثيقة بواحد منهم على الأقل هو ورقة بن نوفل ابن عم خديجة الذي كان مطالعا على كتب اليهود والمسيحيين المقلسة . وكثيرا ما كان محمد يزور المدينة التي مات فيها والده ، ولعله قد التقى هناك ببعض اليهود وكانوا كثيرين فيها . وتدل كثير من آيات القرآن على إعجابه بأخلاق المسيحيين ، وبما في دين اليهود من نزعة إلى التوحيد ، وبما عاد على المسيحية واليهودية من قوة كبيرة لأن لكلتاهما كتابا مقدسا تعتقد أنه موحى من عند الله . ولعله قد بدا له أن ما يسود جزيرة العرب من شرك ، ومن عبادة للأوثان ، ومن فساد خلقي ، ومن حروب بين القبائل وتفكك سياسي ، نقول لعله قد بدا له أن حال بلاد العرب إذا قورنت

(*) كان النبي يغضب أحيانا لله ولدينه ، ولكننا لا نعرف أنه كان يهيج لأن التهيج صفة لا تليق بمصلح فضلا عن رسول الله رب العالمين وخاصة والله يصنفه بأنه بالمؤمنين رموف رحيم ويقول عنه « وإنك لعلى خلق عظيم » و « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » . (ي)

بما تأمر به المسيحية واليهودية حال بدائية لا تشرف ساكنيها . ولهذا أحس بالحاجة إلى دين جديد ، لعله أحس بالحاجة إلى دين يولف بين هذه الجماعات المتباغضة المتعادية ، ويخلق منها أمة قوية سليمة ، دين يسمو بأخلاقهم عما ألفه البدو من شريعة العنف والانتقام ، ولكنه قائم على أوامر منزلة لا يتنازع فيها إنسان ، ولعل هذه الأفكار نفسها قد طافت بعقل غيره من الناس ، فنحن نسمع عن قيام عدد من « المتنبئين » في بلاد العرب في بداية القرن السابع ، ولقد تأثر كثير من العرب بعقيدة المسيح المنتظر التي يؤمن بها اليهود ، وكان هؤلاء أيضاً ينتظرون بفارغ الصبر مجيء رسول من عند الله .

وكانت في البلاد شيعة من العرب تدعى بالحنفية أبت أن تقر بالألوهية لأصنام الكعبة وقامت تنادى بإله واحد يجب أن يكون البشر جميعاً عبيداً له وأن يعبدوه راضين(*) .

وكان محمد ، كما كان كل داع ناجح في دعوته ، الناطق بلسان أهل زمانه والمعبر عن حاجاتهم وآمالهم .

وكان كلما قرب من سن الأربعين ازداد انهماكا في شئون الدين ، فإذا حل شهر رمضان(**) - وهو من الأشهر الحرم - آوى وحده أو جمع أسرته في بعض الأحيان إلى غار في جبل حراء على بعد ثلاثة أميال من مكة ، وقضى فيه عدة أيام وليالي في الصوم ، والتفكير ، والصلاة . وبينما هو في ذلك الكهف بمفرده في ليلة من ليالي عام ٦١٠ م : إذ حدث له ذلك الحادث العظيم وهو المحور الذي يدور

(*) يريد بهم ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرة ، وزيد ابن عمر بن نفيل ، وكانوا قد أيقنوا أن ما هم عليه من الوثنية ليس بشيء ففترقوا في البلاد يلتمسون الحنفية دين إبراهيم عليه السلام . (ى)

(**) التي في سيرة ابن هشام (ج ١ ص ١٥٣) أنه كان « يجاور في حراء من كل سنة شهرا » دون تعيين أنه شهر رمضان بالذات ، إلا أن هذا الشهر كان رمضان في السنة التي بعث فيها صلى الله عليه وسلم . (ى)

عليه تاريخ الإسلام كله . ويقول محمد بن إسحق اشهر من كتب سيرة النبي إنه هو نفسه قد وصف هذا الحادث الجليل بقوله « فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ ؟ ففتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أقرأ ؟ ففتنى حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قال فقلت : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي . ، فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى وهبت من نوى فكأنما كتب في قلبى كتابا ؛ قال فخرجت حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : « يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، قال فرفعت رأسى إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال فوقفتم أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه في آفاق السماء قال فلا أنظر من ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورأى حتى بعثت خديجة رسلها في طلبى (*) .

ولما عاد إلى خديجة حدثها بما رأى ، وتقول الرواية إنها آمنت بأن ما رآه وحى صادق من السماء ، وشجعتة على أن يعلن للناس رسالته .

وتكرر الوحي بعد ذلك مرات كثيرة ، وكثيراً ما كان يحدث في أثناء هذه الرؤى أن يسقط على الأرض ويرتجف أو يغشى عليه ، ويتصعب العرق من جبينه ، وحتى الحمل الذى كان يركبه كان يتأثر ويضطرب في مشيه . وقد قال محمد فيما بعد إن مشييه كان من أثر هذه التجارب ، ولما طلب إليه أن يصف كيفية نزول الوحي قال : إن القرآن كله محفوظ في السماء وأنه نزل عليه متقطعاً ، وكان ينزل عليه

(*) راجع ابن هشام (ج ١ ص ١٥٣ وما بعدها) حيث يروى الحادث كله .

(المترجم)

على لسان جبريل ، ولما سئل كيف يتذكر هذه الأقوال القدسية قال : إن جبريل كان يطلب إليه أن يكررها كلمة كلمة(*) . ولم يكن المحيطون بالنبي في هذه الأوقات يرون جبريل أو يسمعونه . وقد يكون ارتجافه ناشئاً من نوبات صرع فقد كان يصحبه في بعض الأحيان صوت وصفه بأنه يشبه صلصلة الجرس ، وتلك حال كثيراً ما تحدث مع هذه النوبات ، ولكننا لا نسمع أنه عنس في خلالها لسانه أو حدث ارتجاء في عضلاته كما يحدث عادة في نوبات الصرع . وليس في تاريخ محمد ما يدل على انخراط قوة العقل التي يؤدي إليها الصرع عادة ، بل نراه على العكس يزداد ذهنه صفاء ويزداد قدرة على التفكير وثقة بالنفس وقوة في الجسم والروح والزعامة ، كلما تقدمت به السن حتى بلغ الستين من العمر . وقصارى القول أننا لا نجد دليلاً قاطعاً على أن ما كان يحدث للنبي كان من قبيل الصرع . ومهما يكن ذلك الدليل فإنه لا يقنع أى مسلم متمسك بدينه(**) .

وأخذ محمد في خلال السنوات الأربع التالية يجهر شيئاً فشيئاً بأنه نبي الله

(*) في صحيح البخارى ومسلم ذكر لبدء الوحي إلى الرسول وبيان لكيفيته ، ويروى ابن عباس أن الرسول كان يعالج من التنزيل شدة ، وكان يحرك شفتيه ليتابع جبريل فأُنزل الله تعالى قوله « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » ، فكان الرسول بعد ذلك إذا أتاه جبريل بالوحي استمع له فإذا انتهى جبريل قرأه صلى الله عليه وسلم كما قرأه جبريل .

راجع التحديد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح للزيدي ، طبع دار الكتب العربية الكبرى بمصر سنة ١٣٣٥ هـ ، ج ١ ص ٤ - ٦ ، واللؤلؤ والمرجان فيهما اتفق عليه الشيخان محمد فؤاد عبد الباقي طبع دار إحياء الكتب العربية للحلبى بمصر سنة ١٩٤٩ م ، ج ١ ص ٣٥ - ٣٨ .

(**) لقد أصاب المؤلف إذ فند قول من يدعون أن النبي كان يصاب بنوبة من نوبات الصرع حين ينزل عليه الوحي ، وإنما الأمر أنه كان يكون في حالة إجهاد عقل وجسمي ، والله تعالى يقول في سورة الحشر « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله . (ي) »

المبعوث لهداية العزب إلى حياة أخلاقية جديدة وإلى دين التوحيد . وقد لاقى في سبيل دعوته صعاباً كثيرة . ذلك أن الأفكار الجديدة لا يقبلها الناس إلا إذا كانوا يرجون من ورائها نفعاً مادياً عاجلاً ، وأن محمداً كان يعيش في مجتمع تجارى متشكك يحصل على جزء من إيراده من الحجاج الذين يقدون على الكعبة لعبادة آلهتها الكثيرة ، وكان مما تغلب به على بعض هذه الصعاب ما وُعيد به المؤمنون من النجاة في الدار الآخرة من نار جهنم والاستمتاع بنعيم الجنة . وكان محمد يستقبل في داره كل من أراد الاستماع إليه ، غنياً كان أو فقيراً أو عبداً رقيقاً ، من العرب والمسيحيين واليهود ، وقد تأثر بحماسة وبلاغة قوله عدد قليل ممن جاءوا إليه وآمنوا به ، وكان أول من آمن برسائله زوجته المسنة السيدة خديجة وآمن بها من بعدها ابن عمه علي ، ثم خادمه زيد وكان قد اشتراه بالمال ثم أعتقه من فوره ، ثم قريبه أبو بكر وهو رجل من ذوى المكانة العالية في قريش . واعتنق الدين الجديد بتأثير أبي بكر خمسة من زعماء مكة (*) ، كونوا معه « صحابة » محمد الستة : وهم الذين أخذت عنهم فيما بعد السنن الإسلامية ذات المكانة السامية في الدين الإسلامي . وكثيراً ما كان محمد يدخل الكعبة ، ويتحدث إلى الحجاج ، ويدعوهم لعبادة إله واحد (*) . وسخرت قريش أول الأمر من دعوته ولكنها صبرت عليها ، وقالت إن بعقله خبالاً وعرضت أن ترسله على نفقتها إلى طيب يرجى أن يشفيه من جنونه ، فلما أن أخذ يهاجم دينهم ويقول إن الشعائر التي يقومون بها في الكعبة ليست إلا عبادة لما فيها من الأوثان هبوا للدفاع عن

(*) هؤلاء هم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله (سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٦٥) . أما أصحاب الرسول الذين أخذت عنهم سنته فليسوا هؤلاء الخمسة مع أبي بكر فقط بل هم كثرة كما هو معروف . (ي)

(*) كان الرسول يتعرض للوافدين إلى مكة للحج من قبائل العرب يدعوهم إلى الإسلام . (ي)

مورد رزقهم (*) ، وكادوا يقعون به أذى جسيماً لولا أن حاه منهم عمه أبو طالب . ولم يعتنق أبو طالب الدين الجديد ، ولكن لإخلاصه لتقاليد العرب القديمة كانت تحتم عليه أن يحمي كل فرد من أفراد قبيلته .

وكان خوف قريش من إثارة الفتنة الصماء بين العرب مانعاً لها من استخدام العنف مع محمد والأحرار من أتباعه ، أما من آمنوا به من العبيد فقد كان في وسعهم أن يستخدموا من الأساليب ما يرونه كفيلاً بردهم عن الدين الجديد دون أن يخالفوا بذلك قوانين القبائل وتقاليدها .

فزجوا بعضهم في السجون وعرضوا البعض الآخر ساعات طوالاً إلى وهج الشمس وهم عراة الرءوس . ومنعوا عنهم الماء (***) وكان أبو بكر قد ادخر من تجارته خلال عدة سنين أربعين ألف قطعة من الفضة ؛ فلما رأى ما كان يحدث لأولئك العبيد أنفق ٣٥٠٠٠ منها في تحرير أكبر عدد من العبيد المسلمين ، ويسر محمد الأمر بقوله إن المرتد المكره لاعتقابه عليه (+) . وغضبت قريش من ترحيب محمد بالعبيد أكثر من غضبها من عقيدته الدينية . وظلت تضطهد من دخل في الإسلام من الفقراء اضطهاداً بلغ من القسوة خدلاً لم يسمع النبي معه إلا أن يأذن لهم أو يشير عليهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة ، حيث رحب بهم ملكها المسيحي وأكرم وفادتهم (٦١٥) .

وحدثت بعد عام من ذلك الوقت حادثة كان لها من الشأن في تاريخ

(*) كانوا يدفعون عن مورد رزقهم وعن دينهم . وقد قال من ذهب منهم إلى عمه أبي طالب : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آفتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أعلامنا ، وضلل آباءنا فيما أن تكفه عنا أو أن تحل بيننا وبينه « سيرة بن هشام جزءاً : ١٧٠ . (٥) »

(**) يقول ابن إسحق في سيرته « وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبون بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر من استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم (ج ١ ص ٢٠٢) »

(+) عملاً بقوله تعالى في سورة النحل الآية ١٠٦ « إلا من أكره وقلبه مطمئن

بالإيمان » .

الإسلام ما كان لإيمان بولس في تاريخ المسيحية . تلك هي اعتناق عمر بن الخطاب للدين الجديد بعد أن كان من ألد أعدائه وأشدّهم عنفاً في مناهضته . وكان عمر رجلاً قوى الجسم ، ذا مكانة اجتماعية عالية ، وشجاعة أدبية تكاد تكون منقطعة النظر . وبعث إسلامه الثقة في قلوب المؤمنين المضطهدين ، وهي ثقة ما كان أحوجهم إليها في ذلك الوقت كما كان سبباً في دخول كثيرين من العرب في الدين الجديد . وبدأ المسلمون من ذلك الوقت يدعون الناس جهرة في الشوارع والطرق بعد أن كانوا من قبل لا يعلنون الله إلا سرّاً في بيوتهم . واجتمع المدافعون عن آلهة الكعبة وأقسموا أن يقطعوا كل صلة بينهم وبين من لا يزالون من بني هاشم يرون واجباً عليهم أن يدافعوا عن محمد . ورأى كثيرون من الهاشميين ومن بينهم محمد وأسرته حقناً للدماء أن ينسحبوا إلى شعب من عزل في مكة يستطيع أبو طالب أن يدفع عنهم الأذى فيه (٦١٥) . وظلت هذه الفرقة بين العشائر قائمة سنتين كاملتين عاد بعدها بعض رجال قريش إلى صوابهم فدعوا الهاشميين أن يعودوا إلى بيوتهم وتعهدوا ألا يمسه بسوء .

وابتهجت لهذا القلة المسلمة في مكة ، وأكن ثلاثة خطوب ألت بمحمد في عام ٦١٩ ، فقد توفيت في ذلك العام السيدة خديجة أوفى الناس له وأكثرهم تأييداً لدعوته ، وتوفى أبو طالب الذي كان ينصره ويدافع عنه . وأحسن محمد أنه لا يأمن على نفسه في مكة ، وآله بطء انتشار الدعوة فيها ، فهاجر إلى الطائف (٦٢٠) ، وهي بلدة ظريفة بعيدة عن مكة بنحو ستين ميلاً إلى جهة الشرق . ولكن الطائف لم تقبله ، لأن زعماءها لم يروا من مصلحتهم أن يفضبوا أشراف مكة التجار ، ولأن العامة فزعوا من الدين الجديد فأخذوا يهزءون بمحمد في الشوارع ، ويقذفونه بالحجارة ، حتى سال الدم من ساقيه ، فعاد إلى مكة ، وتزوج أرملة تدعى سودة(*) ، ثم يخطب وهو في سن الخمسين عائشة بنت أبي بكر وكانت

(٤ - ج ٢ - مجلد ٤)

(*) هي سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس

وقتلت فتاة حسناء في السابعة من العمر(*) :

ولم ينقطع عنه الوجى في هذه الأثناء ، ونخيل إليه في ذات ليلة أنه انتقل من نومه إلى بيت المقدس ، حيث رأى في انتظاره عند المبكى من أنقاض هيكل البراق ، وهو جواد مجنح فطار به إلى السماء ، ثم عاد به منها ، ثم وجد النبي نفسه بمعجزة أخرى آمنة في فراشه بمكة . وبفضل هذا الإسراء أصبحت بيت المقدس ثلاثة المدن المقدسة عند المسلمين (***) :

وفي عام ٦٢٠ أخذ محمد بيث الدعوة بين التجار الذين وفدوا على مكة ليحجوا إلى الكعبة ، وقبل بعض التجار دعوته ، لأن عقائد التوحيد ، والرسول المبعوث من عند الله ، ويوم الحساب كانت مألوفة عندهم ، انتقلت إليهم من يهود المدينة . ولما عاد هؤلاء التجار إلى بلدتهم أخذ بعضهم يدعون أصدقاءهم إلى الدين الجديد ، ورخب بعض اليهود بهذه الدعوة لأنهم لم يروا فارقاً كبيراً بين تعاليم محمد وتعاليمهم . وفي عام ٦٢٢ أقبل على محمد في مكة سرا ثلاثة وسبعون رجلاً من أهل المدينة ودعوه إلى الهجرة إلى بلدتهم واتخاذها موطناً له . فسألهم هل يدافعون عنه كما يدافعون عن أبنائهم ، فأقسموا أن يفعلوا ، ولكنهم سألوهم عما يجوزون به إذا قتلوا في أثناء دفاعهم عنه ، فأجابهم بأن جزاءهم هو الجنة :

وفي ذلك الوقت أصبح أبو سفيان حفيد أمية زعيم قريش في مكة ، وكان قد نشأ في جو من الكراهية لبنى هاشم ، فعاد إلى اضطهاد أتباع محمد ، ولعله

(*) تزوج الرسول عائشة رضى الله عنها بمكة وهي بنت سبع سنين وبني بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين أو عشر ، وفي البخارى أنه تزوجها وهي بنت ست ثم بني بها وهي بنت تسع . (ى)

(**) عن المسلمون بمسألة الإسراء والمعراج فهم من يقول إن الإسراء كان بجسده وروحه ومهم من يقول إن ذلك كان رؤيا حق ومن هؤلاء عائشة أم المؤمنين . ومعوية بن أبي سفيان . راجع سيرة ابن هشام . (ى)

قد سمع أن النبي يعتزم الهجرة من مكة ، وخشى أنه إذا استقر له الأمر في المدينة قد يشن الحرب على مكة وعلى آلهة الكعبة - وعهدت قريش بتحريضه إلى بعض رجالها أن يقبضوا على محمد ، ولعلها عهدت إليهم أن يقتلوه ، وعلم محمد بالخبر ففر هو وأبو بكر إلى غار ثور على بعد فرسخ من مكة ، وظل رسل قريش يبحثون عنهما ثلاثة أيام ولكنهم عجزوا عن العثور عليهما . وجاء أبناء أبي بكر لهما يحملين (*) فركبهما في أثناء الليل واتجها بهما شمالا ، وبعد أن ظلا سائرين عدة أيام قطعا فيها نحو مائتي ميل وصلا أخيراً إلى المدينة في ٢٤ سبتمبر من عام ٦٢٢ : وكان قد سبقهم إليها مائتان من المسلمين بدعوى أنهم حجاج عائدون من مكة ، ووقفوا عند أبواب المدينة ومعهم من أسلم من أهلها ليستقبلوا النبي ، وبعد سبعة عشر عاماً من ذلك الوقت اتخذ الخليفة عمر اليوم الأول من السنة العربية التي حدثت فيها تلك الهجرة ، وكان هو في ذلك العام يوم ١٦ يولية من سنة ٦٢٢ ، البداية الرسمية للتاريخ الإسلامي :

(*) في حديث الهجرة لا نرى ذكراً صريحاً لأبناء أبي بكر يقدمون للرسول وصاحبه راحلتي ليركباها في هجرتهما ، وإنما نرى أبا بكر نفسه يشترى راحلتي ويدهما لذلك اليوم ، ثم نرى أسماء بنت أبي بكر تقدم لها طعاماً في جراب تربطه بقطعة من نطاقها ، ولذلك سميت بذات النطاقين ، ونرى عبد الله بن أبي بكر في قريش بالنهار يسمع ما يقولون في شأن الرسول وصاحبه ثم يأتيهما في المساء ليخبرهما الخبر . (ي)

الفصل الثالث

محمد في المدينة

٦٢٢ - ٦٣٠

تقع يثرب ، التي سميت فيما بعد « مدينة النبي » على الحافة الغربية من الهضبة العربية الوسطى . وكانت إذا قورنت من حيث جوها بمكة بدت كأنها جنة عدن ، وكان بها مئات من الحدائق وغياض النخل ، والضياع . ولما دخل محمد المدينة تقدمت إليه طائفة في أثر طائفة وألحت عليه أن ينزل عندها ويقيم معها ؛ وأمسك بعضها بزمام ناقته لتمنعه عن مواصلة السير وأصرت على ذلك لإصراراً تمليه عليها تقاليداً العربية ، وكان جوابه غاية في حسن السياسة فكان يقول لهم : « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » ، وبهذا لم يترك للغيرة سبيلاً إلى قلوبهم لأن الله وحده هو الذي يسير الناقة ويهديها إلى حيث تقف . وبنى محمد في المكان الذي وقفت فيه ناقته مسجداً ويبتين متجاورين أحدهما أسودة والآخر لعائشة ، وأضاف إليهما مساكن أخرى لزوجاته الأخريات .

وكان حين غادر مكة قد قطع كثيراً من صلوات القرابة ، فلما جاء إلى المدينة اعتزم أن يستبدل بصلوات الدم صلوات الأخوة الدينية في الدولة الجديدة ، كما أراد أن يقضى على أسباب الغيرة بين المهاجرين الذين جاءوا من مكة والأنصار الذين أسلموا من أهل المدينة - وكانت بوادر هذه الغيرة قد بدت في ذلك الوقت - فأخى بين كل واحد من إحدى الطائفتين وزميل له من الطائفة الأخرى ، وطلب إلى كلتيهما أن تصلي في المسجد مع أختها . وفي أول احتفال أقيم في المدينة صعد المنبر وقال بصوت عال « الله أكبر » وردد المجتمعون النداء بأعلى صوتهم وسجد لله وهو لا يزال متجهاً بظهره إليهم ، ثم نزل عن المنبر بظهره فلما وصل إلى آخره

سجد لله ثلاث مرات وكان هذا السجود رمزاً للخضوع إلى الله والاستسلام له ومنه سمي الدين الجديد بالإسلام أى « الاستسلام » و « السلم » ، وسمى أتباعه بالمسلمين . ثم التفت إلى الحاضرين وأمرهم أن يحافظوا على هذه الشعائر إلى أبد الدهر ، ولا يزال المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يتبعون هذه السنة في الصلاة سواء كانوا في مسجد ، أو ضاربين في الصحراء ، أو في بلد غريب لا مسجد فيه . وتنتهى (*) الصلاة بخطبة كانت في زمن النبي خيراً عن وحى وتوجيها لأعمال الأسبوع وسياسته . ذلك أن النبي كان ينشئ حكومة مدنية في المدينة ، واضطر بحكم الظروف أن يخصص جزءاً متزايداً من وقته للمشاكل العملية المتصلة بالتنظيم الاجتماعى ، والأخلاق ، والعلاقات السياسية بين القبائل ، ولشئون الحرب ، لأنه لم يكن ثمة حد فاصل بين الشؤون الدينية والدنيوية ، بل اجتمعت هذه الشؤون كلها في يد الزعيم الدينى كما كانت الحال عند اليهود .

فكان محمد في المدينة الرسول الدينى والحاكم السياسى جميعاً ، ولم ترض أكثرية العرب عن هذا الوضع وأخذت تنظر بعين الريبة إلى الدين الجديد وشعائره ، وترى أن محمداً كاد يقضى على تقاليد العرب وحرمتهم ، وأنه كان يزج بهم في الحروب ، وكان من هؤلاء يهود المدينة الذين ظلوا متمسكين بدينهم ولم ينقطعوا عن الاتجار مع قريش في مكة .

وقد عقد محمد مع أولئك اليهود عهداً ينم عن مهارة سياسية كبيرة ، وقد جاء فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن يتبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، لأنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربقهم يتعاقلون بينهم وهم يقدرون عانيتهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو ساعدة ، وبنو الحارث ، وبنو جشم ،

(*) الصحيح أن الخطبة تكون قبل الصلاة أيام الجمع وبعدها أيام العيدين ، وفى غير الجمع والعيدين لا خطبة قبل الصلاة ولا بعدها . (ع)

وبنو النجار ، وبنو عمرو بن عوف ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين : وإن ذمة الله واحدة ، وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مناصرين عليهم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود وبينهم مواليم وأنفسهم ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم (*) :

وسرعان ما قبلت هذا العهد جميع قبائل اليهود في المدينة وما حولها : قبيلة بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع :

وهاجرت إلى المدينة مائتا أسرة من مكة فنشأت فيها من جراء هذه الهجرة مشكلة الحصول على ما يكفي أهلها من الطعام : وحل محمد هذه المشكلة كما يحلها كل الأقوام الجياع بالحصول على الطعام أنى وجد : ومن ذلك أنه أمر أتباعه بالإغارة على القوافل المارة بالمدينة ، متبعاً في ذلك ما كانت تتبعه معظم القبائل العربية في ذلك الوقت (**): فلما كللت هذه الغارات بالنصر أعطى المغيرين أربعة أخماس الغنائم ، واحتفظ بالخمس الباقي للأعمال الدينية والخيرية ، وكان نصيب من استشهد في هذه الغزوات من حق أرملته ، أما هو فكان جزاؤه الجنة . وكثرت الغزوات ، وتضاعف عدد المشتركين فيها ، وارتاع لها تجار مكة الذين كانت حياتهم الاقتصادية تعتمد على سلامة قوافلهم ، فأخذوا يدبرن أمر الانتقام من محمد والمسلمين : وكان من هذه الغارات واحدة حدثت في آخر يوم من شهر رجب أحد

(*) هذا عهد له أثره الكبير ومظهره العظيم ، ولم يعقده الرسول مع اليهود فحسب بل هو كما يذكر ابن إسحق كتاب كتبه الرسول بين المهاجرين والأنصار وفيه وادع اليهود وعاهدهم وأقرمهم على ذمتهم وأموالهم وقد ذكره ابن هشام في سيرته على طوله . (ى)

(**) لقد كانت الإغارة على قوافل قريش المارة بالمدينة عملاً يراد به الدفاع عن الإسلام واسترداد لبعض ما اغتصبه أهل مكة من أموال المسلمين الذين هاجروا منها . (ى)

الأشهر الحرم التي كان العرب يمتنعون فيها عن جميع أعمال القتال ، وقتل فيها رجل ، وأساءت بذلك إلى سمعة أهل مكة والمدينة على السواء ، وإلى تقاليد العرب المرعية منذ القدم . وفي عام ٦٢٣ جمع محمد نفسه ثلثمائة من المسلمين المسلحين ، واعترض طريق قافلة قادمة من الشام إلى مكة ، وعلم أبو سفيان وكان على رأس القافلة بهذه الخطة ، فغير طريقه ، وأرسل إلى مكة من يطلب النجدة ، وبعثت قريش بتسعائة من رجالها ، والتقى الجيشان الصغيران عند وادي بدر على بعد عشرين ميلا جنوبي المدينة . ولو أن محمداً هزم في هذه الغزوة لفضى عليه وعلى الإسلام في هذه المعركة ، ولكنه قاد رجاله بنفسه وانتصر على قريش ، وقويت بهذا النصر شوكة الإسلام ، وعاد المسلمون إلى المدينة ومعهم كثير من الأسرى والغنائم (يناير عام ٦٢٤) ، وقتل من هؤلاء الأسرى بعض من كانوا أشد الناس اضطهاداً للمسلمين في مكة ، وأطلق سراح الباقين نظير فدية كبيرة ، ونجا أبو سفيان ، وأندر المسلمين بالانتقام .

ولما عاد إلى مكة أخذ يواسي أسر القتلى ويشجعهم ، ويطلب عدم البكاء عليهم ورتائهم ويقول إن الحرب سجال وإنهم سيأخذون بثأرهم ، ثم أقسم ألا يقرب زوجته إلا بعد أن يخرج مرة أخرى لقتال محمد .

واشتد ساعد محمد بهذا النصر ، وجرى العرب بعده على الأساليب المألوفة في الحروب . من ذلك أن شاعرة تدعى عصماء هاجته في شعرها فتسلل عمر ، وهو مسلم ضرير إلى بيتها وطعنها وهي نائمة بسيفه في صدرها طعنة بلغ من قوتها أن نفذ السيف من تحتها إلى فراشها . وفي اليوم التالي سأل محمد عميراً هل قتل عصماء فأجابته ، يا رسول الله إني قد قتلتها ، فقال « نصرت الله ورسوله يا عمير » ، فقال عمير : « هل على شيء من شأنها يا رسول الله ؟ » فأجابته بقوله إن هذا أمر « لا ينتطح فيه عزان » . ومنها أن رجلاً ممن اعتنقوا الدين اليهودي يدعى أبا عفاك يناهز من العمر مائة عام هجا النبي فقتله بعضهم وهو نائم في فناء بيته ، وارتد شاعر ثالث

من أهل المدينة يدعى كعب بن الأشرف ، وكانت أمه يهودية ، حين انقلب محمد على اليهود ، وكتب قصائد يحرض فيها قريشاً على أن يثأروا لهزيمتهم ، وأثار غضب المسلمين بتشبيهه بنسائهم ، فقال النبي « من لى باين الأشرف ؟ » فلم يمض آخر النهار حتى كان رأس الشاعر ملقى أمام قدميه . وكان المسلمون يزورون أن هذه الأعمال وأمثالها إن هي إلا دفاع مشروع عن أنفسهم من الخونة ، فقد كان محمد رئيس دولة ، وكان من حقه أن يصدر فيها الأحكام (*) .

ولم يطل حب اليهود من أهل المدينة لهذا الدين ذى النزعة الحربية ، والذي بدا لهم أول الأمر شديد الشبه بدينهم ، وأخذوا يسخرون من تفسير محمد لكتابهم المقدس ، وقوله إنه هو الذى بشره آبائهم ، وكان جوابه أن قال ، كما أوحى إليه ، إنهم حرقوا كتابهم ، وقتلوا أنبياءهم ، وأبوا أن يصدقوا المسيح . وكان قد اتخذ بيت المقدس قبلة يتجه إليها المسلمون فى الصلاة ، فاستبدل به فى عام ٦٢٤ مكة والكعبة ، وأتهمه اليهود بأنه قد عاد إلى عبادة الأوثان (**). وحدث فى هذا الوقت أن زارت فتاة مسامة سوق بنى قينقاع اليهودى فى المدينة ، وبينما هى جالسة

(*) هى عصماء بنت مروان وقتلها عمير بن عنى الخطمى . ولكل حادثة من الحوادث السالفة الذكر ظروف وأسباب تبررها بلا ريب ؛ فهذه عصماء بنت مروان كانت تعيب الإسلام وأهله وتعرض على المسلمين وتؤذيهم أذى شديداً فكان قتلها جزاء ما جنت حقاً واجباً حتمته الضرورة حتى قيل فى شأنها بعد أن قتلت « من يومئذ عز الإسلام وأهله بالمدينة » . وكعب بن الأشرف لم يكن مسلماً ثم ارتد كما يقول المؤلف ، ولو كان كذلك لكان قتله فرضاً من هذه الناحية ، لأن المرتد يجب قتله إن لم يتب ويرجع عن الكفر ؛ لكنه كان كما أشار المؤلف عدواً لله ولرسوله والمؤمنين ، إذ كان يحرض المشركين على المسلمين ، ويشبب بنسائهم حتى أذاهم أذى شديداً ، وهو مع هذا كان ذا جاه ومسوع الكلمة فى قومه ، فكان لهذا عدواً يخشى عدوانه من وجوه مختلفة ، ولهذا كان قتله أمراً مشروعاً وواجباً دفاعاً عن الدين وأهله ، وهم محاطون بالأعداء من كل جانب ، وخاصة وقد لقي المسلمون أذى كثيراً من غير اليهود بالمدينة مقر الإسلام حينئذ ، والعدو الداخلى فى مثل هذه الظروف أشد ضرراً من العدو الخارجى كما هو بحروف . (ي)

(**) وفى ذلك نزل قوله تعالى « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » سورة البقرة (الآية ١٤٤)

في حانوت صنائع إذ شبك يهودى خبيث قبيصها من وراء ظهرها في أعلى ثيابها ، فلما قامت ورأت ما فعل بها بكثت مما لحقها من عار فقتل أحد المسلمين اليهودى الأثيم ، وقتل أخوه اليهودى المسلم ، فجمع محمد أتباعه وحاصر يهود بني قينقاع في حبيم خمسة عشر يوماً ، حتى استسلموا ، فقبل استسلامهم وأمرهم أن يخرجوا بقضيمهم وقضيضهم من المدينة ويتركوا وراءهم جميع ممتلكاتهم ، وكان عددهم في ذلك الوقت نحو سبعمائة .

ولا يسعنا إلا أن نعجب بأبي سفيان لأنه استطاع أن يكظم غيظه وينتظر بعد يمينه غير الطبيعية عاماً كاملاً قبل أن يقدم على قتال محمد . وفي أوائل عام ٦٢٥ سار على رأس جيش تبلغ عدته ثلاثة آلاف رجل إلى جبل أحد على بعد ثلاثة أميال شمالى المدينة ، وصحب الجيش خمسة عشر من النساء بينهن زوجات أبي سفيان ليثرن حماسة الجند بأغانيهن الحزينة . ودعوتهن لإياهم إلى الانتقام :

ولم يكن جيش المسلمين يزيد على ألف ، وهزم المسلمون في هذه الغزوة ، وحارب فيها محمد بشجاعة عظيمة ، وأصيب بعدة جروح وحمل من الميدان . وقتل في المعركة حمزة عم النبي ومضغت كبده هند أشهر زوجات أبي سفيان ، وكان أبوها ، وعمها ، وأخوها قد قتلوا جميعاً في غزوة بدر ، وكان حمزة نفسه هو الذى قتل أبها ، ثم لم تكتف بهذا بل صنعت لنفسها من جلده وأظافره خلاخيل وأساور . وظن أبو سفيان أن محمداً قد مات ، وعاد منتظراً إلى مكة (*) . وبعد ستة أشهر من هذه الواقعة شق النبي واستطاع أن يهاجم بنى النضير ، لأنهم أعانوا قريشا على

(*) الذى تذكره كتب السيرة « أن قريشاً خرجوا معهم بالظعن (أى نسائهم) التماساً للحفيظة وألا يقرؤا » (ابن هشام ج ٢ ص ١٢٧) ثم ذكر ابن هشام بعد هذا بعض من خرجن من الناس فلم يصل بهن إلى عشر . ومن بينهن زوجة أبي سفيان لزوجاته وهى هند بنت عتبة ، كذلك يقول ابن هشام إن الرسول تهباً للقتال في سبعمائة رجل فقط (ابن هشام ج ٢ ص ١٢٩) : (ى)

المسلمين وكانوا ياتمرون به ليقتلوه : وبعد أن حاصرهم ثلاثة أسابيع أذن لهم أن يهاجروا من المدينة على أن تأخذ كل أسرة معها حمل بعير . واستولى النبي على بعض ما كان لهم من بساتين النخيل الغنية ، فكان بعضها له ، ووزع ما بقي منها على المهاجرين(*) . لقد كان محمد يرى أنه في حرب مع أهل مكة ، وأن من حقه أن يؤمن نفسه بإبعاد الجماعات المعادية له عن جناحيه . وعادت قريش وعاد أبو سفيان إلى مهاجمة المسلمين في عام ٦٢٦ بجيش يبلغ ١٠٠٠٠ رجل يساعدهم يهود بني قريظة مساعدة جدية . ورأى محمد أنه لا يستطيع مقابلة هذه القوة الكبيرة في الميدان ، ففضل أن يدافع عن المدينة بجفر خندق حولها . وحاصرتها قريش عشرين يوماً ، حتى فت في عضدهم المطر والعواصف ، فعادوا إلى أوطانهم ، وقاد محمد من فوره ثلاثة آلاف من المسلمين وهاجم بهم يهود بني قريظة ، فلما استسلموا خيرهم بين الإسلام والموت .

وكان النبي في ذلك الوقت قد أصبح من مهرة القواد ؛ فقد جهز في العشر السنين التي قضاها في المدينة خمساً وستين غزوة وسرية حربية قاد بنفسه سبعا وعشرين منها ، ولكنه كان إلى هذا سياسياً محنكا ، يعرف كيف يواصل الحرب بطريق السلم ، وكان يشارك المهاجرين في الحنين إلى بيوتهم وأسرهم في مكة ، ويشارك المهاجرين والأنصار جميعاً في الحنين إلى زيارة الكعبة ، التي كانت في صباهم عزيزة عليهم وموضع إجلالهم .

(*) هاجم الرسول بني النضير ولما يمض على يوم أحد أكثر من خمسة أشهر لأن يوم أحد كان في منتصف شوال سنة ثلاث من الهجرة وأمر بني النضير كان في ربيع الأول سنة أربع . وقد أذن لهم النبي أن يأخذوا معهم من أموالهم ما استطاعت الإبل أن تحمله ، إلا السلاح كما يذكر ابن هشام .

وأما تقسيم الزه فقد اتبع فيه النبي قول الله عز وجل : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » . ويقول ابن هشام (٢٠ ص ١٧٨) عن أموال بني النضير إن الرسول قسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا رجلين من هؤلاء ذكرا فقرا فأعطاهما أيضا . (٥)

وفي عام ٦٢٨ أرسل محمد إلى قريش يعرض عليهم الصلح ، ويتعهد لهم
بسلامة قوافلهم إذا رضوا أن يؤدي شعائر الحج في موسمه . وأجاب زعماء
قريش بأنهم يشترطون لقبول هذا العرض أن يمضى قبله عام كامل من
السلم ، وأدهش محمد أتباعه بقبوله إياه(*) ، ووقع الطرفان شروط هدنة
تدوم عشر سنين ، وحدثت بعدئذ غارة على يهود خيبر في مساكنهم الواقعة
في الشمال الشرقي من المدينة على مسيرة ستة أيام منها ، ودافع اليهود عن
أنفسهم بأحسن ما يستطيعون من دفاع ، وسقط منهم في أثناء ذلك ثلاثة
وتسعون رجلاً ، ثم سلم الياقون آخر الأمر ، وسمح لهم بالبقاء في أملاكهم
يزرعون الأرض ، على شرط أن يسلموا جميع ممتلكاتهم ونصف محصولاتهم
المستقبلية إلى الفاتحين : ولم يمض أحد من الباقين بسوء ما عدا زعيمهم
كنانة وابن عمه فقد قطع رأسهما لأنهما أخفيا بعض ما يمتلكان ، وضمت
صفية وهي فتاة يهودية في السابعة عشرة من عمرها كانت مخطوبة
لكنانة(**) ، إلى نساء النبي .

(*) وقد عبر عمر بن الخطاب عن هذه الدهشة إذ أتى رسول الله فقال له : يا رسول
الله ألست برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أوليسوا
بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطى الدنيا في ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله لن
أخالف أمره ولن يضيعني . وحقاً لم يضيع الله رسوله فقد أمنت الدعوة الإسلامية وأخذت رسل
الرسول تذهب بها أمانة الملوك رؤساء العشائر ، ثم كان بعد ذلك الفتح المبين بعد قليل من
الزمان . (ى)

(**) كان سبب سير الرسول إلى خيبر أن أهلها كانوا شديدي العدواة للمسلمين يتربصون
بهم الدوائر فكان من الخزم إبعادهم . وكان أمر النبي بقتل كنانة بن الربيع بسبب أنه كان عنده
مال لبنى النضير وجده حين سئل عنه ، والمسلمون في أشد الحاجة إلى المال للاستعداد للحرب ،
ثم إن الرسول دفعه إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة أي أنه قتله قصاصاً
بأخيه ، وهذا سبب آخر يجعل قتله أمراً مشروعاً . راجع ابن هشام ج ٢ ص ٢٤ .

أما مسألة استيلاء المسلمين على نصف محصولات أهل خيبر المستقبلية فترجع إلى أنهم هم
أنفسهم طلبوا إلى الرسول أن يعطيهم الأرض مزارعة على النصف مما تلتجها فصالحهم الرسول
على ذلك لأنهم كما قالوا هم أنفسهم أعلم بها وأمر لها . (ى)

وفي عام ٦٢٩ دخل مسلمو المدينة ، البالغ عددهم ألفين ، مكة مسالين ، وانسحبت قريش إلى التلال لتجنب الاحتكاك بالمسلمين ، وطاف محمد وأتباعه في أثناء ذلك بالكعبة سبع مرات . ومس محمد الحجر الأسود بعصاه مظهراً له دلائل الإجلال ، ولكنه نادى ونادى بعده المسلمون : « لا إله إلا الله » . وكان لمسلك المسلمين المنفيين وحسن نظامهم ، ووطنيتهم ، وتقواهم أعظم الأثر في نفوس أهل مكة ، فأسلم من قريش عدد من ذوى المكانة من بينهم خالد بن الوليد وعمر اللذين جارا فيما بعد من أعظم قواد المسلمين . وعرضت بعض القبائل المجاورة على النبي أن يؤمنها على دينها نظير مساعدتها إياه في القتال ؛ ولما عاد إلى المدينة رأى أنه قد أصبح له من القوة ما يمكنه من الاستيلاء على مكة عنوة :

ولم يكن قد مضى من الهدنة إلا عامان ، ولكن إحدى القبائل المتحالفة مع قريش أخلت بشروط الهدنة فهاجمت إحدى القبائل المسلمة (٦٣٠) (*) ، فجمع النبي عشرة آلاف رجل وزحف بهم على مكة ، وأدرك أبو سفيان قوة المسلمين فسمح لهم بأن يدخلوا مكة بلا مقاومة ؛ وكان جواب محمد جواباً كريماً ، فقد أعلن عفواً عاماً عن جميع أهل مكة عدا اثنين أو ثلاثة من أعدائه ، وحطم الأصنام التي كانت في داخل الكعبة وحولها ، ولكنه تبرك الحجر الأسود في مكانه وأجاز تقبيله . ونادى بمكة مدينة الإسلام المقدسة ، وأعلن أنه لن يدخلها بعد ذلك اليوم كافر ، وامتنعت قريش بعدئذ عن كل مقاومة مباشرة ، وأصبح الرجل المضطهد الذي هاجر من مكة منذ ثمان سنين صاحب الكلمة العليا في حياتها .

(*) نفقت قريش الهدنة إذ ساعدت [بالسلاح] بني بكر - وكانوا قد دخلوا في عهد قريش - على بني خزاعة الذين دخلوا في عهد الرسول . بل إن نفرا من قريش قاتلوا بأنفسهم خزاعة في صفوف بني بكر ، وجاء من خزاعة إلى الرسول من يطالبه بالنصر وفاء بالعهد ، فكان لا بد من الاستعداد للمسير إلى مكة لفتحها . (٥)

الفصل الرابع

انتصار النبي

قضى النبي معظم العامين الباقيين من حياته في المدينة ، وكان ينتقل فيها من نصر إلى نصر ، فقد خضعت فيهما بلاد العرب كلها ، بعد فتن قليلة الشأن ، إلى سلطانه ودخلت في دين الإسلام . وجاء إلى المدينة كعب بن زهير ، أعظم شعراء العرب في ذلك الوقت ، وكان قد هجا النبي بعض قصائده ، وأسلم نفسه إليه ، واعتنق الإسلام ، فعفا عنه النبي ، وأنشأ الشاعر قصيدة عصماء في مديح النبي أجازه عليها ببردته(*) ، وعاهد النبي المسيحيين في بلاد العرب ، وأخذ على نفسه أن يحميهم وأن يكونوا أحرارا في ممارسة شعائر دينهم نظير ضريبة هبنة ، ولكنه نهاهم عن الربا ، ويقول المؤرخون إنه بعث الوفود إلى ملك الروم ، وملك الفرس وإلى أمير الحيرة وبنى غسان ، يدعوهم إلى الدين الجديد ، ويلوح أن أحداً منهم لم يرد على رسائله(**) ، وكان يشهد بعين المستسلم الفيلسوف الحروب المشتعلة نارها بين فارس وبيزنطية وما جرت على الدولتين من خراب ، ولكن يبدو أنه لم يفكر قط في توسيع سلطانه خارج حدود بلاد العرب(+)

(*) وبيعت بعدئذ لماوية بأربعمائة ألف درهم ، ولا يزال الأتراك يحتفظون بها إلى اليوم وتتخذ في بعض الأحيان علما قومياً . (ى)

(***) من هؤلاء من رد رداً قبيحاً مثل كسرى ، ومنهم من رد رداً جميلاً مثل قيصر ، ومنهم من وعد بالنظر في الأمر مثل «المقوقس» حاكم مصر والمنذر صاحب البحرين وجبله ابن الأيهم الفسافي . راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢٠ . (ى)

(+) لعل المؤلف يريد بقوله إن النبي لم يفكر في توسيع حدود الدولة الجديدة خارج حدود بلاد العرب أنه لم يكن يريد ضمها إلى الدولة الناشئة الجديدة وهذا لا ينفي أنه أراد أن يدعو أهلها إلى الدخول في دين الإسلام . (المترجم)

وكانت أعمال الحكومة تشغل وقته كله ، فقد كان يعنى أشد العناية بكل صغيرة وكبيرة في شؤون التشريع والقضاء ، والتنظيم المدني ، والديني ، والحزبي . وحتى التقويم نفسه قد عني بتنظيمه لأتباعه ، فقد كان العرب يقسمون السنة كما يقسمها اليهود إلى اثني عشر شهراً قريبا ، وكانوا يضيفون إليها شهراً كل ثلاث سنوات لكي تتفق مع السنة الشمسية . فأمر النبي أن تكون السنة الإسلامية اثني عشر شهراً على الدوام كل منها ثلاثون يوماً أو تسعة وعشرون على التوالي ، وكانت نتيجة هذا أن أصبحت السنة الإسلامية فيما بعد غير متفقة مع فصول السنة ، وأن تقدم التقويم الإسلامي سنة كاملة عن التقويم الجريجوري كل اثنتين وثلاثين سنة .

ولم يكن النبي مشرعا علميا ، فلم يضع لأمته كتابا في القانون أو موجزاً فيه ، ولم يسر في تشريعه على نظام مقرر ، بل كان يصدر الأوامر حسبما تمليه عليه الظروف . فإذا أدى هذا إلى شيء من التناقض أزاله بوحى جديد ينسخ القديم ويجعله كأن لم يكن (*) ، وحتى شئون الحياة العادية كانت أوامره فيها تعرض في بعض الأحيان كأنها موحى بها من عند الله . وكان اضطراره إلى تكيف هذه الوسيلة السامية بحيث تتفق مع الشئون الدنيوية مما أفقد أسلوبه بعض ما كان يتصف به من بلاغة وشاعرية ، ولكن لعله كان يشعر بأنه بهذه التضحية القليلة جعل كل تشريعاته

(*) من الصحيح أن الرسول لم يضع كتابا في القانون ، ولكن ليس صحيحا أنه لم يسر في تشريعه على نظام مقرر ، فإن القرآن بنصه وروحه العامة قد حدد أصول التشريع بصفة عامة ، ثم كان الرسول بسنته مبيئا لهذا القرآن بالتفسير والإيضاح ، ولهذا يقول الله تعالى في سورة النحل « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » . أما النسخ فسيبه أن التشريعات الواردة في القرآن الكريم لم تنزل من الله دفعة واحدة ، بل كانت رخصة من الله تنزل متدرجة تها للحالات ، فيكون من الطبيعي أن يحصل فيها نسخ . هل أن هذا كان في حالات قليلة معدومة . (ى) .

قسطيغ بالصبغة الدينية الرهيبة(*) . ومع اضطلاع النبي بهذه الشئون كلها فقد كان جم التواضع إلى درجة تحببه إلى النفوس ، وكثيراً ما كان يعترف بأن ثمة أموراً لا يعرفها ، ويحتج على الذين يظنونه أكثر من إنسان يجرى عليه ما يجرى على الناس جميعاً من موت ووقوع في الخطأ .

ولم يدع في يوم من الأيام أنه قادر على معرفة الغيب أو الإتيان بالمعجزات ، لكنه مع هذا لم يكن يستنكف أن يستعين بالوحي في الأغراض البشرية والشخصية ، كما حدث حين أنزل الوحي مؤيداً زواجه من زوجة زيد متيناه(**) . وتزوج النبي بعشر نساء وكانت له اثنتان من السرارى هن مبعث الدهشة والحسد والتعليق والمدح عند الغربيين ، ولكن علينا أن نذكر على الدوام أن نسبة الوفيات العالية من الذكور بين الساميين في العصر القديم. وفي بداية العصور الوسطى جعلت تعدد الزوجات ، في نظر هؤلاء الساميين ، ضرورة حيوية تكاد تكون واجباً أخلاقياً : وكان تعدد الزوجات في نظر النبي أمراً عادياً مسلماً به لا غبار عليه ، ولذلك كان يقبل عليه وهو مرتاح الضمير لا يبغى به إشباع الشهوة الجنسية ، ويروى عن عائشة حديث عن النبي مشكوك في صحته يقول فيه « حبيب إلى من

(*) نكرر هنا ما قلناه من قبل من أن المؤلف وأمثاله من غير المسلمين يرون أن القرآن من قول النبي لا من عند الله . أما وهو من عند الله حقاً فإن النبي لم يُفصح بشيء من فاحية القرآن وأسلوبه ، ولكن الأسلوب يختلف بلا شك في مواضع عنه في أخرى تبعاً للغاية التي يريدتها الله ، وإن كان جميعه في أعلى درجات البلاغة التي لا يمكن أن يتطلع أحد إلى مداناتها . (ى)

(**) إن لتشريع تعدد الزوجات غاية أخرى حكيمة ترجع إلى أن يكون المرء بمنجاة من الاتصال بخليلات غير قليلات بجانب الزوجة الشرعية . ولقد تبين لبعض الغربيين اليوم أن إباحة تعدد الزوجات هو العلاج الوحيد لمشكلة زيادة النساء على الرجال زيادة كبرى بسبب الحروب ، فقد طالب أهل مدينة « بون » عاصمة ألمانيا الغربية أن يتضمن دستورهم تشريعاً يبيح هذا التعدد .

أما الزوجات اللائق عقد عليهن النبي فكان ثلاث عشرة وقد دخل بإحدى عشرة منهن ولم يدخل باثنتين . وقد عنى رجال السيرة بذلك سبب زواج كل واحدة منهن وبذلك شيء من سيرتهن جميعاً رضوان الله عليهن . راجع سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٦٦ - ٣٦٨ . (ى)

ديانكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وقرّة عيني في الصلاة» (*) ولقد كانت بعض زيجاته من أعمال البر والرحمة بالأرامل الفقيرات اللاتي توفي عنهن أتباعه أو أصدقاؤه ، وكان بعضها زيجات دبلوماسية كزواجه بحفصة بنت عمر الذي أراد به أن يوثق صلته بأبيها ، وكزواجه من ابنة أبي سفيان ليكسب بذلك صداقة عدوه القديم . وربما كان الدافع إلى بعضها أمله في أن يكون له ولد ، وهو أمل حرم منه زمناً طويلاً . وكانت زوجاته كلهن ما عدا خديجة عقيقات ، وكان هذا موضع السخرية بين أعدائه ، ولم يبق من أبنائه الذين زرقهم من خديجة إلا فاطمة . وقد رزق من مارية القبطية التي أهداها إليه نجاشي الحبشة ، بولد اغتبط النبي بمولده أشد الاغتباط ، ولكن لإبراهيم مات بعد خمسة عشر شهراً من مولده .

وكثيراً ما ضايقه نساؤه بمنازعاتهن ، وغيرتهن ، ومطالبهن ، ولكنه أبى أن يجيبهن إلى مطالبهن الكثيرة ، ووعدهن بالجنة ، وقضى بعض الوقت يعدل بينهن فيقضي ليلة عند كل واحدة منهن ، ذلك أن سيد بلاد العرب كلها لم يكن يملك بيتاً خاصاً له ، غير أن عائشة قد استأثرت بأكبر من حقها من عنايته (***) ، فغضبت لذلك زوجاته الأخريات حتى نزلت الآية : « ترجى من تشاء منهم وتوى إليك من تشاء ، ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتينك كلهن والله يعلم ما في قلوبكم ، وكان الله عليماً حليماً » . وكانت حياة النبي فيما عدا النساء والسلطان غاية في البساطة ، فقد كانت

(*) تكلم في شأن هذا كثير من رجال الحديث . « راجع كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس » للمحدث إسماعيل بن محمد العجلوني .

(**) لقد كان الرسول يعدل بين زوجاته جميعاً فيما يملك ، أما ميل القلب فشيء لا يملكه ومن المعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفضل السيدة عائشة عن سائر نساؤه ما عدا السيدة خديجة . (٥)

المساكن التي أقام بها واحداً بعد واحد كلها من اللبن ، لا يزيد اتساعها على اثنتي عشرة أو أربع عشرة قدماً ، ولا يزيد ارتفاعها على ثمان أقدام ، سقفها من جريد النخل ، وأبوابها ستائر من شعر المعز أو وبر الجمال . أما الفراش فلم يكن أكثر من حشية تفرش على الأرض ووسادة ، وكثيراً ما كان يشاهد وهو يخصف نعليه ، ويرقع ثوبه ، وينفخ النار ، ويكنس أرض الدار ، ويحلب عزة البيت في فنائه ، ويتنازع الطعام من السوق . وكان يأكل بيده ، ويلتق أصابعه بعد كل وجبة ، وكان طعامه الأساسي التمر وخبز الشعير ، وكان اللبن وعسل النحل كل ما يستمتع به من الترف في بعض الأحيان :

ولم يتعاط الخمر التي حرمها هو على غيره ، وكان لطيفاً مع العطاء ، بشوشاً في أوجه الضعفاء ، عظيماً مهيباً أمام المتعاطمين المتكبرين ، متسامحاً مع أعوانه ، يشترك في تشييع كل جنازة تمر به ، ولم يتظاهر قط بأبهة السلطان . وكان يرفض أن يوجه إليه شيء من التعظيم الخاص ، يقبل دعوة العبد الرقيق إلى الطعام ، ولا يطلب إلى عبد أن يقوم له بعمل يجذ لديه من الوقت والقوة ما يمكنه من القيام به لنفسه . ولم يكن يفتق على أسرته إلا القليل من المال رغم ما كان يرد إليه من النوى وغيره من الموارد ، أما ما كان ينفقه على نفسه فقد كان أقل من القليل . وكان يخصص الصدقات بالجزء الأكبر من هذا المال ، لكنه كان ككحل للناس يعنى بمظهره الشخصي ويقضى في تلك العناية كثيراً من الوقت ، فكان يتعطر ويكتحل ، ويصبغ شعره ، ويلبس خاتماً نقش عليه « محمد رسول الله » ، وربما كان الغرض من هذا الخاتم هو توقيع الوثائق والرسائل . وكان صوته موسيقياً حلواً يأسر القلوب ، وكان مرهف الحس إلى أقصى حد ، لا يطبق الروائح الكريهة ، ولا صلصلة الأجراس ، أو الأصوات العالية « واقصد في مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » . وكان قلقاً عصبي المزاج ، يرى أحياناً كاسف البال ، ثم تنقلب فجأة مرحاً كثير الحديث ؛ وكان حلو الفكاهة فقد (٥ - ج ٢ - مجلد ٤)

قال مرة لأبي هريرة ، وكان يتردد عليه كثيراً : « يا أبا هريرة زرعياً تزدرد حباً » . وكان محاربا صارماً لا يرحم عدواً (*) ، وقاضياً عادلاً في وسعه أن يقسو ويغلدر ، ولكن أعماله الرحيمة أكثر من أن تعد . وقد قضى على كثير من الخرافات الممجية كفقء أعين بعض الحيوانات لوقايتها من الحسد ، أو ربط بعير الميت عند قبره . وكان أصدقاؤه يحبونه حبا يقرب من العبادة ، وكان أتباعه يجمعون بصاقه أو شعره يعد قصه ، أو الماء الذي يغسل به يديه ، لاعتقادهم أن في هذه الفضلات شفاء لهم من ضعفهم أو مرضهم : وقد أعانه نشاطه وصحته على أداء جميع واجبات الحب والحرب (**) ، ولكنه أخذ يضعف حين بلغ التاسعة والخمسين من عمره . وظن أن يهود خيبر قد دسوا له السم في اللحم قبل عام من ذلك الوقت ، فأصبح بعد ذلك الحين عرضة لحميات ونوبات غريبة . وتقول عائشة إنه كان يخرج من بيته في ظلام الليل ، ويزور القبور ، ويطلب المغفرة للأموات (†) ، ويدعو الله لهم جهرة ، ويهشهم على أنهم موتى . ولما بلغ الثالثة والستين من عمره اشتدت عليه هذه الحميات ، وحدث في إحدى الليالي أن شكت عائشة الصداع ، وأن شكاه هو نفسه وسألها وهو يمازحها ألا تفضل أن تموت هي قبلي ، فتحظي بأن بدفنها رسول الله ، فأجابته بحديثها المعهود ، أنه حين يعود من دفنها سيأتي بعروس أخرى مكانها . وظلت الحمى تعاوده أربعة عشر يوماً بعد ذلك الوقت ، وقبل وفاته بثلاثة أيام نهض من فراشه ،

(*) كان النبي رحيماً بالناس جميعاً كما يقول المؤلف ، هذا ولم يكن للرسول شخصياً أعداء بل كان هؤلاء أعداء الله وأعداء دينه الذي ارتضاه للناس جميعاً وعملوا ما في وسعه لإطفاء نور الله ، فلا جرم أن تكون من الرسول شدة على بعضهم حين يتبين له أنهم مصروا على عدوانهم .

(**) لعله يريد واجبات الحب للمسلمين والحرب للدفاع عنه . (ع)

(†) يشير المؤلف إلى قول الرسول في أوائل مرضه الذي توفي فيه « إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع (مدافن أهل المدينة) ثم ذهب فعلاً واستغفر لهم . (راجع سير ابن هشام ج ٢ ص ٣٦٦) . (ع)

ودخل المسجد وشاهد أبا بكر يوم المسلمين للصلاة بدله ، فجلس متواضعاً إلى جانبه حتى أتم صلاته . وفي اليوم السابع من شهر يونيه عام ٦٣٢ توفى ورأسه على صدر عائشة :

وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الزوحي والأخلاق لشعب ألقى به في دياجير الممجية حرارة الجحور وجذب الصحراء ، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أى مصلح آخر في التاريخ كله ، وقل أن نجد إنساناً غيره حقق كل ما كان يحلم به . وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين ، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى ، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذى سلكوه ، فقد لجأ إلى خيالهم ، وإلى مخاوفهم وآمالهم ، وخاطبهم على قدر عقولهم ، وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جدباء ، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان ، قليل عددها متفرقة كالمتمتة ، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة . وقد كبح جماح التعصب والخرافات ، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ، ودين بلاده القديم ، ديناً سهلاً واضحاً قوياً ، وصرحاً خلقياً قوامه البسالة والعزة القومية . واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة ، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة ، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم :

الباب التاسع

القرآن

الفصل الأول

شكله

لفظ القرآن مشتق من القراءة ، ويطلق على كتاب المسلمين كله أو على أى جزء منه ، وهو يتألف كما يتألف الكتاب المقدس ، كتاب اليهود والمسيحيين ، من أجزاء جمع بعضها إلى بعض . ويعتقد المسلمون أن كل حرف منه موحى به من عند الله ، ويختلف عن التوراة في أنه كله نطق به رجل واحد ، ومن أجل هذا فهو بلا ريب لا يعادله في آثاره أى كتاب آخر جاء به رجل واحد . وقد أملى النبي في أوقات مختلفة من الثلاث والعشرين السنة الأخيرة من حياته ما كان يوحى إليه من آياته (*) ، وكان كل ما يوحى به إليه يكتب على الرق ، أو الجلود ، أو سعف النخل ، أو العظام ثم يحفظ مع الآيات السابقة دون أن يراعى في ذلك ترتيب زمنى أو منطقي ، ولم تجمع هذه الآيات كلها في كتاب واحد في حياة النبي ، ولكن بعض المسلمين كانوا يحفظونها عن ظهر قلب ، ولما مات عدد من هؤلاء القراء ولم يكن هناك من يخلفهم. أمر الخليفة أبو بكر زيد بن ثابت كبير كتاب الوحي أن يبحث عن آيات القرآن ويجمع زيد أجزاءه من سعف النخل ، وألواح الحجارة البيضاء ، وصدور الناس كما تقول الرواية المأثورة ، فلما تم له ذلك نسخت منه عدة

(*) القرآن كله من عند الله وقد جاء على لسان رجل واحد .

صور . ولما كانت ألفاظه خالية من الحركات فقد اختلف بعض القراء في تفسير بعضها واختلفت نصوصها(*) في مدن العالم الإسلامي الآخذ في الاتساع ، فرأى الخليفة عثمان أن يقضى على هذا الاختلاف ، وأمر زيداً وثلاثة من علماء قرينش أن يراجعوا مخطوط زيد (٦٥١) ثم كتبت نسخ منه وأرسلت إلى دمشق والكوفة والبصرة ، وظل القرآن من هذا الوقت محفوظاً نقياً محوطاً بأعظم العناية والتبجيل .

ومن شأن الظروف التي أحاطت بالقرآن أن تعرضه للتكرار وعدم الانسجام ، فكل فقرة بمفردها تؤدي إلى غرض واضح مفهوم - فهي إما أن تقرن عقيدة ، أو تأمر بصلاة أو دعاء ، أو تسن قانوناً ، أو تشهر بعدو ، أو توجه إلى عمل ، أو تروى قصة ، أو تدعو إلى قتال ، أو تعلن نصراً ، أو تصوغ عهداً ، أو تطلب مالا ، أو تنظم شعيرة دينية ، أو تنص

(*) لم تختلف نصوص القرآن مطلقاً ولكن حصل في قراءته بمض الاختلاف لأسباب منها الخلو من النقط والشكل المعتاد في كتابتنا في هذه الأيام . أما مسألة جمع القرآن فحتاج إلى شيء من التفصيل الدقيق ، ذلك بأن هذا الجمع قد حدث ثلاث مرات ، أولها ما سنذكره بعد في تعليقنا على قول المؤلف إن محمداً لم يكن يريد جمعه في كتاب واحد ، والثانية كانت أيام أبي بكر الصديق بعد أن أشار به عمر بن الخطاب ، فكان أن قام زيد بن ثابت بتتبع القرآن وجمعه ما كان مكتوباً فيه حتى جمع كله في صحف حفظته كاملاً ، ولا نعرف أنه كتب منه عدة نسخ كما يقول للمؤلف ، والثالثة كانت في أيام عثمان بن عفان وفيها رقت سورة بعضها في إثر بعض على حسب ما عرفوه من قبل عن الرسول .

وفي هذه المرة التي كانت في أيام عثمان كان الذين قاموا بجمعه وترتيب سورة أربعة : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . وقد قال الخليفة لهؤلاء القرشيين الثلاثة : « إذ اختلفتم أتمم زيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قرينش فإنه إنما نزل بلسانهم » . راجع الإتيقان في علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطي ، المطبعة الأزهرية سنة ١٣١٨ هـ ج ٦ ص ٦١ . (٥)

على مبدأ أخلاقي ، أو تضيع نظاماً للتجارة ، أو الصناعة ، أو عمل من الأعمال المالية (*) .

ولكننا لسنا والقيين من أن محملاً كأن يريد جمع هذه الأجزاء المنفردة كلها في كتاب واحد ، فقد كان كثير منها حديثاً لرجل بعينه في وقت بعينه (**) ، ويصعب فهمه دون معرفة واسعة بتاريخ ذلك الوقت وتقاليده أهله . وعدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة ، وهي مرتبة حسب طولها ، لا بحسب تزولها فإن ذلك غير معروف ، فهو يبدأ بالسور الطوال وينتهي بالقصار ، وإذا كانت قصار السور بوجه عام أقدم عهداً من طولها ، فإن القرآن تاريخ مقلوب (+) . فالسور المدنية وهي التي يبدأ بها الكتاب

(*) بحث كثيرون من المفسرين مسألة مناسبة الآيات والسور وارتباطها ببعضها ببعض ، ومن العلماء من أفرد ذلك بالتأليف مثل برهان الدين البقاعي في كتاب سماه « نظم الدرر في تناسب الآيات والسور » إلا أن كثيراً من المناسبات التي ذكرها لا تخلو من تكلف ولهذا يقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام : « المناسبة علم حسن ، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصاب عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أخفئه ، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بضمه ببعض » (الإقتان السيوطي ج ٢ ص ١٠٨) :

ونقول نحن إن ورود القرآن على ما هو عليه من الاستطراد أحياناً في موضوعات مختلفة قد لا يكون بين بعضها والبعض الآخر رباط وثيق ، مما يجعل القارئ يقبل على تلاوته دائماً بشوق وشغف ولا يحس من ذلك أقل ملل أو عدم انسجام ، فهو ينتقل معه في فنون مختلفة من العلوم والمعارف التي لا يكاد يحصرها العدد . (ي)

(**) القرآن كلام الله نزل على نبيه . ومن الحق أنه لم يجمع كله في مصحف واحد أيام الرسول ، لسبب طبيعي هو أنه كان يتوقع دائماً أن ينزل منه شيء جديد ، إلا أنه قد كتب كله في عهده صلى الله عليه وسلم وبأمره وإن لم يجمع في كتاب واحد ولم ترتب سورته . فلما انقضى عهد نزول القرآن بوفاة الرسول جاء حين كتابته في مصحف واحد وهو ما فعله الصحابة رضوان الله عليهم . (ي)

(+) ترتيب السور فيما بينها وكذلك ترتيب آيات كل سورة أخذ عن الرسول نفسه =

عملية في أغراضها عادية في أسلوبها ، أما السور المكية فهي شعرية روحية
وبها ينتهى الكتاب . وخلق بنا أن نبدأ بقراءته من نهايته(*) .

وجميع السور ما عدا فاتحة الكتاب حديث من الله أو جبريل إلى النبي
أو أتباعه أو أعدائه ؛ وتلك هي الطريقة التي سار عليها أنبياء بني إسرائيل ؛
وهي التي نراها في كثير من فقرات أسفار موسى الخمسة . وكان محمد
يعتقد أنه ما من قانون أخلاقي يمكن أن يقع في النفوس وأن يطاع طاعة
تكفل للمجتمع النظام والقوة إلا إذا آمن الناس أنه منزل من عند الله . وهذه
الطريقة تتفق مع الأسلوب الحماسي الفخم ومع البلاغة اللذين يسموان في

= ولم يراع في هذا الترتيب أن يكون حسب تواريخ النزول ، ولذلك لا يمكن القول إن
القرآن تاريخ مقلوب لأن قصار السور أقدم عهداً من طولها بوجه عام .

على أن مسألة تاريخ نزول القرآن ، سورة وآياته ، مسألة عنى بها العلماء المحققون ، وقد
وصلوا من أبحاثهم إلى نتائج لها قيمتها الكبيرة ، وإن لم يتفقوا جميعاً في هذا على رأى واحد .
(راجع مثلاً «الإتقان» للسيوطي ج ١ ص ٩ وما بعدها و «مقدمتين في علوم القرآن»
نشرها المستشرق آرثر جفرى وطبعها في مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة سنة ١٩٥٤ م
ص ٨ وما بعدها .

(*) لا يمكن الحكم على أسلوب القرآن بقراءة ترجمته ، ولهذا لا يمكن القول إن
أسلوب السور المدنية التي يبدأ بها المصحف أسلوب سهل أو إنه خليق بنا أن نبدأ بقراءته
من نهايته . وأصدق من هذا قول المؤلف في موضع آخر إن لغة القرآن هي اللغة العربية
الفصحى ولأنه غنى بالتشبيهات والاستعارات القوية الواضحة والعبارات الخلابة التي لاتوائم ذوق
الغربيين . وهذا بما يستطيع تبيته من التراجم نفسها فضلاً عن لغة القرآن الأصلية .

إن القرآن معجز بأسلوبه وبكل كلمة منه ، ولو كان أسلوب بعض سوره سهلاً لما عجز
العرب في عهد الرسول وهم أساطين الكلام والبلاغة أن يأتوا بسورة من مثله أو بعض آيات
منه . إن القرآن بلغته وتعاييره وأسلوبه معجز كل الإعجاز وهو يختلف بطبيعة الحال باختلاف
المقامات والأحوال ، وإن كان ذلك كله في أعلى طبقة من البلاغة تنقطع الرقاب دون الإتيان
بشيء قريب منه ؛ وكفى أنه تنزيل من رب العالمين . (ى)

بعض الأحيان عن أقوال النبي أشعيا . وأسلوب القرآن وسط بين الشعر والنثر تتخلله كثير من الفقرات الموزونة المقفاة ، ولكنها لا تتبع أوزاناً ولا قوافي خاصة منتظمة ؛ وفي السور المكية الأولى نغمات موسيقية رنانة ، وأسلوب جزل قوى لا يدركه كل الإدراك إلا الملمون باللغة العربية الذين يعطفون على الدين الإسلامى . ولغة القرآن هى اللنة العربية الفصحى الخالصة ، وهو غنى بالتشبيهات والاستعارات القوية الواضحة والعبارات الخلابة التى لا توائم ذوق الغربيين . وهو يجمع الآراء خير كتاب وأول كتاب ، فى الأدب النثرى العربى .

الفصل الثاني

العقائد(*)

من بين الأغراض التي يهدف لها الدين أن يكون سبيلاً إلى الحكم الأخلاقي ، وليس من شأن المؤرخ أن يسأل هل هذا الدين أو ذلك حق أو باطل ، وأنى له العلم المحيط بكل شيء والذي يوصله إلى هذه المعرفة ؟ وإنما الذي يسأل عنه هو العوامل الاجتماعية والنفسانية التي أدت إلى قيام هذا الدين ، وإلى أى حد أفلح في تحويل الوحوش إلى آدميين ، والهمج إلى مواطنين صالحين ، والصدور الفارغة إلى قلوب عامرة بالأمل والشجاعة ، وعقول مطمئنة هادئة ، وما مقدار ما تركه بعد ذلك من الحرية لتطور العقول البشرية ، وما هو أثره في التاريخ ؟

وترى اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام أن أهم ما يحتاج إليه المجتمع السليم هو الإيمان بأن هذا الكون خاضع لحكم أخلاقي مسيطر على شئونه - أى الإيمان بأنه مهما يكن في هذا الكون من شر ، فإن عقلاً خيراً ، يعجز الناس عن إدراك كنهه ، يسيّر المسرحية الكونية إلى غاية عادلة نبيلة . والأديان الثلاثة التي أعانت على تكوين عقلية الناس في العصور الوسطى مجمعة كلها على أن هذه العقلية الكونية هي الله الواحد ذو الجلال . غير أن المسيحية قد أضاقت إلى هذه العقيدة أن الله الواحد يظهر في ثلاثة أقانيم مختلفة ، أما اليهودية والإسلام فتريان أن هذا الاعتقاد ليس إلا شركاً مقنعاً ، وتعلنان وحدانية الله بأقوى الألفاظ وأشدّها حماسة . وفي القرآن سورة خصصت كلها لهذا الغرض هي السورة الثانية عشرة بعد المائة :

(*) سنذكر في هذا الفصل بعض الأحاديث النبوية لنوضح بها بعض آيات القرآن . ولن يفوتنا أن نشير في المتن أحياناً ، وفي الهامش على الدوام ، أنها أحاديث وليست آيات قرآنية . (المؤلف)

ويردده المؤذن من فوق مائة ألف مثذنة كل يوم ، فالله هو أصل الحياة ومنشؤها ، ومصدر كل خير على ظهر الأرض . « وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » (سورة الحج الآية ٥) « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حباً وعنباً ، وقضباً وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا » (سورة عبس الآيات ٢٤ - ٣٠) . . . « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (سورة الأنعام الآية ٩٩) .

والله أيضاً إله القوة « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها . . . وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى » . . . « وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات » (سورة الرعد الآيتان الثانية والثالثة) . ويقول في آية الكرسي الشهيرة « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم » (سورة البقرة الآية ٢٥٥) .

والله مع سلطانه وعدله رحيم أبدا ، فكل سورة من سور القرآن ، ما عدا سورة التوبة ، وكل رسالة يكتبها مسلم متمسك بدينه تبدأ بتلك العبارة الفخمة « بسم الله الرحمن الرحيم » . ومع أن النبي لا يفتأ يذكر الناس بأحوال النار ، فإنه لا يمل من الثناء على رحمة الله الأبدية .

والله كما يصفه القرآن يحيط علما بكل شيء ، « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » (سورة ق ١٦) .

والله يعلم المستقبل كما يعلم الحاضر والماضى ، وإذن فكل الأشياء سابقة فى

علمه ، وكل شيء قد تقرر وتحدد منذ الأزل بإرادة الله ، ومن ذلك مصير كل نفس وما سيصيبها من خير وشر . فالله يعلم منذ الأزل منذ الذي ينجو من العذاب وهو الذي « يضل من يشاء ويهدي من يشاء » (سورة فاطر ٨) « يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما » (سورة الإنسان ٣١) وكما أن يهوه قد طمس على قلب فرعون فجعله قاسيا ، كذلك يقول الله عن الكافرين « إنا جعلنا في قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا » (سورة الكهف ٥٧) ، وما من شك في أن المقصود من هذه الآية وأمثالها حث الناس على الإيمان غير أنه مع ذلك قول عفيف في أى دين ، ولكن محمداً يؤكده بنفس القوة التي يؤكد بها القديس أوغسطين أمثاله . « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (سورة السجدة ١٣) . وهذا الإيمان بالقضاء والقدر جعل الجبرية من المظاهر الواضحة في التفكير الإسلامي(*) ، وقد استعان بها النبي وغيره من الزعماء لبث الشجاعة في قلوب المؤمنين عند القتال لأن ساعة الموت لا يقدمها خطر ولا يؤخرها حذر . وبفضل هذه العقيدة لاقى المؤمنون أشد صعاب الحياة بجنان ثابت ، ولكنها أيضا كانت من الأسباب التي عاقت تقدم العرب وعطلت تفكيرهم في القرون المتأخرة .

ويتحدث القرآن كثيراً عن الملائكة والجن والشيطان . فأما الملائكة فهم رسل الله وهم الذين يحصون أعمال البشر الطيب منها والخبيث . والجان مخلوقون من النار ، ويختلفون عن الملائكة في أنهم يأكلون ويشربون ، ويتناكحون ويموتون ، ومنهم الصالحون الذين يستمعون إلى القرآن (سورة الجن) ولكن

(*) إن المسلمين مع إيمانهم بقضاء الله وقدره يعتقدون أن الله شاءت عدالته أن يكون للإنسان من الحرية في أعماله ما يجعله عدلا مستولا عنها ، وليست الجبرية مذهب أهل السنة والجماعة ولكنها فئة معروفة من الفرق الإسلامية . (ى)

معظمهم دون ذلك يقضون وقتهم في تضليل الناس وغوايتهم . وزعيم الجن الأشرار إبليس ، وكان من قبل من الملائكة الأخيار ولكنه أبى أن يسجد لآدم فطرده الله من رحمته .

والمحور الذى تدور عليه المبادئ الأخلاقية في القرآن ، كما هى الحال في كتاب العهد القديم ، هو خوف العقاب ورجاء الثواب في الحياة الآخرة ، « اعلّموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد » (سورة الحديد ٢٠) وليس فيها محقق إلا شيء واحد هو الموت . وكان بعض العرب يعتقدون أن كل شيء ينتهى عند الموت ، ويسخرون من عقيدة الدار الآخرة ، ويقولون « إن هذا إلا أساطير الأولين » (سورة المؤمنون ٨٣) ، ولكن القرآن يؤكد بعث الجسم والروح (سورة القيامة ٣-٤) ولن يكون هذا البعث بعد الموت مباشرة ، بل إن الموقى سينامون إلى يوم القيامة ، ولكن نومهم هذا سيحملهم على الظن بأن استيقاظهم سيكون بعد موتهم على الفور . وعلم يوم القيامة عند الله وحده ، ولكنه تسبقه علامات تنبئ به ، فإذا قرب ذلك اليوم ضعف إيمان الناس ، وفسدت أخلاقهم ، وكثر التشاحن والشقاق والحروب العوان ، وتعمى العقلاء الموت . وستكون آخر النذر ثلاث نفخات في الصور ، ففي النفخة الأولى تكسف الشمس ، وتهوى النجوم ، وتزول السموات ، وتذك الجبال والمباني فلا ترى فيها عوجا ولا أمنا ، وتجف مياه البحر أو تتطاير لها (سورة طه ١٠٢ وما بعدها) . وفي النفخة الثانية تهلك الخلائق جميعها - الملائكة والجن والبشر - إلا من رحم الله ، وبعد أربعين عاماً ينفخ إسرافيل النفخة الثالثة فتقوم الأجسام من القبور وتتصل بالأرواح ، ويتجلى الله لعباده تحف به الملائكة يحملون الكتب التى دونت فيها أعمال الناس جميعها وأقوالهم وأفكارهم (*) ،

(*) المعروف فيما يختص بالنفخ في الصور أنهما نفختان لا ثلاث نفخات ، وبمد النفخة الأولى يهلك كل الخلائق إلا من شاء الله وهم كما يقول النزلى في إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٦٧ =

وتوزن الحسنات أمام السيئات ويحاسب الإنسان على ما قدمت يداه . ويتقدم الأنبياء فيشهدون على من رفضوا رسالتهم ، ويشفعون لمن آمنوا بهم . ويسير الأختيار والأشرار جميعاً على الصراط - وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف - المعلق فوق الجحيم . فيسقط منه الأشرار والكفرة ، ويجتازه المصلحون آمنين إلى الجنة ، ولن يكون ذلك لما يستحقونه من عقاب أو ثواب بل لما ينالهم من رحمة الله (*). ذلك أن القرآن كبعض العقائد المسيحية يعنى على ما يظهر بصحة الإيمان أكثر مما يعنى بالسلوك الطيب ، فهو كثيراً ما ينذر من لا يقبلون دعوة النبي بعذاب النار في الآخرة (آل عمران الآيات ١ و ٦٣ و ١٣١ وسورة النساء ٥٦ و ١١٥ والأعراف والأنفال ٥٠ والتوبة ٦٣ الخ) . وإذا لم تكن الذنوب كلها بدرجة واحدة ولا من نوع واحد فقد جعلت النار سبع طبقات في كل طبقة من العقاب ما يتناسب مع الذنب الذي ارتكبه المذنب ، ففيها الحرارة التي تشوي الوجوه ، وفيها الزمهير ، وحتى من يستحقون أخف العقاب يلبسون أحذية من نار ، ويشرب الضالون المكذبون من الحميم وشرب الهيم (سورة الواقعة ٤٠ وما بعدها) ، وربما كان دانتى قد أبصر بعض الرؤى التي وصفها في ملهاته في القرآن .

وتختلف صورة الجنة في القرآن عن صورتها في ملهاته دانتى فهي في القرآن واضحة ووضوح صورة النار . والجنة هي مقر المؤمنين الصالحين والذين يموتون في سبيل الله ،

= من طبعة المطبعة العامرة الشرقية سنة ١٣٥٦ هـ - جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت الذين يموتون أيضاً بعد حين . ثم يحيى الله إسرائيل فيأمره أن ينفخ النسخة الثانية التي بها يقوم الموق للحشر والحساب . راجع قوله تعالى في سورة الزمر الآية ٦٨ « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » راجع أيضاً كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ج ٣ ص ٤١٢ باب ما بين النفتين .

(*) يشترط أن يكون العمل الصالح الذي يثاب عليه الإنسان في الدار الآخرة قائماً على أساس الإيمان الصحيح . (ى)

والفقراء يدخلونها قبل الأغنياء . ومقر الجنة في السماء السابعة الفلكية أو ما بعدها ، وهي حديقة واسعة الأكناف تجرى من تحتها الأنهار وتظللها الأشجار الضليلة ، ويلبس فيها الصالحون ثياباً من سندس وإستبرق ، ويحلون بالجوهر ، ويتكثون على الأرائك ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون ؛ ويأكلون فاكهة من أشجار تطأطي أغصانها لهم ليملثوا من ثمارها أيديهم . فيها أنهار من لبن ، وعسل ، وخمر يشرب منها الصالحون (وإن كانت الخمر محرمة في الدنيا) في أكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون « لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً » (سورة النبأ ٣٥) ، « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . . . كأنهن الياقوت والمرجان » « وكواعب أترابا » . « وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون » ، أجسامهن من المسك مبرأة من نقائص الأجسام البشرية وآثامها . وسيكون لكل رجل من الصالحين اثنتان وسبعون من أولئك الحور جزاء له على ما عمل من الطيبات (*) ، ولن تنقص الأيام ولا الأعمال ولا الموت من جمال أجسامهن ، ولا من نعيم رفاقهن (سورة الدخان) وفي الجنة غير هذه المتعة الجسمية مُتَع أخرى روحية فمن المؤمنين من يتلون القرآن ، وسيجعل لهم الله جميعاً بوجهه « ويطوف عليهم ولدان مخلدون » . ترى منذاً الذي يستطيع أن يرفض مثل هذا النعيم .

(*) لعل الكاتب قد جاء بعدد الحور في الجنة من أقوال بعض المؤلفين الأقدمين . ومن الآراء التي لها قيمتها في هذا المعنى أنه يجب ألا تؤخذ هذه الأوصاف بمعناها الحرفي بل يجب أن نقاسمها على أنها تقريب للأذهان لما يستمتع به الصالحون في الجنة من نعيم روحى . (المترجم)

فصل ثالث القرآن والأخلاق

القانون والأخلاق في القرآن ، كما هما في التلمود ، شيء واحد ، فالسلوك الديني في كليهما يشمل أيضاً السلوك الدنيوي ، وكل أمر فيهما موحى به من عند الله . والقرآن يشمل قواعد للآداب ، وصحة الجسم ، والزواج والطلاق ، ومعاملة الأبناء والعييد والحيوان ، والتجارة ، والسياسة ، والربا ، والدّين ، والعقود ، والوصايا ، وشئون الصناعة والمال ، والجريمة ، والعقاب ، والحرب والسلام .

ولم يكن محمد يحقر التجارة ، فقد كان هو نفسه في صباه تاجراً ، وحين كان سيد المدينة كان يبتاع بعض السلع جملة ويبيعها أشتاتاً ، ويربح من هذا البيع دون أن يرى فيه عيباً أو منقصة ، وكان في بعض الأحيان يدلل على السلع بنفسه ، ولغة القرآن غنية بالتشبيهات التجارية ، ففيه وعد بالثراء في الدنيا للمسلمين الصالحين ، وإنذار بعذاب أليم للمخادعين والكاذبين من التجار . وفي الأحاديث النبوية تنديد بالمحتكرين والمضاربين الذين يحتجزون السلع ليبيعوها بأغلى الأسعار ، وحض على إيقاع الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم ، وأمر لصاحب العمل بأن يؤدي للعامل أجره قبل أن يحف عرقه . ويحرم القرآن الربا أخذاً أو إعطاء (سورة البقرة ٢٧٥ وسورة آل عمران ١٣٠) ، ولسنا نجد في التاريخ كله مصلحاً فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد لإعانة الفقراء . وكان يحض كل موص بأن يخص من ماله جزءاً للفقراء ، وإذا مات رجل ولم يترك وصية فرض على ورثته أن يخصصوا بعض ما يرثون لأعمال الخير (سورة النساء ٩٨) ، وقد قبل محمد كما قبل معاصروه نظام الاسترقاق على أنه من قوانين الطبيعة ، ولكنه بذل كل ما في وسعه لتخفيف أعباء الرق ومساوئه .

كذلك رفع من مقام المرأة في بلاد العرب ، وإن لم ير عيباً في خضوعها للرجل ، وهو يهيب بالرجال ألا يكونوا عبيداً لشهواتهم ، ويكاد يصف النساء كما يصفهم آباء الكنيسة المسيحية بأنهن من أكبر الشرور التي أصيب بها الرجال ، ويظن أن مصير الكثرة الغالبة منهن هو الجحيم (*) . وهو يجرم على النساء ولاية الحكم ، لكنه يسمح لمن أن يحضرن الصلاة في المساجد ، وإن كان يرى أن بيوتهن أولى بهن ، وكن إذا جئن إليه للصلاة أحسن معاملتهن ولو أتين معهن بأطفالهن . وقد روى عنه أنه كان إذا سمع بكاء طفل في أثناء الصلاة قصر خطبته حتى لا يؤذى بطولها أمه . وقضى القرآن على عادة وأد البنات (سورة الإسراء ٣١) وسوى بين الرجل والمرأة في الإجراءات القضائية والاستقلال المالي ، وجعل من حقها أن تشتغل بكل عمل حلال ، وأن تحتفظ بما لها ومكاسبها ، وأن ترث ، وتتصرف في مالها كما تشاء (سورة النساء ٤ و ٣٢) ، وقضى على ما اعتاده العرب في الجاهلية من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء فيما ينتقل لهم من متاع . وجعل نصيب الأنثى في الميراث نصف نصيب الذكر ، ومنع زواجهن بغير إرادتهن . وفي القرآن آية يأخذها بعضهم حجة على حجب النساء وهي « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » (سورة الأحزاب ٣٣) ، ولكن الآية إنما تؤكد النهي عن التبرج ، ويروى أن النبي أجاز للنساء أن يخرجن لقضاء حوائجهن . أما زوجاته هو فقد طلب إلى أتباعه

(*) ليست الذكورة أو الأنوثة سبباً لدخول الجنة والنار ، إنما يرجع ذلك إلى الإيمان والعمل الصالح أو الكفر والعمل السيئ . والله يثيب بالجنة من عمل صالحاً رجلاً كان أو امرأة . وهذا أيضاً شأن العقاب في الدار الآخرة . وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الكهف : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً » ، فلم يفرق سبحانه وتعالى بين الرجل والمرأة ، ومثل هذا كثير جداً في آيات أخرى . ويقول جل شأنه في سورة آل عمران : « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض ، فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا في سبيل ، وقتلوا وقتلوا ، لا كفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب » .

ألا يكلموهن إلا من وراء حجاب . وفيها عدا هذه القيود فإن نساء المسلمين كن يخرجن من البيوت بكامل حريتهن غير محجبات في أيام النبي وفي القرن الأول بعد الهجرة(*) .

وبعد فإن المناخ من العوامل التي تؤثر في الأخلاق الفردية ، ولعل حرارة الجو في بلاد العرب كانت من أسباب تقوية الغريزة الجنسية والنضج المبكر ، ولهذا يجب التسامح بعض الشيء فيما نراه من نزعات الرجال في هذه الناحية في البلاد التي يطول فيها فصل الحر - ولقد كانت الشرائع الإسلامية تحرص على طلب العفة من الرجال والنساء قبل الزواج(**) ، وزيادة الفرص لإشباع الغريزة الجنسية بين الأزواج . ولهذا حتم القرآن الاستعفاف قبل الزواج (سورة النور ٣٣) وأوصى النبي بالصيام للاستعانة على هذا الاستعفاف . ويشترط الدين الإسلامي رضاء الخطيبين لإتمام عقد الزواج . فإذا تم هذا الرضاء بشهادة الشهود العدول وأدى العريس مهر عروسه ، كان ذلك كافياً لإتمام العقد سواء رضى بذلك

(*) ملابس المرأة ، وزينتها ، ونظرها إلى الرجل ، ونظر الرجل إليها ، كل هذا نوع من الحجاب نزلت فيه آيات غير قليلة في سورة النور وسورة الأحزاب .

والخطاب في الآيتين اللتين أشار إليهما المؤلف لنساء النبي ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون أيضاً حشواً لنساء المسلمين جميعاً . وقد ورد في كتاب (أحكام القرآن المطبوع بالمطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٧ هـ ج ٣ ص ٤٥٥) . « وهذا الحكم وإن نزل خاصاً في النبي صل الله عليه وسلم وأزواجه فالمعنى عام فيه وفي غيره إذ كنا مأمورين باتباعه والافتداء به إلا فيما خصه الله به دون أمته » راجع في هذا أيضاً أحكام القرآن لابن العربي ج ٢ ص ١٦٦ وتاريخ التشريع للشيخ الحضري ص ٨٨ - ٨٩ . (ى)

(**) وحتمه بعد الزواج بنظيمة الحال ، وقوله تعالى « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله » معناه إن على الذين لا يجدون الوسيلة المالية للزواج أن يصبروا حتى يبرزقهم الله الفنى والقدرة على الزواج . (ى)

ولعل المؤلف يشير بقوله إن الشريعة الإسلامية تزيد الفرص لإشباع الغريزة الجنسية بين الأزواج إلى إباحة الزواج بغير واحدة ، ولكن هذه الإباحة أسباباً كثيرة ذكرها المؤلف نفسه في غير هذا الموضوع . (المترجم) (٦ - ج ٢ - مجلد ٤)

آباء(*) العروسين أو لم يرضوا . وقد أجاز للمسلم أن يتزوج مسيحية . أو يهودية ولكنه حرم عليه أن يتزوج من وثنية أو مشركة . وعدم الزواج في الإسلام ، كما هو في الدين اليهودي ، إثم ، والزواج فيه فريضة محبة إلى الله (سورة النور ٣٢) . وأجاز الإسلام تعدد الزوجات ليعوض بكثرة النسل نسبة الوفيات العالبة بين الذكور والنساء على السواء ، ولطول فترة النفاس ، وما يحدث في البلاد الحارة من نقص سريع في قوة الإخصاب ، ولكنه حدد عدد الزوجات الشرعيات بحيث لا يزيدن على أربع وإن كان النبي نفسه قد تجاوز هذا العدد . وحرم الإسلام التيسر (سورة المعارج ٢٩ و ٣١) ولكن ذلك عنده خير من الزواج بمشركة (سورة البقرة ٢٣١) (***) :

وبعد أن تسامح الإسلام مع الرجل إلى هذا الحد فمكنه بتعدد الزوجات من إشباع غريزته الجنسية إشباعاً حلالاً حرم الزنى أشد التحريم ، فجعل عقوبة الزانى والزانية مائة جلدة (سورة النور+) ولكنه اشترط لتوقيع هذه العقوبة

(*) يشترط الأحناف إجازة الولي في حال تزويج الصغير والصغيرة وإن كانا عاقلين . والشافعي يهتم بوجود الولي في حال تزويج البنت البكر وإن كانت بالغة وهو الذى يقوم بمقد الزواج (راجع بدائع الصنائع ج ٢ ص ٣٣ و ٢٤١) .

والزواج لابد فيه من مهر لا يشترط أداءه فعلاً ليم عقد الزواج ، وللزوجين أن يتفقا على تأجيله كله أو بعضه على ما هو متعارف (راجع بدائع الصنائع ج ٢ ص ٢٧٧ - ٢٧٨) . (ى)

(**) ليس الإمتناع عن الزواج إثمًا في كل حال بل المعروف فقهاً أن الزواج يكون واجباً إذا تاق الرجل إلى الاتصال بالمرأة ، وفرضاً إن تيقن أنه يقع في الزنى إن لم يتزوج ، وكان مع هذا مالكا للمهر والنفقة وإلا فلا إثم عليه بترك الزواج . ويكون الزواج مكروهاً إن خاف ألا يعدل مع الزوجة إن تزوج كما يكون حراماً إن تيقن أنه سيجور ولا يعدل . (راجع الدر المختار وحاشية ابن عابدين عليه ج ٢ ص ٢٦٧ - ٢٦٨) . (ى) :

(+) عقوبة الزانى هي الجلد كما يقول الكاتب إن كان غير متزوج ، وإلا كانت العقوبة هي الرجم . (ى)

ثبوت الزنى بشهادة أربعة من الشهود . ونهى القرآن فضلاً عن هذا عن رمي المحصنات فقال « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً » (سورة النور ٤) وقد قل الاتهام بالزنى بعد نزول هذه الآية .

وأباح القرآن الطلاق للرجل كما أباحه التلمود . وللمرأة أن تطلق نفسها من زوجها بأن ترد له صداقها (سورة البقرة ٢٢٩) ؛ لكن الإسلام وإن أجاز للزوج أن يطلق زوجته كما كان مباحاً له في أيام الجاهلية(*) ، فإن النبي لم يكن يشجع عليه ويروى عنه أنه قال إن « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » . هذا إلى أن القرآن نفسه يحض على عدم قطع العلاقة الزوجية إلا بعد أن تبذل الجهود للإصلاح بين الزوجين « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما » (سورة النساء ٣٥) . ولا يصبح الطلاق نهائياً إلا بعد صدوره ثلاث مرات بين كل واحدة والأخرى شهر على الأقل(**) ، ولكي يرغم الزوج على أن يطيل التفكير في إيمان الطلاق قبل صدورها ، فإن الإسلام لا يبيح بعد ذلك للرجل أن يرد مطلته إلى عصمته إلا إذا تزوجت من رجل آخر ثم طلقت منه . ولا يباح للزوج أن يقرب زوجته في الحيض وليس ذلك لأنها « نجسة » في ذلك الوقت ، وإن كان يطلب إليها أن تتطهر بعده قبل أن يقربها زوجها . والنساء حرث للرجال ومن الواجب على الرجل أن بنجب أبناء ، وينبغي للزوجة أن تقر للزوج بتفوقه عليها في الذكاء ، ومن ثم أن تكون

(*) الصحيح في هذا أنه لما كان الإسلام حريصاً على أن تكون العشرة بين الزوجين بالمعروف فإن العشرة إن سادت وأصبح من الخير لهما الانفصال كان ذلك بالطلاق برضاء الزوجين بلا مقابل أو بمقابل . (ى)

(**) الطلاق يكون نهائياً ولو كان مرة واحدة ، وانقضت عدة المرأة ، ويكون أيضاً نهائياً بعد الطلقة الثالثة كذلك إلا أنه في هذه الحال لا يكون للزوج أن يرد إليه مطلته ثلاثاً إلا بمقد جديد بعد أن تكون قد تزوجت بأخر ودخل بها وانقضت عندها . (ى)

له عليها القوامة وحق الطاعة ، فإذا عصته كان له أن يهجرها ويضربها (سورة النساء ٣٤) والمرأة التي تتوفى وزوجها راضٍ عنها تدخل الجنة(*) .

لكن ما فقدته النساء من حقوق قد نلن أكثر منه بفصاحة لسانهن ، ورقة قلوبهن ، ومفاتنهن ، شأنهن في هذا شأن النساء في العالم كله . وقد حدث مرة أن لام عمر بن الخطاب زوجته لأنها كلمته بلهجة رأى فيها شيئاً من قلة الاحترام ، فما كان منها إلا أن أكدت له أن هذه هي اللهجة التي تخاطب بها ابنته حفصة وغيرها من أزواج النبي رسول الله . فذهب عمر من فوره ولام على ذلك حفصة وزوجة أخرى من أزواج النبي . فقبل له إن هذا ليس من شأنه وخرج عمر غاضباً . وسمع النبي بهذا فأثار ضحكته : وكان النزاع يقوم في بعض الأحيان بين النبي وبعض أزواجه كما يحدث عند غيره من المسلمين ، ولكنه كان على الدوام يعزهن ، ويظهر لهن ولغيرهن من النساء المسلمات ما يليق بهن من عواطف طيبة . ويروى عنه أنه قال إن المرأة الصالحة أتمن شيء في العالم : ويذكر الله الناس في القرآن مرتين بأن أمهاتهم حملنهم كرهاً ووضعنهم كرهاً وأرضعنهم أربعة وعشرين أو ثلاثين شهراً*** ، ويروى عن النبي أنه قال ، « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

(*) دخول الجنة مشروط بفضل الله تعالى ، والعمل الصالح ، وقيام المرء بما عليه من حقوق الله ولبي الإنسان ، ومن هؤلاء بلا ريب حق الزوج على زوجته ، وليس معنى هذا أن الزوجة التي تتوفى زوجها راضٍ عنها تدخل الجنة وإن لم تقم بما عليها من واجبات أخرى . (ي)

(**) يقول جل جلاله في سورة البقرة : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » : ويقول في سورة الأحقاف : « ووضينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » ، والفصال هنا معناه الرضاع .. (ي)

الفصل الرابع

القرآن والدين والدولة

إن أعقد ما يلاقه المصلح من المشاكل مشكلتان ، أولاهما أن يجعل التعاون بين الناس محبوباً جذاباً ، والثانية أن يحدد سعة الكل والجماعة التي يشير عليها بالتعاون الكامل . والأخلاق المثالية تطلب المعاونة التامة بين كل جزء وبين كل - كل - أي بين العالم أجمع وحياته الجوهرية ونظامه أي الله سبحانه وتعالى . وفي هذه الدرجة من التعاون يصبح الدين والأخلاق شيئاً واحداً ، لكن الأخلاق وليدة العادة وحفيدة القسر ، وهي لا تنمى التعاون إلا بين مجموعات مزودة بالقوة ، ومن أجل هذا كانت كل الأخلاق الواقعية أخلاقاً جماعية .

وقد تحطت القوانين الأخلاقية التي جاء الإسلام بها حدود القبيلة التي ولد النبي بين ظهرانيها ، ولكنها اقتصرت على الجماعة الدينية التي أنشأها . فلما تم له النصر في مكة وضع القيود على غارات النهب بين القبائل ، وإن لم يكن في مقدوره (*) أن يمنع هذه الغارات منعاً باتاً ؛ وأشعر بلاد العرب كلها ، أي أنه أشعر بلاد الإسلام كلها في ذلك الوقت ، معنى جديداً للوحدة ، ووضع لها أفقاً للتعاون والولاء أوسع مما عرفته من قبل « إنما المؤمنون إخوة » (سورة الحجرات ١٠) وقللت العقيدة المشتركة ما بين الطبقات والأجناس من فروق ، وفي

(*) لقد أحصى التاريخ كل غزوة أو سرية كانت في عهد الرسول وكلها كانت بأمره ورضاه ؛ ولعل الغارات التي يشير إليها الكاتب هي سرايا التي كان يرسلها الرسول من آن لآخر دفاعاً عن الدعوة وكيان المسلمين . وليس حقاً ما يقوله من أنه لم يكن في مقدوره أن يمنع هذه الغارات منعاً باتاً وبخاصة مع ما هو مقرر من حرص المسلمين على تحري رضاه الرسول اتباعاً لأوامر الله جل شأنه في القرآن الكريم . (ى)

ذلك يقول النبي : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » .

تلك بلا مرء عقيدة نبيلة سامية ألفت بين الأمم المتباينة المنتشرة في قارات الأرض فجعلت منها شعباً واحداً ، وهي لعمرى أعظم معجزة للمسيحية والإسلام .

غير أن هذا الحب السامى الذى يدعو إليه الدينان يقابله عدااء شديد لغير المؤمنين(*) « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » . . . « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » سورة المائدة ٥١ و ٥٥ « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان » (سورة التوبة ٢٣) . لكن القرآن يأمر في آيات كثيرة بأن يسلك المسلمون جادة الاعتدال في الأخذ بهذه المبادئ فيقول « لا إكراه في الدين » « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا » (سورة البقرة ١٣٧) « وإن تولوا فإنا عليك البلاغ المبين » (سورة النحل ٨٢) « فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم » (سورة هود ٥٧) « فتول عنهم حتى حين ، وأبصرهم فسوف يبصرون » (سورة الصافات ١٧٤ و ١٧٥) « وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون » (سورة الصافات ١٧٨ و ١٧٩) . أما كفار العرب الذين لم يؤمنوا برسالة النبي فقد أمر بقتلهم . ولما أن بدأت الحرب مع قريش وانسلخت الأشهر الحرم أمر المسلمون بقتلهم حيث وجدوهم (سورة التوبة ٥) « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا

(*) لم يكن هذا العدااء الشديد إلا للذين يحاربون الإسلام ، وأما أهل الذمة فقد أمر الإسلام بأن يكون لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات . وحسينا في الدليل على هذا قوله جل شأنه في سورة المتحنة « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظادروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . (ي)

سبيلهم إن الله غفور رحيم» - «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه»، «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم» (سورة التوبة ٥ و ٦) . ومن وصايا أبي بكر لجيوشه ألا يقتلوا شيخاً عاجزاً عن القتال ، ولا طفلاً صغيراً ، ولا امرأة . وكان على كل مسلم سليم الجسم أن يشترك في الجهاد «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص» (سورة الصف ٤) . ومن أحاديث النبي «والذي نفس محمد بيده لجدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها» . و «لمقام أحدكم في الصف خير من صلواته ستين سنة» .

لكن هذه المبادئ الأخلاقية الحربية ليست في واقع الأمر تحريضاً على القتال «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» (سورة البقرة ١٩٠) . وكان محمد يتبع قوانين الحرب التي كان يتبعها المسيحيون في أيامه ويشن الحرب على كفار قريش المسيطرين على مكة كما كان إربان الثاني Urban II فيما بعد يدعو إلى قتال المسلمين المسيطرين على بيت المقدس .

ويلاحظ أن الثغرة التي لا بد من وجودها بين النظريات المجردة والأفعال الواقعية كانت أضيق في الإسلام منها في سائر الأديان . ولقد كانت العرب أكثر شهوانية من كثير من الشعوب ، ولهذا أجاز الإسلام تعدد الزوجات (***) ، أما فيما عدا هذا فإن الشريعة الإسلامية شديدة كل الشدة على من لا يتمسك من المسلمين بأصول الدين ، والذين يجهلون الإسلام هم وحدهم الذين يظنون أنه

(*) رواه أحمد والطبراني . وعن عمر بن الحصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «مقام الرجل في الصف في سبيل الله أفضل من عبادته ستين سنة» .
(**) لقد بيغنا فيما سبق أن تعدد الزوجات إنما يرجع إلى دوافع اجتماعية هامة تنبئ إليها كثيرون من الغربيين في هذه الأيام ، وليس سبب هذا التعدد أن العرب أكثر شهوانية من غيرهم من الشعوب . (ي)

دين سهل من الوجهة الأخلاقية . كذلك كان من طبيعة العرب الأخذ
بالتأثر ، ولهذا لم يدع الإسلام إلى مقابلة الإساءة بالإحسان(*) . فمن اعتدى
عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (سورة البقرة ١٩٤) « ولئن
انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » (سورة الشورى ٤١) ، تلك
أخلاق تليق بالرجال ، شبيهة بما جاء في العهد القديم ، فهي تؤكد فضائل
الرجولة كما تؤكد المسيحية فضائل الأنوثة . وليس في التاريخ دين غير دين الإسلام
يدعو أتباعه على الدوام إلى أن يكونوا أقوياء ، ولم يفلح في هذه الدعوة دين
آخر بقدر ما أفلح فيها الإسلام : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا
ورابطوا » (سورة آل عمران ٢٠٠) هكذا كان يقول أيضاً زرادشت
الذي نادى بمبادئ تنشئه قبل وجود تنشئه بزمن طويل .

والمسلمون يعظمون القرآن إلى درجة تقرب من العبادة ، وقد كتبوا
المصاحف وزينوها وبدأوا في سبيل ذلك كل ما يستطيعون من عناية مدفوعين
إليها بحبهم له ، وهو الكتاب الذي يبدأ منه أطفال المسلمين بتعلم القراءة ، وهو
المحور الذي يدور عليه تعليمهم والذروة التي ينتهي بها هذا التعليم . وقد ظل
أربعة عشر قرناً من الزمان محفوظاً في ذاكرتهم ، يستنير خيالهم ، ويشكل
أخلاقهم ، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال . والقرآن يبعث في النفوس

(ه) لم يجي الإسلام ليسائر العرب على ما كانوا عليه من عقائد باطلة وتقاليد غير مستحبة
بل جاء ليغير كل هذا إلى خير ، وقد فعل ذلك حقاً . وقد أمر بالرحمة والمغفرة ولكن في غير
ذلة لأنه دين قوة لا دين ضعف وخنوع . وللرسول مواقف تتجلى فيها هذه المغفرة . من
ذلك موقفه من قريش بعد فتح مكة التي آذته هو وأصحابه أشد الأذى ، فقد عفا عنهم جميعاً
وكان مما قال لهم « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . ويقول الله جل شأنه في سورة فصلت
« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة
كأنه ولي حميم .. » (ي)

الساذجة(*) أسهل العقائد ، وأقلها غموضاً ، وأبعدها عن التقييد بالمراسم والطقوس ، وأكثرها تحمراً من الوثنية والكهنوتية . وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي ، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية ، وحضهم على اتباع القواعد الصحية ، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ، ومن الظلم والقسوة ، وحسن أحوال الأرقاء ، وبعث في نفوس الأذلاء الكرامة والعزة ، وأوجد بين المسلمين (إذا استثنينا ما كان يقترفه بعض الخلفاء المتأخرين) درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض . ولقد علم الإسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة ، ويتحملوا قيودها ، بلا شكوى ولا ملل ، وبعمهم في الوقت نفسه إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهده التاريخ كله . وقد عرف الدين وحدده تحديداً لا يجد المسيحي ولا اليهودي الصحيح العقيدة ما يمنعه من قبوله .

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (سورة البقرة الآية ١٧٧) .

(*) الأفضل أن يقال السليمة الفطرة ولقد آمن بالقرآن كثير من رجال العلم والفكر في كل عصر من العصور الماضية وفي هذا العصر الذي نميش فيه ، كما آمن به من لا يحصون كثرة من الناس على اختلاف حظوظهم من العقل والفكر ، وما ذلك إلا لأنه جاء بالعقيدة الحقة الراضحة التي يتقبلها الجميع . (ي)

الباب العاشر

سيف الإسلام

٦٣٢ - ١٠٥٨

الفصل الأول

الخلفاء الراشدون

٦٣٢ - ٦٦٠

مات النبي ولم يعين من يخلفه من بعده ، ولكنه كان اختار أبا بكر (٥٧٣ - ٦٢٤) ليؤم المسلمين في مسجد المدينة ، واقتنع المسلمون بعد شيء من الاضطراب والتنافس بأن هذا التفضيل يجعل أبا بكر أحق الناس بأن يختار أول خليفة لهم (*) .

ولم يكن لفظ خليفة في بادئ الأمر لقباً لأبي بكر ، بل كان مجرد وصف له . وساء ذلك الاختيار علياً ابن عم محمد وزوج ابنته ، وظل ستة أشهر ممتنعاً عن بيعه أبي بكر ، وغضب لذلك أيضاً العباس عم النبي وعلى . ونشأ عن هذا الخلاف الأول أكثر من عشر حروب ، كما نشأت عنه أسرة عباسية حاكمة ، وانقسام اضطرب به العالم الإسلامي .

وكان أبو بكر وقتل في التاسعة والخمسين من عمره ، وكان قصير القامة ، نحيف الجسم ، قوى البنية ، قليل الشعر ، أبيض اللحية حمراء الصبغة ، بسيطاً

(*) وكانت هناك أسباب أخرى كثيرة جعلت المسلمين يختارون أبا بكر خليفة لهم منها شدة إيمانه ومناصرتة للنبي وقوة أخلاقه والتفضحية في سبيل الدين بنفسه وبماله . (المترجم)

في معيشته ، متقشفاً ، رحياً في حزم ، يعنى شخصياً بجميع شئون الإدارة والقضاء جليلاً وصغيرها على السواء ، لا يهدأ له بال حتى يأخذ العدل مجراه ، وظل يعمل ولا يتقاضى أجراً على عمله ، وظل شديد التقشف حتى أقنعه الشعب بأن ينزل قليلاً عن تقشفه ، ثم أوصى قبل وفاته بأن يعود إلى بيت مال المسلمين كل ما أرغم على أخذه منه . وحسبت قبائل بلاد العرب أن تواضعه ضعف . وإذا كان بعضها لم يتمكن الإسلام من قلوب أفرادها ، ومنهم من اعتنقه كارها ، فقد ارتد هؤلاء عنه ، وأبوا أن يؤدوا الزكاة التي فرضها عليهم الإسلام . ولما أصر أبو بكر على وجوب أدائها زحفوا على المدينة ، وجمع أبو بكر جيشاً في ليلة واحدة ، وقاده بنفسه في مطلع الفجر ، وبدد به شمل العصاة (٦٣٢) ، ثم أرسل خالد بن الوليد أشهر قواد المسلمين وأشدهم بطشا ، لقتال المرتدين في جزيرة العرب وإرغامهم على أداء الزكاة .

وربما كانت هذه الفتنة الداخلية من العوامل التي أدت إلى فتح العرب غرب آسيا ، ويلوح أن فكرة هذه المغامرة وهذا التوسع لم تكن تخاطر ببال أحد من زعماء المسلمين حين تولى أبو بكر الخلافة . وحدث أن بعض القبائل العربية الضاربة في بلاد الشام رفضت المسيحية والخضوع للدولة البيزنطية ، وصدت جيوش الإمبراطورية ، وأرسلت تطلب النجدة من المسلمين ، فأرسل إليها أبو بكر المدد ، وعمل على نشر كراهية الدولة البيزنطية بين القبائل العربية . وكانت هذه فرصة مواتية لضم شتات العرب وتوحيد صفوفهم في حرب خارجية ، وكان العرب - كما نعلم - قوماً ألقوا بالحروب ، فلبوا نداء أبي بكر لخوض غمارها وقد بدت في أول الأمر قصيرة الأجل . وسرعان ما أصبح بدو الصحراء المتشككون فيما مضى يضحون بحياتهم سبيل نصرته الإسلام .

واجتمعت أسباب عدة عملت كلها على اتساع ملك العرب ؛ فمن الأسباب الاقتصادية أن ضعف الحكومة النظامية في القرن السابق لظهور النبي قد أدى

إلى انهيار نظم الرى فى جزيرة العرب^(١) ، فضعفت من جراء ذلك غلات الأرض الزراعية ، وحاقت بالسكان المتزايدين أشد الأخطار ، ولهذا فقد تكون الحاجة إلى أرض صالحة للزراع والرعى من العوامل التى دفعت جيوش المسلمين إلى الغزو والفتح^(٢) . يضاف إلى هذا عدة أسباب سياسية : منها أن الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية قد أنهكتها الحروب ، وما حل بكليتهما من الدمار على يد الأخرى ، فكان ضعفتها مغرباً للعرب على غزو بلادها ؛ ولقد كانت الضرائب فى ولايات الدولتين تزداد زيادة مطردة ، والأداة الحكومية تزداد عجزاً عن تصريف شئون الحكم وحماية الأهلىن ، كذلك كان للصلات العنصرية بين المسلمين وسكان بعض الولايات شأن غير قليل فى هذا التوسع . فقد كان فى الشام والعراق قبائل عربية لم تجد صعوبة فى قبولها حكم العرب الغزاة أولاً ، ثم اعتناق دينهم بعدئذ . يضاف إلى هذا عوامل دينية : منها أن اضطهاد بيزنطية لليعاقة والنساطرة وغيرهما من الشيع المسيحية قد أحفظ عليها قلوب أقلية كبيرة من السوريين والمصريين ، بل تعداهما إلى بعض الحاميات الإمبراطورية . ولما سار الفتح فى طريقه زادت الأسباب الدينية قوة على قوتها ؛ فقد كان قادة المسلمين من صحابة النبي المتحمسين ، يصلون لله وهم يحاربون ، ويصلون أكثر مما يحاربون ، وقد بعثوا فى قلوب أتباعهم على مر الأيام روحاً حماسية قوية اعتقدوا معها أن الموت فى الجهاد يفتح لهم أبواب الجنة . وهناك فوق ذلك عوامل أخلاقية لها أيضاً شأنها فى هذه الفتوح : ذلك أن المبادئ الأخلاقية المسيحية والرهبة قد أضعفتا فى بلاد الشرق الأدنى ذلك الاستعداد للقتال الذى كان من طبيعة العرب ومن تعاليم الإسلام . ولقد كانت جيوش العرب بحراً من جيوش الفرس والروم نظاماً وأحسن قيادة ، يالفون المشاق وينالون جزاءهم من النىء ؛ لقد كان فى وسعهم أن يحاربوا ويطونهم خاوية ، ويعتمدوا على النصر فى الحصول على طعامهم . ولكنهم لم يكوتوا فى حروبهم هنجاً متوحشين ، انظر إلى ما أوصاهم

به أبو بكر : « أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا نخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغلدوا ، ولا تمثلوا ؛ ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ؛ ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ؛ ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا بعيراً إلا للأكلة ؛ وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ؛ وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منه شيئاً فاذكروا اسم الله عليه ؛ وتلقون قوماً قد محضوا أو ساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاحفظوهم بالسيف خفياً . . . اندفعوا باسم الله الخ » (٣) .

ولم يكن الأعداء يغيرون بين الإسلام والسيف ، بل كان الخيار بين الإسلام والجزية والسيف . وكانت هناك أخيراً أسباب حربية للغزو والفتح : ذلك أنه لما تضاعف عدد الجيوش العربية الظافرة ومن انضم إليها من المجندين كان لا بد من الزحف بهم إلى أرضين جديدة يفتحونها ليحصلوا منها على طعامهم وأجورهم إن لم يكن لغير ذلك من الأسباب . ونشأ من تقدمهم قوة هذا التقدم الدافعة ، فكان كل نصر يتطلب نصراً جديداً ، حتى أصبحت الفتوح العربية - التي كانت أسرع من الفتوح الرومانية ، وأبقى على الزمان من الفتوح المغولية - أعظم الأعمال إثارة للدهشة في التاريخ الحربي كله .

وحدث في أوائل عام ٦٣٣ ، بعد أن بسط خالد بن الوليد « لواء السلم » على جزيرة العرب ، أن دعت إحدى قبائل البدو الضاربة على حدود الجزيرة للانضمام إليها في محاربة بعض العشائر داخل حدود العراق ، وقبل خالد وخمسة من رجاله الدعوة لأنهم لم يكونوا يطبقون التعطل أو الركون إلى السلم طويلاً ، وانضم إليهم ألفان وخمسة من رجال القبائل ، وغزوا أملاك الفرس . ولسنا نعلم هل وافق أبو بكر على هذه الحماية قبل الإقدام عليها أو لم يوافق ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فالظاهر أنه قبل ما أسفرت عنه من نتائج قبول الفلاسفة . واستولى خالد على الحيرة وأصاب فيها من النبي .

ونال كل فارس منه ما أنطق أبا بكر بقاتله الشهيرة : « يا معشر قريش عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خرازيله ، أعجزت النساء أن ينثن مثل خالد ؟ » (٤) . ولقد أصبحت المرأة وقتئذ ذات شأن كبير في تفكير الظافرين ومغانمهم . وشاهد ذلك أنه بينما كان العرب يحاصرون حصن أثار قائد شاب من قواد العرب حماسة الجنود بأن وصف لهم جمال فتيات الشام ، ولما استسلمت الحيرة اشترط خالد على أهلها أن تعطى سيده منها تدعى كرامة إلى جندي عربي قال إن النبي قد وعده بها « فاشتد على أهل بيتها ، وأهل قريتها ما وقعت فيه وأعظموا الخطر فقالت : لا تخطروه ولكن اصبروا ما تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة ؟ فإنما هذا رجل أحق رأني في شيبتي فظن أن الشباب يدوم ، فدفعوها إلى خالد ، فدفعها خالد إليه ، ثم افتدت منه نفسها بألف درهم ، وكانت تسوى أضعاف ذلك » (٥) .

وقبل أن يستمتع خالد بثمار انتصاره في الحيرة بعث إليه الخليفة يأمره بالسير لإنقاذ قوة من العرب يتهددها جيش من الروم أكثر منها عدداً بالقرب من دمشق . وكان بين الحيرة ودمشق في ذلك الوقت شقة من الصحراء الجذباء الخالية من موارد الماء يقطعها المسافر في خمسة أيام . فجمع خالد الإبل ، وسقاها الماء بوفرة ؛ وكان الجنود في أثناء زحفهم يأخذون الماء من يطون الإبل بعد ذبحها ، ويسقون خيولهم لبنها . ولما أن وصل هو وجنوده إلى الجيش العربي الرئيسي المعسكر على ضفاف نهر اليرموك على بعد ستين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من دمشق كانت تلك المؤن قد نفذت . وهناك كما يقول المؤرخون العرب هزم ٤٠,٠٠٠ (٢٥,٠٠٠ ؟) من العرب ٢٤٠,٠٠٠ (٥٠,٠٠٠ ؟) من الروم في إحدى المعارك الفاصلة التي لا حصر لها في التاريخ (٦٣٤) . وهكذا قام الإمبراطور هرقل ببلاد الشام كلها في معركة واحدة ، فلما خسرها أصبحت تلك البلاد قاعدة للدولة العربية الآخذة في الاتساع :

وبينما كان خالد يقود جيوشه إلى النصر في هذه المعركة ، إذ وصلته رسالة تنبئه بوفاة أبي بكر ويأمره فيها عمر الخليفة الجديد أن يتخلى عن القيادة لأبي عبيدة . وأخفى خالد الرسالة عن المسلمين حتى انتهت المعركة . وكان عمر أبو حفصة ابن الخطاب (٥٨٢ - ٦٤٤) أكبر معين لأبي بكر وأعظم مشيريه ، وكان قد بلغ من الشهرة درجة لم يجد معها أحد سبباً للاعتراض حين اختاره أبو بكر خليفة للمسلمين من بعده . غير أن عمر نفسه كان يختلف عن صديقه أبي بكر كل الاختلاف . كان طويل القامة ، عريض المنكبين ، حاد الطبع شديد الانفعال ، لا يتفق معه إلا في بساطته وتقشفه ، وفي أنه كان مثله أصلع الرأس يصبغ لحيته . وكانت صروف الدهر وتبعات الحكم قد أنضجت عقله فجعلته مزيجاً عجيباً نادراً من حدة الطبع والقدرة على الحكم الهادئ الصادق ؛ ويحكى عنه أنه ضرب بدويّاً من غير حق ثم ألح عليه - دون جدوى - أن يكيل له من الضربات بقدر ما كاله هو . وكان شديد التمسك بالدين يطلب إلى كل مسلم ألا يجيد قيد شعرة عن الفضيلة . وكان يحمل معه درة يضرب بها كل من يراه من المسلمين خارجاً على أصول الدين^(٦) . وتقول بعض الروايات إنه ضرب ابنه حتى مات من الضرب لمعاقرته الخمر^(٧) . ويقول المؤرخون المسلمون إنه لم يكن له إلا قيص واحد ، وجلاب واحد رقعته عدة مرات ، وإنه كان يعيش على التمر وخبز الشعير ، ولا يشرب غير الماء ، وإنه كان ينام على سرير من جريد النخل ، وهو لا يكاد يكون أقل صلابة وخشونة من قيص الشعر ، وإن همه كله كان منصرفاً إلى نشر الإسلام بالسلم وبالحرث . ويقال إن أحد ولاة الفرس جاء إلى عمر يعرض عليه ولاءه ، فوجد فاتح الشرق نائماً على عتبة جامع المدينة ؛ ولكننا لا نجزم بصحة هذه القصص وأمثالها :

وكان السبب الذي من أجله عزل عمر خالداً من القيادة أن « سيف الله » كثيراً ما لوث شجاعته بقسوته . ونظر القائد البأسل إلى مسألة تنحيته نظرة

ملؤها الشهامة ، وما هو أجل من الشهامة ؛ فقد وضع نفسه تحت تصرف
أبي عبيدة بلا قيد ولا شرط . وأوّد، أبو عبيدة من الحكمة ما جعله يتبع
مشورة خالد في شئون الحرب ، ويعارض قسوته بعد النصر . وكان العرب
فرساناً مهرة لا يضارعهم في مهارتهم خيالة الفرس والروم ، ولم يكن في
أوائل العصور الوسطى إنسان أو حيوان يستطيع أن يقاوم صيحاتهم الحربية
العجيبة ، أو حركاتهم العسكرية الخيرة ، أو سرعة كرههم وفرهم ؛ وكانوا
يحرضون عن أن يختاروا للنزال الأراضي المستوية التي توائم حركات
الفرسان . واستولى العرب في عام ٦٣٥ على دمشق ، واستولوا على أنطاكية في
عام ٦٣٦ ، وعلى بيت المقدس في عام ٦٣٨ ، ولم ينته عام ٦٤٠ حتى كانت
بلاد الشام في أيدي المسلمين ، وقبل أن يختم عام ٦٤١ كانوا قد أمّوا فتح
بلاد الفرس ومصر . ووافق البطريق سفرونيوس Sophronius على تسليم
بيت المقدس إذا جاء الخليفة نفسه للتصديق على شروط التسليم ، وقبل عمر
هذا الشرط ، وجاء من المدينة في بساطة أفخر من الفخامة ، ومعه عدل من
الحب وكيس من التمر ، ووعاء ماء ، وصحفة من الخشب . وخرج خالد
وأبو عبيدة وغيرهما من قواد الجيش لاستقباله ، فغضب حين أبصر ثيابهم
المهفهفة ، وعدد خيولهم المزركشة ، وألقى بحفنة من الحصباء في وجوههم
ولامهم على أنهم جاءوا يستقبلونه في ذلك الزي . وقابل سفرونيوس مقابلة
ملؤها اللطف والحاملة ، ولم يفرض على المغلوبين إلا جزية قليلة ، وأمن
المسيحيين على كنائسهم . ويقول المؤرخون المسيحيون إنه طاف مع البطريق
بيت المقدس ، واختار في العشرة الأيام التي أقامها فيها موضع المسجد
الذي سمي فيما بعد باسمه . ولما سمع أن أهل المدينة يخشون أن يتخذ بيت
المقدس عاصمة للدولة الإسلامية عاد إلى عاصمته الصغيرة .

وما كاد الأمر يستتب للمسلمين في بلاد الشام وبلاد الفرس حتى أخذوا
يهاجروون من جزيرة العرب إلى الشمال والشرق ، وكانت هذه الهجرة شبيهة.

يهجرة القبائل الجرمانية إلى الولايات الرومانية التي غزتها هذه القبائل ،
وشملت الهجرة الرجال والنساء . . .

وبفضل هذه الهجرة والتسرى أصبح عدد العرب في بلاد الشام وفارس
نصف مليون نسمة قبل أن يحل عام ٦٤٤ . ونهى عمر الفاتح عن شراء
الأرض وفلحها ، وكان يرجو أن يبقوا في خارج جزيرة العرب طبقة
عسكرية ، تدمم الدولة بما يكفيهم ، لكي يحتفظوا بصفاتهم الحربية ، غير
أن أوامره في هذا قد أغفلت بعد موته ، بل لأنها كاد يقضى عليها سخاؤه في
أثناء حياته ؛ ذلك أنه كان يوزع أربعة أخماس الف على الجيش ، ويخص
بيت مال المسلمين بالخمسة الباقي . ولم تابت أقلية الرجال ذوى العقول الكبيرة
أن جمعت معظم الطيبات من هذه الثروة العربية الآخذة في النماء ، وأخذ
أشراف قريش يشيدون القصور الفخمة في مكة والمدينة ، فكان للزبير بيوت
في عدة مدن مختلفة ، وكان يمتلك ألف جواد ، وعشرة آلاف عبد ؛ وكان
عبد الرحمن يمتلك ألف بعير ، وعشرة آلاف رأس من الضأن ، وأربعمائة
ألف دينار (١٩١٢ر٠٠٠ دولار) وكان عمر ينظر بحسرة وأسى إلى هذا
الترف الذى أخذ مواطنوه يتردون فيه .

وطعنه مولى فارسى وهو يوم الصلاة فى المسجد (٦٤٤) ، ولم يستطع
عمر وهو على فراش الموت أن يقنع عبد الرحمن بأن يكون خليفة من بعده
فحين ستة من زعماء المسلمين ليختاروا من يخلفه ؛ فاختاروا من بينهم
عثمان . وكان عثمان بن عفان شيخاً مسناً ، طيب القلب ، حسن النية ، أعاد
بناء مسجد المدينة وجمعه ، وأعان بماله جيوش المسلمين التى نشرت
الإسلام فى هيرات ، وكابل ، وبلخ ، وتفليس ، وفى ربوع آسية
الصفرى حتى البحر الأسود ، ولكنه لسوء حظه كان شديد الولاء لأشراف
بنى أمية الذين كانوا فى أيام الإسلام الأولى ألد أعداء النبى ، فأقبل بنو أمية
على المدينة ليجنوا ثمار قرابتهم للخليفة ، ولم يكن فى وسعه أن يقاوم مطالبهم .
ولم يلبث أن تولى بعض المناصب الهجرية أكثر من عشرة منهم كانوا ينسحرون
(٧ - ج ٢ - مجلد ٤)

من تزمت أتقياء المسلمين وبساطتهم . وانقسم المسلمون بعد أن هدأت سورة النصر أحزاباً متباغضة شديدة العداء ، المهاجرون القادمون من مكة ضد الأنصار أهل المدينة ، وأهل مكة والمدينة أصحاب السلطان ضد دمشق ، والكوفة ، والبصرة ، وهى المدن الإسلامية الآخذة فى النماء السريع ، وبنو هاشم أهل النبی وعلى رأسهم على ضد بنى أمية وعلى رأسهم معاوية حاكم الشام وابن أبى سفيان ألد أعداء النبی فى بداية الدعوة . وفى عام ٦٥٤ أخذ رجل يهودى ممن اعتنقوا الإسلام يدعو فى البصرة إلى عقيدة ثورية ، مضمونها أن النبی سيبعث حياً على هذه الأرض ، وأن علياً أحق الناس بالخلافة ، وأن عثمان لا حق له فيها ، وأن من اختاروه لها جماعة من الطغاة الخارجين على الدين . ولما طرد هذا الداعية من البصرة نزح إلى الكوفة ، فلما أخرج من الكوفة انتقل إلى مصر حيث وجدت دعوته أذناً صاغية واعتنقها كثيرون ، وخرج من مصر إلى المدينة خمسمائة من المسلمين وطلبوا إلى عثمان أن يعتزل الخلافة ، فلما أبى حاصروا بيته ، ثم اقتحموا عليه حجراته وقتلوه وهو يتلو القرآن (٦٥٦) .

وفرزعماء بنى أمية من المدينة وبايع بنو هاشم علياً خليفة للمسلمين . وكان على فى شبابه مثلاً أعلى للتواضع ، والتقوى ، والنشاط ، والإخلاص للدين . وكان وقت أن بويع بالخلافة فى الخامسة والخمسين من عمره ، أصلم الرأس ، بمتلى الجسم ، لطيف المعشر ، محسناً ، كثير التفكير ، متحفظاً فى قوله ؛ ولم يكن مرتاحاً لهذه المأساة التى عدت فيها السياسة على الدين ، وحلت فيها الدسائس محل الخشوع والإخلاص للإسلام والمسلمين . وطلب إليه أن يقتصر من قتلة عثمان ، ولكنه تباطأ فتمكنوا من الفرار ؛ وطلب هو أن يعتزل من ولاهم عثمان مناصبهم ، فأبى معظمهم ؛ ولم يكتف معاوية برفض هذا الطلب بل نشر فى دمشق قبيص عثمان الملطخ بالدماء ، وأصابع زوجته التى قطعت وهى تحاول الدفاع عنه . وظهرت قريش معاوية ، وكان بنو أمية هم المسيطرين وقتئذ عليها ، وخرج على "علي"

طلحة والزبير من أصحاب الرسول ، وطالباها أيضاً بالخلافة . وخرجت عائشة زوج النبي من المدينة إلى مكة وانضمت إلى الثوار . ولما أعلن مسلمو البصرة انضمامهم للثائرين استنجد على بأهل الكوفة المضربين في القتال ، ووعدهم أن يتخذها عاصمة الدولة إذا هم لبوا نداءه . فأجابوا دعوته والتقى الجيشان في جنوبي العراق في واقعة الجمل - وسميت كذلك لأن عائشة كانت تحرض الجند على القتال من هودجها على ظهر الجمل . وهزم طلحة والزبير وقتلا ، وردت عائشة إلى بيتها معززة مكرمة ، ونقل على العاصمة إلى الكوفة القريبة من موقع بابل القديمة .

وجhez معاوية في دمشق قوة أخرى لقتال علي . وكان معاوية خبيراً بشئون الدنيا غير متمز في الدين ، وكان يرى في الدين بدبلا من الشرطة أقل منها نفقة ولكنه لا يصح أن يكون حائلا بينه وبين الاستمتاع بطيبات الحياة . وكان من الأغراض التي يبتغيها بمحاربة علي أن يعيد إلى الأقلية المصطفاة من قريش السلطة والزعامة اللتين كانتا لها قبل أيام النبي . وأعاد علي تنظيم قواه والتقت بجيش معاوية عند صفين على نهر الفرات (٦٥٧) . وكاد النصر يتم لعلي لولا أن عمرو بن العاص قائد جيش معاوية رفع المصاحف على أسنة الرماح طالباً تحكيم « كتاب الله » ، ولعله كان يعنى بهذا اتباع الأوامر الواردة في القرآن (الكريم) . ورضى علي بهذا الطلب إجابة لإلحاح جنوده ، واختير الحكمان وحدد لها ستة أشهر يفصلان خلالها في النزاع ويعود الجنود فيها إلى بيوتهم .

ولكن بعض رجال علي خرجوا عليه في ذلك الوقت ، وأفوا منهم جيشاً مستقلا وسماوا بالحوارج ، وقالوا إن الخليفة يجب أن يخناره الشعب وأن يكون من حقه أن يعزله ؛ وكان بعضهم فوضوين دينيين يرفضون كل حكومة ما عدا حكومة الله^(٩) وكانوا كلهم ينددون بما انغمس فيه حكام الإسلام الجدد من ترف وحب لمتاع الدنيا ، وحاول علي أن يعيدهم إلى الانضواء تحت لوائه بالحجة والإقناع فلم يفلح ؛ ثم استحالت تقواهم تعصباً ، وعبروا عنها بأعمال اتسمت بالعنف

والإخلال بالنظام ، فلم يسع علياً إلا أن يعلن عليهم الحرب ، ويشدت شملهم . واتفق الحكمان في الوقت المحدد لها على أن يتنحى على معاوية عن الخلافة ، وأعلن ممثل على خلعه ، ولكن عمراً لم يخلع معاوية بل ثبته خليفة للمسلمين . وفي هذا الاضطراب هجم رجل من الخوارج على عليّ بالقرب من الكوفة وطعنه في رأسه بسيف مسموم (٦٦١) . وأصبح المكان الذي مات فيه عليّ مزاراً مقدساً عند طائفة الشيعة التي تقده أعظم التقديس ، واتخذت ضريحه مكاناً تحج إليه كما يحج سائر المسلمين إلى مكة نفسها .

وبايع المسلمون في العراق الحسن بن علي بالخلافة ، وزحف معاوية على الكوفة ، فاستسلم له الحسن ، وقرر له معاوية مالا يعيش منه ، وانسحب الحسن إلى مكة ، ومات في الخامسة والأربعين من عمره (٦٦٩) ، فمن قائل إن الخليفة دس له السم ، ومن قائل إن زوجة من زوجاته دفعتها الغيرة إلى أن تدسه له . وبايع المسلمون جميعاً معاوية على كره منهم ، ولكنه أراد أن يضمن السلامة لنفسه ، ورأى أن المدينة بعيدة عن مركز العالم الإسلامي والسلطة الإسلامية ، فاتخذ دمشق مقراً للخلافة . وهكذا انتصرت الأرستقراطية القرشبية على الهاشميين آل بيت النبي ، واستحالت « الجهمودية » الدينية ، وهي الحكومة التي كانت قائمة أيام الخلفاء الراشدين ، ملكية دنيوية وراثية . وحل حكم الساميين في غرب آسية محل حكم الفرس والروم ، وظهرت آسية من تلك السيطرة الأوربية التي ظلت قائمة فيها ألف عام ، وشكلت بلاد الشرق الأدنى ومصر وشمال أفريقيا بالشكل الذي احتفظت به في جوهره ثلاثة عشر قرناً من الزمان .

الفصل الثاني

الخلافة الأموية

٦٦١ - ٧٥٠

يجب علينا ألا نظلم معاوية . لقد استحوذ على السلطة في بادئ الأمر حين عينه عمر الخليفة الفاضل النزيه والياً على الشام ، ثم بزعمه الثورة التي أوقد نارها مقتل عثمان ، ثم بما دبره من الدسائس البارعة التي أغتته عن الالتجاء إلى القوة إلا في ظروف جد نادرة ، ومن أقواله في هذا المعنى « لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت » قيل : وكيف يا أمير المؤمنين ؟ قال : « إذا مدوها خلتها وإن خلوها مددتها » (١٠) .

ولقد كان طريقه إلى السلطة أقل تخضباً بالدماء من طرق معظم من أسسوا أسراً حاكمة جديدة .

وكان يحس كما يحس كثيرون من المغتصبين أنه بحاجة إلى أن يحيط عرشه بالأبهة والمظاهر الفخمة ، وتشبه في هذا بأباطرة الدولة البيزنطية ، الذين تشبهوا بهم أنفسهم بملك ملوك الفرس . وإن بقاء هذا الطراز من الحكومة الملكية الفردية من عهد قورش إلى يومنا هذا ليوحى بصلاحيته لحكم الشعوب الجاهلة واستغلالها . وكان معاوية نفسه يشعر بأن حكمه هذا يبرره ما عاد على البلاد في أثنائه من الرخاء ، وانقطاع النزاع بين القبائل ، وما بلغت الدولة العربية الممتدة من نهر جيحون إلى نهر النيل من قوة وتماسك . وكان يرى ألا سبيل إلى انقضاء النزاع الذي لا بد أن يحدث عند اختيار الخليفة إذا ما اتبع مبدأ الانتخاب ، وما يؤدي إليه

هذا النزاع من اضطراب وفوضى ، إلا إذا استبدك به النظام الوراثي ، فنأدى بآبته يزيد ولياً للعهد ، وأخذ له البيعة من جميع ولايات الدولة العربية ، ومع هذا فإنه لما مات معاوية (٦٨٠) اشتعلت نار الحرب من أجل وراثة العرش ، كما اشتعلت في بداية حكمه . فقد أرسل مسلمو الكوفة إلى الحسين بن علي يعدونه بتأييد اختياره للخلافة إذا جاءهم واتخذ بلدهم مقراً لها . وخرج الحسين من مكة ومعه أسرته وسبعون من أتباعه المخلصين له ، ولما أصبحت تلك القافلة على بعد خمسة وعشرين ميلاً في شمال الكوفة قابلتها قوة من جند يزيد بقيادة عبيد الله ، وعرض حسين أن يسلم ، ولكن من كانوا معه أبو إلا القتال . وأصاب أحد السهام الأولى قاسماً ابن أخي الحسين وهو غلام في العاشرة من عمره ، فمات بين ذراعي عمه ، ثم سقط من بعده إخوة الحسين وأبناؤه ، وبنو أعمامه ، وأبناء إخوته واحداً بعد واحد ، حتى لم يبق أحد ممن كانوا معه ، واستولى الرعب والهلع وقتل على النساء ، ولما حمل رأس الحسين إلى الكوفة أقبل عبد الله ينكته بالقضيب ، فقال له أحد الحاضرين : « ارفع قضيبك فطال والله ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع فيه على فمه يلممه » (١١) (٦٨٠) . وأقام الشيعة في كربلاء حيث قتل الحسين مشهداً عظيماً تخليداً لذكراه ، ولا يزالون حتى اليوم يمثلون في كل عام مأساة قتله ، ويظهرون في ذلك أشد الحزن والأسى ، ويمجدون ذكرى علي وولديه الحسن والحسين .

كذلك ثار على يزيد عبد الله بن الزبير ، ولكن جنود يزيد السوريين هزموه وحاصروه في مكة ، وسقطت الحجارة من مجانيقهم في فناء الكعبة ، وانكسر منها الحجر الأسود ثلاث قطع ، واشتعلت النار في الكعبة نفسها ، والتمتها عن آخرها (٦٨٣) . ثم رفع الحصار عنها فجأة ، فقد مات يزيد واحتيج إلى الجيش في دمشق . وأعقب موتة سنان سادت فيهما الفوضى وتولى الخلافة فيها ثلاثة من الخلفاء جاء بعدهم عبد الملك بن مروان ابن عم معاوية فقضى على

هذا الاضطراب وأخذ الفتنة بشجاعة وقسوة ، فلما استتب له الأمر حكم البلاد بكثير من الرأفة ، والحكمة والعدالة . وأخضع قائده الحجاج بن يوسف أهل الكوفة وأعاد حصار مكة . ودافع عنها عبد الله ، وكان وقتئذ في الثانية والسبعين من عمره ، دفاع الأبطال ، وكانت أمه المعمرة تشجعه وتحرضه ، ولكنه هزم وقتل ، وحمل رأسه إلى دمشق ؛ وبعد أن ظل جسده مصلوباً بعض الوقت ، اسلم إلى أمه (٦٩٢) . وفي سني السلم التي أعقبت هذا القتال ، أخذ عبد الملك يقرض الشعر ، ويناضر الأدب ، ويعنى بشئون بيته ، ويربى أبناءه الخمسة عشر ، وقد تولى الخلافة منهم أربعة .

ودام حكمه عشرين عاماً مهد فيها السبيل للأعمال العظيمة التي قام بها ابنه الوليد الأول (٧٠٥ - ٧١٥) . في عهده واصل العرب فتوحهم ، فاستولوا على بلخ في عام ٧٠٥ ، وعلى بخارى في عام ٧٠٩ ، وفتحوا أسبانيا في عام ٧١١ ، وسمرقند في ٧١٢ . وفي الشرق حكم الحجاج البلاد بحزم وجد وقام فيها بأعمال إنشائية لا تقل عما بلحا إليه في هذا الحكم من قسوة : فقد جفف المستنقعات ، وأصلح كثيراً من الأراضي وأعدّها للزراعة ، وأعاد فتح ما طمر من قنوات الري وأصلحها . ثم لم يقنع بهذه الأعمال فأحدث انقلاباً كبيراً في طريقة الكتابة باستعمال حركات الإعراب ، وكان الحجاج مدرساً قبل أن يكون والياً . أما الوليد نفسه فكان مثلاً طيباً للحكام ، يعنى بشئون الإدارة أكثر من عنايته بالحرب ، ويشجع الصناعة والتجارة بفتح الأسواق الحديدية وإصلاح الطرق ، وينشئ المدارس والمستشفيات - ومنها أول مستشفى معروف للأمراض المعدية - وملاجئ للشيوخ ، والعجزة ، والمكفوفين ، ويوسع مساجد مكة والمدينة وبيت المقدس ويجملها ، وينشئ في دمشق مسجداً أعظم من هذه المساجد وأفخم لا يزال باقياً فيها حتى اليوم . وكان يجهد بين هذه المشاغل كلها متسعاً من الوقت يقرض فيه الشعر ، ويؤلف الألحان الموسيقية ، ويضرب على العود ،

ويستمع إلى غيره من الشعراء والموسيقين ، ويخصص من كل يومين يوماً للمنادمة (١٣) .

وخلفه أخوه سليمان (٧١٥ - ٧١٧) ، فأضاع المال والرجال في محاولة فاشلة للاستيلاء على القسطنطينية ، وسلى نفسه بالطعام والنساء ، ولم يذكره الناس بخير إلا لأنه أوصى بالخلافة لابن عمه عمر بن عبد العزيز (٧١٧ - ٧٢٠) . واعتزم عمر أن يكفر في خلافته عن جميع ضروب الفساد التي ارتكبتها أسلافه من خلفاء بني أمية . فجعل حياته كلها وقفاً على إحياء شعائر الدين ونشره فتكشف في لباسه ، وارتدى الثياب المرقعة حتى لم يكن أحد يظن أنه هو خليفة المسلمين ، وأمر زوجته بأن ترد إلى بيت المال ما أهداه إليها والدها من الحلوى النفيسة فصعدت بالأمر ، وأبلغ أزواجه أن واجبات الحكم ستشغله عن الالتفات إليهن وأذن لمن شئن منهن أن يفارقه . ولم يلتفت إلى الشعراء ، والخطباء ، والعلماء الذين كانوا يعتمدون في معيشتهم على بلاط الخلفاء ، بل قرب إليه أتقى العلماء في الدولة واتخذهم له أعواناً ومستشارين . وعقد الصلح مع الدول الأجنبية ، وأمر برفع الحصار عن القسطنطينية وعودة الجيش الذي كان يحاصرها ، واستدعى الحاميات التي كانت قائمة في المدن الإسلامية المعادية لحكم الأمويين . وبينما كان أسلافه من خلفاء الأمويين لا يشجعون غير المسلمين في بلاد الدولة على اعتناق الإسلام ، حتى لا تقل الضرائب المفروضة عليهم ، فإن عمر قد شجع المسيحيين ، واليهود ، والزرذشتيين على اعتناقه ، ولما شكوا إليه عماله القائمون على شئون المال من أن هذه السياسة ستفقير بيت المال أجابهم بقوله : « والله لو ددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حرثين نأكل من كسب أيدينا » (١٤) .

ولما أراد بعض مستشاريه أن يقفوا حركة الدخول في الإسلام بأن حتموا الختان على معتقيه فعل عمر ما فعله القديس بولس من قبل ، فأمرهم بالاستغناء

عن الختان . ثم فرض قيوداً شديدة علي من امتنعوا عن الإسلام ، فحرم عليهم مناصب الدولة ، ومنعهم من بناء معابد جديدة ، ودامت خلافته أقل من ثلاث سنين مرض بعدها ومات .

وكان يزيد الثاني (٧٢٠ - ٧٢٤) يختلف كل الاختلاف في أخلاقه وعاداته عن عمر بن عبد العزيز . كان يزيد يحب جارية تدعى حبيبة بقدر ما كان عمر يحب الإسلام . وكان قد ابتاعها في شبابه بأربعة آلاف قطعة من الذهب ، وأرغمه أخوه سليمان ، وكان هو الخليفة في ذلك الوقت ، أن يردها إلى بائعها ، ولكن يزيد لم ينس جمالها وحنانها ؛ فلما ولي الخلافة سأله زوجته هل بقي له شيء في العالم يرغب فيه ؟ . فأجابها « حبيبة » فبعثت زوجته الوفية من فوزها إلى حبيبة ، وأهدتها إليه ، وانزوت هي في مجاهل الحریم ؛ ويروى أنه بينما هو يلهو مع حبيبة في يوم من الأيام إذ أتى أثناء لهُو ببذرة عنب في فمها ، فاختنقت وماتت بين ذراعيه . وحزن عليها يزيد حزناً مات من أثره بعد أسبوع من وفاتها .

وحكم هشام (٧٢٤ - ٧٤٣) الدولة سبعة عشر عاماً حكماً عادلاً سادت فيه السلم ، وأصلح في خلاله الشؤون الإدارية ، وخفض الضرائب ، وترك بيت المال بعد وفاته مليئاً بالأموال . ولكن فضائل القديس قد تكون سبباً في القضاء على الحاكم : فقد منيت جيوش هشام بعدة هزائم ، وثار نفع الفتنة في الولايات ، وعم الاستياء العاصمة التي كانت تتوق إلى خليفة مبذر متلاف . وجاء من بعده خلفاء جملوا بالعار تلك الأسرة التي امتاز خلفاؤها الأولون بالقدرة والمهارة ، فعاشوا عيشة الترف والفساد ، وأهملوا شؤون الحكم . فكان الوليد الثاني (٧٤٣ - ٧٤٤) فاسد الأخلاق ، خارجاً على قواعد الدين ، منغمساً في الشهوات البدنية ولما سمع نبأ وفاة عمه هشام سره النبأ أيما سرور ، وقبض على ابن هشام نفسه ، وصادر أموال أهل الخليفة المتوفى ، وبدد أموال الخزانة بحكمه الفاسد ، وهبته التي لاحد

ها . ويروى عنه أعداؤه أنه كان يسبح في بركة من الخمر ، ويشفي منها غلته وهو ساجح فيها ، وأنه ضرب القرآن بالنبال (*) (١٤) . وقتل يزيد بن الوليد الأول هذا الخليفة المستهتر الماجن ، وتولى الخلافة ستة أشهر ومات في عام ٧٤٤ . وخلفه على العرش أخوه إبراهيم ، ولكنه لم يستطع حمايته ، فخلغه أحد قواده الأقوياء هو مروان الثاني ، وحكم ست سنين مليئة بالمآسى ، وكان هو آخر الخلفاء من بني أمية في الشرق .

وإذا نظرنا إلى أعمال الخلفاء من بني أمية من وجهة النظر الدنيوية حكمنا بأن هذه الأعمال قد عادت بالخير على الإسلام . فقد وسعوا حدود البلاد السياسية إلى مدى لم تبلغه قط فيما بعد . وإذا ما استثنينا بعض فترات مشثومة من تاريخهم فإنهم قد حكموا الدولة الجديدة حكماً منظماً حراً . لكن نظام الملكية المطلقة الوراثة أدى إلى ما يؤدي إليه عادة في جميع البلاد ، فتولى الخلافة في القرن الثامن خلفاء عاجزون أفقروا بيت المال ، وتركوا شئون الحكم للخصيان ، وفقدوا السيطرة على النزعة الانفرادية العربية ، التي حالت في أكثر الأوقات بين المسلمين وبين قيام دولة إسلامية موحدة . وقد ظل النزاع بين القبائل لم تنقطع أسبابه وإن استحال نزاعاً بين الأحزاب السياسية ؛ فقد كان بنو هاشم وبنو أمية يكره بعضهم بعضاً ، كأن أوأشج القرني بينهم قد أضحت أشد وأقرب مما كانت في أيامهم السابقة . ونفرت بلاد العرب ومصر والفرس من سيطرة دمشق عليها ؛ وأخذ الفرس يدعون أنهم أرقى من العرب ، وأنهم لذلك لا يطيقون أن تحكمهم بلاد الشام ، وقد كانوا من قبل لا يدعون أكثر من أنهم لا يقلون شأنًا عن العرب . وساء أبناء النبي أن يروا بلاد المسلمين يتولى شئونها خلفاء من بني أمية الذين كان منهم أشد

(*) وهو يقول :

أتوعد كل جبار عنيد فما أنا ذاك جبار عنيد
إذا لقيت ربك يوم حشر فقل لله رمزقني الوليد

أعداء النبي وآخر من آمنوا به ، وروعهم فساد أخلاق الخلفاء الأمويين ، ولعاهم قد روعهم كذلك تساهلهم الديني ، وكانوا يدعون الله أن يرسل من قبله من ينقدهم من هذا الحكم المذل .

ولم يكن ينقص هذه القوى المعادية إلا شخصية قوية مبدئة توخذ صفوها وتنطقها بمطالبها . وقبض لها هذا الزعيم في شخص أبي العباس السفاح جفيد حفيد أحد أعمام النبي ، فتولى قيادتها من مكن لها في فلسطين ، ونظم الثورة في الولايات واستمال إليه الوطنيين الشيعة في بلاد الفرس فأيدوه أشد الأييد ، حتى إذا كان عام ٧٤٩ نادى بنفسه خليفة في الكوفة . والتقى جيش مروان الثاني بالثوار يقودهم عبد الله عم أبي العباس على نهر الزاب ، فهزم مروان وجيوشه ، وبعد عام من هزيمته استسلمت دمشق بعد أن ضرب عليها الحصار . ثم قبض بهدنة على مروان وقتل وحمل رأسه إلى أبي العباس ؛ ولكن الخليفة الجديد لم يكتف بهذا ، وقال :

« لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ ترويني »

وسمى أبو العباس بالسفاح أي سفاك الدماء لأنه أمر بأن يطارد أمراء بني أمية ويقتلوا أينما وجدوا ، ليقضى بذلك على ما عسى أن يقوم به أفراد الأسرة الساقطة من فتن . ونفذ عبد الله ، الذي عين واليا على الشام ، هذا الأمر ، في يسر وسرعة ، فأعلن عفوا عاما عن الأمويين ، وأكده لهم بدعوة ثمانين من زعمائهم إلى ويلة . وبينما هم على الطعام إذا أشار إلى جنوده في مخبئهم ، فخرجوا عليهم ورموا رؤوسهم بالسيوف ، ثم فرشت الطنافس فوق جثث القتلى ، واستمرت المأدبة : واستبدل بزعماء الأمويين رجال من العباسيين جلسوا فوق جثث أعدائهم ، يشنفون أسماعهم بأنين الموقى . وأخرجت جثث بعض الموقى من خلفاء بني أمية ، وسيطت هياكلهم العظمية التي كادت أن تكون عارية من اللحم ، وشنقت وحرقت ، وذر رمادها في الريح (١٥) .

الفصل الثالث

الخلافة العباسية

(٧٥٠ - ١٠٥٨)

١ - هرون الرشيد

وجد أبو العباس السفاح نفسه حاكماً لدولة واسعة الأرجاء تمتد من نهر
السند إلى المحيط الأطلنطي ، وتشمل بلاد السند (الشمال الغربي من الهند) ،
وبلوخستان وأفغانستان ، والتركستان ، وفارس ، وأرض الجزيرة ،
وأرمينية ، والشام ، وفلسطين ، وقبرص ، وكريت ، (إقريطش) ،
ومصر ، وشمالي أفريقية . ورفضت أسبانيا المسلمة الخضوع إليه ، وخرجت
بلاد السند عن طاعته في السنة الثانية عشرة من حكمه . ورأى السفاح
أن دمشق تكرهه ، وأنه لا يأمن على نفسه في مدينة الكوفة المشاكسة
المضطربة ، فنقل العاصمة إلى الأنبار الواقعة في شمال الكوفة . وكانت
الكثرة الغالبة ممن رفعوه إلى العرش فرساً في ثقافتهم وأصولهم . وبعد أن
ارتوى السفاح من دماء أعدائه اصطبغ بلاطه بشيء من الرقة ودمائة الأخلاق
الفارسية ، وجاءت من بعده طائفة من الخلفاء المستنيرين ، استخدموا
ثروة الدولة المتزايدة في مناصرة الفنون والآداب ، والعلوم ، والفلسفة حتى
ازدهرت وأثمرت أينع الثمار ؛ وبعد أن مضت مائة عام على بلاد القهرس
وهي في ذلة الخضوع غلبت غالبها .

ومات السفاح بالجدري في عام ٧٥٤ ، وخلفه أبو جعفر أخوه من أبيه ولقب
بالمصور ، وكانت أمه جارية من البربر ، وكانت أمهات جميع خلفاء العباسيين
السبعة والثلاثين لإثلاثة منهم جوارى . وقد أدى إلى هذا ماجرى عليه الخلفاء

من عادة اتخاذ السرارى وجعل أبنائهم منهن أبناء شرعيين . وبهذه الوسيلة كان عدد أفراد الطبقة الأرستقراطية الإسلامية يزداد على الدوام بتأثير المصادفة وطابعها الديمقراطي ، ومصائر الحب والحرب . وكان الخليفة الجديد فى سن الأربعين ، طويل القامة ، نحيف الجسم ، ملتحمياً ، أسمر البشرة ، شديداً فى معاملاته . ولم يكن أسيراً بلجال للنساء ، أو مدمناً للخمر ، أو مولعاً بالغناء ؛ ولكنه كان يناصر الآداب ، والعلوم ، والفنون ؛ ويمتاز بعظيم قدرته ، وحزمه ، وشدة بطشه . وبفضل هذه الصفات ثبت دعائم أسرة حاكمة لولاه لماتت بموت السفاح . وقد وجه جهوده لتنظيم الأداة الحكومية ، وبنى مدينة فخمة هى مدينة بغداد واتخذها عاصمة للدولة ، وأعاد تنظيم الحكومة والجيش فى صورتيهما اللتين احتفظا بهما إلى آخر أيام الدولة ، وكان يشرف بنفسه على كل إدارة فى دولا ب الحكومة ، وعلى جميع أعمال هذه الإدارات ، وأرغم الموظفين المرشحين الفاسدين - ومنهم أخوه نفسه - على أن يردوا إلى بيت المال ما ابتزوه من أموال الدولة . وكان يراعى جانب الاقتصاد بل قل الحرص الشديد فى إنفاق الأموال العامة ، حتى نفر منه الأصدقاء ، وأطلق عليه لشحه لقب « أبى الدوائق »^(١٦) . وقد أنشأ فى بداية حكمه نظام الوزارة الذى أخذه عن الفرس ، وكان له شأن عظيم فى تاريخ العباسيين ؛ وكان أول من شغل منصب الوزير فى عهده هو خالد ابن برمك . وقد اضطلع بواجب خطير فى حكم الدولة ، وكان له شأن فيما وقع فى أيام الدولة العباسية من أحداث جسام . وعمل المنصور وخالد على إيجاد النظام والرخاء اللذين جنى ثمارهما هرون الرشيد .

ومات المنصور بعد أن حكم البلاد حكماً صالحاً دام اثنتين وعشرين سنة وكان موته وهو فى طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج . ولم يكن فى وسع ابنه المهدي (٧٧٥ - ٧٨٥) إلا أن يسلك فى حكمه سبيل الخير . وقد شمل عفوه جميع المذنبين إلا أشدهم خطراً على الدولة ، وأنفق الأموال الطائلة فى تجميل المدن

وناصر الموسيقى والآداب ، وأظهر في حكم البلاد كفاية ممتازة . وكانت
بيزنطية قد انتهزت فرصة الثورة العباسية لاستعادة بعض الأقاليم التي فتحها
العرب في آسية الصغرى ، فسير عليها المهدي جيشاً بقيادة ابنه هرون
لاسترداد هذه البلاد . وأخرج هرون الروم منها وردهم إلى القسطنطينية ،
وهدد تلك المدينة نفسها تهديداً اضطر الإمبراطورة إيرينة (*) Irene أن تعقد
معه صلحاً تعهدت بمقتضاه أى تؤدى للخليفة جزية سنوية مقدارها ٧٠,٠٠٠
دينار (٨٣٢,٠٠٠ دولار) (٧٨٤) . ومن ذلك الوقت أطلق المهدي على
ابنه اسم هرون الرشيد . وكان قبل ذلك قد اختار ابناً آخر من أبنائه اسمه
المهادى ولياً للعهد ، فلما رأى ما امتاز به هرون من كفاية عظيمة طلب إلى
المهادى أن ينزل عن حقة لأخيه الأصغر . وكان المهادى وقتئذ يقود جيشاً
في بلاد الشرق فأبى أن يجيب أباه إلى طلبه ، ورفض أن يطيع أمره بالعودة
إلى بغداد . فخرج المهدي وهرون للقبض عليه ، ولكن المهدي توفى في
الطريق ، وكان حين وفاته في الثالثة والأربعين من عمره . ورأى هرون
اتباعاً لنصيحة الوزير يحيى بن خالد البرمكى أن يبايع المهادى بالخلافة ، على
أن يكون هو ولياً للعهد ، غير أنه إذا كان في وسع عشرة من الدراويش
أن يناموا على بساط واحد فإن ملكين لا تتسع لهما مملكة بأكلها كما يقول
السعدى (١٧) في كتابه : فلم يعترف المهادى لأخيه بولاية العهد ، وسجن
يحيى ، ونادى بابنه ولياً لعهد . ثم مات المهادى بعد زمن قصير (٧٨٦) ،
وراجت إشاعة بأن أمه ، وكانت تفضل عليه هرون ، كتبت أنفاسه بوسادة
وضعتها على فمه . وارتقى هرون العرش ، واتخذ يحيى وزيراً له ، وبدأ أشهر
حكم في تاريخ الإسلام .

وتصور لنا القصص - وخاصة قصص ألف ليلة وليلة - هرون الرشيد في
صورة الملك المرح ، المثقف ، المستنير ، العنيف في بعض الأوقات ، الكريم
الرحيم في أغلب الأحيان ، المولع بالقصص الجميلة ولعاً يحمله على أن يسجلها ويحتفظ

(*) هكذا يسميها المؤرخون العرب . (المترجم)

ها في ديوان محفوظات الدولة (١٨) . وتبدو هذه الصفات كلها فيما كتبه عنه المؤرخون إذا استثنينا منها مزحه ؛ ولعل السبب في ذلك أن هذا المرح قد أغضب المؤرخين . فهم يصورونه أولاً وقبل كل شيء في صورة الرجل الورع المتمسك ، أشد التمسك بأوامر الدين ، ويقولون إنه فرض أشد القيود على حرية غير المسلمين ، وإنه كان يحجج إلى مكة مرة كل عامين ، وإنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة مع الصلوات المفروضة (١٩) . ويقال إنه كان يشرب الخمر ، ولكن هذا لم يكن إلا سراً مع عدد قليل من خاصة أصدقائه (٢٠) . ويقال إنه تزوج من سبع نساء (*) وكان له عدد من السبرارى رزق منهن بأحد عشر ولداً ، وأبج عشرة بنتاً ، كلهم وكلهن من الجوارى عدا الأمين ابته من الأميرة زبيدة . وكان كريماً سمحاً في أمواله على اختلاف أنواعها . من ذلك أنه لما أحب ولده البلمون إحدى فتيات قصر أبيه ، أهداها إليه الخليفة ، ولم يسأله ثمناً لها إلا أن ينظم بعض أبيات من الشعر (٢١) ، لأنه كان يحب الشعر أشد الحب ، ويستمتع به استمتاعاً يحمله في بعض الأحيان على أن يثقل الشاعر الذى يعجب بشعره بالهدايا من غير حساب . من ذلك أنه أهدى الشاعر مروان على قصيدة مدحه بها خمسة آلاف قطعة من الذهب (٧٥٠ ر ٢٣ دولار) (***) ، وحلة ثمينة ، وعشر جوار من بنات الروم ، وجواداً كريماً (٢٢) . وكان أحب رفاقه إليه الشاعر الماجن أبو نواس . وكان كثيراً ما يغضب على أبي نواس لسفهه وسوء سيرته ، ولكنه كان في كل مرة يصفح عنه بلحودة شعره . وقد جمع حوله في بغداد عدداً عظيماً من الشعراء ، والفقهاء ، والأطباء ، والنحويين وعلماء البلاغة ، والراقصات والراقصين ، والفنانين ، والفكهين المرحين . وكان ينقد أعمالهم وأقوالهم نقد العالم الخبير صاحب الذوق السليم ، ويجزيهم عليها بسخاء ،

(*) لعل المؤلف يضيف الجوارى إلى الأزواج لأن الإسلام يحرم الزواج بأكثر من أربع . (المترجم)

(**) يقصد المؤلف بقطعة الذهب في هذه الفصول الدينار ويقدره بأربعة دولارات أمريكية وثلاثة أرباع الدولار من نقود هذه الأيام ، حسب القوة الشرائية للدينار في تلك الأيام . (المترجم)

ويتلقى في نظير ذلك الاف القصائد في مديحه والتغنى بجموده . وكان هو نفسه عالماً وشاعراً ، وخطيباً بليغاً.. قويا(٢٣) . ولسنا نعلم في التاريخ كله أن حاشية للملوك قد جمعت مثل ما جمعت حاشية الرشيد من ذوى العقول الراجحة الناهين . وكان يعاصره في غير بلاد الإسلام الإمبراطورة إيرينة في القسطنطينية ، والملك شارلمان في فرنسا ، ومن قبله بزمان قليل كان يجلس على عرش بلاد الصين تسوان دزونج Tsuan Tsung ، ولكن هرون الرشيد بزهم جميعاً في الثراء ، والسلطان ، وأبهة الملك ، والتقدم الثقافي الذى ازدان به حكمه .

غير أن ولعه بالعلم والفن لم يلهه عن مهام الملك . فقد كان يشترك اشتراكاً فعلياً في تصريف شئون الحكم ، ونال شهرة واسعة بعدله في قضائه ، وترك الخزانة عند وفاته عامرة بالمال فيها ٤٨٠٠٠٠٠٠٠ دينار - على الرغم من أبهة الملك والهبات التى لم يسبق لها مثيل . وكان يقود جيوشه بنفسه في ميادين القتال ، وقد احتفظ بتخوم البلاد سليمة آمنة . غير أنه كان يعهد بالشئون الإدارية وبالخطط السياسية إلى وزيره الحكيم يحيى . فقد دعا إليه عقب جلوسه على العرش يحيى البرمكى وقال إنه يعهد إليه أمر جميع رعاياه ليحكمهم كما يشاء ، فيعزل من يشاء ، ويولى من يشاء ، ويصرف الأمور كما يرى ، وأيد قوله هذا بأن أعطاه خاتمه(٢٤) . وكان هذا إفراطاً خطيراً في ثقته بالوزير ، ولكن هرون كان يرى أنه ، وهو لا يزال شاباً في الثانية والعشرين من عمره . لم يكمل استعداده بعد لحكم الدولة الواسعة التى آل أمرها إليه ؛ وكان عمله هذا تعبيراً عن شكره لرجل كان أستاذاً ومربياً له يدعوه إذا دعاه بوالده ، وقد ذاق عذاب السجن في سبيله .

وأثبت يحيى أنه أقدر الحكام في تاريخ العالم كله . لقد كان رجلاً بشوشاً ، دمث الأخلاق، جواداً حكيماً، مجدداً لا يمل من العمل ؛ رفع دولاب الحكومة إلى أعلى درجات الكفاية ، وثبت دعائم النظام ، وأقر الأمن ، ونشر لواء العدالة ، وأنشأ الطرق ، والجسور ، والخانات ، واحترف قنوات الري ، فعم

الرخاء جميع ولايات الدولة ، وإن كان قد فرض عليها ضرائب عالية ليملاؤها خزائنة الخليفة وخزائنه هو ، ذلك أنه هو أيضاً قد حذا حذو سيده في مناصرة الآداب والفنون . وقد عين ولديه الفضل وجعفر في مناصبين كبيرين من مناصب الدولة ، فسارا فيهما أحسن سيرة ، وأثريا منهما ثراء عظيماً ، فأنشأ القصور ، وجمع حولها طائفة كبيرة من الشعراء ، والندماء ، والفلاسفة . وكان هرون يحب جعفر حباً أطلق ألسنة السوء في علاقتهما الشخصية ، ويقال إن الخليفة أمر بأن تصنع له جبة ذات طوقين يلبسها هو وجعفر معا فيبدوان كأنهما رأسان فوق جسم واحد ، ولعلهما كانا في هذا الثوب يمثلان حياة بغداد الليلية (٢٥) .

ولسنا نعرف بالدقة سبب النكبة المفاجئة التي قضت على سلطان البرامكة . فابن خلدون يقول إن سببها الحقيقي هو « أنهم كانوا قد قبضوا على ناصية الأمور كلها ، وتصرفوا بأموال الدولة دون رقيب حتى أصبح الرشيد يطلب المبالغ الصغيرة فلا يجدها إلا بإذن من الوزير (٢٦) .

ولعل السبب أنه لما جاوز هرون سن الشباب ، ولم يجد في الجري وراء الملاذ الحسية والعقلية متنفساً لكفائاته ومواهبه ، ندم على ما خص به وزيره من قوة وسلطان . وقد حدث أن أمر الخليفة جعفر بأن يقتل أحد الخارجين عليه ، فتغاضى جعفر عن الأمر حتى تمكن الناصر من الهرب ، ولم يغفر هرون له هذا الإهمال المحجب إلى النفوس . وهناك قصة من طراز قصص ألف ليلة وليلة تقول إن العباسة أخت الرشيد ، أحببت جعفر ، وأن الرشيد كان قد أقسم بأن يحتفظ بدماء بني هاشم الذي يجري في عروق أخواته صافية نقية لا يخالطها إلا دماء أشراف العرب ، وجعفر كما نعلم من أبناء الفرس . وأجاز لها الخليفة أن يتزوجا ، على ألا يلتقيا إلا في حضوره . ولكن الحبيبين سرعان ما نقضا هذا العهد ، وولدت العباسة لجعفر ولدين دون أن يعلم بذلك الرشيد ، فقد أخفيا عنه وأرسلا إلى المدينة ليربيا فيها . وكشفت زبيدة زوج الرشيد هذا (٨ - ج ٢ - مجلد ٤)

السر ، وأفضت به إلى هرون . فبعث في طلب مسرور كبير الجلادين وأمره .
بقتل العباسة ودفنها في قصره ، وأشرف هو بنفسه على تنفيذ هذا الأمر .
ثم أمر مسروراً أن يضرب عنق جعفر ، وأن يأتي إليه برأسه ، ونفذ مسرور
أمر مولاه . ثم بعث إلى المدينة من يأتيه بولديه ، وبعد أن تحدث طويلاً إلى
الطفلين الواسمين ، وأبدى إعجابهما بهما أمر بقتلهما (٨٠٣) . ثم سجن
يحيى والفضل ، وسمح لهما بأن يحتفظا بأسرتيهما وخدمتهما ، ولكنه لم يطلق
سراحهما ، ومات يحيى بعد عامين من مقتل ولده ، كما مات الفضل بعد
خسة أعوام من مقتل أخيه ، وصودرت جميع أموال البرامكة ، ويقال إنها
بلغت ٣٠٠٠٠٠٠٠ دينار (١٤٢٥٠٠٠٠٠ دولار أمريكي) .

ولم تطل حياة هرون بعد نكبة البرامكة . وظل وقتاً ما يخفف من
حزنه وندمه بالعمل الكثير ، ويقال إنه كان يرحب بمشاق الحرب نفسها ،
ولما أن امتنع نقفور الأول إمبراطور بيزنطية عن أداء الجزية التي وعدت
إيرينة بأدائها ، وجرواً على المطالبة برد ما أدته الإمبراطورة منها رد عليه
هرون بقوله : « باسم الله الرحمن الرحيم . من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور
كلب الروم ، أما بعد ، فقد تلقيت رسالتك يا ابن الكافرة ، وسيكون
الجواب ما تراه عينك لا ما تسمعه أذنك والسلام » (٢٧) . وسار إلى ميدان
القتال من فوره ، واتخذ مقامه في الرقة ذات الموقع الحربي المنيع على
حدوده الشمالية ، ونزل إلى الميدان على رأس حملة قوية اخترق بها آسية
الصغرى ، وقذفت الرعب في قلب نقفور فلم يسعه إلا أن يعود إلى أداء
الجزية (٨٠٦) . ورأى الرشيد أن يصطنع شارلمان ليرهب به إمبراطور
الروم ... فأرسل إليه وفداً مثقلاً بالهدايا منها فيل وساعة مائة معقدة التركيب ،
ولم يكن هرون وقتئذ قد جاوز الثانية والأربعين من عمره ، ومع هذا فلان
ولديه الأمين والمأمون شرعاً يتنافسان على الخلافة ويتطلعان إلى موته . وأراد
هرون أن يخفف من حدة النزاع فقرر أن يرث المأمون الولايات الواقعة في شرق

هر دجلة ، وأن يرث الأمين ما بقي من الدولة ، فإذا مات أحد الاثنين آل ملكه إلى أخيه . ووقع الأخوان هذا العهد وأقسما على الكعبة أن يتقيدا به ؛ ولكن حدث في ذلك العام نفسه أن شبت فتنة صماء في خراسان فسار هرون ومعه المأمون لتقليم أظافرهما ، مع أنه كان يشكو وقتئذ آلاماً شديدة في معدته . فلما بلغ بلدة طوس في شرقي إيران عجز عن الوقوف على قدميه . وجمى له وهو يختصر بياشين أحد زعماء الثورة ، وكان الخليفة قد برح به الألم حتى أفقده عقله فأخذ يوثب القائد الأسير لأنه اضطره إلى الإقدام على هذه الحملة المهلكة ، وأمر أن تقطع أوصاله وشهد بعينية تنفيذ أمره (٢٩) . وفي اليوم الثاني توفي هرون الرشيد في سن الخامسة والأربعين . (٨٠٩) .

٢ - اضمحلال الدولة العباسية

وواصل المأمون الزحف إلى مرو ، وعقد اتفاقاً مع الثوار ، أما الأمين . فعاد إلى بغداد ، ونادى بابنه الطفل الرضيع ولياً للعهد ، وضال المأمون . بثلاث من الولايات الشرقية ، ولما رفض المأمون طلبه أعلن الأمين عليه الحرب . وهزم طاهر قائد المأمون جيش الأمين وحاصر بغداد وكاد أن يدمرها تدميراً ، وبعث برأس الأمين إلى المأمون جرياً على تلك العادة التي أضحت سنة متبعة . وكان المأمون وقتئذ في مرو فأمر بالمناداة به خليفة (٨١٣) ، ولكن بلاد الشام وجزيرة العرب ظلت تقاومه لأنه ابن جارية فارسية ، ولم تتم بيعته خليفة على بلاد المسلمين ويدخل بغداد إلا في عام ٨١٨ .

ويعد عبد الله المأمون هو والمنصور والرشيد أعظم خلفاء بني العباس . نعم ، إن المأمون لم ينبج من الخلتين اللتين شانتا أخلاق هرون الرشيد ، فكان في بعض الأحيان يستشيط غضباً مثله ويقسو كقسوته ، ولكنه كان بوجه عام لين العريكة . هادئ الطباع ، جمع في مجلس الدولة ممثلين لجميع الأديان الكبرى في البلاد كلها .

— من مسلمين ، ومسيحيين ، ويهود ، وصابئين ، وزردشتيين — وضمن لجميع رعاياه حتى أواخر أيامه حرية الدين والعبادة . وظلت حرية التفكير وقتاً ما هي السنة المألوفة في بلاط الخليفة . ويصف المسعودي مجلساً من المجالس العلمية التي كان يعقدها المأمون في آخر النهار فيقول :

« كان المأمون يجلس كل يوم للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء فإذا حضر الفقهاء ، ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة ، وقيل لهم : انزعوا أخفافكم . ثم أحضرت الموائد وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب ، وجددوا الوضوء فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وطيبوا ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه ويناظروهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها عن مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس ثم تنصب الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون » (٣٠) .

وكان تشجيع المأمون للفنون ، والعلوم ، والآداب ، والفلسفة أكثر تنوعاً ودقة منها في عهد هرون ، وكان لهذا التشجيع من الأثر أعظم مما كان له في عهد أبيه . فقد أرسل البعوث إلى القسطنطينية ، والإسكندرية ، وأنطاكية وغيرها من المدن للبحث عن مؤلفات علماء اليونان ، وأجرى الأوزاق على طائفة كبيرة من المترجمين لنقل هذه الكتب إلى اللغة العربية ، وأنشأ مجعاً علمياً في بغداد ومرصدين فيها وفي تدمر . وكان الأطباء ، والنقهاء ، والموسيقيون ، والشعراء وعلماء الرياضة والفلك يستمتعون كلهم بعطاياه ، وكان هو نفسه يقرض الشعر ، كما كان يقرضه أحد أباطرة اليابان في القرن التاسع عشر ، وكما كان يقرضه كل مسلم شريف مهذب في ذلك الوقت .

ومات المأمون في سن مبكرة — في الثامنة والأربعين من عمره (٨٣٣) — وإن كان قد طال أجله حتى أساء إلى نفسه . ذلك أنه ناصر بسلطته العليا حرية الرأي في الدولة مناصرة شوه بها السنين الأخيرة من حياته لأنها دفعته إلى اضطهاد

أصحاب السنة : وكان أخوه أبو إسحق المعتصم ، الذى تولى الخلافة من بعده ، مثله وإن لم يكن مثله فى عبقريته . وقد أحاط هذا الخليفة نفسه بحرس خاص مؤلف من ٤٠٠٠ من الجنود الترك ، شبيه بالحرس الپريتورى الذى أحاط به الأباطرة الرومان أنفسهم ، وأصبح هذا الحرس على مر الأيام فى بغداد ، كما أصبح الحرس الپريتورى فى رومة ، صاحب الأمر والنهى فى أمور الدولة . وشكا سكان العاصمة من أن جنود المعتصم الأتراك يطوفون الشوارع فوق صهوة الجياد ويرتكبون الجرائم دون أن يعاقبوا على ما يرتكبون . وخشى المعتصم أن يثور عليه سكان المدينة فغادر بغداد وبنى لنفسه قصرا فى سرمن رأى على بعد ثلاثين ميلا إلى شمال العاصمة . واتخذ ثمانية من الخلفاء(*) هذه الضاحية مسكنا لهم ما بين عامى ٨٣٦ ، ٨٩٢ ، ودفنوا فيها بعد موتهم ، وأقاموا على شقة يبلغ طولها عشرين ميلا على ضفتى نهر دجلة قصورا فخمة ، ومساجد ، وحدائق حلوهم كبار موظفى الدولة ، فشيّدوا البيوت الفخمة ، وزينوا جدرانها بالنقوش الجميلة ، وأنشأوا فيها الفساق والحداثق والحمامات . وأراد المتوكل أن يبرهن على صلاحه فأنفق ٧٠٠٠٠٠ دينار (٣٢٥٠٠٠٠ دولار) على تشييد مسجد جامع وأنفق ما يقرب من هذا المبلغ فى تشييد ضاحية جديدة له تعرف بالجعفرية(**) أقام بها قصرا يعرف « بقصر اللؤلؤة » وأحاطها كلها بالبساتين والحدائق . وقد جمع ما يحتاجه من المال لهذه المباني وما يتصل بها بأن زاد الضرائب ، وباع وظائف الدولة لمن

(*) المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢) ، والرائق (٨٤٢ - ٨٤٧) ، والمتوكل (٨٤٧ - ٨٦١) ، والمتنصر (٨٦١ - ٨٦٢) ، والمستعين (٨٦٢ - ٨٦٦) ، والمعز (٨٦٦ - ٨٦٩) ، والمهتدى (٨٦٩ - ٨٧٠) ، والمعتمد (٨٧٠ - ٨٩٢) ، وقد عاد المعتمد قبيل وفاته إلى بغداد .

(**) يقول الطبرى إن اسم الضاحية هو الجعفرى : « أمر المتوكل ببناء الماحوزة وسماها الجعفرى (جزء ١١ فى أخبار سنة ٢٤٥) . (المترجم)

يؤدى أكبر ثمن لها ، وأراد أن يستميل أهل السنة باضطهاد الخارجين عاينها ، وحرص ابنه حرسه التركي على قتله ، وتولى الخلافة بعده وتسمى بالمنتصر بالله ، وأفسدت العوامل الداخلية أحوال الخلافة قبل أن تقضى عليها القوى الخارجية : فقد أنك قوى الخلفاء إدمانهم الشراب ، وانهماكهم فى الشهوات ، واللهم ، والترف ، والبطالة ، فجلس على سرير الملك طائفة من الخلفاء الضعاف فروا من مهام الحكم إلى ملذات الحريم المضعفة للجسم والعقل . وكان لازدياد الثروة ، واستمهاد الراحة ، وانتشار التسرى وتفشى اللواط ، كان لهذه الرذائل من الأثر فى طبقة الحكام ما كان لها فى الخلفاء ، وتعدى ذلك إلى الشعب نفسه ، فضعفت صفاته الحربية . ولم يكن من طبيعة هذا الضعف وعدم النظام أن يخلق اليد القوية التى كانت البلاد فى أشد الحاجة إليها لتجمع شتات هذا الخليط المتفرق . المتباين من الولايات والقبائل . وكثيراً ما أسفرت العداوة العنصرية والإقليمية عن ثورات . فلم يكن العرب ، والفرس ، والسوريون ، والبربر ، والمسيحيون ، واليهود ، والأتراك ، لم يكن هؤلاء جميعاً يجتمعون إلا على احتقار بعضهم بعضاً ، وزاد الطين بلة أن الدين الذى كان من قبل يجمع شملهم ويوحد صفوفهم قد تفرق شيعاً ، وزادت حدة الانقسامات السياسية والجغرافية ، وكانت هى المعبرة عن هذه الانقسامات . وكان لإهال وسائل الرى أثر كبير فى ضعف الدولة وفساد أحوالها . ذلك أن نظام الرى هو مصدر حياة بلاد الشرق الأدنى وهلاكه معاً : فالقنوات التى تمد الأرض بالماء تحتاج على الدوام إلى كثير من الحراسة والتطهير يعجز عنها الأفراد والأسر . فلما عجزت الحكومة عن تعهد هذه القنوات أو أهميتها ، قلت موارد الطعام عن مجارة نسبة ازدياد السكان ، وكان لا بد من أن يهلك الناس من الجوع حتى لا يختل التوازن بين هذين العاملين الأساسيين اللذين لها شأن عظيم فى تاريخ العالم . غير أن ماحل بالأهلين من فقر بسبب القحط والوباء لم يكن فى معظم الأوقات ليغل أيدى جباة الضرائب أو يخفف من قسوتهم . فكان

الفلاحون ، والصناع ، والتجار يرون مكاسبهم تذهب كلها للوفاء بنفقات الحكومة وأبهة الحكام ، فانعدم الحافز للعمل والإنتاج ، والتوسع فيهما ، والمغامرة والإقدام . وانتهى الأمر بأن عجزت موارد الدولة عن الوفاء بحاجة الحكومة ؛ وقلت الإيرادات ، ولم يعد في وسع الحكام أن يؤدوا أجور الجند بانتظام ، أو أن يسيطروا عليهم . ويضاف إلى هذا أن الترك قد حلوا محل العرب في القوات المسلحة ، كما حل الألمان محل الرومان في جيوش رومة ، وكان رؤساء الجند الأتراك من عهد المعتصم إلى آخر أيام الدولة العباسية هم الذين يرفعون الخلفاء إلى العرش ويسقطونهم ، ويأمرونهم ، ويغتالونهم . وأصبحت قصور الخلفاء في بغداد مباءة للدسائس الدنيئة ، والاعتقالات وسفك الدماء ، مما جعل الخلافة العباسية في آخر أيامها غير خليقة بأن يبقى التاريخ على ذكرها .

وكان ضعف النشاط السياسي والقوة الحربية في عاصمة الدولة سبباً في تمزيق شملها وتقطع أوصالها . فأصبح الولاة يحكمون ولاياتهم دون أن يكون للخلفاء في العاصمة سلطان عليهم اللهم إلا سلطاناً اسماً غير ذي بال ؛ وأخذوا يعملون ليحتفظوا لأنفسهم بمناصبهم طول حياتهم ، ثم لم يكتفوا بهذا بل عملوا على أن يرثها من بعدهم أبناؤهم . وكانت بلاد الأندلس قد أعلنت استقلالها عن الخلافة العباسية في عام ٧٥٦ ، وحذت حذوها مراكش في عام ٧٨٨ ، وتونس في ٨٠١ ومصر في ٨٦٨ . وبعد تسع سنين من ذلك العام الأخير استولى أمراء مصر على الشام ، وحكموا الجزء الأكبر منها حتى عام ١٠٧٦ . وكان المأمون قد كافأ قائده طاهر بأن عينه حاكماً على خراسان وجعل ولايتها وراثية في أبنائه من بعده . وحكمت هذه الأسرة الطاهرية بلاد الفرس حكماً شبه استقلالي حتى حلت محلها أسرة الصفاريين (٨٧٢ - ٩٠٣) ، وفيما بين عامي ٩٢٩ ، ٩٤٤ استولت أسرة من الشيعة هي أسرة بني حمدان على شمال الجزيرة والسام ، ورفعوا من شأن حكمهم بأن جعلوا الموصل وحلب مركزين عظيمين من مراكز الحياة الثقافية في

العالم الإسلامي . وكان سيف الدولة الحمداني (٩٤٤ - ٩٦٧) شاعراً بليغاً ، اجتمع في بلاطه بحاب الفيلسوف الفارابي ، والشاعر العظيم المتنبي أحب الشعراء الأقدمين إلى قلوب الأدباء العرب . واستولى بنو بويه أبناء أحد زعماء البلاد الجبلية المجاورة لبحر الخرز على أصفهان وشيراز ، ثم استولوا آخر الأمر على بغداد نفسها في عام ٩٤٥ . وظل الخلفاء أكثر من مائة عام يأترون بأمرهم حتى لم يكن أمير المؤمنين أكثر من رئيس لأهل السنة من المسلمين ، بينما كان الأمير البويهى الشيعي هو المسيطر على شئون الدولة الآخذة رقعتها في النقصان . ونقل عضد الدولة أعظم أمراء بني بويه (٩٤٩ - ٩٨٣) عاصمته إلى شيراز وهي مدينة من أجل مدن الإسلام ، ولكنه كان ينفق المال بسخاء على غيرها من مدن مملكته ، واستعادت بغداد في أيامه وأيام من خلفوه من الأمراء بعض ما كان لها من المجد في أيام هرون الرشيد .

وفي عام ٨٧٤ أقام أبناء سامان ، وهو شريف من أتباع زرادشت ، أسرة سامانية حكمت خراسان وما وراء نهر جيحون حتى عام ٩٩٩ . وفي عهد هذه الأسرة كانت بخارى وسمرقند مركزين للعلوم والفنون تنافسان فيهما بغداد نفسها ، وإن لم يكن من عادتنا إذا ذكرنا هذا الإقليم أن نعده ذا شأن عظيم في تاريخ العلم والفلسفة . وعادت اللغة الفارسية فيه إلى الحياة وأصبحت أداة للتعبير عن أدب راق عظيم . وبسط السامانيون رعايتهم على ابن سينا أعظم فلاسفة العصور الوسطى جميعها ، وفتحوا له أبواب مكتبة بلادهم العظيمة الغنية بما فيها من المؤلفات ؛ وأهدى الرازي أعظم أطباء العصور الوسطى إلى أحد الأمراء السامانيين كتابه المنصوري وهو كتاب جامع ضمخ في الطب . ثم استولى الأتراك في عام ٩٩٠ على مدينة بخارى وقضوا في عام ٩٩٩ على الأسرة السامانية . فقد كان المسلمون في ذلك الوقت يحاربون ليقفوا زحف الأتراك نحو الغرب ، كما ظل الرومان ثلاثة قرون يحاربون ليصدوا زحف العرب ، وكما كافح الترك فيما بعد

ليقفوا تيار المغول الجارف . ذلك أن ما ينشأ من تكاثر السكان من ضغط شديد على وسائل العيش يؤدي من حين إلى حين إلى هجرات ضخمة تطغى أهميتها على غيرها من حوادث التاريخ .

وفي عام ٩٦٢ غزا جماعة من المغامرين الأتراك القادمين من التركستان بلاد الأفغان . وكان يقودهم عبد محرز يدعى البتجين ، واستولوا على غزنة وأقام فيها أسرة عزنوية . وخلف البتجين سبكتكين (٩٧٦ - ٩٩٧) ، وكان أولاً مولى من مواليه ، ثم زوج ابنته . وقد مد حدود ملكه حتى شمل بيشاور وبعض خراسان ، ثم استولى ابنه محمود (٩٩٨ - ١٠٣٠) على جميع بلاد الفرس من الخليج الفارسي إلى نهر جيحون ، وبعد سبع عشرة معركة حامية امتازت بضروب من القسوة أضاف البنجاب إلى ملكه ، كما أضاف كثيراً من أموال الهند إلى خزائنه . ولما أتخمه النهب ، وضاق ذرعاً بالتعطل الناشئ من تسريح جنوده ، أخذ ينفق بعض ماله ، ويستخدم بعض رجاله ، في تشييد مسجد غزنه وهو المسجد الكبير الذي يقول فيه أحد المؤرخين المسلمين : (العتبي - أبو النصر محمد . في كتاب اليميني أو الرسالة اليمينية) :

« وأمام هذا البيت مقصورة بتعاريج عليها منصوبة تسع ثلاثة آلاف (*) متى شهدوا الفرض أخذوا أماكنهم فيها صفوفاً وأقبلوا على انتظار الأذان عكوفاً ، وأضيف إلى المسجد مدرسة فيحاء تشمل بيوتها من بساط الأرض إلى مناط السماء على تصانيف الأئمة الماضين من علوم الأولين والآخرين . . ينتابها فقهاء دار الملك وعلماء للتدريس والنظر في علوم الدين ، على كفاية ذوى الحاجة ، فمنهم من يههم جراءة وافرّة ، ومعيشة حاضرة . وقد اقتطع من دار الإمارة إلى البيت الموصوف طريق يفضى إليه في أمن من ابتدال العيون اللوامح واعتراض الرجال

(*) في الأصل الإنجليزي ستة آلاف . والنص الوارد هنا منقول من تاريخ اليميني - نسخة مخطوطة بدار للكتب المصرية . (المترجم)

من بين صالح وطلح فيركب إليه على وقور سكينه وشمول طمأنينة (٢١) .
واستقدم محمود إلى هذه المدرسة وإلى بلاطه كثيراً من العلماء منهم البيروني ،
وكثيراً من الشعراء ومنهم الفردوسي صاحب الشاهنامه أعظم قصيدة
في الأدب الفارسي ؛ وقد أهداها إليه على كره منه . وكان محمود في ذلك
الوقت أعظم رجال العالم كله من نواح عدة ، ولكن مملكته انتقلت بعد سبع
سنين من وفاته إلى أيدي الأتراك السلاجقة .

ونحن نخطي* إذا صورنا الترك في صورة أقوام همج ، فمن حقهم علينا
أن نقول إنهم حين أغاروا على بلاد الإسلام كانوا قد أخذوا ينتقلون من
طور الهمجية إلى طور الحضارة ، شأنهم في هذا شأن الفيلق الألمانية التي
غزت بلاد الإمبراطورية الرومانية . لقد أخذ الأتراك الساكنون في شمالي
آسية الوسطى يتحركون نحو الغرب من إقليم بحيرة بيكال ، وكانوا قد
نظموا أنفسهم في القرن السادس الميلادي جماعات يتزعم كلا منها شاه أو
شاهان . وكانوا يصهرون الحديد الذي يستخرجونه من جبالهم ، ويصنعون
منه أسلحة صلبة كصلابة قوانينهم التي لم تكن تكتفي بجعل الإعدام جزاء
الخيانة والقتل ، بل كانت تجعله أيضاً عقاباً على الزنى والجن . وكان
خصب نسأهم يفوق قتلى حروبهم ؛ ولم يحل عام ١٠٠٠ م حتى كان فرع
من أولئك الأتراك يسمون السلاجقة نسبة إلى زعيمهم سلجوق قد سيطروا
على ما وراء نهر جيحون وعلى بلاد التركستان . وظن محمود الغزنوي أن
في مقدوره أن يقف زحف هذه القوة التركية المنافسة له ، فقبض على أحد أبناء
سلجوق وسجنه في الهند (١٠٩٢) . ولكن هذا العمل لم يفت في عضد السلاجقة
بل أثار ثائرتهم فزحفوا بقيادة زعيمهم طغرل بك المخلع الشديد البأس واستولوا
على معظم بلاد الفرس ، ثم شرعوا يمهدون السبيل لتقدمهم في المستقبل ، فأرسلوا
وفداً إلى الخليفة القائم بأمر الله في بغداد ليبلغه أنهم يعتنقون الإسلام ؛ وكان
الخليفة يرجو أن ينقذه هؤلاء المحاربون البواسل من سيطرة بني بويه ، فأرسل

إلى طغرل بك يدعوه لمعاونته . ولجى طغرل الدعوة فأقبل في عام ١٠٥٥ ، وفر بنو بويه من بغداد . وتزوج القائم بآبنة أخى طغرل وخلع عليه لقب « ملك الشرق والغرب » (١٠٨٥) . وأخذت الأسر الصغيرة في غربى آسية الإسلامى تسقط أسرة بعد أسرة أمام السلاجقة وتعترف بسيادة بغداد عليها . ولقب الحكام السلاجقة أنفسهم بلقب سلطان ولم يتركوا للخليفة إلا الزعامة الدينية ، ولكنهم بعثوا فى الأداة الحكومية حيوية جديدة وكفاية لم تكن لها قبل مجيئهم ، كما بعثوا فى الإسلام قوة جديدة من الإيمان الصادق السليم . ولم يفعل السلاجقة ببلاد الإسلام ما فعله المغول بعد مائتى عام من ذلك الوقت ، فهم لم يخربوا البلاد التى فتحوها ، ولم يمض عليهم إلا قليل من الوقت حتى أشربوا روح الحضارة التى أقبلوا عليها ، وألقوا من الأشلاء المتناثرة للدولة المجتصرة إمبراطورية جديدة ، وبعثوا فيها من القوة ما استطاعت به أن تصمد لذلك النزاع الطويل بين المسيحية والإسلام ، الذى نطلق عليه اسم الحروب الصليبية ، وتخرج منه ظافرة منتصرة .

الفصل الرابع

أرمينية

(٣٢٥ - ١٠٦٠)

امتدت فتوح الأتراك السلاجقة إلى أرمينية في عام ١٠٦٠ م
لقد ظلت هذه البلاد البائسة قروناً طوالاً مطمعا للإمبراطوريات الكبيرة
المتنافسة التي أنشبت فيها مخالبها ، لأن جبالها حالت بينها وبين اتحادها للدفاع
عن نفسها ، بينما كانت وديانها طرقاً ميسرة بين بلاد النهرين والبحر
الأسود . واقتتلت بلاد الفرس واليونان لامتلاك هذه الطرق للانتفاع بها
في التجارة والحرب ، واجتازتها جنود أكسانوفون العشرة الآلاف ،
واحتربت من أجلها رومة وفارس وبيزنطية والإسلام ، والروسيا وبريطانيا .
ولكن أرمينية ظلت مستقلة من الوجهة الفعلية رغم ما حاق بها من الضغط
الخارجي أو السيطرة الخارجية محتفظة بما لها من نشاط اقتصادي قوى في
التجارة والزراعة ، ومن استقلال ثقافي أثمر فيها دينها الخاص وآدابها
وفنونها : وكانت هي أولى الأمم التي جعلت المسيحية دين الدولة الرسمي
(٣٠٣) . وانحازت إلى جانب اليعاقبة في الجدل الذي قام حول طبيعة المسيح ،
وأبت أن تعترف بأنه يجوز عليه من أسباب الضعف ما يجوز على الجسم
البشري . وانفصل الأساقفة الأرمن في عام ٤٩١ عن الكنيستين اليونانية
والرومانية وأنشأوا لهم كنيسة أرمينية مستقلة لها رئيسها الخاص . وظلت
الآداب الأرمينية تكتب باللغة اليونانية إلى أوائل القرن الخامس بعد الميلاد
حين اخترع الأسقف مسروب حروفاً هجائية خاصة بها وترجم التوراة إلى
اللغة الأرمينية ، وأصبح للبلاد من ذلك الحين أدب أرميني غزير معظمه أدب
ديني وتاريخي :

وظلت تلك البلاد خاضعة بالاسم إلى سلطان الخلفاء من عام ٦٤٢ م إلى عام ١٠٤٦ م ، ولكنها كانت طوال هذه المدة صاحبة السيادة على نفسها مستمسكة بمسيحياتها . وأقامت أسرة البجرتوني Bagrtuni في القرن التاسع الميلادي أسرة حاكمة اتخذ رئيسها لقب « أمير الأمراء » ، وأنشأت لها عاصمة في آني Ani ، وظلت البلاد في عهدها أجيالاً عدة تنعم بالتقدم والسلام النسبي . وكان أشوت Ashot الثالث (٩٥٢ - ٩٧٧) أميراً محبوباً ، شاد كثيراً من الكنائس ، والمستشفيات والأديرة ، والملاجئ ، ولم يكن يجلس للطعام (كما يقول الرواة) إلا إذا كان الفقراء معه على مائدته . وبلغ رخاء البلاد غايته في عهد ابنه جاجيك Gagik الأول (وما أغرب ما تبدوا أسماؤنا نحن للأرمن) ؛ فقد كثرت فيها المدارس ، وأثرت المدن بفضل انتشار التجارة ، وازدانت بأعمال الفن ، وأصبحت قارص مركزاً للأدب وعلوم الدين والفلسفة تنافس فيها آني . وكان في هذه المدينة الثانية قصور فخمة ، وكنيسة كبرى (حوالي عام ٩٨٠) ، جمعت بين الطرازين الفارسي والبيزنطي ؛ فكان فيها مجاميع من العمد والأكتاف ، والعقود المستديرة والمستدقة في أعاليها ، إلى غير هذه من الخصائص التي دخلت فيما بعد في الفن القوطي . ولما أن دمر زلزال قبة أياصوفيا بالقسطنطينية في عام ٩٨٩ عهد إمبراطور بيزنطية إلى تاردات Tardat مهندس كنيسة آني أن أعيد بناؤها ، وكان ذلك واجباً من أشق الواجبات وأعظمها خطورة (٣٢)

الباب الحادى عشر

أحوال البلاد الإسلامية

(٦٣٨ - ١٠٥٨)

الفصل الأول

الحال الاقتصادية

تنشأ الحضارة من عاملين أساسيين هما الأرض والعمل - ومن موارد الأرض الطبيعية تحولها رغبات الإنسان وجهوده وتنظيمه إلى ما فيه منفعته . فن وراء المظاهر الخارجية لحاشية الملوك والقصور ، والهياكل ، والمدارس ، والآداب ، والترف ، والفنون ، ومن تحتها يقف الإنسان أحد العاملين الأساسيين فى الحضارة ، الإنسان الصياد يأتى بالصيد من الغاب ؛ والحطاب يقطع الأشجار منها ؛ والراعى يرعى قطعانه ويربها ؛ والفلاح يمهد الأرض ، ويحرسها ، ويزرعها ، ويحصد غلاتها ، ويعنى بالحدائق ، والكروم ، ويربى النحل ، والدواجن والطيور ؛ والمرأة تنهك فى مئات الصنائع اليدوية والأعمال المنزلية ؛ والعامل ينقب عن المعادن فى باطن الأرض ، والبناء يقيم المنازل ويصنع المركبات والسفن ؛ والصانع ينتج السلع والأدوات ، والبائع الجائل ، أو صاحب الحانوت ، أو التاجر يجتمع بين الصانع والمستهلك ويفرق بينهما ، والمستثمر يمد الصناعات بأمواله المدخرة ؛ والمدير المنفذ يسخر الجهود العضلية ، والمواد الأولية ، والعقل لإنشاء الخدمات وإيجاد السلع . أولئك هم العمال الصابرون القلقون رغم صبرهم الذين تركب على ظهورهم الممالة المتأرجحة حضارة العالم المزرعة .

وكان هؤلاء كلهم جادين عاملين في بلاد الإسلام . فكان الرجال يربون الماشية ، والخيل ، والإبل ، والمعز ، والفيلة ، والكلاب ، ويسطون على عسل النحل ، وابن الإبل ، والمعز ، والبقر ، وينتجون مائة نوع من الحبوب ، والخضر والفاكهة ، والنقل ، والأزهار . لقد جاء العرب إلى بلادهم بشجرة البرتقال من الهند في وقت ما خلال القرن العاشر الميلادي ، وأدخلوها في بلاد الشام ، وآسية الصغرى ، وفلسطين ، ومصر ، وأسبانيا ثم انتقلت من هذه البلاد إلى جميع أنحاء أوروبا الجنوبية^(١) . كذلك نقل العرب زراعة قصب السكر ، وصناعة السكر نفسه وتكريره من الهند ونشروها في جميع أنحاء الشرق الأدنى ، ومن تلك البلاد نقلهما الصليبيون إلى أوطانهم^(٢) ؛ وكان العرب أول من زرع القطن في أوروبا^(٣) ، وقد استطاعوا إنتاج هذه المحاصيل من أرضين معظمها جذب قاحل بفضل وسائل الري المنظم ؛ ولم يجر الخلفاء في الميدان على سنتهم المألوفة من ترك الشؤون الاقتصادية للمشروعات الحرة ، بل كانت الحكومة تشرف على قنوات الري الرئيسية وتمتعها بالصيانة والتطهير ، فأوصلت ماء الفرات إلى أرض الجزيرة ، وماء دجلة إلى أرض فارس ، وشقت قناة كبيرة بين النهرين التوأمن عند بغداد . وكان خلفاء الدولة العباسية الأولون يشجعون الأعمال الخاصة بتجفيف المستنقعات وتعمير القرى المحرقة والضياح التي هجرها سكانها . وكان الإقليم المحصور بين بخارى وسمرقند يعد في أثناء القرن العاشر « لإحدى الجنات الأرضية الأربع » - وكانت الثلاث الأخرى هي جنوبي فارس ، وجنوبي العراق ، والإقليم المحيط بدمشق في بلاد الشام .

وكان الذهب والفضة ، والحديد ، والرصاص ، والزنبق ، والإمّند ، والكبريت ، وحجر الفتيلة (الأسبستوس) ، والرخام ، والحجارة الكريمة تستخرج كلها من باطن الأرض ، وكان العواصم يستخرجون اللؤلؤ من الخابج الفارسي ؛ واستخدم

العرب النفط والقار في بعض أعمالهم ، فقد وجد بين محفوظات هرون الرشيد ورقة سجل فيها ثمن النفط والعشب اللذين استخدما في حرق جثة جعفر (٤) . وكانت الصناعة لا تزال في مرحلة العمل اليدوى ، يقوم بها الأهليون في البيوت والحوانيت ، وينتظمون في طوائف . وقل أن تعر في البلاد الإسلامية في ذلك الوقت على مصانع بالمعنى الحديث ، ولا نجد دليلاً واضحاً على ارتفاع الفنون الصناعية فوق المرحلة اليدوية والجهود العضلية إذا استثنينا الطواحين الهوائية . فالمسعودى أحد مورخى القرن العاشر يقول إنه شاهد هذه الطواحين في فارس وبلاد الشرق الأدنى ، مع أننا لا نجد أثراً لها في أوروبا قبل القرن الثانى عشر ، ولعلها كانت هدية أخرى أهداها الشرق الإسلامى إلى أعدائه الصليبيين (٥) . وكان العرب على جانب كبير من المهارة الآلية الفنية ، وشاهد ذلك أن الساعة المائتة التى أهداها هرون الرشيد إلى شارلمان قد صنعت من الجلد والنحاس الأصفر المنقوش . وكانت تدل على الوقت بفرسان من المعدن يفتحون كل ساعة باباً يسقط منه العدد المطلوب من الكرات على صنجة ، ثم ينسحبون ويغلقون الباب (٦) . وكان الإنتاج بطيئاً ، ولكن الصانع كان فى وسعه أن يظهر مهارته فيما ينتجه من تحف ، وأدوات كاملة الصنع ، وكاد يجعل من كل صناعة فناً . واشتهرت المنسوجات الفارسية ، والشامية ، والمصرية بجمالها الفنى الرائع الذى كان يتطلب من الصانع مهارة وصبراً ؛ فاشتهرت الموصل بنسيج القطن الرفيع «الموصلين» ؛ ودمشق بنسيج التيل «الدمقس» ؛ وعدن بالصوف . واشتهرت دمشق أيضاً بالسيوف المصنوعة من الصلب المسقى ؛ وصيدا وصور بزجاجهما الذى لا يدانیه زجاج فى رفته وصفائه ، وبغداد بزجاجها وخزفها ، والرى بخزفها ، وإبرها ، وأمشاطها ؛ واشتهرت الرقة بزيت الزيتون والصابون ، وفارس بالروائح العطرية والطنافس . وبلغت بلاد آسية الغربية تحت حكم المسلمين درجة من الرخاء الصناعى والتجارى لم تصل إليها بلاد أوروبا الغربية قبل القرن السادس عشر (٧) .

وكانت أهم وسائل النقل البرى هى ظهور الإبل ، والخيول والبغال والرجال ، لكن الحصان كان بوجه عام أئمن من أن يستخدم فى حمل الأثقال ، وفيه يقول أعرابى « لا تسمه حصانى ، بل سمه ولدى ؛ فهو فى عدوه أسرع من الريح ومن طرفه العين . . . وقد بلغ من خفة قدمه أنه يستطيع أن يرقص فوق صدر حبيبتك ولا يؤذيها » (٨) . ومن أجل هذا كان الحمل « سفينة الصحراء » يحمل معظم تجارة العرب ، وكانت قوافل يصل عدد جمالها إلى ٤,٧٠٠ جمل تخترق بلاد العالم الإسلامى . وكانت طرق كبرى تشع من بغداد وتمر بالرى ونيسابور ، ومرو ، وبخارى ، وسمرقند ، إلى كاشغر وحدود بلاد الصين ؛ أو إلى البصرة فشيراز ؛ أو إلى الكوفة فالمدينة ، ومكة وعدن ؛ أو إلى ساحل بلاد الشام مجتازة الموصل أو دمشق . وأنشئت النزل ، والخانات ، والمضاييف ، وصهاريج الماء فى الطرق ليستقى منها المسافرون والدواب . وكانت التجارة الداخلية واسعة تنتقل فى الأنهار والقنوات . وقد فكر هرون الرشيد فى حفر قناة تربط البحرين المتوسط والأحمر فى موضع قناة السويس وخططها ، ولكن يحى البرمكى لم يشجعه على حفرها لأسباب لا نعرفها ولعلها أسباب مالية (٩) . وقد أنشئت على نهر دجلة عند بغداد ، حيث يبلغ عرضه ٧٥٠ قدماً ، ثلاثة جسور محملة على قوارب .

وكانت تجارة عظيمة تمر بهذه الشرايين ، وكان من المزايا الاقتصادية التى يستمتع بها غرب آسية أن حكومة واحدة تسيطر على هذا الإقليم الذى كان فيما مضى مقسماً بين أربع دول ؛ فقد كان من آثار هذه الوحدة أن ألغيت فى داخلها جميع العوائد الجمركية وغير هام من العوائق التجارية ، هذا إلى أن العرب لم يكونوا كأشراف الأوربيين يسخرون من التجار ويزدرونهم ، ولهذا لم يلبثوا أن انضموا إلى المسيحيين واليهود والفرس فى نقل البضائع من المنتج إلى المستهلك بأقل ما يمكن من الربح لكليهما ، فغصت المدائن والبادان بوسائل النقل والمقايضة والبيع والشراء ؛ وكان البائعون

(٩٠ - ج ٢ - مجلد ٤)

الجائلون ينادون على سلعهم أمام النوافذ الشبكية ، والحوانيت تعرض بضائعها ، أو تتردد فيها أصداء المساومات ، والموالد والأسواق تغص بالتاجر والتجار ، والبائعين ، والمشتريين ، والشعراء ؛ والقوافل تربط الصين والهند بفارس والشام ومصر ؛ وكانت الثغور أمثال بغداد ، والبصرة ، وعدن ، والقاهرة ، والإسكندرية ، تبعث بالتجار يجوبون البحار . وظلت التجارة الإسلامية هي المسيطرة على بلاد البحر المتوسط إلى أيام الحروب الصليبية ، تنتقل من الشام ومصر في أحد الطرفين إلى تونس ، وصقلية ، ومراكش وأسبانيا في الطرف الآخر ، وممر في طريقها ببلاد اليونان ، وإيطاليا ، وغالة . وانتزعت السيطرة على البحر الأحمر من بلاد الحبشة ، وتجاوزت بحر الخزر إلى منغوليا ، وصعدت في نهر الفلجا Volga من أستراخان إلى نوفجورود ؛ وفنلندة ، واسكنديناوة ، وألمانيا حيث تركت آلافاً من قطع النقود الإسلامية . ولما أن قدمت سفن صينية لزيارة البصرة رد العرب الزيارة بإرسال سفائنهم من الخليج الفارسي إلى الهند وسرنديب ، ثم اجتازت المضيق الذي يفصل بينهما ، وسارت بإزاء الساحل الصيني إلى خنفو (كتتون) ، واستقرت في هذا الثغر جالية إسلامية ويهودية في القرن الثامن الميلادي (١٠) ؛ ووصل هذا النشاط التجاري الذي بعث الحياة قوية في جميع أنحاء البلاد إلى غايته في القرن العاشر أي في الوقت الذي تدهورت فيه أحوال أوروبا إلى الدرك الأسفل ؛ ولما أن اضمحلت هذه التجارة أبقى آثارها واضحة في كثير من اللغات الأوربية فأدخلت فيها ألفاظاً مثل bazaar, cravan, magazine, tariff (*) .

وكانت الدولة تترك للصناعة والتجارة حريتهما وتساعدهما بإيجاد عملة ثابتة مستقرة إلى حد كبير . وكان الخلفاء الأولون يستخدمون النقود البيزنطية والفارسية حتى تولى الخلافة عبد الملك بن مروان فسك في عام ٦٩٥ عملة عربية من الذهب

(*) - اللفظان الأولان من أصل عربي وهما: التمريفه والخزن ، الثالث والرابع من أصل فارسي . (المترجم)

هي الدينار وأخرى من الفضة هي الدرهم . ويصف ابن حوقل (حوالى ٩٧٥). صكاً كان تعهداً بالدفع قيمته ٤٢,٠٠٠ دينار مصدرأ إلى تاجر في مراکش ، وقد اشتقت من كلمة صك الدالة على هذه الوثيقة الكلمة الإنجليزية Check ، وكان ذوو المال يستثمرون أموالهم في الأسفار البحرية والبرية ، ومع أن الربا محرم في الإسلام فإن المشتغلين بالشئون المالية لم يعدموا وسيلة لأداء جزء من الربح لأصحاب رؤوس الأموال نظير استخدامها في هذه الأعمال وما تتعرض له من الأخطار كما فعل الأوروبيون فيما بعد .

وكان القانون يحرم الاحتكار ولكنه كان منتشرارغم هذا التحريم ؛ ولم يكدمضى على موت عمر بن الخطاب مائة عام حتى جمع أفراد الطبقات العليا من العرب ثروات طائلة وعاشوا في ضياع مترفة يقوم بالعمل فيها مئات من الأرقاء (١١) . ويقال إن يحيى البرمكى عرض سبعة آلاف ألف درهم (٥٦٠,٠٠٠ دولار أمريكي) ثمناً لصندوق للآلى* مصنوع من الحجارة الكريمة ، وإن صاحبه أبى أن يبيعه بهذا الثمن ؛ وإن الخليفة المكتفى ، إذا جاز لنا أن نصدق الأرقام التي يوردها مؤرخون العرب ، ترك حين وفاته ما قيمته ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار* (١٢) . ولما أن عقد هرون الرشيد لابنه المأمون على بوران نثرت جدتها على العريس بكرة من اللؤلؤ ، ونثر والدها على المدعوين كرات من المسك تحتوى كل منها على وثيقة تعطى صاحبها الحق في عبد .

(*) كلمة دينار مشتقة من اللفظ الرومانى دينار يوس ، وكان يحتوى على ٥٦ جراماً من الذهب . أو ١٣٥ و من الأوقية : أو ما قيمته ٤,٧٢٥ دولار حسب قيمة الذهب في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٧ . وسنقدره نحن في هذا الباب تقديراً تقريباً بـ ٤,٧٥٠ دولارات . أما كلمة درهم فهي مشتقة من كلمة درنجة اليونانية ، وكان الدرهم يحتوى على ثلاثة وأربعين جراماً من الفضة وتبلغ قيمتها نحو ١٠٠ من الدولار الأمريكى . ولما كان مقدار ما في الدرهم من الفضة قد تغير كثيراً فإن تقديراً لقيمه تقریبى بطبيعة الحال .

أو جواد ، أو ضيعة ، أو هدية أخرى^(١٣) . ولما أن صادر المقتدر ١٦٠٠٠٠٠ دينار من ثروة ابن الجساس ، بقيت لهذا الصانع الشهير بعد ذلك ثروة طائلة . وكانت ثروة بعض التجار ذوى الصلة بالأقطار النائية وراء البحار لا تقل عن ٤٠٠٠٠٠٠ دينار ، وكان مئات من التجار يملكون بيوتاً تراوح نفقاتها بين عشرة آلاف وثلاثين ألف درهم (١٤٢٥٠٠٠ دولار)^(١٤) .

وكان مركز العبيد في الطبقة الدنيا من بناء الدولة الاقتصادية . ولربما كان عددهم في الإسلام بالنسبة لعدد السكان أكثر منه في المسيحية حيث كان أرقاء الأرض يحاون محل العبيد . ويقول الرواة إن بيت الخليفة المقتدر كان يضم ١١٠٠٠ من الحصيان ، وإن موسى بن نصير قبض في إفريقية على ٣٠٠٠٠ أسير ، وفي أسبانيا على ٣٠٠٠٠ « عذراء » وباع الجميع في أسواق الرقيق ؛ وإن قنينة قبض في سجديانا على ١٠٠٠٠ أسير . وخلق بنا أن نشير في هذا المقام إلى أن هذه الأرقام مبالغ فيها كثيراً كما هي عادة المؤرخين العرب ، وإلى أن من واجبتنا ألا تأخذها كما هي وقد عمل الإسلام على تضييق دائرة الاسترقاق وتحسين حال الأرقاء ، فقصر الاسترقاق المشروع على من يؤسرون في الحرب من غير المسلمين وعلى أبناء الأرقاء أنفسهم . أما المسلم فلا يجوز أن يسترق (كما لم يكن يجوز في الدين المسيحي أن يسترق المسيحي) . ولكن تجارة الرقيق نشطت على الرغم من هذا وكان قوامها من يقبض عليهم في الغارات — كالزنج من بلاد الشرق ، ومن أواسط أفريقية ؛ والأتراك أو الصينيين من التركستان ، والبيض من روسيا وإيطاليا ، وأسبانيا . وكان للسيد من المسلمين حق الحياة والموت على عبده ، ولكنه كان في العادة يحسن معاملته إلى حد لم يكن معه مركزه أسوأ من مركز انعام في المصانع الأوروبية في القرن التاسع عشر ، بل لعله كان أحسن حالا من ذلك الصانع ، لأنه كان آمن على حياته منه^(١٥) ، وكان الأرقاء يقومون بمعظم

الأعمال الدنيا في المزارع ، وبأكثر الأعمال اليدوية التي لا تحتاج إلى مهارة في المدن . وكانوا يعملون خدماً في البيوت ، وكان من رجالهم خصيان ومن النساء جوار في الحريم . وكانت كثرة الراقصات ، والمغنيات والممثلات من الجوارى . وكان ابن الجارية من سيدها ، وابن المرأة الحرة من عبدها ، حراً من ساعة مولده . وكان يسمح للعبيد أن يتزوجوا وأن يتعلم أبناءهم إذا أظهروا قدراً كافياً من النباهة . وإن المرء ليدهش من كثرة أبناء العبيد والجوارى الذين كان لهم شأن عظيم في الحياة العقلية والسياسية في العالم الإسلامي ، ومن كثرة من أصبحوا منهم ملوكاً وأمراء أمثال محمود الغزنوي والمماليك في مصر .

ولم يبلغ استغلال العمال في بلاد آسية الإسلامية من القسوة ما بلغه في البلاد الوثنية أو المسيحية ، حيث كان الفلاح يكدح طوال ساعات النهار ، ولا يكسب إلا ما يكفي لابتئاع خارقة تستر حقويه ، أو إقامة كوخ يعيش فيه ، أو الحصول على طعام لا يكاد يقيم أوده . وكان المتسولون كثيرين في البلاد الإسلامية ولا يزالون كثيرين فيها إلى الآن ، ولا يزال الكثيرون منهم يخادعون مدعين ، ولكن الأسويى الفقير كان يحميه من الفاقة مهارته في العمل البطيء ، وقل أن يوجد في الناس من يضارعه في تكيف نفسه لظروف التعطل عن العمل . وكانت الصدقات كثيرة متعددة ، وكان في وسع الفقير إذا ضاقت به السبل أن ينام في أحسن بناء في المدينة - وهو مسجدها ، ومع هذا كله فإن حرب الطبقات الأبدية لم تخمد بجمرتها قط ، وكان لها يندلع من آن إلى آن في البلاد الإسلامية (٧٧٨ ، ٧٩٦ ، ٨٠٨ ، ٨٣٨) في ثورات عنيفة . وكانت هذه الثورات تستر أحياناً بستار الدين لأن الدين والدولة كانا في البلاد الإسلامية شيئاً واحداً . وكان منهم شيع كالخرمية والحيدة تعتنق آراء مزدك الفارسي الشيعية ؛ ومنهم شيعة أطلقت على نفسها اسم سرخ علم أي « العلم الأحمر » (١٦) ؛ وقام في عام ٧٧٢ رجل في خراسان يدعى هاشم المقنع وقال إن الله قد حل في جسمه ، وإنه بعث

ليعيد شيوعية مزدك . واجتمعت حوله عدة طوائف ، وهزم كثيراً من الجيوش التي أرسلت للقبض عليه ، وظل ثلاثة عشر عاماً حاكماً على بلاد فارس ، ثم قبض عليه أخيراً (٧٨٦) وأعدم . وأثار بابك الخراساني الفتنة نفسها في عام ٨٣٨ وجمع حوله طائفة سميت المحمرة ، واستولى بها على آذربيجان ، وظلت في قبضته اثنتين وعشرين سنة ، وهزم عدة جيوش ، وقتل (على حد قول الطبري) ٢٢٥,٥٠٠ جندي وأسير قبل أن يهزم . وأمر الخليفة المعتصم جلاد بابك نفسه أن يقطع أطرافه طرفاً طرفاً ، ثم خزق أمام قصر الخليفة ، وحلوا رأسه إلى خراسان وطافوا به في مدنها (١٩) ، ليذكر كل من يراه أن الناس كلهم يولدون غير أحرار وغير أكفاء .

وكانت أهم « حروب الأرقاء » في الشرق هي التي أثار عجاجها رجل عربي اسمه علي (*) ادعى أنه من نسل علي بن أبي طالب زوج فاطمة بنت النبي . وتفصيل ذلك أن عدداً كبيراً من الزنوج كانوا يعملون في كسح السباخ بالقرب من البصرة ، فأخذ علي هذا يذكر لهم سوء ما يلقون من المعاملة ، ويحرضهم على أن يثوروا معه على ساداتهم ، ويعدهم بالتححرر من الرق وبالثروة — وأن يكونوا هم مالكين للعبيد . وأثرت فيهم دعوته ، فاستجابوا لها واستولوا على الزاد والعتاد ، وهزموا الجيوش التي سيرت لقتالهم ، وأنشأوا لهم قرى مستقلة فيها قصور لزعمائهم ، وسجون لأسراهم ، ومساجد لصلواتهم (٨٦٩) . وعرض أصحاب العمل أن يودوا لعل خمسة دنانير عن كل شخص من الثوار يعود إلى عمله إذا أقنعهم بهذه العودة ، فأبى : وحاولت البلاد المحيطة بهم أن تخضعهم بمنع الطعام عنهم ، ولكنهم حين نفذت مؤونتهم هاجروا بلدة الأبلّة ، وحرروا من فيها من الأرقاء وضموهم إلى صفوفهم ، ثم نهبوا وأشعلوا فيها النار (٨٧٠) . وتشجع على هذا النصر فهاجم عدة بلاد أخرى واستولى على الكثير منها ، وسيطر على جنوبي إيران والعراق

(*) اسمه علي بن محمد . (المترجم)

حتى دق أبواب بغداد نفسها . وتعطلت التجارة ، وقل الطعام في العاصمة :
وفي عام ٨٧١ استولى المهلبى قائد الزنوج على البصرة ، وذبح ثلثمائة ألف
من أهلها وسبى الجنود الزنوج آلافاً من النساء واسترقوا آلافاً من الأطفال
البيض بعضهم من بنى هاشم أنفسهم - إذ صدقنا أقوال المؤرخين . وظلت
نار الثورة مشتعلة عشر سنين ، سيرت في خلالها عدة جيوش لتقليم أظفارها ،
وعرض على من يفرون من صفوف الثوار المال والعفو ، فخرج على
كثيرون من رجاله ، وانضموا إلى جيوش الحكومة . ثم حوصر من بقي
منهم ، وضيق عليهم الخناق ، وسلط عليهم الرصاص المصهور و«النار اليونانية» ،
وهي مشاعل من النفط الملتهب ، وانتهى الأمر بأن دخل جيش يقوده الوزير
الموفق إلى مدينة الثوار ، وتغلب على ما لقيه من المقاومة ، وقتل علياً وحمل
رأسه إلى الوزير المنتصر . وسجد الموفق وضباطه شكراً لله على رحمته
(٨٨٣) (٢٠) . ودامت هذه الثورة أربعة عشر عاماً حاق فيها الخطر بجميع
المقومات الاقتصادية والسياسية في البلاد الشرقية الإسلامية . وانتهز أحمد بن
طولون والى مصر هذا الاضطراب فاستقل بأغنى ولايات الخلافة الإسلامية :

الفصل الثاني

الإيمان

يلي المال والنساء في شهوات الإنسان رغبته في النجاة من العذاب في الدار الآخرة . فإذا امتلأت المعدة بالطعام ، وأشبع الإنسان غريزته الجنسية ، وجد متسعاً من الوقت ينصرف فيه إلى الله .

ولقد كان المسلمون كثيرى التذكير في ربهم ، وكانت مبادئهم الأخلاقية وشريعتهم ، وحكومتهم ، قائمة كلها على أساس الدين . والإسلام أبسط الأديان كلها وأوضحها ، وأساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ويتطلب الجزء الثاني من هذا الأساس الإيمان بالقرآن وبكل ما جاء به ، ولهذا فإن المسلم المتمسك بدينه يؤمن كذلك بالجنة والنار ، والملائكة والشياطين ، والبعث ، والقضاء والقدر ، ويوم الحساب . وقواعد الإسلام بعد الشهادتين هي الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت . ويؤمن المسلم كذلك برسالة الأنبياء الذين سبقوا محمداً وبما نزل عليهم من الوحي « ولكل أمة رسول » (سورة يونس ٤٨) . ويعتقد بعض المسلمين أن عدة أولئك الرسل ٢٢٤٠٠٠ ، ولكن يبدو أن محمداً كان يرى أن ، إبراهيم وموسى ، وعيسى ، هم وحدهم الذين نطقوا بكلمات الله . ولهذا فإن على المسلم أن يؤمن بالتوراة والإنجيل ، ويعتقد أن ما ورد فيهما من وحى الله ، فإذا ما اختلفا عن القرآن في شيء فعليه أن يعتقد أن سبب ذلك ما حدث فيهما من تغيير متعمد أو غير متعمد . وعليه أن يؤمن أيضاً بأن القرآن قد حل محل غيره من الكتب السماوية ، وأن محمداً خير أنبياء الله ورسله . والمسلمون يعتقدون أن محمداً بشر من خلق الله ، ولكن احترامهم إياه لا يقل عن احترام النصارى للمسيح ، وفي ذلك يقول أحد الصالحين من المسلمين الأقدمين

إنه لو كان حياً في زمان النبي لما تركه يظأ الأرض بقدمه المباركة ولحملة على كتفيه أينما أراد .

والمسلمون الصالحون لا يطيعون ما ورد في القرآن وحده ، بل يعملون أيضاً بالأحاديث والسنن النبوية التي احتفظ بها علماءهم على مر الأجيال والقرون . ذلك أن المسلمين قد واجهوا على مر الزمن مسائل خاصة بالعقائد ، والعبادات ، والأخلاق ، والتشريع ، لا يجدون لها جواباً صريحاً في القرآن . كذلك وردت في القرآن آيات متشابهات يخفى معناها على كثير من العقول وتحتاج إلى إيضاح . ولهذا كان من المفيد أن يعرف المسلمون ما فعله النبي أو الصحابة وما قالوه في أمثال هذه الموضوعات . ومن أجل ذلك وجه بعض المسلمين عنايتهم إلى جمع هذه الأحاديث ، وامتنعوا عن تدوينها في القرن الأول من الهجرة(*) . وأنشأوا مدارس للحديث في مختلف المدن يلقون فيها دروساً عامة في الحديث والسنن النبوية ، ولم يكن من غير المؤلف أن يسافر الواحد منهم من الأندلس إلى بلاد

(*) يقول المؤلف إن المسلمين امتنعوا عن تدوين أحاديث الرسول في القرن الأول الهجري ، والحق أنه كان من الصحابة من لا يرى تدوين الحديث لكي تكون اللمة مقصورة على القرآن وحده ، ولكن من الحق أيضاً أن تدوين الحديث بدءاً منذ فجر الإسلام في القرن الأول ، بل أن بعض ذلك يرجع إلى عهد الرسول نفسه .

لقد جاء في صحيح البخاري أن الرسول أمر فكتبت خطبته التي خطبها يوم فتح مكة ، وفي هذا الباب أيضاً نجد أبا هريرة يقول : ما من أحد أحفظ مني لحديث رسول الله صلى عليه وسلم ولا أكثر مني رواية له ، غير عبد الله بن عمرو بن العاص لأنه كان يكتب كل ما يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم ولم أكن أكتب . وفي سنن أبي داود ومسنند الإمام أحمد بن حنبل أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهني قريش عن ذلك وقالوا : تكتب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الغضب والرضا ! فأمسكت ، حتى ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « اكتب ، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق » وأوماً بإصبعه إلى فيه حين قال ذلك . راجع مسند أحمد ، ج ٢ : ١٦٢ و ١٩٢ ، سنن أبي داود ، ج ٢ : ٢٢٠ وجامع بيان العلم وفضله ، لابن عبد البر ، ج ١ : ٧١ . وراجع أيضاً بحثاً قيمياً في ذلك ، للعلامة السيد سليمان عبد القدوس ، الرسالة المحمدية طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٧٢ هـ ص ٥٣ وما بعدها . (ي)

الفرس ليستمع إلى حديث من أحد رواته . وبهذه الطريقة تجمعت طائفة من السفن الشفوية إلى جانب القرآن شبيهة بالمشنا والجارا . اللذين تجمعا حول التوراة ، وفعل البخارى بهذه الأحاديث في عام ٨٧ ما فعل يهودا هاناسى بشرائع اليهود غير المكتوبة في عام ٨٩ ، فقد واصل البحث عدة سنين طاف فيها بأنحاء العالم الإسلامى من مصر إلى التركستان حتى جمع نحو ستمائة ألف حديث اختار منها بعد تمحيصها ونقدها ٧٢٧٥ ونشرها في صحيحة منسوبة في سلسلة طويلة من الإسناد إلى أحد الصحابة أو إلى النبي نفسه .

تلقى الكثير من أحاديث النبي ضوعاً جديداً على العقائد الإسلامية . نعم إن محمداً لم يقل قط إنه يأتي بمعجزات ، ولكن ثمة أحاديث تروى بعض ما قام به من خوارق العادات : كيف أطمع عدداً كبيراً من الناس من طعام لا يكاد يكفي شخصاً واحداً ، وكيف أخرج الشياطين من جسم بعض الناس ، وكيف أنزل الغيث وحجب المطر بصلاة واحدة ، وكيف مسح بزرع ماعز جافة فأدرت اللبن ، وكيف شفى المرضى بلمس ثيابه أو شعر رأسه بعد قصه .

ونحث بعض الأحاديث على حب الأعداء ، وإن كانت آراء محمد في هذه الناحية أشد من آراء المسيح : وقد أخذت الصلاة الربانية من الإنجيل بعد أن أدخل عليها بعض التعديل (*) كما يعزى إلى محمد حديث يروى قصص الزراع ، وضيوف العرس وعمال الكرم ، وقصارى القول أن رواة الأحاديث قد وصفوا النبي بخير ما نجده في المسيحية من فضائل على الرغم من زوجاته التسع ، ويقول بعض النقاد المسلمين : إن كثيراً من الأحاديث قد دستها على النبي الدعاوة الأموية أو العباسية أو غيرها . وقد اعترف ابن العوجاء الذى أعدم في الكوفة سنة ٢٧٢ أنه وضع بنفسه أربعة آلاف حديث . وثمة عدد قليل من المتشككين الذين لا يصدقون معظم الأحاديث ومنهم من زيف بعضها وصاغها في صيغة الأحاديث الصحيحة .

(*) الصلاة الربانية عند المسيحيين هي التي تبدأ بقولهم : أبانا الذى فى السموات . . الخ «

ومع هذا كله فإن تصديق الأحاديث الواردة في إحدى المجموعات المتفق على صحتها ، من الصفات التي يمتاز بها المسلمون المتمسكون بدينهم والذين يطلق عليهم اسم السنيين . ومن هذه الأحاديث حديث يسأل فيه جبريل النبي عن ماهية الإسلام فيجيبه النبي بأن الإسلام هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، فالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج هي الواجبات الأربعة المفروضة على كل مسلم ، وهي مضافة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله « أركان الإسلام الخمسة » .

ولا بد أن يسبق الصلاة الوضوء ، وإذا كانت الصلاة تؤدي خمس مرات في اليوم فقد أصبحت النظافة من الإيمان بحق . فالإسلام كاليهودية يدعو إلى العناية بصحة الجسم وتقويم الخلق ، وهما في هذه الناحية يعملان بالمبدأ القائل إن الإنسان لا يعقل الشيء المعقول إلا إذا كان له سند من الدين : وكان النبي يحذر المسلمين من إهمال الوضوء ويقول لهم إن الله لا يقبل الصلاة بلا وضوء ، وبحث على تنظيف الأسنان قبل الصلاة ، وإن لم يجعلها من فرائض الوضوء ، أما تلك الفرائض فهي : غسل الوجه واليدين والقدمين(*) (سورة المائدة ٦) وعلى الجنب أن يستحم ، وعلى المرأة التي خرجت من الحيض ، أو الوضع ، أن تتطهر قبل الصلاة . ويصعد المؤذن في بلاد الإسلام المئذنة عند طلوع الفجر ، وفي منتصف النهار ، ووقت العصر ، وعند غروب الشمس ، وفي المساء ، ويدعو المسلمين إلى الصلاة بقوله « الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد ألا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد

(*) ومسح الرأس . (المترجم)

أن نحمداً رسول الله ، حتى على الصلاة ، حتى على الصلاة ، حتى على الفلاح ،
حتى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

ألا ما أقوى هذه الدعوة ، وما أشرفها من دعوة للقيام من النوم قبل
مطلع الشمس ، وما أحسن أن يقف الإنسان عن العمل وقت الظهيرة ،
وما أعظم وأجل أن يتوجه الإنسان بروحه إلى الله جل جلاله في سكون
الليل ، ولما أحلى وقع صوت المؤذنين على الآذان ، آذان المسلمين وغير
المسلمين ، وهم يدعون النفوس الحبيسة في الأجسام الأرضية من فوق آلاف
المساجد أن تتوجه إلى واهب الحياة والعقل ، وتتصل به ذلك الاتصال
الروحي الجليل . ففي هذه الأوقات الخمسة يجب على كل مسلم في جميع بقاع
الأرض أن يقف كل عمل أيا كان ، ويتطهر ، ويولى وجهه نحو مكة
والكعبة ويقم الضلوات القصيرة ، بنفس الصورة الدقيقة التي يؤديها بها
غيره من المسلمين ، كلما انتقلت الشمس من مرحلة إلى مرحلة في حركتها
الظاهرة حول الأرض .

فمن أمكنه وقته ، وشاءت إرادته ، ذهب إلى المسجد يؤدي الصلاة ،
والمساجد تظل في العادة مفتوحة الأبواب طول النهار ، يؤمها كل مسلم
صالح أو زنديق ليتوضأ أو يصلي أو يستريح . وهناك تحت سقفها الظليلة
كان المدرسون يعلمون التلاميذ ، والقضاة يفصلون في الخصومات ،
والخلفاء يعلنون سياستهم أو أوامرهم ، وكان الناس يجتمعون فيها
ليتحدثوا في كل ما يعينهم ، ويستمعوا إلى الأخبار ويفاوضوا في الأعمال
التجارية والمالية في بعض الأحيان . ذلك أن المسجد كان كالبيعة عند
اليهود ، والكنيسة عند المسيحيين ، مركز الحياة اليومية ، والبيت العام
للمجتمع كله . وفي يوم الجمعة قبل أن ينتصف النهار بنصف ساعة أو نحوها
يقوم المؤذن ويصلي على النبي ويدعو لأسرته وإلى الصحابة ، ويدعو

المسلمين إلى الصلاة (*) . ويستحب في هذا اليوم أن يستحم المصلون ، ويلبسوا أثواباً نظيفة ، ويتعطروا ، قبل الحجىء إلى المسجد ، فإن لم يكونوا قد اغتسلوا فإن عليهم أن يتوضأوا في المسجد (**).

وقد جرت العادة أن تبقى النساء في بيوتهن حين يذهب الرجال إلى المساجد ، خشية أن يشغل وجودهن وإن كن محجبات بعض الرجال عن التوجه بأرواحهم كلها إلى الله . ويترك المصلون أحديتهم عند باب المسجد ، ويدخلونه حفاة أو بالأخفاف أو الجوارب ، فإذا حان موعد الصلاة وقفوا جنباً إلى جنب صفا واحداً أو عدة صفوف ، وولوا وجههم نحو المحراب الذى يعين موضع القبلة أو اتجاه مكة . ويقوم الإمام ويعظ الناس بخطبة قصيرة ثم تقام الصلاة ويتلو الإمام آيات من القرآن ، وكذلك يفعل المصلون أو يكتفون بتلاوة الفاتحة ، ويؤدون الصلاة بشعائرها المعروفة من ركوع وسجود وتحيات . وليس في صلاة المسلمين أناشيد ، أو مواكب ، أو قداس ، أو مقاعد مستأجرة ، ذلك أن الدين والدولة شىء واحد عند المسلمين ؛ وهذا فإن الشئون الدينية ينفق عليها من الأموال العامة . وليس الإمام كاهناً كالقس عند المسيحيين بل هو رجل عادى يكسب قوته بعمل دنيوى يؤديه ، ويعين في المسجد فترة من الزمان ، ويتقاضى أجراً قليلاً ليؤم المصلين (+) ؛ فالدين الإسلامى لا يعترف بالكهانة والقسوسة . والمسلمون بعد صلاة الجمعة أحرار يستطيع من أراد منهم أن يؤدى عمله المعتاد كما يؤديه في أى يوم آخر . وحسبهم أنهم قد توجهوا إلى ربهم ساعة من الزمان تطهرت فيها نفوسهم وسمت فوق

(*) يحدث هذا أحياناً ولكن الآذان الشرعى مرة واحدة ويقتصر على التكبير والشهادتين والدعوة إلى الصلاة والفلاج والتكبير والشهادة . (ى)
(**) ليس على المسلم أن يتوضأ في المسجد بل الذى عليه أن يكون متوضئاً قبل الصلاة في البيت أو في المسجد على حد سواء .
(+) ومن الأئمة من لا يتقاضى أجراً . وفي الصلوات الخمس يستطيع أى إنسان أن يؤم المصلين إن كان أهلاً لهذه الإمامة . (المترجم)

«المشاغل الاقتصادية والمنازعات الاجتماعية» ، وتألفت قلوبهم من حيث لا يشعرون باشتراكهم في هذه الشعائر العامة .

والواجب الثاني المفروض على المسلم هو أداء الزكاة . لقد كان النبي ينظر إلى الأغنياء كما ينظر إليهم المسيح ، ويقول بعضهم إنه بدأ حياته مصلحاً اجتماعياً اشتمأت نفسه مما رآه من الفروق الواسعة بين ترف طائفة التجار من الأشراف وفقرة عامة الشعب ، ويبدو أن معظم أتباعه في أول الأمر كانوا من الفقراء .

وكان من أول ما قام به من الأعمال في المدينة أن فرض ضريبة سنوية مقدارها اثنان ونصف في المائة على جميع الأملاك المنقولة ، لمعونة الفقراء (*) . وكان في الدولة الإسلامية موظفون مختصون يقومون بجمع الزكاة وتوزيعها على أصحابها . وكان جزء من حصيلتها ينفق في بناء المساجد ، وفي أداء نفقات الحكومة وتجهيز الجيوش . ولكن الحرب كانت تأتي بالغانم التي تزيد كثيراً من نصيب الفقراء . وما أكثر ما يروى من قصص المسلمين الأسخياء الذين جادوا بأموالهم على الفقراء ، فالحسن بن علي مثلاً يروى عنه أنه قسم ماله بينه وبين الفقراء ثلاث مرات في حياته وأنه في مرتين وهبهم كل ما يملك .

والواجب الثالث على المسلمين هو صوم رمضان . وتقول هنا إن الخمر ، والميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، والكلب ، محرمة بوجه عام على المسلمين ، ولكن الإسلام من هذه الناحية أقل صرامة من اليهودية ، فهو يبيح أكل الطعام المحرم عند الضرورة ، وسئل محمد مرة عن جبن لذيذ يحتوي على لحم محرم ، فقال

(*) فرغمت الزكاة بالمدينة حقا وفي السنة الثانية من الهجرة ، ولكنها لا تسمى ضريبة بل تسمى « زكاة » ومعنى الزكاة في اللغة : الطهارة والبراءة ، وإخراج المقدار الواجب شرعاً يطهر به مال المزكى وينميه حقا .
أما المقدار الذي ذكره المؤلف وهو اثنان ونصف في المائة فهو زكاة للمال النقدي ، وفي سائر الأموال كالزروع والثمار والحيوان مقادير أخرى محددة معروفة في كتب الفقه . (س)

للسائل : « اذكروا اسم الله وكلوا(*) » . وكان يكره الزهد الشديد ويحرم
الرهينة على المسلمين (سورة الأعراف ٣٢) فقد أحل للمسلمين أن
يستمتعوا بالحلل من طيبات الحياة على شريطة ألا يسرفوا فيها . ولكن الإسلام
كغيره من الأديان يدعو المسلمين إلى الصوم ليقوى بذلك إرادتهم من جهة ،
ولتصحح به أجسامهم من جهة أخرى . وكان النبي بعد أن أقام في المدينة
بضعة أشهر قد رأى اليهود يصومون صومهم السنوي فأمر أتباعه أن يحدوا
حدوهم لعله بذلك يستميلهم إلى الإسلام ، فلما تبين أنه لم يستميلهم إليه
استبدل به صوم رمضان ، فإذا أهل هذا الشهر وعدته تسعة وعشرون يوماً
في بعض السنين وثلاثون في بعضها الآخر أمسك المسلمون في أثناء النهار
عن الطعام والشراب ، والتدخين وعن الصلوات الجنسية . وأبيح الإفطار
للمرضى ، والمسافرين المتعبين ، والصغار ، والشيوخ الضعاف ، والحاملات
والمرضع ، ولما فرض الصيام في أول الأمر كان شهر رمضان في فصل
الشتاء حين يقصر النهار ، ولكن رمضان يقع في فصل الصيف كل ثلاث
وثلاثين سنة ، فيطول ويشتد الظمأ في حر البلاد الشرقية حتى يكون أشبه
شيء بالعذاب . ولكن المسلم الصالح يتحمل الصيام . ويفطر المسلمون أثناء
الليل فياًكلون ، ويشربون ، ويدخنون ، ويباشرون النساء حتى مطلع
الفجر ، وتظل المخازن والحوانيت مفتحة الأبواب طوال الليل تؤمها الجماهير
ليأكلوا ويستمتعوا ، والفقراء يعملون كعادتهم في أيام الصوم ، أما الأغنياء
ففي وسعهم أن ييسروا الأمر على أنفسهم بالنوم في أثناء النهار .

ويقضى الأتقياء الصالحون الليالي العشر الأخيرة من رمضان في المساجد

(*) عن ابن عباس قال : جرى إلى النبي صلى الله عليه وسلم بجة في غزاة فقال : أين
صنعت هذه ؟ قالوا : بفارس ، ونحن نرى أنه يجعل فيها ميتة ، فقال : اطنوا فيها بسكين ،
واذكروا اسم الله وكلوا . رواه أحمد والبخاري والطبراني ، وواضح هنا أن ذلك كان لغزوة
وهي الغزاة . (المترجم)

فهم يعتقدون أن القرآن قد نزل على النبي في إحدى هذه الليالي ، ولهذا فإن هذه الليلة عندهم خير من ألف شهر ، وإذا كانوا لا يعرفون أى الليالي العشر هي ليلة القدر فإن كثيراً من المسلمين يحيونها كلها . فإذا انقضى شهر رمضان احتفل المسلمون بعيد الفطر ، فيستحمون ، ويلبسون ثياباً جديدة ، وينهى به بعضهم بعضاً ، ويخرجون الزكاة ، والهدايا ويزورون قبور الموتى .

والواجب الرابع المفروض على المسلمين هو الحج . ولقد كان الحج إلى الأماكن المقدسة من السنن المألوفة في بلاد الشرق ، فكان اليهود يأملون أن يروا صهيون في يوم من الأيام كما كان الصالحون من العرب عبدة الأوثان قبل النبي بزم من طويل يحجون إلى الكعبة ، وأقر الإسلام هذه السنّة القديمة ، وكان هذا الإقرار من الأسباب التي ساعدت على انتشار الإسلام في جميع أنحاء الجزيرة العربية . وبذلك أصبحت الكعبة ، بعد أن طهرت من الأصنام ، بيت الله . وفرض على كل مسلم (عدا المرضى والفقراء) أن يحجوا إليها ، كلما استطاعوا(*) ، ولكن سرعان ما فسر هذا بأنه يعني مرة في العمر . ولما أن انتشر الإسلام في أطراف العالم اقتصر أداء هذه الفريضة على قلة منهم ، وفي مكة نفسها بعض المسلمين الذين لم يزوروا الكعبة قط .

وقد وصف دوتى Doughty ، وصفا لا يضارعه في روعته وصف سواه ، منظر قافلة الحجاج وهي تجتاز الصحراء في حر الشمس اللافتح ، ولهب الرمال المحرقة ، وتتألف من سبعة آلاف من المؤمنين أو أقل أو أكثر من هذا العدد ، راجلين .

(*) لم يفرض الحج إلا مرة واحدة في العمر . (ى)

ولعل المؤلف قد أخذ قوله هذا من إضافة « من استطاع إليه سبيلاً » إلى الركن الخامس من أركان الإسلام ، وهو فهم خاطئ بلا شك ، إذ المقصود بهذه العبارة أن يؤدي الفريضة من يستطيع ، أى من تمكنه من أدائها حالته الصحية وموارده وغيرها من ظروفه . (الترجم)

أو ممتطين صهوة الجياد ، أو ظهور الحمير ، أو البغال ، أو الهودج الفخمة ،
ولكن أكثرهم الغالبة تهز على ظهور الإبل ، وتنحى بأجسامها في كل خطوة
من خطواتها الطويلة . . . وتسجد خمسين مرة في كل دقيقة أرادت ذلك أو لم
ترده في اتجاه مكة ، مجتازة ثلاثين ميلا في اليوم ، وخمسين ميلا في بعض
الأحيان ، حتى تصل إلى واحة تحط فيها رحالها لتستريح . وفي هذا السير
الشاق يمرض كثير من الحجاج ويتخلفون ، ومنهم من يموتون فيتركون (*)
تمهشهم السباع المترصدة في الطريق ، أو يحتضرون فيتركون ليموتوا على مهل ،
ويزور الحجاج في المدينة قبر النبي ، ويشهدون قبر أبي بكر وقبر عمر في
مسجد الرسول ، ويعتقد بعضهم أن في جوار هذه القبور مكان احتفظ به
لعيسى بن مريم .

فلذا أشرفت القافلة على مكة نصبت خيامها خارج أسوارها لأن البلدة نفسها
حرم مقدس . ثم يستحم الحجاج ويحرمون فيلبسون أثواباً بيضاء غير مخيطة ،
ويركبون أو يسرون على أقدامهم مسافة طويلة ، يبحثون عن مساكن لهم في
أحياء المدينة (**). ويفرض عليهم طوال إقامتهم في مكة أن يمتنعوا عن جميع
المنازعات ، وعن العلاقات الجنسية ، وعن كل ما هو حرام (+) ، وتصبح البلدة

(*) لا شك في أن هذا الوصف لا ينطبق كله على الكثرة الغالبة من الحجاج في هذه
الأيام أيام الطائرات والسيارات والعرق المعبدة ووسائل الراحة المهيأة لجميع الحجاج . (المترجم)
(**) يحتاج هذا الوصف إلى شيء من الدقة ، فإن كون مكة محرماً مقدساً لا يمنع أن
يدخلها الحجاج بقوافلهم ، بل هذا ما يحدث فعلاً ، ثم إن الإحرام يكون قبل ذلك لا بعده وله
مواقيت - وأمكنة معينة معروفة لا يجاوزها الحاج إلا محرماً مهما كان البلد الآن منه ،
وأقربها إلى « مكة » بينه وبينها مرحلتان (راجع مثلاً دور الحكام للقاضي مثلاً خسرو
الحنفي ج ١ ص ٢١٨) . (ح)

(+) ليس فرضاً على الحجاج الامتناع عن الصلوات الجنسية طول مدة إقامته بمكة ، بل
ذلك يكون مادام محرماً فقط ، كما هو معروف في كتب الفقه (انظر التعليق السابق) هذا
وليس الامتناع عن المحرمات مقصوداً على أيام الحج ، بل هو مفروض على المسلمين في جميع
الأوقات . (ح)
(١٠ - ج ٢ - مجلد ٤)

المقدسة في أشهر الحج ملتقى المسلمين من كافة الأمم ، والأجناس والطبقات ، يشتركون كلهم على قدم المساواة في مناسك الحج وفي الصلاة ، فإذا دخلوا المسجد الحرام الفسيح الجنات شغلهم نشوتهم الروحية عن ملاحظة المآذن الرفيعة التي فوق الجدران ، وعمما فيه من عقود وعمد . وعند بئر زمزم التي يقال عنها إنها أطفأت ظمأ إسماعيل يقفون خاشعين ، ويشرب الحجاج من مائها مهما تكن حرارته ومها يكن تأثيره ، ومنهم من يحمل هذا الماء معه إلى وطنه ليشرب منه في بعض أيامه وحين تحضره الوفاة(*) . ويصل الحجاج آخر الأمر ، وكلهم عيون شاخصة يلهثون من التعب ، إلى قلب المسجد ، إلى الكعبة نفسها ، وهي بناء صغير الحجم مضاء من داخله بمصاييح من الفضة معلقة في سقفه ، ومكسوة جدرانه الخارجية بكسوة من الحرير الثمين ، وفي أحد أركانه الحيز الأسود الشهير . ويطوف الحاج سبع مرات حول الكعبة ، ويقبل الحجر الأسود أو يلمسه أو ينحني تعظيما له . ومن الحجاج من يقضون الليلة كلها في داخل المسجد غير عابثين بما عانوا من شدة التعب والسهر ، يجلسون على أبسطه يتحدثون ، ويصلون ويفكرون في دهشة ونشوة في الغرض الذي جاءوا من أجله .

وفي اليوم الثاني(**) يسعى الحجاج سبع مرات بين الصفا والمروة ، وهما في خارج المدينة ، لإحياء لذكرى هاجر وهي تُبحث عن الماء لتروى به ولدها . وفي اليوم السابع يخرج من يبغون «الحج الأكبر» إلى جبل عرفات الذي يبعد عن

(*) من الحجاج من يصر على التزود من ماء زمزم والاحتفاظ بشيء منه في عودته إلى بلده ولكننا لانعلم ولا نظن أن منهم من يستبقى شيئا منه ليشربه حين تحضره الوفاة . (ى)

(**) السعى بين الصفا والمروة لا يكون في اليوم الثاني من الوصول إلى مكة ، بل إن هذا السعى واجب يوم وصوله إليها وطوافه بالكعبة بالمسجد الحرام . وهذا الطواف يسمى طوافه للقادم أو طواف التحية أيضا (راجع الكتاب السابق ج ٢ ص ٢٢٢ - ٢٢٤) . (ى)

سكة مسيرة سبع ساعات - وهم يستمعون إلى خطبة تدوم ثلاث ساعات (*) ، ثم يقفون وهم عائدون في منتصف الطريق ويقضون ليلة في المزدلفة . وفي اليوم الثامن يهرعون إلى منى ويرمون بالجمرات ثلاث علامات أو ثلاثة أعمدة ، اعتقاداً منهم بأن إبراهيم قد رجم الشيطان بهذه الطريقة حينما حاول أن يثنيه عن ذبيح ولده . . . وفي اليوم الثامن يضحون بحمل أو جمل أو غيرها من الماشية ذات القرون ، ويأكلون بعض لحومها ويوزعون الصدقات (***) ، وهذا الحفل هو أهم شعائر الحج ويحيون به ما فعله النبي نفسه في مثل ذلك الوقت من حياته ، والمسلمون في جميع أنحاء العالم يحتفلون بعيد الأضحى فينحرون الذبائح في هذا اليوم العاشر من شهر ذي الحجة ويوزعون اللحوم والصدقات تقرباً لله . وبعد هذا يخلق الحجاج شعورهم ويقصون أظافرهم ويدفنون هذه البقايا في الرمال ، وبذلك ينتهي الحج الأكبر ، ولكن الحجاج في العادة يزورون الكعبة مرة أخرى قبل أن يعودوا إلى منجيم القافلة . وهناك يعودون إلى حالتهم الأولى ويلبسون ثيابهم العادية ويبدأون رحلتهم الطويلة إلى أوطانهم مطمئنين بال فخورين بما وفقوا إليه من عمل صالح .

ولهذه الفريضة العظيمة أغراض وفوائد كثيرة . فهي تقوى إيمان المسلمين واستمسكهم بدينهم ، وتمكن الصلة بهذا العمل العاطفي الجماعي بين المسلم ودينه وبينه وبين إخوانه المؤمنين ، شأنها في هذا شأن حج اليهود إلى أورشليم ، وحج المسيحيين إلى هذه المدينة وإلى رومة . فالحج وما ينطوي عليه من مناسك التقى

(*) يخطب الإمام في موسم الحج ثلاث خطب ، ولكل منها مناسبة يعلم الحجاج فيها ما هم مقبلون عليه من الحج وأعماله وليس منها خطبة واحدة تدوم ثلاث ساعات ، والذين يدرسون الفقه الإسلامي وسيرة الرسول ، يعرفون أن خطب الرسول صل الله عليه وسلم كانت تجمع بين الإيجاز وكل ما تجب معرفته .

(**) لا تكون الأضحية في اليوم الثامن من ذي الحجة بل تكون في اليوم العاشر أي يوم العيد كما هو معروف .

والورع يجمع بين بدو الصحراء والفقراء وتجار المدن الأثرياء ، وبين البربر ووزنوج إفريقية ، والشوام ، والفرس ، والأتراك ، والتتار ، والهنود المسلمين ، والصينيين والمصريين ، وغيرهم من الشعوب الإسلامية - يرتدون كلهم ثياباً بسيطة واحدة ، ويتلون كلهم أدعية واحدة بلغة واحدة وهي اللغة العربية ، ولعل هذا هو السبب في ضعف حدة الفوارق العنصرية في الإسلام . وقد يبدو لغير المسلمين أن الطواف حول الكعبة من الأعمال التي لا تنطبق على العقل . ولكن المسلم يتسم حين يرى أمثال هذه العادة في الأديان الأخرى ، ويهوله أن يرى المسيحيين في إحدى شعائهم « يأكلون الله » . فالمسلمون لا يفهمون من هذا الطواف إلا أنه رمز خارجي لصلة روحية وغذاء روحي . وفي الأديان كلها ما يبدو لغير أصحابها أنه مما يعز على الأفهام .

والأديان جميعها مهما يكن من نبل أصولها ، لا تلبث أن تحشر فيها طائفة من الخرافات لا صلة بينها وبين مبادئها الأولى ، وإنما تنشأ بطبيعتها من العقول التي نخيم عليها وأنهاكها تعب الجسم ورهبة الروح في كفافها للخلود . لهذا نرى أن معظم المسلمين (*) يؤمنون بالسحر (***) ، وقلمما يشكون في قدرة السحرة على التنبؤ بالغيب والكشف على الكنوز المخبوءة ، وغرس الحب في النفوس وتعذيب الأعداء ، وشفاء المرضى ، واتقاء الحسد . ومنهم من يعتقد في قدرة البعض على مسخ الإنسان إلى حيوان أو نبات ، أو الانتقال من مكان إلى مكان بوسائل معجزة خارقة . وتلك العقائد هي المحور الذي تدور عليه قصص ألف ليلة . ففيها ترى الأرواح في كل مكان تحتال بضروب السحر وغيره على الأحياء ، وتستولد النساء غير الحريصات ما لا يشتهن من الأبناء ويلبس معظم المسلمين (٣) كما يلبس نصيف المسيحيين تماثم لترد عنهم ضربوا مختلفة من الشرور ، ويعتقدون

(*) يقصد المؤلف بقوله معظم المسلمين غير المتعلمين . ويلاحظ أنه يقول : إن هذه كلها ليست من الدين بل هي من الخرافات التي لا صلة بينها وبين مبادئه الأولى . (المترجم)
(**) أصحح من هذا أن يقول : عامة المسلمين أو جهالهم الذين يؤمنون بالسحر كما يؤمن به الجهال في كل أمة . (المترجم)

أن من الأيام ما هو سعد ومنها ما هو نحسن ، وأن الأحلام قد تنبئ عن المستقبل ، وأن الله قد يتحدث إلى الإنسان في الأحلام . ويؤمن العامة في مختلف بلاد الإسلام كما يؤمن أمثالهم في مختلف البلاد المسيحية بالتنجيم ؛ فقد رسمت خرائط للسماء ، ولم يكن الغرض من رسمها مقصوداً على معرفة اتجاه القبلة في المساجد وتحديد أيام الأعياد الدينية ، بل كان يقصد منه فوق هذا وذلك اختيار الوقت المناسب لكل عمل خطير ، ومعرفة طالع كل فرد ، أى خلقه ومصيره كما تدل عليه النجوم التى كانت فى السماء وقت مولده :

والدين الإسلامى(*) ، وإن بدا للعالم الخارجى وحدة قوية شاملة خالية من الفروق فى شعائره وعقائده ؛ قد انقسم من أقدم العهود شيعاً لا تقل فى عددها أو شدة اختلافها عن الشيع المسيحية . ومن هذه الشيع الخوارج ذوو النزعة الحربية المتزمتة الديمقراطية ، ومنها المرجئة التى تعتقد أن المسلم لا يقضى عليه بالعذاب الدائم فى الدار الآخرة ، وبالجزية التى تنكر حرية الإرادة ، وتعتقد أن الإنسان مسير فى كل شىء وفق ما قدر له منذ الأزل ، والقدرية التى تؤمن بحرية الإرادة وتدافع عنها ، ومنها غير هذه شيع كثيرة لا حاجة بنا إلى الوقوف عندها ، وحسبنا أن نُحِثِّبِ فيها لإخلاصها لمبادئها وسعة علمها . لكن منها فرقة كان لها شأن عظيم فى التاريخ ، تلك هى طائفة الشيعة . فهؤلاء قضوا على الخلافة الأموية ، واستولوا على بلاد الفرس ومصر ، والهند الإسلامية ، وكان لهم أعظم الأثر فى الأدب والفلسفة ، ونشأت طائفة الشيعة على أثر مقتل على وولده الحسين وأسرته ، فقد قالت فئة قليلة من المسلمين إن الله وقت أن اختار محمداً نبياً له ورسولاً ، قد أراد من غير شك أن يكون أبناؤه الذين ورثوا بعض فضائله وأغراضه الروحية هم الوارثين لزعامة الإسلام . ولهذا فهم يرون أن جميع الخلفاء ما عدا علياً ،

(*) يريد المسلمون فهم الدين انقسموا شيعاً ، أما الدين نفسه فينبى عن هذه التفرقة .
« إن الدين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء » . (المترجم)

مغتصبون لاحق لهم في الخلافة ، وقد اغتبطوا حين ولي على الخلافة ، وحزنوا لمقتله ، وروعوا لمقتل الحسين . وأصبح على والحسين بعد موتهما في رأيهم من أولياء الله الصالحين ، وهم يعظمون ضربيهما تعظيماً لا يفوقه إلا تعظيمهم للكعبة وقبر الرسول . ولعل طائفة الشيعة قد تأثرت بعقيدة الفرس واليهود والمسيحيين الخاصة بالمسيح المنتظر ، وبفكرة البوذيين عن البدهستفاس - أي تجسد القديسين مراراً بعد موتهم - فقالت إن أبناء علي هم الأئمة الذين تتمثل فيهم الحكمة الإلهية . وهي ترى أن الإمام الرضا ، ثامن أولئك الأئمة الذي يقوم ضريحه في مشهد بشمالى فارس ، هو « مجد العالم الشيعى » : وقد حدث في عام ٨٧٣ أن اختفى الإمام الثانى عشر محمد بن حسن وهو فى الثامنة عشرة ، فاعتقد الشيعة أنه لم يموت ، ولكنه سيعود فى الوقت المناسب ليعيدهم إلى السلطان الشامل والسعادة الدائمة :

وكانت الفرق الإسلامية المختلفة تشعر بعضها نحو بعض بعداء(*) يفوق عداها لمن يعيش فى البلاد الإسلامية من الكفرة ، شأنها فى هذا شأن الفرق المختلفة فى سائر الأديان(**). ولقد كان أهل الذمة المسيحيون ، والزرادشتيون ، واليهود ، والصابئون ، يستمتعون فى عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً فى البلاد المسيحية فى هذه الأيام . فلقد كانوا أحراراً فى ممارسة شعائر دينهم ، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم ، ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زى ذى لون خاص وأداء فريضة عن كل شخص . تختلف باختلاف دخله وتراوح بين دينار وأربعة دنانير (من ٤٧٥ إلى ١٩ دولاراً أمريكياً) . ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح ، ويعنى منها الرهبان

(*) إذا كان العدا قد استحكمت فى يوم من الأيام بين بعض الفرق والبعض الآخر فإنه لم يكن بالشدة التى يصفه بها المؤلف ، ومما يكن هذا العدا فى الماضى فلأنها الآن تعيش فى وثام وقلما يعرف الرجل العادى إلى أى الفرق ينتمى زملاؤه ومواطنوه . (المترجم)

(**) لا نعلم من تاريخ الإسلام وما نشأ فيه من فرق مختلفة ، أن فرقة من هذه الفرق كانت تشعر نحو غيرها بعداء يفوق عداها للكفرة الذين يعيشون فى البلاد الإسلامية . (ى)

والنساء والذكور الذين هم دون البلوغ ، والأرقاء ، والشيوخ ، والعجزة ،
والعمى والشديرو الفقير . وكان الذميون يعفون في نظير هذه الضريبة من
الخدمة العسكرية أو إن شئت فقل لا يقبلون فيها - ولا تفرض عليهم الزكاة
البالغ قدرها اثنين ونصف في المائة من الدخل السنوي ، وكان لهم على
الحكومة أن تحميهم ، ولم تكن تقبل شهادتهم في المحاكم الإسلامية ، ولكنهم
كانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعماهم ، وقضاةهم وقوانينهم ،
وكان تسامح الحكام المسلمين معهم يختلف باختلاف الأسر الحاكمة ، فكان
الخلفاء الراشدون أشداء عليهم (*) ، وكان الأمويون يعاملونهم باللين بوجه
عام ، والعباسيون يعاملونهم باللين تارة وبالقسوة تارة أخرى . وقد أخرج
عمر بن الخطاب اليهود والمسيحيين من جزيرة العرب لأنها أرض الإسلام
المقدسة ، وتغزو إليه إحدى الروايات غير المؤكدة « عهداً » قيد فيه حقوقهم
بوجه عام ، لكن هذا العهد ، إن كان قد عقد ، قد أغفل العمل به ، وظلت
الكنائس المسيحية في مصر تتمتع في أيام هذا الخليفة بالميزات التي منحها لإياها
الحكومة البيزنطية قبل الفتح العربي .

وكان اليهود في بلاد الشرق الأدنى قد رحبوا بالعرب الذين حرروهم من ظلم
حكامهم السابقين ، إلا أنهم في عهدهم قد فرضت عليهم عدة قيود ولاقوا شيئاً
من الاضطهاد من حين إلى حين ، غير أنهم مع هذا كانوا يعاملون على قدم المساواة

(*) من العجيب أن يذكر الكاتب أن الخلفاء الراشدين كانوا يعاملون بالشدة اللميين
الذين يعيشون في البلاد الإسلامية . إن الذين نفسهم يجعل هؤلاء الذميين كل ما لنا من حقوق ويجعل
عليهم ما علينا من واجبات ، والقرآن الكريم يحثنا على مودة المخالفين لنا في الدين ما داموا
مسالمين . وعناية عمر بن الخطاب بعد الخليفة الأول أبي بكر الصديق بغير المسلمين من أهل
الذمة معروفة غير خافية . لقد جعل الفقراء المحتاجين منهم ما يكفهمهم هم وعيالهم من بيت
المسال . على أن الكاتب نفسه ذكر قبل ذلك بسطور أن أهل الذمة كانوا يتمتعون في عهد
الأمويين بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام ، ومعروف أن
الأمويين كانوا على عصبية شديدة أحياناً لغير العرب حتى ولو كانوا من الموالى المسلمين . (ص ١٣١)

مع المسيحيين ، وأصبحوا مرة أخرى يتمتعون بكامل الحرية في حياتهم وفي ممارسة شعائر دينهم في بيت المقدس . وأثروا كثيراً في ظل الإسلام في آسية ، ومصر ، وأسبانيا ، كما لم يثروا من قبل تحت حكم المسيحيين . وكان المسيحيون في بلاد آسية الغربية ، خارج حدود الجزيرة العربية ، يمارسون شعائر دينهم بكامل حريتهم ، وبقيت الكثرة الغالبة من أهل بلاد الشام مسيحية حتى القرن الثالث الإسلامى . ويحدثنا المؤرخون أنه كان في بلاد الإسلام في عصر المأمون أحد عشر ألف كنيسة ، كما كان فيها عدد كبير من هياكل اليهود ومعابد النار . وكان المسيحيون أحراراً في الاحتفال بأعيادهم علناً ، والحجاج المسيحيون يأتون أفواجا آمنين لزيارة الأضرحة المسيحية في فلسطين ، وقد وجد الصليبيون جماعات مسيحية كبيرة في الشرق الأدنى في القرن الثاني عشر الميلادى ولا تزال فيه جماعات منهم إلى يومنا هذا . وأصبح المسيحيون الخارجون على كنيسة الدولة البيزنطية والذين كانوا يلقون صورا من الاضطهاد على يد بطارقة القسطنطينية ، وأورشليم ، والإسكندرية ، وأنطاكية ، أصبح هؤلاء الآن أحراراً آمنين تحت حكم المسلمين الذين لم يكونوا يحدون لتقاشمهم ومنازعاتهم معنى يفهمونه ، ولقد ذهب المسلمون في حماية المسيحيين إلى أبعد من هذا ، إذ عين والى أنطاكية في القرن التاسع الميلادى حرسا خاصا لمنع الطوائف المسيحية المختلفة من أن يقتل بعضها بعضا في الكنائس . وانتشرت أديرة الرهبان وأعمالهم في الزراعة ، وفي إصلاح الأراضي البور ، وكانوا يتلوقون النييد المعصور من غنب الأديرة ، ويستمتعون في أسفارهم بضيافتها ، وبأتمت العلاقة بين الدينين في وقت من الأوقات درجة من المودة تبيح للمسيحيين الذين يضعون الصليبان على صدورهم أن يؤموا المساجد ويتحدثوا فيها مع أصدقائهم المسلمين ، وكانت طوائف الموظفين الرسميين في البلاد الإسلامية تضم مئات من المسيحيين ، وقد بلغ عدد الذين رفقوا منهم إلى المناصب العليا في الدولة من الكثرة درجة أثارت شكوى المسلمين في بعض العهود . فقد كان سرجيوس والد القديس .

يوحنا الدمشقي خازن بيت المال في عهد عبد الملك بن مروان ، وكان يوحنا نفسه وهو آخر آباء الكنيسة اليونانية ، رئيس المجلس الذي كان يتولى حكم دمشق . وكان المسيحيون في بلاد الشرق يرون أن حكم المسلمين أخف وطأة من حكم بيزنطية وكنيستها .

وعلى الرغم من خطة التسامح الديني التي كان يتبناها المسلمون الأولون ، أو بسبب هذه الخطة ، اعتنق الدين الجديد معظم المسيحيين ، وجميع الزردشتيين ، والوثنيين إلا عدداً قليلاً جداً منهم ، وكثيرون من اليهود في آسية ، ومصر وشمال أفريقيا . فقد كان من مصلحتهم المالية أن يكونوا على دين الطبقة الحاكمة ، وكان في وسع أسرى الحروب أن ينجوا من الرق إذا نطقوا بالشهادتين ورضوا بالختان . واتخذ غير المسلمين على مر الزمن اللغة العربية لساناً لهم ، ولبسوا الثياب العربية ، ثم انتهى الأمر باتباعهم شريعة القرآن واعتناق الإسلام . وحيث عجزت الهلينية عن أن تثبت قواعدها بعد سيادة دامت ألف عام ، وحيث تركت الجيوش الرومانية الآلهة الوطنية ولم تغلبها على أمرها ، وفي البلاد التي نشأت فيها مذاهب مسيحية خارجة على مذهب الدولة البيزنطية الرسمي ، في هذه الأقاليم كلها انتشرت العقائد والعبادات الإسلامية ، وآمن السكان بالدين الجديد وأخلصوا له ، واستمسكوا بأصوله إخلاصاً واستمسكوا أنسياءهم بعد وقت قصير آلتهم القدامى ، واستحوذ الدين الإسلامي على قلوب مئات الشعوب في البلاد الممتدة من الصين ، وأندونيسيا ، والهند ، إلى فارس ، والشام ، وجزيرة العرب ، ومصر وإلى مراکش ، والأندلس ، وتملك خيالهم ، وسيطر على أخلاقهم ، وصاغ حياتهم ، وبعث فيهم آمالاً تخفف عنهم بوئس الحياة ومتاعها ، وأوحى إليهم العزة والأنفة ، حتى بلغ عدد من يعتقدونه ويعتزون به في هذه الأيام نحو ثلاثمائة وخمسين مليوناً من الأنفس ، يوحد هذا الدين بينهم ، ويؤلف قلوبهم مهما يكن بينهم من الاختلافات والفروق السياسية .

الفصل الثالث

الشعب

كان العرب في عهد الأمويين طبقة عليا حاكمة تحصل على مقررات من الدولة . وكان جميع الذكور القادرين من أبناء العرب ، يخضعون ، في نظير هذه المزايا للخدمة العسكرية ، يدعون إليها في أى وقت من الأوقات . وكانوا بوصفهم الفاتحين يفخرون بدمهم النقي في زعمهم وبلغتهم العربية الفصحى . وكان العربي يحرص أشد الحرص على أن يضيف إليه اسمه اسم أبيه كعبد الله ابن الزبير مثلا ، وكان في بعض الأحيان يضيف إليه اسم قبيلته وموطنه الأصلي ، فكان اسمه سيرة له مصغرة فيقول مثلا : أبو بكر أحمد ابن جرير الأزدي . غير أن نقاء الدم لم يلبث أن أصبح أسطورة خرافية بعد أن اتخذ الفاتحون لهم جواري من أهل البلاد المفتوحة ، وأدخلوا أبناءهم منهن في زمرة العرب ؛ ولكن الفخر بالدم والأصل ظل كما كان من قبل . وكان أفراد الطبقات العليا من العرب ينتقلون من مكان إلى مكان على ظهور الخيل ، في أثواب من الحرير الأبيض ، وسيوفهم مشرعة بأيديهم . أما العامة فكانوا يخرجون في سراويل مننفة ، وعمامات مطوية ، وأحذية ذات أطراف رفيعة . واحتفظ البدوي بجلابيه القمضاض ، وشاله ومنطقته ، وقد نهى النبي عن لبس السراويل الطويلة ، ولكن بعض العرب نسوا أمره هذا ، وكانت جميع طبقات الشعب تزدان بالحلى ، وكانت الإناث يستهوين الذكور بضديرياتهن ، ومناطقهن البراقة ، وثقبن(*) الواسعة الزاهية اللون . وكن يعقصن شعرهن على جباههن ، أو يرسلنه على جانبي رؤوسهن ، أو يجدلنه

(*) الثقب جمع الثقبه وهي ثوب كالإزار تجمل له حبيزة مطيئة وهي skirt بالإنجليزية .

(المترجم)

غدائر تنوبس على ظهورهن ، وكن أحياناً يكثرنه بخيوط سوداء من الحرير ، وفي أغلب الأوقات يزينه بالجواهر والأزهار . وأخذن بعد عام ٧١٥ يغطين بالثياب وجوههن أسفل عيونهن ، وازداد انتشار هذه العادة تدريجياً بعد ذلك العام ، وبهذا كان في وسع كل امرأة أن تكون قاتنة جذابة ، لأن عيني المرأة العربية مهما يكن سنها جميلتان تسيان الحقل . والفتاة الغربية تبلغ الحلم في سن الثانية عشرة وتصبح عجوزاً في سن الأربعين ، وهي بين هذه السن وتلك تلهم معظم الشعراء وتلد الأبناء .

والمسلم لا يحترم العزوبة ، ولا يخطر بباله أن يمتنع عن إشباع الغريزة الجنسية ، ولا يرى أن هذا الامتناع حالك طبيعية أو مثالية . وقد كان لمعظم الصالحين من المسلمين زوجات وأبناء : وحدود الزواج أوسع في الإسلام منها في كثير من الأديان ، وتفتح الشريعة الإسلامية منافذ كثيرة لإشباع الغريزة الجنسية ، ولهذا قل البغاء في أيام النبي والخلفاء الراشدين . ولكن الانهماك في إشباع الغريزة الجنسية يتطلب عادة كثرة التنيبه ، ولهذا لم تلبث الفتيات الراقصات أن أصبح لهن شأن كبير في حياة الرجال حتى أكثرهم أزواجاً . وإذا كان المقصود من الآداب الإسلامية أن تكون مقصورة على آذان الذكور وأعينهم ، فإن منها ما لا يقل فحشاً عن حديث الذكور في البلاد المسيحية ؛ فهذا الأدب يشتمل على طائفة كبيرة من الغزل ، وقد عنيت كتب الطب عند المسلمين ببيان الأدوية المقوية للباء^(٤٢) . والشريعة الإسلامية تجعل الإعدام من عقوبات الزنى واللواط ، ولكن ازدياد الثروة خفف عقوبة الزنى فجعلها ثلاثين جلدة ، وغض الحكام البصر في كثير من الأحيان عن اللواط^(٤٣) . ونشأت طائفة من المخنثين المحترفين تشبهوا بالنساء في ثيابهم وعاداتهم ، يصفرون شعورهم ، ويصبغون أظفارهم بالحناء ويرقصون الرقص الخليج^(٤٤) . وعاقبهم سليمان بن عبد الملك بإخصاء من كان في مكة من المخنثين ، وأبصر الهادي امرأتين تباشران عملية السحاق فأمر بقطع رأسيهما

على الفور^(٤٥) . ولكن اللواط والسحاق رغم ما فرض عليهما من العقاب الصارم أخذوا ينتشران انتشاراً سريعاً حتى كانا كثيرى الحدوث في بلاط هرون الرشيد ، وفي قصائد شاعره المحبوب . أبى نواس ولما يمض على زمن الهادى إلا بضعة أعوام . ذلك أن الرجل الذى حالت التقاليد بينه وبين النساء قبل الزواج ، وملهن بعده ، عمد إلى العلاقات الجنسية الشاذة ، والمرأة التى حجبا أهلها عن جميع الرجال زلت هى الأخرى فسقطت فيما سقط فيه الرجل

وكان اتصال العرب بالفرس من أسباب انتشار الحجاب والواط في البلاد الإسلامية . لقد كان العرب قبل الإسلام يخشون مفاتن المرأة ويعجبون بها على اللوام ، وقد تأروا لأنفسهم من خضوعهم الغريزي لها بإثارة الشكوك التى يثيرها الذكور عادة حول فضيلة المرأة وقوة عقلها . وقد نصح عمر قومه باستشارة النساء ومخالفة مشورتهم^(٤٦) ، ولكن المسلمين في القرن الأول من التاريخ الهجرى لم يحجبوا النساء ، فقد كان الرجال والنساء يتبادلان الزيارات ويسيران في الشوارع جنباً إلى جنب ، ويصليان معاً في المساجد^(٤٧) ، وكانت عائشة بنت طلحة زوج مصعب بن الزبير لا تستر وجهها من أحد فعابها مصعب في ذلك فقالت « إن الله تبارك وتعالى وسخى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فإكنت لأستره ، ووالله ما فى وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد »^(٤٨) . ثم انتشر الحجاب ونظام الخصيان في أيام الوليد الثانى (٧٤٣ - ٧٤٤) . وكان منشأ عادة عزلة النساء في بادئ الأمر تحريمهن على الرجال أيام الحيض والنفاس . وكان الزوج المسلم يدرك ما يتصيف به الرجل في الشرق من شدة العاطفة وسرعة الانفعال ، ويحس بالحاجة إلى حماية نسائه ، ويرى أن يمنعهن من الغواية بحجزهن في البيوت ، فحرم عليهن أن يسرن في الشوارع إلا مسافات قصيرة وهن محجبات ، وكان في وسعهن أن تزاورن ، ولكن ذلك كان في العادة داخل هودج مسجف ، ولم يكن أحد يراهن خارج البيوت أثناء الليل . وكان يفصلهن عن الرجال في

المسجد ستر أو حظار أو رواق خاص ، ثم انتهى الأمر بمنعهم منها منعاً باتاً (٤٩) ، وأصبح الدين الذى وصف فى العالم المسيحى اللاتينى بأنه لا بد منه للإناث ، وأنه ضرورى لمن لا يزيد عليه فى ذلك إلا الغريزة الجنسية ، نقول أصبح الدين فى العالم الإسلامى ، أو بالأحرى أصبحت العبادة العامة ، وفقاً على الذكور دون الإناث . وكان أشد من هذا قسوة عليهم ، منعهم من التردد على الأسواق لقضاء حاجاتهم منها ، فكان يبعث إليها من يقضى حاجاتهم ، وكان البائعات المتنقلات ، وكن فى العادة من النساء يأتين إليهن ليعرضن عليهن بضائعهم فى داخل البيوت ، وقلما كانت النساء يتناولن الطعام مع أزواجهن اللهم إلا عند الطبقات الدنيا ، ومنع المسلم أن يرى وجوه النساء عدا وجوه أزواجه وإمائته ، وأقاربه الأدين ، وحتى الطبيب نفسه لم يكن يسمح له أن يرى من النساء غير الجزء المصاب من أجسامهن . وكان فى هذا النظام مرضاة للرجل ، فهو فى البيت يتيح له أكبر فرص الاستمتاع ، ويجعله فى خارجه أبعد ما يكون عن الرقابة والمفاجأة . أما عن النساء أنفسهن ، فإننا لا نجد حتى القرن التاسع عشر ما يدل على أنهن قد عارضن فى العزلة أو فى النقاب ، بل كن يستمتعن بما فى جناح الحريم من سرية ، وطمأنينة ، وراحة ، وكن يغضبن إذا فرط أزواجهن فى واجب المحافظة على عزلتهن ، ويرين فى ذلك إهانة لمن (٥٠) ، وظلت الزوجات الشرعيات يضطلعن من سجنهن الظاهرى بقسط موفور فى مجريات الحوادث التاريخية ، وكان لخيزران أم الرشيد ، ولزوجته زبيدة فى القرنين الثامن والتاسع قسط كبير من النفوذ والسلطان ، وكانتا تستمتعان بكثير من الأبهة والسلطان .

وقلما كان تعليم البنات يتعدى عند معظم الطبقات تلقينهن الصلاة ، وقليلاً من سور القرآن ، والقرآن المنزلية . أما نساء الطبقات العليا فكان يتلقين تعليماً متسع الآفاق ، يقوم به فى العادة معلمون خصوصيون ، ويتلقينه أحياناً فى المدارس والكليات (٥١) ، وكن يتعلمن قرص الشعر ، والموسيقى ، وضروباً من أشغال

الإبرة ؛ ومنهن من تبهرن في العلوم واشتغلن بالتدريس . واشتهر عدد منهن في أعمال البر المستنيرة . وكن يربين على الخضر اللائق بعاداتهن ؛ فإذا فوجئن في الحمام أسرعن بتغطية وجوههن (*) ؛ وكن يدهشن عدم احتشام الأوربيات اللاتي يذهبن إلى المراقص وأنصاف صدورهن عارية ، ويعانقن الكثيرين من الرجال أثناء الرقص ؛ ويعجبن من رحمة الله الذي يمهل تلك النسوة الآثمات فلا يأخذهن بدنوبهن ويهلكهن لساعتهم (٥٢) .

وكأنت شئون الزواج يتولاها الآباء ، كما يتولونها في معظم البلاد المتمدينة ، فقد كان من حق الوالد أن يزوج ابنته لمن أراده هو لها قبل أن تبلغ سن الرشد ؛ أما بعد هذه السن فكان لها أن تختار . وكانت البنات يزوجن في العادة قبيل سن الثانية عشرة ، ويصبحن أمهات في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، ومنهن من كن يتزوجن في سن التاسعة أو العاشرة ، كذلك كان الشبان يتزوجون عادة في سن مبكرة قد لا تزيد على الخامسة عشرة . وكان عقد الزواج ينص على أن يقدم الخطيب لخطيبته صداقاً يبقى لها طوال مدة الزواج وبعد الطلاق إن حدث . وقلم كان يسمح للعريس أن يرى وجه عروسه قبل الزواج . وكان يدخل بها بعد ثمانية أيام أو عشرة من عقده عليها ؛ وليس الزواج في حاجة إلى رجل من رجال الدين ، ولكنه يصحبه دعاء قضير ، ويصحبه في بعض الأحيان موسيقى ، ووليمة وبعض الهدايا ، وإضاءة منزل العريس والشارع الذي هو فيه بالأنوار الساطعة . وبعد هذه الحفلات يدخل الزوج غرفة زوجته الخاصة ، ويرفع الثياب عن وجهها وهو يقول « باسم الله الرحمن الرحيم » (٥٣) .

فإذا لم يرتح العريس لعروسه بعد هذا الاختبار المتأخر ، كان في وسعه أن يعيد الزوجة إلى بيتها هي ومؤخر صداقها . وكان معنى تعدد الزوجات

(*) لا شك أن هذه إحدى الفكاهات التي يلجأ إليها المؤلف في كثير من المواضع .

(المترجم) .

في الإسلام في أكثر الأحيان أن تتلو الواحدة من الأخرى ، ولم يكن
معناه الجمع بينهم في وقت واحد ، ولم يكن يستطيع ذلك الجمع إلا ذوو
الثراء^(٥٤) . وكانت سهولة الطلاق تمكن المسلم من أن يكون له ما يشاء من
الأزواج واحدة بعد واحدة ، ويقال إن ابن الطيب ، وهو صباغ في
بغداد ، عاش إلى أن بلغ الخامسة والثمانين من العمر ، وتزوج من تسعة
زوجة^(٥٥) . وكان في وسع المسلم ، فضلا عن زوجاته ، أي يكون له
أي عدد من الجوارى ، وكان لهرون الرشيد عدد كبير منهم ، وكان
للمتوكل أكثر مما كان لهرون^(٥٦) ، وكان بعض تجار الرقيق يعلمون الجوارى
الموسيقى والغناء ، وفنون فتنة الرجال ، ثم يبيعونهم بأثمان عالية قد تصل
إلى مائة ألف درهم (نحو ٨٠,٠٠٠ دولار أمريكي)^(٥٨) . ولكن ليس من
حقنا أن نظن أن بيت الحریم كان ماخوراً خاصاً . فقد كانت الجوارى
يصبحن في أغلب الأحيان أمهات ، يفخرن بمن يلدن من الأبناء ، وبعدد
الذكور منهم ، ولدينا شواهد كثيرة على ما كان بين الرجل وجاريته من
الحب الصادق الأكيد . وكانت الزوجات الشرعيات يرتضين هذا النظام
ويرينه من الأمور الطبيعية ، فقد أهدت زبيدة إلى الرشيد عشر جوار^(٥٩) ،
وكان البيت بمقتضى هذا النظام يحتوى من الأبناء بقدر ما تحتويه ضاحية
لإحدى المدن الأمريكية . من ذلك أن أحد أبناء الوليد الأول كان
له ثمانون ولداً وعدد من البنات لم يذكره المؤرخون . واستتبع
نظام الحریم وجود الخصيان ، وإن كان هذا محرماً في الشريعة الإسلامية .
واشترك المسيحيون واليهود في استيرادهم أو تهيتهم ، وكان الخلفاء ،
والوزراء ، والكبراء يتناعونهم بأثمان غالية ، وسرعان ما أصبحت
نواح عدة من الحكومة الإسلامية خاضعة لنفوذ أولئك الخصيان المحدودى
الكفاية . وكان من النتائج التي ترتبت على نظام الحریم في القرون الأولى التي
تلت الفتح الإسلامية أن منعت العرب من أن يمتصهم أهل البلاد

المتفوحة ، وأن تضاعف عددهم في الحد الذي كانوا في حاجة إليه لحكم دولتهم المطردة الاتساع . ولربما كان لهذا النظام أثره في قوة أقدم الرجال على الإخصاب ؛ ولكن تعدد الزوجات أصبح بعد عصر المأمون مصدراً للانحطاط من الناحيتين الخلقية والاجتماعية ، كما أصبح بعد أن أربت نسبة زيادة السكان على زيادة الطعام ، من أسباب تزايد الفاقة والسخط بين الأهلين .

وكان مركز المرأة بعد الزواج هو الخضوع إلى زوجها خضوعاً مصدراً . تقديس الرابطة الزوجية . والشريعة تحرم عليها أن يكون لها أكثر من زوج واحد في وقت واحد ، ولم يكن في وسعها أن تطلق نفسها منه إلا بمشقة كبيرة ؛ ذلك أنها لم يكن لديها سبيل لمعرفة خيانة زوجها ، ولم تكن هذه الخيانات مما يعاب به كثيراً من الناحية الأخلاقية . أما خيانتها هي فكان عقابها الموت ، ويدهشنا أن نعرف كم من حوادث الزنى قد ارتكبتها النساء رغم هذا العقاب الصارم والتضييق الشديد . وكانت المرأة تسب وتبجل ، وتحقر وتقمع ، وتحب في معظم الأحيان حباً مصحوباً بعاطفة قوية وحنان ، ويقول أبو العتاهية إنه يفضل زوجته عن كل متع الحياة وعن كل ما في العالم من ثراء (٦٦) . وأمثال هذا القول كثيرة وهي في بعض الأحيان صادقة . وكان مركز المرأة المسلمة يمتاز عن مركز المرأة في بعض البلاد الأوربية من ناحية هامة ، تلك هي أنها كانت حرة التصرف فيما تملك لاحقاً لزوجها أو لدائنيه في شيء من أملاكها . وكانت في داخل بيتها الأمين تغزل وتنسج ، وتطرز ، وتدبر بيتها ، وتعنى بأبنائها ، وتمارس بعض الألعاب ، وتأكل الحلوى ، وتتحدث إلى أترابها ، وتحيك الدسائس . وكان ينتظر منها أن تلد لزوجها كثيراً من الأبناء ذوى الفائدة الاقتصادية في المجتمع الزراعى الأبوى ، وكان ما تلقاه من إجلال يتناسب مع خصبها ، وفي ذلك يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : « لخصير في ناحية البيت خير من امرأة لا تلد » (٦٧) . ومع هذا فإن الإجهاض ووسائل منع الحمل كانت كثيرة الانتشار في داخل البيوت . وكانت

القابلات تنقل إلى النساء قديمها ، كما كان الأطباء يعرضون عليهن حديثها .
وقد أفرد الرازي (المتوفى سنة ٩٢٤) في أحد كتبه فصلاً لموانع الحمل ،
وذكر أربعة وعشرين من الموانع الآلية والكيميائية (٦٣) . وأورد ابن سينا
(٩٨٠ - ١٠٣٧) في كتاب القانون الذائع الصيت عشرين وصفة لمنع الحمل :

وليس ثمة فرق كبير بين المسلم والمسيحي في النواحي الخلقية الخارجة
عن نطاق الناحية الجنسية . فالقرآن مثلاً يحرم الميسر والخمر تحريماً قاطعاً
(سورة المائدة : ٩٠) ولكن بعض الميسر وكثيراً من الخمر ظلاً باقين
في كلتا الحضارتين . وانتشر الفساد والرشوة في أعمال الحكم والقضاء
في بلاد الإسلام في بعض العصور كما كانا منتشرين في البلاد المسيحية .
ويبدو بوجه عام أن المسلم كان أرقى من المسيحي في خلقه التجاري (٦٤) ،
وفي وفائه بوعدته ، وإخلاصه للمعاهدات التي يعقدها مع غيره (٦٥) ، ولقد
أجمعت الآراء على أن صلاح الدين كان أنبل من اشتراك في الحروب
الصليبية . والمسلمون شرفاء فيما يختص بعادة الكذب ، فهم يبيحون الكذب ،
إذا كان فيه نجاة من موت ، أو حسم لخصومة ، أو لإدخال السرور على
زوجة ، أو خدعة في الحزب لأعداء الدين (٦٥) . والآداب الإسلامية
تجمع بين التكلف والبشاشة ، وحديث المسلم مليء بالتحية والمبالغة
في التأدب . والمسلمون كاليهود يحبي بعضهم بعضاً ، وينحى الواحد منهم
لصاحبه ويصافحه ويقول له : « السلام عليكم » ، والرد الصحيح لهذه
التحية هو « عليكم السلام ورحمة الله وبركاته » ، وإكرام الضيف من
صفاتهم العامة ، والدين الإسلامي يحث على نظافة الجسم وإن كانت النظافة
عادة تتأثر بالدخيل ، فالفقراء يهملونها حتى تراكم الأقدار على
أجسادهم ، أما الأغنياء فيتليقون ، ويدرمون أظافرهم ، ويتعطرون .
والختان عادة متبعة عند جميع المسلمين وإن لم يرد ذكرها في القرآن ، لأنها في
رأيهم من أسباب المحافظة على الصبحة ، وكان الأولاد يختنون في سن الخامسة

أو السادسة^(٦٦) . وكانت الحمامات الخاصة من مميزات بيوت الأغنياء ، ولكن الحمامات العامة كانت ولا تزال بكثرة في البلاد الإسلامية . فالمؤرخون يقولون إن بغداد كانت في القرن العاشر الميلادي تحتوى على ٢٧٠٠٠ حمام^(٦٧) : وكان العطر والبخور مألوفين بين الرجال والنساء ، وقد اشتهرت بلاد العرب من أقدم الأزمان بالكندر والمر ، وبلاد الفرس بزيت الورد والبنفسج والياسمين ، وكان في كثير من البيوت حدائق غرست فيها أعشاب الزينة والأزهار وأشجار الفاكهة ، وكانت الأزهار محببة للشعب وبخاصة في فارس ، وكانت تظنى على الحياة بهجة وممتعة .

بقى أن نعرف كيف كان هؤلاء الناس يروحون عن أنفسهم وما هي وسائل التسلية عندهم ؟ لقد كان من أهم وسائل التسلية عندهم الأعياد والولائم ، والصيد ، ومغازلة النساء ، والشعر ، والموسيقى ، والغناء ، وكانت الطبقات الدنيا تضيف إليها قتال الديكة ، والرقص على الجبال ، والشعوذة ، والسحر ، ولعبة العرائس المتحركة (القرقوز) ويدل كتاب القانون لابن سينا على أن المسلمين كان لديهم في القرن العاشر الميلادي كل ما عندنا تقريبا من الألعاب الرياضية : الملاكمة ، والمصارعة ، والعدو ، والرمي بالنبال ، وقذف الحراب ، والحركات الرياضية الجسمية ، والمناقفة ، وركوب الخيل ، والحجف(*) ، ورفع الأثقال ، وأنواع مختلفة من لعبة الكرة والمضرب^(٦٨) . وإذا كانت ألعاب الحظ محرمة ، فقد كانت ألعاب الورق وكعوب الزرد قليلة ، وكانت (الطاولة) كثيرة الانتشار ، وكان الشطرنج مباحا ، وإن كان النبي قد نهى عن صنع قطعه في صور الآدميين . وكان سباق الخيل منتشرا ، يبسط عليه الخلفاء رعايتهم ، ويحدثنا المؤرخون بأن أربعة آلاف جواد اشتركت مرة في سباق . وقد ظل ضييد الحيوان مقصوراً على

(*) الحجف اللعب بالكرة وهو المعروف بالبولو في هذه الأيام . (المترجم)

أرقى طبقات الأشراف ، وكان عند المسلمين أقل عنفاً منه في أيام
الساسانيين ، وكثيراً ما اقتصر على الصيد بالزارة أو الصقور . وكانت
الحيوانات المصيدة تربي أحياناً وتدلل ، وكان عند بعض الأسر كلاب ،
وعند بعضها قردة ، وعند بعض الخلفاء آساد ونمورة يرهبون بها رعاياهم
أو سفراء الدول الأجنبية . .

وكان العرب حين فتحوا بلاد الشام قبائل قليلة الحظ من المدينة ،
شجعاناً إلى درجة التهور ، كثيرى العنف ، سريعى الانفعال ، متشككين ،
وكان الإسلام قد خفف من حدة هذه الصفات ، ولكن معظمها لم يكن
قد انمحي بعد ؛ وأكبر الظن أن ما يحدثنا عنه المؤرخون عن ضروب القسوة
التي كان يرتكبها بعض الخلفاء لم يكن يزيد في مجموعه على ما كان يرتكبه
الملوك المسيحيون والبيزنطيون والمروفتنجيون ، وأهل الشمال ؛ ولكنه رغم
هذا مما يسر بل بالعار كل حضارة . ولما يروى عن سليمان بن عبد الملك
أنه في رحلة له إلى مكة ليؤدى فريضة الحج ، دعا رجال حاشيته ليجربوا
سيوفهم في رقاب أربعائة من الروم ، أسروا حديثاً في إحدى الحروب ،
وقبل رجاله الدعوة وضربت رقاب أربعائة رجل ، ليتسلى الخليفة بذلك
المنظر (٦٩) . ولما جلس المتوكل على العرش ألقى في السجن بوزير كان قد
عامله مرة منذ بضع سنين بشيء من الاحتقار ؛ ومنع السجين من النوم
عدة أسابيع حتى كاد يذهب عقله ، ثم سمح له أن ينام أربعاً وعشرين ساعة ؛
فلما عادت إليه قوته بهذه الطريقة وضع بين ألواح من الخشب دقت فيها مسامير ،
منعته أن يتحرك ليقضى حاجته الطبيعية ، وبقي على هذه الحال يعاني أشد الآلام
حتى مات (٧٠) . ولا حاجة إلى القول بأن هذه الوحشية كانت من الأعمال
الشاذة ، أما المؤلف فإن المسلم كان مثال الرقة ، والإنسانية ، والتسامح ؛ وكان ،
إذا وصفنا أوساط الناس ، سريع الفهم ، حاد الذكاء ، سريع التبيح ، يسهل

لدخال السرور على قلبه ، والمرح على نفسه ، يجد الرضا في البساطة ،
ويصبر على بلواه في هدوء ، ويتلقى جميع حوادث الأيام بصبر ، وكرامة ،
وشم ، وكبرياء . وكان المسلم إذا عقد النية على سفر طويل ، أخذ معه كفنه
المنسوج من الكتان ، استعداداً منه في أى وقت للقاء ربه ، فإذا أهكه المريض
والتعب وهو سائر في الصحراء ، أمر رفاقه بأن يواصلوا سفرهم . ثم
توضأ هو لآخر مرة ، واحتفر بنفسه حفرة يتخذها قبراً له ، ولف نفسه
في كفته ، ونام في الحفرة ، ينتظر أن توفيه منيته ، وأن تغطي جسمه
الرمال السافية (٧١) .

الفصل الرابع

الحكومة

كانت الحكومة الإسلامية في الثلاثين السنة التي تلت وفاة النبي جمهورية ديمقراطية من الوجهة النظرية بالمعنى الذي كان مفهوما من هذه العبارة في الزمن القديم ، وهو أن يشترك جميع الذكور الراشدين في اختيار رأس الدولة وتحديد سياستها . أما من الناحية العملية فقد كان الذين يختارون أمير المؤمنين ويرسمون سياسة الدولة فئة قليلة من أعيان المدينة . ولم يكن ينتظر شيء غير هذا بطبيعة الحال ؛ ذلك أن الناس يختلفون في ذكائهم وفي ضمائرهم ، ولهذا فإن الديمقراطية في أحسن صورها لا بد أن تكون نسبية ؛ ولا محيص من أن تنشأ صورة ما من صور الأجركية في المجتمعات التي لا تنيسر فيها سبل الاتصال والتي تقل فيها نسبة المتعلمين . وإذا كانت الحرب والديمقراطية لا يجتمعان معاً ، فإن اتساع رقعة البلاد الإسلامية قد ساعد على قيام حكم الفرد ، لأن وحدة الرياسة والإسراع في اتخاذ القرارات لا بد منهما لقيام السياسة الحربية والاستعمارية . ولهذا أضحت الحكومة في عهد الأمويين ملكية صريحة ، الخلافة فيها إما وراثية وإما أن تقررها قوة السلاح .

كذلك كان منصب الخليفة من الوجهة النظرية منصبا دينيا أكثر مما كان منصبها سياسيا . فقد كان الخليفة قبل كل شيء رئيس مجتمع ديني هو مجتمع المسلمين ، وكان واجبه الأول الدفاع عن الدين ، ولهذا كانت الخلافة حكومة دينية خاضعة لحكم الله عن طريق الدين . لكن الخليفة لم يكن بابا أو قسا ، ولم يكن في مقدوره أن يصدر قرارات جديدة في الشئون الدينية . ومع هذا فقد كان من الوجهة العملية ذا سلطان مطلق لا يحد منه برلمان ، ولا طبقة وراثية من

الأشراف ، ولا هيئة من رجال الدين ، بل كان الذى يحد من هذا السلطان هو القرآن وحده - وكان فى وسع من يستخدمهم من العلماء (*) ويؤدى لهم أجرهم أن يفسروه له كما يريد . وكان ثمة قدر من تكافؤ الفرص فى هذه الحكومة المطلقة . ذلك أنه كان فى مقدور أى إنسان أن يرقى إلى أعلى المناصب إلا إذا كان أبواه كلاهما من الأرقاء .

وأدرك العرب أنهم قد تغلبوا على مجتمعات مضمحلة ولكنها حسنة التنظيم فاستعانوا فى بلاد الشام بنظام بيزنطية الإدارى ، وفى بلاد فارس بنظام الساسانيين ، وكان لا بد أن تسير الحياة فى الشرق الأدنى على النسق القديم ، بل إن الثقافة اليونانية الشرقية نفسها قد نخطت حاجز اللغة وانتعشت مرة أخرى فى العلوم والفلسفة الإسلامية : ونشأ فى عهد العباسيين طراز معقد من الحكومة المركزية ، والإقليمية ، والمحلية ، تسيره طائفة من الموظفين لا تتأثر إلا قليلا باغتيال الجالسين على العرش ، أو بالثورات التى تحدث فى داخل القصر . وكان على رأس النظام الإدارى الحاجب أو رئيس التشریفات ، ولم يكن عمله من الوجهة النظرية يتعدى الإشراف على الحفلات فى القصر ، ولكنه استطاع من الوجهة العملية أن يستحوذ على كثير من السلطة بتحكمه فىمن يدخلون على الخليفة : وكان يليه فى مرتبته ، ولكن يفوقه فى السلطان (بعد الخليفة المنصور) الوزير ؛ وهو الذى يعين موظفى الحكومة ، ويشرف عليهم ، ويرسم سياسة الدولة ويسيرها . وكان أهم الدواوين ديون الخراج ، والحسابات ، والشرطة ، والبريد ، والنظر فى المظالم وهو الذى أصبح بمثابة محكمة ترفع إليها الأحكام القضائية والإدارية ، وكان يلى الجيش فى الأهمية عند الخليفة ديوان الخراج حيث كان الجباة يضارعون جباة الدولة

(*) لاشك فى أن فى هذا الحكم الشامل مغالاة كثيرة . فالتاريخ الإسلامى يفيض بالشواهد الدالة على ما لرجال الدين من مواقف مشرفة ضد الخلفاء ، لا قوا بسببها كثيراً من العنت والاضطهاد . (المترجم)

البيزنطية في عنادهم وشدهم ؛ وكانت أموال طائلة تنتزع من الاقتصاد القوي لإقامة نظام الحكم والإنفاق على الحكام . وكان إيراد بلاد الخلافة كل عام في عهد هرون الرشيد يزيد على ٥٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم (نحو ٤٠٠,٠٠٠ ر ٤٢٠ ريال أمريكي) فضلاً عما أضيف إليه في ذلك الوقت من ضرائب عينية لا يحصى عددها^(٧٣) . ولم يكن ثمة دّين قومي ، بل حدث عكس هذا في عام ٧٨٦ إذ كان في الخزانة رصيد يبلغ ٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم .

وكان البريد العام ، كما كان في عهد الفرس والرومان ، لا يخدم إلا الحكومة وكبار الأشخاص ، وكان أهم ما يستخدم فيه هو نقل الأخبار والأوامر بين عاصمة الدولة والولايات ، ولكنه كان إلى هذا يتخذ وسيلة للتجسس من قبل الوزير على الحكام المحليين . وكان ديوان البريد يصدر أدلة مكتوبة ليستعين بها التجار والحجاج ، تحوى أسماء محاط البريد المختلفة ، وبعد كل واحد منها عن الآخر ، وكانت هذه الأدلة أساس علم تقويم البلدان عند العرب ، وكان الحكام يدرّب ويستخدم في نقل الرسائل — وكان هذا أول استخدام له معروف في التاريخ (٨٣٧) . وكانت الأخبار فوق هذا ينقلها المسافرون والتجار ؛ وكان في بغداد ألف وسبعمائة « امرأة عجوز » يعملن جاسوسات . غير أن الرقابة مهما اشتدت لا يمكن أن تحول بين الشرقيين والغربيين وبين ابتزاز الأموال العامة أو الارتشاء . فقد كان الولاة في بلاد العرب ، كما كانوا في بلاد الرومان ، يرون أن سنى خدمتهم يجب أن تعوضهم عما أنفقوه من المال ليرتقوا به سلم المناصب ، وما يلاقونه من المحن حين يغادرون المنصب . وكان الخلفاء في بعض الأحيان يرغمونهم على أن يردوا ما اغتصبوه ، أو يبيعون حق إرغامهم إلى الحكام الذين يخلفونهم ، وبهذه الطريقة انتزع يوسف بن عمر ٧٦٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم من الولاة الذين تولوا حكم العراق قبله . وكان الولاة يتناولون مرتبات عالية ، ولكن منهم أيضاً من تأثروا بسخاء الأسخياء ، وقد ورد في أحد الأحاديث أن النبي نفسه كان يرى أن اثنين على

الأقل من بين كل ثلاثة قضاة سيحشرون في النار (٧٣) .

وكان المفروض أن الشريعة التي تحكم بها الدولة المترامية الأطراف مستمدة من نصوص القرآن . ذلك أن القانون والدين كانا عند المسلمين ، كما كانا عند اليهود ، شيئاً واحداً . فكل جريمة خطيئة ، وكل خطيئة جريمة ، ولذلك كان فقه القانون عند المسلمين فرعاً من علوم الدين . فلما أن زادت الفتوح من التبعات الملقاة على الشريعة الإسلامية ونشأت حالات جديدة لم ينص عليها في القرآن وضع بعض المشترعين المسلمين أحاديث لمواجهة تلك الحالات صراحة أو ضمناً ، وهذا أصبح الحديث مصدراً ثانياً من مصادر التشريع الإسلامي(*) ، وكان من المصادقات الغربية المتكررة أن هذه الأحاديث تردد أصداء المبادئ والأحكام والشرائع الرومانية والبيزنطية ، وتردد أكثر من ذلك مبادئ المشنا ويخارا اليهود وأحكامهما(٧٤) . وكانت الزيادة المطردة في هذه الأحاديث التشريعية الكثيرة مما رفع من شأن مهنة القضاء في البلاد الإسلامية ، وخلع على الفقهاء الذين يفسرون القانون أو يطبقونه من السلطان والتعظيم ما لا يقل عما كان لطبقة الكهنة والقساوسة عند غير المسلمين . وقد فعل هؤلاء ما فعله أمثالهم في فرنسا في القرن الثاني عشر ، فقد تحالفوا مع الملكية ، وأيدوا حكم العباسيين المطلق ، ونالوا جزاءهم على هذا التأييد .

ونشأت في البلاد الإسلامية السنية أربعة مذاهب : أولاها مذهب أبي حنيفة ابن ثابت (المتوفى عام ٧٦٧) ، وقد أحدث انقلاباً كبيراً في الشريعة الإسلامية باتباع مبدل العباس في تفسير القرآن . وهو يرى أن القانون الذي سن في أول الأمر لأهل الصحراء يجب ألا يؤخذ بحرفيته بل بروحه إذا أريد تطبيقه على مجتمع صناعي أو حضري . وعلى هذا الأساس أجاز أبو حنيفة قروض الرهن

(*) لسنا ننكر أن هناك أحاديث منحولة ولكننا نعتقد أن الأحاديث الصحيحة السند معين لا ينضب للتشريع . (المترجم)

ويشبه هذا ما فعله همل في فلسطين قبل ذلك العهد بثمانية قرون . ومن أقوال أبي حنيفة في هذا المعنى إن القاعدة القانونية تختلف عن قواعد النحو والمنطق ، فهي تمثل سنة عامة تتغير بتغير الظروف التي أوجدتها (٧٥) . وخرج من بين أهل المدينة المحافظين عالم آخر لا يميز هذه الفلسفة الحرة التقدمية في التشريع ، وهو مالك بن أنس (٧١٥ - ٧٩٥) . وقد أقام مالك مذهبه بعد دراسة واسعة لألف وسبعمائة من الأحاديث التشريعية ، ويقول إنه لما كانت كثرة هذه الأحاديث قد صدرت في المدينة ، فإن إجماع أهل المدينة هو الذي يجب أن يؤخذ به في تفسير الحديث والقرآن . ويرى محمد الشافعي (٧٦٧ - ٨٢٠) الذي عاش في بغداد والقاهرة ألا يقتصر هذا الحق على أهل المدينة ، وأن الإجماع في كل بلاد الإسلام هو الحكم الأخير للشرائع والسنة والحقيقة . ويرى تلميذه أحمد بن حنبل أن هذا المقياس غامض وأوسع مما ينبغي ، وأنشأ مذهباً آخر أساسه أن القرآن والحديث وحدهما يجب أن يكونا أساس التشريع . وندد بمذهب المعتزلة العقلي في الفلسفة ، وألقى به المأمون في السجن لتمسكه الشديد بمذهب أهل السنة ، ولكنه استمسك بأرائه بشجاعة عظيمة كان من أثرها أن خرجت بغداد على بكرة أبيها تشيع جنازته لما أن وافته منيته .

غير أن ما بين المذاهب الإسلامية الأربعة ، التي يعترف بها أهل السنة في الإسلام ، من الاتفاق في التفاصيل لا يقل عما بينها من الاختلاف في المبادئ ، وذلك على الرغم من هذا الجدل الطويل الذي ظل قائماً مائة عام . فهي كلها تؤمن بأن الشريعة الإسلامية من عند الله ، وبأن كل شريعة خليقة بأن يحكم بها الجنس البشري الذي لا يخضع بفطرته للقانون ، يجب أن تكون أصولها منزلة من عند الله . وهي كلها تسرف في وضع تفاصيل قواعد السلوك والشعائر الإسلامية إسرافاً لا يجاريها فيه إلا الدين اليهودي ، وقد عنى المشرعون بكثير من التفاصيل كطريقة استعمال السواك ، وسنن الزواج ، وما يليق وما لا يليق من ثياب الرجال

والنساء ، والطريقة الصحيحة لتصنيف الشعر ، ويروى أن أحد الفقهاء لم يأكل البطيخ قط لأنه لم يجد في القرآن أو الحديث ما يعرف منه الطريقة للصحيحة التي يأكله بها^(٧٦) . ولقد كان من شأن كثرة ما يسن من القوانين أن تحول بين تطور المجتمع الإسلامي ، ولكن اختلاف الآراء في القانون الواحد وتجاوز منفذى القانون عن مخالفته في بعض الأحيان قد وفقا بين قسوة التشريع من جهة وقسوة الحياة وتطورها من جهة أخرى . غير أنه رغم هذا ، ورغم انتشار مذهب أبي حنيفة وما فيه من تسامح وحرية ، فإن النزعة الغالبة على الشرائع الإسلامية هي النزعة المحافظة والاستمساك القوى بالسنن استمساكاً يعطل التطور الحر للأنظمة الاقتصادية ، والآداب الشخصية والتفكير^(*) .

ولا يسعنا إلا أن نسلم - مع هذه التحفظات - بأن الخلفاء الأولين من أبي بكر إلى المأمون قد وضعوا النظم الصالحة الموقفة للحياة الإنسانية في رقعة واسعة من العالم ، وأنهم كانوا من أقدر الحكام في التاريخ كله . ولقد كان في مقدورهم أن يصادروا كل شيء ، أو أن يجربوا كل شيء ، كما فعل المغول أو المجر أو أهل الشمال من الأوربيين ؛ لكنهم لم يفعلوا هذا بل اكتفوا بفرض الضرائب . ولما أن فتح عمرو مصر أبي أن يستمع إلى نصيحة الزبير حين أشار عليه بتقسيم أرضها بين العرب الفاتحين ، وأيده الخليفة في هذا الرأي وأمره أن يتركها في أيدي الشعب يتعهدا فتشمر^(٧٧) . وفي زمن الخلفاء الراشدين مسحت الأراضي ، واحتفظت الحكومة بسجلاتها ، وأنشأت عدداً كبيراً من الطرق وعينت بصيانتها ، وأقيمت الجسور حول الأنهار لمنع فيضانها ، وكانت العراق قيل الفتح الإسلامي صحراء جرداء فاستحالت أرضها بعده جنائاً فيحاء ؛ وكان كثير من أرض فلسطين قبيل الفتح رملاً وحجارة فأصبحت خصبة ، غنية ، عامرة بالسكان^(٧٨) . وما من شك

(*) وهذا ما لا نوافق عليه المؤلف وما لا يتفق مع الواقع ، فالإسلام بشهادة كثيرين من علماء العرب سمح لا يعطل التفكير أو الاقتصاد أو الآداب . (المترجم)

في أن استغلال المهرة والأقوياء للسذج والضعفاء بقي في عهد الحكومات الإسلامية كما بقي في عهود كل الحكومات ، ولكن الخلفاء قد أمنوا الناس إلى حد كبير على حياتهم وثمار جهودهم ، وهيئوا الفرص لذوى المواهب ، ونشروا الرخاء مدى ستة قرون في أصقاع لم تر قط مثل هذا الرخاء بعد عهدهم ، وبفضل تشجيعهم ومعونتهم انتشر التعليم ، وازدهرت العلوم ، والآداب ، والفلسفة ، والفنون ازدهاراً جعل آسية الغربية مدى خمسة قرون أرقى أقاليم العالم كله حضارة .

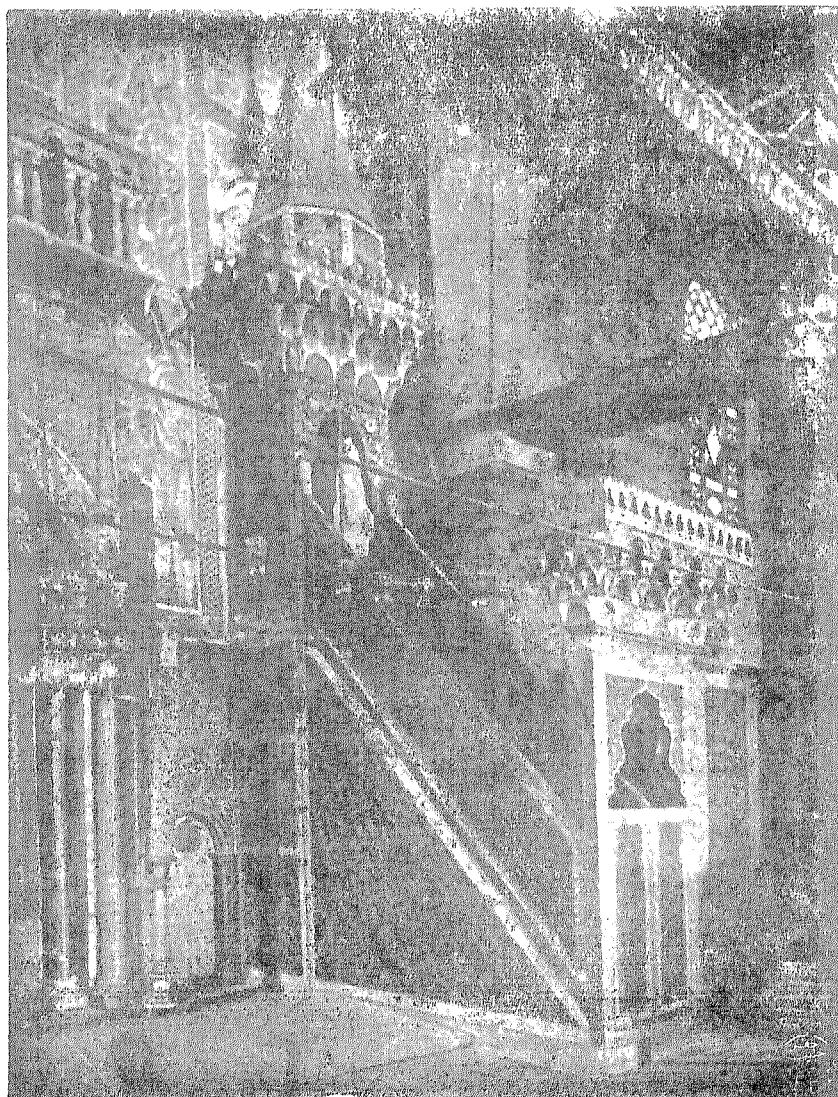
الفصل الخامس

المدن

يجدر بنا قبل أن نتحدث عن الرجال الذين أنشأوا هذه الحضارة وميزوها عن غيرها من الحضارات ، ونصف أعمال هؤلاء الرجال ، أن نصور لأنفسنا البيئة التي كانوا يعيشون فيها . إن الحضارة ريفية في أصولها وقواعدها ، ولكنها مدنية في صورتها ، إذ لا بد أن يجتمع الناس في المدن حتى يستمع بعضهم إلى بعض وينبه بعضهم بعضا .

ولقد كانت البلدان الإسلامية جميعا تقريبا غير كبيرة في سعتها لا يزيد سكان الواحدة منها على عشرة آلاف ومنها ما يقل عامرها عن ذلك ، يحشرون في رقعة من الأرض ضيقة لها أسوار تحميها من الغارات والحصار ، مظلمة شوارعها مليئة بالتراب والوحل ، ذات بيوت صغيرة مطلية بالحصص ومحوطة بجدران متصلة ترد عنها الأبصار . وكان جلال المدينة كله محصوراً في مسجدها ، ولكن كانت تقوم في أماكن متفرقة من الأقطار الإسلامية مدن كبيرة ارتقت فيها الحضارة الإسلامية إلى أعلى درجات الجمال والمعرفة والسعادة

وكانت مكة والمدينة ، ولا تزالان ، في نظر المسلمين مدينتين مقدستين ، لأن في أولاهما الكعبة التي كان العرب يقصدونها في الزمن القديم ، كما أن فيها مسقط رأس الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولأن الثانية هي المكان الذي هاجر إليه وأقام فيه . وقد جدد الوليد الثاني بناء مسجد المدينة الصغير وجعله مسجداً فخماً ذا روعة وجمال : وأرسل إمبراطور بيزنطية بناء على طلب الوليد ، وفي نظير ثمانين ألف دينار ، أربعين حملاً من أحجار الفسيفساء ، كما استقدم الوليد ثمانين من مهرة الضناع من مصر وبلاد اليونان ، حتى لقد شكوا المسلمون من أن مسجد



شكل ٢) منبر المسجد الأقصى بيت المقدس مصنوع من الخشب

خراج مصر في تشييد عدد صروح تعرف عند المسلمين باسم الحرم الشريف ، وشيد في الطرف الجنوبي من المدينة (٦٩١ - ٦٩٤) المسجد الأقصى . وقد دمر زلزال هذا المسجد في عام ٧٤٦ ، ثم أعيد بناؤه في عام ٧٨٥ ، وأدخلت عليه فيما بعد تعديلات كثيرة ، ولكن القبلة لا تزال كما كانت في أيام عبد الملك ، كما أن معظم العمد مأخوذة من باسلفا جستنيان التي كانت قائمة في أورشليم . ويرى المقدسي أن بيت المقدس أبجل من المسجد الأموي العظيم المقام في دمشق ، ويقول المسلمون إن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد التقى فيه بإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وإنه صلى فيه معهم ، وإنه رأى بالقرب منه الصخرة (التي يعتقد بنو إسرائيل أنها سرّة الدنيا) والتي أراد إبراهيم أن يضحي عندها بإسحق (*) ، والتي تلقى عندها موسى تابوت العهد ، والتي شاد عندها سليمان وهيرود هيكليهما . ويعتقد بعض المسلمين أن النبي صعد عندها إلى السماء ، وأن الإنسان لو أوفى إيماناً قوياً لأبصر في الصخر آثار قدميه . ولما أن استولى عبد الله بن الزبير على مكة في عام ٦٨٤ وعلى ما يدخل فيها من إيراد الحج أراد عبد الملك أن يجتذب إلى الشام أموال الحجاج ، وأن يجج الناس إلى الصخرة بدل أن يججوا إلى الكعبة ، فأقام صناعه على هذا الحجر التاريخي (٦٩١) « قبة الصخرة » الشهيرة على الطراز البيزنطي - السورى ، وسرعان ما أضحت هذه القبة « رابعة عجائب العالم الإسلامي » (والثلاث الأخرى هي مساجد مكة والمدينة ودمشق) . ولم يكن هذا البناء في أول أمره مسجداً ، بل كان حرماً مقدساً حول الصخرة ؛ وقد أخطأ الصليبيون مرتين حين أطلقوا عليه اسم « مسجد عمر » . ويبلغ ارتفاع القبة ١١٢ قدماً ، وهي قائمة على بناء ذى ثمانية أضلاع مشيد من الحجارة المربعة . ويبلغ محيط هذا البناء ٥٢٨ قدماً . والقبة نفسها مصنوعة من الخشب ومغطاة من الخارج بالنحاس

(*) الذى يعتقد المسلمون أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق . (المترجم)

الأصفر المذهب ذى النقوش البارزة . وللبناء أربعة أبواب جميلة - عتباتها مصفحة بالبرنز - تؤدي إلى الداخل الذى تقسمه صفوف من العمدة المتخذة من المرمر المصقول ، متتالية ومتحدة فى المركز ، إلى أشكال مثمثة الأضلاع كل منها أصغر من الذى فى خارجه . وهذه العمدة الفخمة من الآثار الرومانية القديمة ، وتيجانها بيزنطية الطراز . وتمتاز الأجزاء التى بين العقود بما فيها من قطع الفسيفساء ، التى تصور أشجاراً لا تقف فى جمالها عن تصوير كوربية Courbet . وأجل من هذا على جماله فسيفساء الجزء الأسفل من القبة . وعلى الطنف التى فوق العمدة الخارجية نقش بالخط الكوفى ذو حروف صفراء على قطع من القرميد زرقاء ، أمر به صلاح الدين فى عام ١١٨٧ ، وهو مثل جميل رائع من هذه الزخرفة المعمارية الفذة . وتحيط العمدة بهذه الصخرة الضخمة غير المنتظمة الشكل التى يبلغ محيطها مائتى قدم . وقد وصفها المقدسى بقوله :

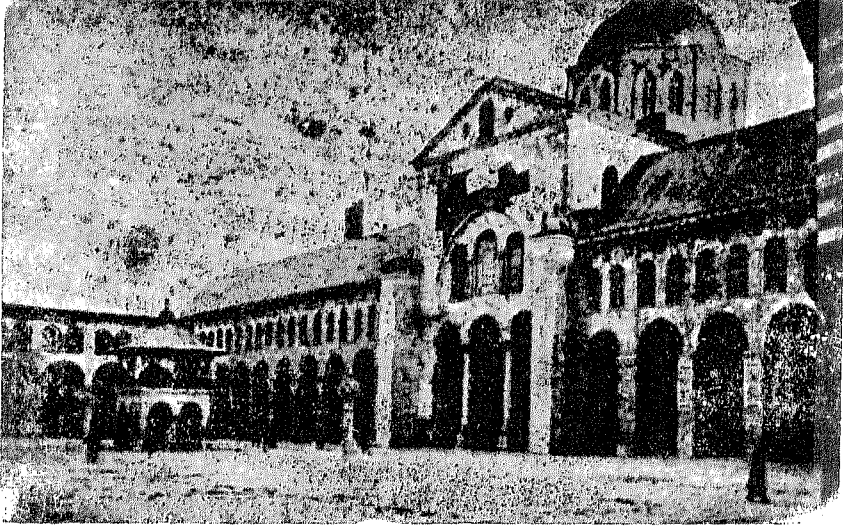
« فإذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة ، وتلألأت المنطقة ، ورأيت شيئاً عجيباً . وعلى الجملة لم أرى الإسلام ولا سمعت أن فى الشرق مثل هذه القبة » (٨٠) .
وقد أخفق عبد الملك فيما كان يسعى إليه من إحلال هذه الصخرة عند المسلمين محل الكعبة ، ولو أنه نجح فيما كان يبتغيه لأضحى بيت المقدس مركز الأديان الثلاثة التى كانت تتنافس فى الاستحواذ على روح الإنسان فى العصور الوسطى .

ومع هذا كله فإن بيت المقدس لم تكن عاصمة ولاية فلسطين ، بل نالت الشرف بلدة الرملة . وكانت فى الأماكن التى تشغلها الآن قرى صغيرة فقيرة مدن زاهرة فى عهود الإسلام الأولى . ومن تلك المدن عكا التى كتب عنها المقدسى فى عام ٩٨٥ يقول إنها مدينة كبيرة واسعة الرقعة . وكتب الإدريسى فى عام ١١٢٤ عن صيدا يقول إنها مدينة مترامية الأطراف تحيطها الحدائق والأشجار ، ووصف يعقوبى فى عام ٨٩١ مدينة صور بأنها بلدة جميلة مشيدة على صخرة ،

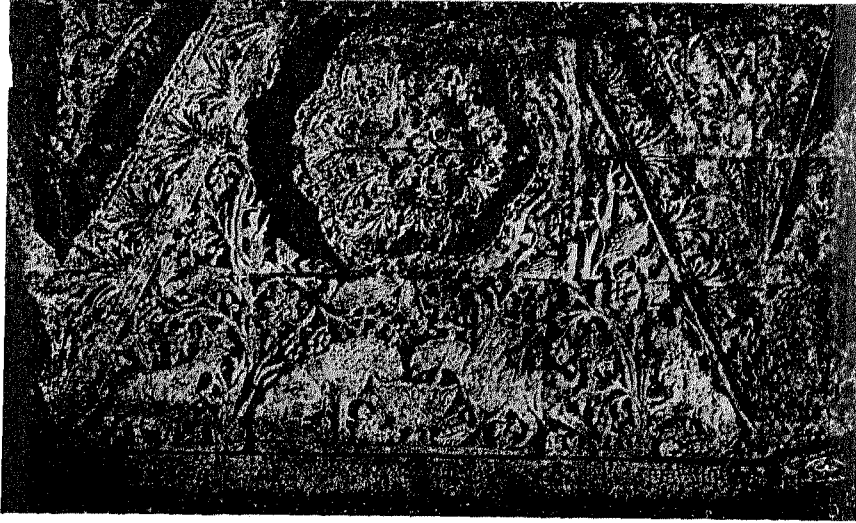
بارزة في البحر، ويقول ناصر خسرو في عام ١٠٤٧ إن فيها خانات ترتفع خمس طبقات أوست، وإن فيها قدراً كبيراً من الثروة معروضاً في أسواقها النظيفة (٨١). وكان لطرابلس القائمة في شهاها مرفأ أمين جميل يتسع لألف سفينة . واشتهرت طبرية بياسمينها وبعيونها الحارة . وكتب ياقوت الرحالة المسلم في عام ١٢٢٤ عن الناصرة يقول : « فيها كان مولد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام وكان أهلها عبروا مريم فيزعمون أنه لم تلد قط عذراء طفلاً » (٨٢) (*).

ويصف اليعقوبي بعليك بأنها من أجمل بلدان الشام ، ويضيف المقدسي إلى هذا أنها بلدة عظيمة الثراء . وكانت أنطاكية ثانية مدن الشام لا يفوقها في عظمتها إلا دمشق وحدها . وقد امتلكها المسلمون من عام ٦٣٥ إلى عام ٩٦٤ ، ثم استولى عليها البيزنطيون من ذلك التاريخ الأخير حتى عام ١٠٨٤ . ويعجب الجغرافيون المسلمون بكنائسها الكثيرة الفخمة ، وبما في بيوتها الجميلة من شرفات عالية ، وبجذائقها وبساتينها الغناء ، ويقولون إن الماء يدخل في كل بيت من بيوتها . وكانت طرسوس من كبريات المدن ؛ ويقدر ابن حوقل (٩٧٨) عدد الذكور من سكانها بمائة ألف ، وقد استعادها نقفور إمبراطور الروم في عام ٩٦٥ ، وهدم جميع ما فيها من المساجد ، وحرق جميع المصاحف ، وكانت حلب بلدة غنية لوقوعها عند ملتقى طريقين من طرق القوافل . ويصفها المقدسي بأنها مدينة غنية مبنية بالحجارة ، ذات شوارع تظللها الأشجار ، وتقوم على جانبها الخوانيت ويؤدي كل شارع منها إلى باب من أبواب المسجد . وكان في هذا المسجد محراب اشتهر بما فيه من عاج وخشب محفور ، ومنبر تبتهج العين لرؤيته . وكان بالقرب منه نحسن مدارس ، وبيارستان ، وست كنائس مسيحية . وكتب

(*) هذه هي ترجمة النص كما أورده المؤلف أما النص كما جاء في كتاب معجم البلدان لياقوت فهو : « . . . وكان أهلها عبروا مريم فيزعمون أنه لا تولد بها بكر إلى هذه الغاية » .
(المترجم)



(شكل ٣) المسجد الأموي بدمشق



(شكل ٤) نقشه بارز على الصخر ببلاد الشام

اليقوي في عام ٨٩١ يقول إن حصص أكبر مدن الشام ، وكتب الاصطخري في عام ٩٥٠ يقول إن شوارعها وأسواقها كلها تقريباً مرصوفة بالحجارة . ويقول المقدسي إن نساءها ذوات جمال رائع وبشرة رقيقة (٨٣) .

ولما اتسعت الدولة العربية نحو الشرق روى أن من مصلحتها أن تكون عاصمتها في موضع أقرب إلى وسطها من مكة أو بيت المقدس . وقد أحسن بنو أمية إذ اختاروا دمشق عاصمة لدولتهم - وكانت هذه المدينة ذات تاريخ قديم حين أقبل عليها العرب فاتحين . وكان يلتقي عندها خمسة أنهار ، تجعل الإقليم الذي من خلفها « جنة الشرق » بحق ، وتمد بالماء مائة فسقية ، ومائة حمام . عام ، ومائة وعشرين ألف بستان (٨٤) ، ثم تجرى نحو الغرب إلى « وادي البنفسج » الذي يبلغ طوله اثني عشر ميلاً وعرضه ثلاثة أميال . ويقول الإدريسي إن « مدينة دمشق من أجل بلاد الشام وأحسنها مكاناً ، وأعدلها هواءً ، وأطيبها تربةً ، وأكثرها مياهاً ، وأغزرها فواكه ، وأعمها خصباً ، وأوفرها مالاً وأكثرها جنوداً (٨٥) (*) » .

وفي قلب هذه المدينة وبين سكانها الذين يبلغون نحو مائة وأربعين ألفاً يقوم قصر الخليفة الذي شاده معاوية الأول ، والذي يلمع فيه الذهب والرخام ، وتتألف في أرضه وعلى جدرانها الفسيفساء ، والذي تلتف حوله الفساق والشلالات التي يتدفق منها الماء على الدوام . وفي الناحية الشمالية من المدينة يقوم مسجد العظم وهو واحد من اثنين وسبعين وخمسة مائة مسجد في المدينة ، والأثر الوحيد الباقي من دمشق الأموية . وكان موضعه في أيام الرومان يزدان بهيكل لجوبيتر ، ثم أقام ثيودوسيوس الأول على أنقاضه كنيسة يوحنا المعمدان (٣٧٩) . وعرض الخليفة الوليد الأول على المسيحيين حوالي عام ٧٠٥ أن يعدل بناء الكنيسة

(*) ويضيف إلى ذلك « ولها جبال ومزارع تعرف بالغوطة . . . وبها ضياع كالمدن ولم يقل الإدريسي إنها أجل بلاد (الله) الخ كما قال المؤلف . (المترجم)

حتى تصبح جزءاً من مسجد جديد يريد بناءه في ذلك المكان ، ووعدهم بأن يعطيهم أرضاً ومواد في أى مكان يختارونه ليقيموا فيه كنيسة جديدة . ولكن المسيحيين احتجوا على هذا العمل وحذروه من عاقبته ، وقالوا إنه قد ورد في كتبهم أن من يجرؤ على هدم تلك الكنيسة سيموت محتقاً ؛ ولكن الوليد لم يأبه بهذا التحذير وكان هو البادئ بهدم الكنيسة بيديه . ويقول المؤرخون إن جميع خراج الأرض في الدولة كلها قد خصص مدى سبع سنين لتشييد هذا المسجد ، هذا إلى المال الكثير الذى أعطى للمسيحيين لينشئوا به كنيسة جديدة . وجيء بالصناع والفنانين من الهند ، وفارس ، والقسطنطينية ، ومصر ، وليبيا ، وتونس ، والجزائر ، وكان من استخدم في بنائه من العمال اثني عشر ألف عامل ، أموه في ثمان سنين . والرحالة المسلمون يجمعون على أنه أفخم بناء في بلاد المساميين ، ويرى المهدي والمأمون من الخلفاء العباسيين - وليس منهما من يحب الأمويين أو دمشق - أنه لا يضارعه بناء غيره في جميع أنحاء العالم . ويتكون البناء من سور محصن ، في داخله صفوف من العمد تحيط بصحنه الواسع المرصوفة أرضه بالرخام . ويقوم المسجد نفسه في الجهة الجنوبية من هذا المكان المتسع ، وهو مشيد من الكتل الحجرية المربعة وتشرف عليه أربع مآذن - منها واحدة هي أقدم ما شيد من المآذن في الإسلام ، وكان تخطيط المسجد وزخرفته على الطراز الرومانى ، وما من شك في أنهما قد تأثرا بطراز أياصوفيا . وكان السقف والقبعة - ويبلغ طول قطرها خمسين قدما - مكفتين بصفائح الرصاص : أما داخل المسجد الذى يبلغ طوله ٤٢٩ قدماً فيشتمل على صفتين من العمد المنحوتة من الرخام الأبيض تفصل صحنه عما يحيط به من طرقات . وتيجان هذه العمد كورنثة الطراز مكفتة بصفائح الذهب : ومن فوقها عقود مستديرة أو على شكل حلل الفرس :

وهذا الطرز الثاني من العقود أول ما أقيم من نوعه في بلاد الإسلام(*) . وأرض المسجد من الفسيفساء وقد غطيت بالطنافس ، كما غطيت جدرانه بالفسيفساء ، المصنوعة من الرخام الملون وبالقاشاني المطعم بالمينا ، وفي داخل المسجد ستة حواجز جميلة من الرخام تقسم داخله إلى عدة إيوانات . وفي أحد جدرانها المتجهة نحو مكة محراب مرصع بالذهب والفضة والحجارة الكريمة . ويدخل الضوء إلى المسجد من أربعة وسبعين شباكاً من الزجاج الملون ومن اثني عشر ألف قنديل . ويصفه أجد الرحالة بقوله : « ولو أن رجلاً من أهل الحكمة اختلف إليه سنة لأفاد منه كل يوم صفة وعقدة أخرى » (**).

وسمح لأحد سفراء اليونان أن يدخل المسجد فلما شاهده التفت إلى رفاقه وقال لهم : « لقد قلت لأعضاء مجلس الشيوخ في بلادى إن سلطان العرب سيزول عما قريب ، أما الآن وأنا أرى كيف كانوا يشيدون عمائرهم فقد علمت علم اليقين أن سلطانهم سيدوم أحقاباً طويلاً » (†).

وإذا انجح الإنسان من دمشق نحو الشرق واجتاز الصحراء وصل إلى الرقة على نهر الفرات حيث كان يقيم الخليفة هرون الرشيد ؛ فإذا عبر نهر دجلة وصل

(*) وأقدم ما عرف من العقود المصنوعة على شكل حذاء الفرس عقد في هيكل في كهف ببلدة نازك في الهند لعل تاريخه يرجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد (٨٦) . ثم استخدم هذا الطراز في كنيسة مسيحية شيدت في نصيبين بالعراق عام ٣٥٩ م .
(**) هذا من قول المقدسي وفي الأصل الإنجليزي « مائة سنة » ولكن المقدسي يقول سنة واحدة .

(†) وأتلفت النار أجزاء كثيرة من مسجد دمشق العظيم في عام ١٠٦٩ ثم جدد بناؤه ، ولكن تيمورلنك أحرقه حتى لم يكذب يبق منه شيء في عام ١٤٠٠ . ثم أعيد بناؤه مرة أخرى ، ثم أتلفتته النيران إتلافاً شديداً في عام ١٨٩٤ . وبعد هذا حل الجص والجير محل النقوش القديمة . وفي وسع الإنسان أن يشاهد حتى الآن النقش الذي كان يملو إسكفة الكنيسة المسيحية ، والذي لم يحه المسلمون . ونص هذا النقش هو « ملكتك أيها المسيح . ملكة خالدة » وسلطانك باق إلى أبد الدهر » (٨٨) .

إلى الموصل ، وعلى مسافة منها في اتجاه الشمال الشرقى أيضاً تقع مدينة تبريز التي بلغت ذروة مجدها بعد ذلك العهد الذي نتحدث عنه . وإلى شرقها تقوم مدينة طهران (ركائز لا تزال وقتل بلدة صغيرة) ، ثم تليها دامغان وبعدها - في شرق بحر الخرز - تقع جرجان . وكانت هذه البلدة الأخيرة في القرن العاشر الميلادي قاعدة لإحدى الولايات الإسلامية ، واشتهرت وقتئذ بمن كان فيها من الأمراء المثقفين ، أشهرهم كاهم شمس المعالي قابوس ، الشاعر العالم الذي استضاف ابن سيناء في بلاطه ، والذي ترك وراءه مدفنًا له على شكل برج ضخيم يعلو في الجو ١٦٧ قدماً يعرف باسم جنبادى قابوس ، وهو البناء الوحيد الذي بقي حتى الآن من تلك المدينة التي بلغت في أيامه درجة عظيمة من الرخاء وكثرة السكان . وعلى الطريق الشمالى المتجه نحو الشرق تقوم مدينة نيسابور ، التي لا يزال الناس يرددون اسمها في شعر عمر الخيام ، وتليها مشهد المدينة المقدسة عند المسلمين الشيعة ؛ ثم مرو التي كانت في وقت ما قاعدة لإحدى الولايات الكبرى ؛ ثم بخارى وسمرقند - وكانتا في العادة بعيدتين عن منال أيدي الحياة . وعلى سلاسل الجبال الجنوبية تقع مدينة غزنة ، ويحدثنا الشعراء عن قصور أميرها محمود الغزنوى الفخمة ، وعن أبراجها العالية التي تطاول قمر السماء . ولا يزال يقوم فيها حتى اليوم « برج النصر » الذي شاده السلطان محمود ، وبرج آخر أجمل منه شاده محمود الثانى . وكان الإنسان إذا رجع نحو الغوب في القرن الحادى عشر التى بنحو اثنتى عشرة مدينة زاهرة في إيران - هيرة ، شيراز (ذات الحدائق الغناء الدائعة الصيت والمسجد العظيم) ، ويزد ، وإصفهان ، وكاشان ، وقزوين ، وقوم وهمدان ، وكرمنشاه ، وسامانا ؛ ثم التى في العراق بمدنتى البصرة والكوفة العامرتين بالسكان . وكان الناس يشاهد في كل مكان يمر به قبابا براقة ، ومآذن متألثة ، ومدارس ، ودوراً للكتب ، وقصوراً ، وحدائق ، وبيارستانات ، وحمامات ، وأزقة ضيقة مظلمة حيث يسكن الفقراء . ثم يصل المسافر آخر الأمر إلى بغداد

التي يتغنى بها الشاعر الأتورى في شعر فارسي يقول :

طوبى لك يا بغداد مدينة العلم والفن ، التي لا يستطيع إنسان أن يجد
بين مدن العالم كله مدينة أخرى تناظرها ، إن أرباضها لتنافس في جمالها
قبة السماء الزرقاء ، وإن مناخها ليضارع نسيم السماء الذي يبعث الحياة
في الأجسام ، وأحجارها تضارع في تلالؤها الماس والياقوت . . . وإن
شواطئ دجلة ومن عليها من الفتيات الحسان لتفوق بلخ ؛ وجناتها المليئة
بالحور العين لتعدل في ذلك كشمير ، وآلاف القوارب ترقص وتتألا
فوق الماء تلالو أشعة الشمس في الهواء (٥٩) .

وكان في موقع بغداد مدينة بابلية قديمة ، وهي لا تبعد كثيراً عن موقع
بابل القديمة ، وقد عثر في عام ١٨٤٨ تحت مجرى نهر دجلة على قطع من
الآجر منقوش عليها اسم نبوخذنصر : وازدهرت المدينة القديمة في عهد
الملوك الساسانيين ، ثم أنشئت فيها بعد الفتح الإسلامي عدة أديرة مسيحية ،
معظمها للنساطرة ؛ ويحدثنا المؤرخون أن الخليفة المنصور عرف من رهبان
تلك الأديرة أن هذا الموقع معتدل الجو في الصيف ، خال من البعوض
الذي يكثر في البصرة والكوفة ؛ ولعل الخليفة قد رأى أن من الحكمة
أن يبتعد عن هاتين المدينتين المشاكستين ، اللتين كانتا في ذلك الوقت البعيد
خاصتين بالصعاليك الثوريين ؛ وما من شك في أنه وجد في موقعها هذا
ميزة حربية ، فهو موقع أمين في داخل البلاد ، ولكنه على اتصال مائي
بجميع المدن الكبرى القائمة على النهرين عن طريق نهر دجلة والقنوات
الكبرى المتصلة به ؛ وعن طريق هذا النهر والقنوات يتصل أيضاً بالخليج
الفارسي وبجميع ثغور العالم . من أجل هذا كله نقل مقره هو من الهاشمية
كما نقل دواوين الحكومة من الكوفة إلى بغداد ، وأحاط ذلك الموقع بثلاثة
أسوار دائرية وخندق ، واستبدل ببغداد اسمها القديم ومعناه « هبة الله »
اسماً جديداً هو مدينة السلام ، واستخدم مائة ألف من العمال في بناء أربعة
قصور عظيمة من الآجر له ولأهله ولدواوين الحكومة ؛ وكان يقوم في وسط

المدينة قصر الخليفة المسمى « بالباب الذهبي » نسبة إلى بابه المذهب أو « القبة الخضراء » نسبة إلى قبته البراقة : ثم شاد المنصور في خارج أسوار المدينة على الضفة الغربية لنهر دجلة مسكناً صيفياً له عرف باسم « قصر الخلد » ، وكان هرون الرشيد يقيم في هذا القصر معظم أيامه . وكان في وسع من يقيم في هذين القصرين أن يرى من نوافذهما مئات السفن تفرغ على أرصفة النهر أحماها التي جاءت بها من نصف العالم المعروف .

وفي عام ٧٦٨ أنشأ المنصور قصراً ومسجداً على الضفة الشرقية الفارسية لكي يستطيع ولده المهدي أن يتخذ له في القصر مسكناً مستقلاً . وسرعان ما نشأت حول هذين الصرحين ضاحية جميلة هي ضاحية الرصافة(*) التي كان يصلها بالمدينة المستديرة جسران قائمان على قوارب . وكان معظم الخلفاء الذين جاءوا بعد المأمون يقيمون في هذه الضاحية ، ولهذا فإنها سرعان ما فاقت مدينة المنصور نفسها في اتساعها و ثرائها ، وكان الناس بعد الرشيد إذا ذكروا بغداد فإنما يعنون بها الرصافة نفسها . وكانت شوارع ضيقة ملتوية ، أنشئت على هذا النحو لتقي الأهليين من وهج الشمس وتقوم على جانبيها الحوانيت الصاخبة ، تمتد من القصور الملكية إلى أحياء الأثرياء ، وكان لكل طائفة من طوائف الصنائع شارعها الخاص أو سوقها الخاصة - فهذا حي بائعي العطور ، وذاك حي صانعي السلال ، وهنا حي صانعي الأسلاك ، وهناك حي الصيارفة مستبدلي النقود ، وذاك حي البرازين ، وهذا حي الوراقين وما إلى ذلك . وكانت بيوت الأهليين تقوم فوق هذه الحوانيت ومن ورائها . وكانت كل المساكن تقريباً ما عدا مساكن الأغنياء مقامة من اللبن ، تبي ما بقي صاحبها حياً ولكنها لا تدوم كثيراً بعده ، وليس لدينا إحصاء لسكان المدينة موثوق به ، والراجح أنهم كانوا يبلغون

(*) الرصافة ككناسة بلد بالشام ومحلة ببغداد ، وبلد بالبصرة ، وبلد بالأندلس ، وبلد بأفريقية . (المترجم)

٨٠٠٠٠٠ ، وإن كان بعض المؤرخين يقدرونهم بمليونين^(٩٠) : ومهما يكن عددهم فإن المدينة كانت في القرن العاشر الميلادي أكبر مدن العالم على الإطلاق ، مع جواز استثناء القسطنطينية من هذا التعميم . وكان فيها حتى للمسيحيين مزدحم بهم ، تقوم فيه كنائس ، وأديرة ، ومدارس ، وكان لكل من النساطرة ، واليعاقبة ، والمسيحيين أصحاب العقيدة الصحيحة ، أمكنة عبادتهم الخاصة بهم . وقد جدد هرون بناء مسجد أقامه المنصور ووسعه ، ثم جدد المعتمد بناء هذا المسجد نفسه وزاد مساحته : وما من شك في أن مئات من المساجد قد شيدت ليتعبد فيها سكان المدينة .

وبينا كان الفقراء يواسون أنفسهم في حياتهم الشاقة بأملهم في نعيم الدار الآخرة ، كان الأغنياء يستمتعون على الأرض بنعيم الجنة . ذلك أنهم شادوا في بغداد أو بالقرب منها عشرات المئات من القصور الفخمة ، والبيوت ذات الحدائق ، والدور التي تبدو بسيطة من الخارج ولكنها كانت في الداخل « لا زوردا وذهبا » . وفي وسعنا أن نتصور ما كانت عليه من الفخامة من وصف لها بقلم أبي الفداء لا يكاد يصدق العقل يقول فيه إن قصر الخليفة في بغداد قد فرشت على أرضه ٢٢٠٠٠ طنفسة ، وعلقت على جدرانها ٣٨٠٠٠ قطعة من القماش المزركش و١٢٠٥٠٠ قطعة من الحرير^(٩١) : وكانت قصور الخليفة وأسرته ومساكن الوزير ورؤساء دواوين الحكومة تشغل في المدينة الشرقية مساحة قدرها ميل مربع^(*) . وبدأت منذ أيام جعفر البرمكي هجرة الطبقة الموسرة إلى بغداد حين شاد لنفسه في الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة قصراً فخماً كانت عظمته من أسباب هلاكه . وقد حاول جعفر أن يتقى حسد هرون الرشيد فأهدى هذا القصر إلى المأمون ؛ وقبل الرشيد الهدية لابنه ، ولكن جعفر ظل يعيش وينعم في « القصر الجعفري » إلى آخر أيام حياته . ولما أخذت قصور المنصور

(*) أي أكثر من ستائة فدان . (المترجم)

وهرون تنهار ، أقيمت في مكانها قصور أخرى : وقد أنفق -المعتمد على قصره المعروف « بقصر الثريا » (٨٩٢) ٤٠٠,٠٠٠ دينار (أى ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) : وفى وسعنا أن نتصور سعة هذا القصر إذا ذكرنا أنه كان فى اسطبلاته ٩٠٠٠ من الإبل والبغال (٩٢) : وشاد المكتنق بجواره « قصر التاج » (٩٠٢) ؛ وكان هذا القصر هو وحدائقه يمتد على رقعة من الأرض مساحتها تسعة أميال مربعة . وشاد المقتدر « بهو الشجرة » وكان سبب تسميته بهذا الاسم أنه كان فى البركة الموجودة بحديقته شجرة من الفضة والذهب ، على أوراقها وأغصانها الفضية تجثم طيور من الفضة ، تنطق ألسنتها بأناشيد آلية : ويز سلاطين آل بويه جميع أولئك الخلفاء فأنفقوا ١٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم فى بناء قصر المعزية : وهكذا تعددت القصور وزادت فخامة ، حتى إذا استقبل المقتدر فى عام ٩١٧ سفراء اليونان بهرتهم قصور الخليفة ودواوين حكومته البالغ عددها ثلاثة وعشرين قصرآ ، وإيواناتها ذات العمد الرخامية ، وما بسط على أرضها وجدرانها من طنافس وأقشة مزركشة كبيرة الحجم يخطها الحصر تكاد تغطى كل مكان فى الأرض والحدران ، وعشرات المئات من السياس ذوى الحلل البراقة ، وسروج الخيول الفضية ذات الأغطية المطرزة بخيوط الذهب والفضة ، وما فى الحدائق الواسعة من مختلف أنواع الحيوان البرى والأليف ، وما للخلفاء من قوارب لا تقل عن القصور أبهة وفخامة تجرى فى نهر دجلة وتنتظر أهواء الخليفة : وكانت الطبقات العليا تعيش فى وسط هذا النعيم عيشة الترف ، واللهو ، والقلق ، والدسائس . فكان رجالها يذهبون إلى الميدان ليشاهدوا سباق الخيل أو لعب الجحفة ، ويحتسون الخمر المعتمة المحرمة ، ويأكلون الطعام المبتاع من أقاليم البلاد بأعلى الأثمان ، ويرتدون هم ونساؤهم أثواب الحرير المختلف الألوان المطرز بخيوط الفضة والذهب ، ويعطرون ثيابهم ، وشعرهم ، ولحاهم ، ويستنشقون رائحة العنبر والكندر ، ويزينون رؤوسهم ، وآذانهم ، ورقابهم ، ومعاصمهم ،

وسيقانهم بالحلى الثمينة . ويقول شاعر يتغزل في فتاة إن رنين خلاخيلها قد سلبه عقله (٩٣) . ولم تكن النساء في العادة يحضرن مجتمعات الرجال ، وكان يحل محلهن الشعراء ، والمطربون ، والسامر الفكهون ، وما من شك في أنهم كانوا يتحدثون عن الحب ؛ وكانت الجوارى الغيد يرقصن حتى يصبح الرجال أسرى لهن . وفي المجتمعات التي كانت أكثر من هذه أدياً كان الناس يستمعون إلى أناشيد الشعراء أو إلى آيات القرآن الكريم . ومنهم من أنشأوا ندوات فلسفية كإخوان الصفا ، ويحدثنا المؤرخون عن نادى قائم حوالى عام ٧٩٠ مؤلف من عشرة أعضاء ، واحد من السنين ، وآخر من الشيعة ، وثالث من الخوارج ، ورابع من المانوية(*) ؛ ومن شاعر غزلى ، وفيلسوف مادى ، ومسيحى ، ويهودى ، وصابئى ، وزردشتى . ويقول المؤرخون إن اجتماعات هؤلاء الأعضاء كان يسودها روح التسامح المتبادل ، والفكاهة الحلوة ، والنقاش الهادى الذى يمتاز بالأدب والمجاملة(**) (٩٤) . ويمكن القول بوجه عام إن المجتمع الإسلامى كان مجتمعاً ذا أدب راق إلى أقصى حدود الرقى ؛ وما من شك في أن الشرق من عهد قورش إلى لى هونج تشانج قد فاق الغرب في الرقة والكياسة ؛ وكان من المظاهر التي تشرف بها الحياة في بغداد أن الفنون والعلوم التي لا يحرمها الإسلام كانت كلها بلا استثناء تجدد فيها من يشجعها ويأخذ بناصرتها ، وأن المدارس على اختلاف درجاتها كانت كثيرة العدد منتشرة في جميع الأنحاء ، وأن الهواء كان يردد أصدااء الشعراء . ولا يحدثنا المؤرخون بالشىء الكثير عن حياة الدهماء ، وكل ما نستطيع أن نفرضه هو أنهم كانوا يعملون على بقاء هذا الصرح الفخم بمخدماتهم وكدهم .

(*) أتباع مافى وهو رجل من أهل إكباتانا (همدان) (٢١٥ - ٢٧٦) ، وكان يقول إن كل شىء يخرج من أصلين رئيسيين هما النور والظلمة ، أو الخير والشر .
(**) ما أشبه هذا بالمجتمع الخيالى الذى يحدثنا عنه لويس دكنسن في كتابه « معرض الآراء الحديثة » و « العدالة والحرية » وقد ترجما إلى اللغة العربية . (المترجم)

فبينما كان الأغنياء يلهون بالآداب ، والفنون ، والفلسفة ، والعلم ، كان عامة الشعب السذج يستمعون إلى المغنين في الشوارع ، أو يعزفون على أعوادهم وينشدون أغانيهم . وكان يسير بين الفينة والفينة موكب عرس يبدل من ضجيج الشوارع ورأثتها ؛ وكان الناس في أيام الأعياد يتزاورون ، ويتبادلون الهدايا ، ويعنون كل العناية باحتساب قيمة ما يتبادلانه منها ، ويطعمون في تلك الأيام بشهية أقوى من شهية الذين يطعمون في صحاف الذهب . وحتى الفقير نفسه كان له حظ في جلال الخليفة وفخامة المسجد ، ولم يكن محروماً من دربهات من دنانير الخراج الذي كان يرد إلى بغداد . وكان يسير فخوراً معترفاً بأنه ابن العاصمة الكبيرة ، وكان في قرارة نفسه يعد نفسه واحداً من سادة العالم وحكامه .

الباب الثاني عشر

الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية

٦٣٢ - ١٠٥٨

الفصل الأول

التعليم

تدل الأحاديث النبوية على أن النبي كان يحث على طلب العلم ويعجب به ، فهو من هذه الناحية يختلف عن معظم المصلحين الدينيين فيقول : « من سلك طريقاً يطلب علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة » « يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجع مداد العلماء بدم الشهداء » (١) .

ولقد كان اتصال العرب بالثقافة اليونانية في بلاد الشام مما أيقظ فيهم روح المنافسة العلمية القوية لليونان ، ولم يمض إلا زمن قليل حتى أصبح العالم والشاعر من أصحاب المكانة العليا في بلاد الإسلام .

وكان تعليم الأطفال يبدأ منذ اقتدارهم على الكلام . فكانوا من هذه اللحظة يعلمون النطق بالشهادتين « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فإذا بلغ الأطفال السادسة من العمر ألحق بعض أبناء الأرقاء ، وبعض البنات ، وجميع الأولاد ، عدا أبناء الأغنياء (الذين كان لهم معلمون خصوصيون) بمدرسة أولية ملحقة في العادة بأحد المساجد ، وفي بعض الأحيان بجوار عين ماء عامة في الخلاء . وكان التعليم في هذه المدارس عادة بالحنان ، فإن لم يكن فقد كان أجره تافهاً يستطيع أداءه جميع الناس ، فقد كان المعلم يتناول من والد الطفل

مصنع للورق في بلاد الإسلام في بغداد عام ٧٩٤ على يد الفضل بن يحيى وزير هرون الرشيد . ونقل العرب هذه الصناعة إلى صقلية وأسبانيا ومنهما انتقلت إلى إيطاليا وفرنسا . وقبل هذا نجد الورق مستخدماً في بلاد الصين منذ عام ١٠٥ م ، ثم نجده في مكة سنة ٧٠٧ ، وفي مصر سنة ٨٠٠ ، وفي أسبانيا سنة ٩٥٠ ، وفي القسطنطينية سنة ١١٠٠ ، وفي صقلية سنة ١١٠٢ ، وفي إيطاليا سنة ١١٥٤ ، وفي ألمانيا سنة ١٢٢٨ ، وفي إنجلترا سنة ١٣٠٩ (٧) . ويسر هذا الاختراع تأليف الكتب في كل بلد انتقل إليه ، ويقول اليعقوبي إنه كان في بغداد على أيامه (٨٩١) أكثر من مائة بائع للكتب ، كانت حوانيتهم تستخدم ، فضلاً عن بيع الكتب ، لنسخها ، وكتابة الخط المزخرف ، كما كانت ندوات أدبية . وكان كثير من الطلاب يحصلون على أرزاقهم بنسخ المخطوطات ، وبيعها لتجار الكتب ، ونسمع في القرن العاشر الميلادي عن أناس يجمعون توقيعات العظماء وخطوطهم ، وعن غواة للكتب يسعون لجمعها ويعرضون أثماناً عالية للمخطوطات النادرة (٨) . ولم يكن المؤلفون يحصلون على شيء من بيع كتبهم ؛ وكانوا يعتمدون في معاشهم على وسائل للرزق أثبتت من هذه وأقوى أساساً ، أو على هبات الأمراء أو الأثرياء . ذلك أن الأدب والفن كان يقصد بهما إشباع ذوق طبقة الأشراف من ذوى المال أو الحسب والنسب .

وكانت في معظم المساجد مكتبات ، كما كان في معظم المدن دور عامة للكتب تضم عدداً كبيراً منها ، وكانت مفتحة الأبواب لطلاب العلم . وكان في مدينة الموصل عام ٩٥٠ مكتبة عامة أنشأها بعض المحسنين ، يجد فيها من يؤمنونها حاجتهم من الكتب والورق . وبلغت فهارس الكتب التي اشتملت عليها مكتبة الرى العامة عشر مجلدات . وكانت مكتبة البصرة تعطى رواتب وإعانات لمن يشتغلون فيها من الطلاب ؛ وقضى ياقوت الجغرافي في مكتبتي مرو وخوارزم ثلاث سنين يجمع المعلومات التي يتطلبها كتابه معجم البلدان . ولما أن

دمر المغول بغداد كان فيها ست وثلاثون مكتبة عامة^(٩) ، فضلا عن عدد لا يحصى من المكتبات الخاصة ، ذلك أنه كان من العادات المألوفة عند الأغنياء أن يقتنى الواحد منهم مجموعة كبيرة من الكتب . ودعا سلطان بخارى طبيبا مشهوراً ليقم في بلاطه فأبى محتجاً بأنه يحتاج إلى أربعائة جمل لينقل عليها كتبه^(١٠) . ولما مات الواقدي ترك وراءه ستمائة صندوق مملوءة بالكتب ، يحتاج كل صندوق منها رجلين لينقلاه . « وكان عند بعض الأمراء كالصاحب بن عباد من الكتب بقدر ما في دور الكتب الأوربية مجتمعة »^(١٢) . ولم يبلغ الشغف باقتناء الكتب في بلد آخر من بلاد العالم - اللهم إلا في بلاد الصين في عهد منج هوانج - ما بلغه في بلاد الإسلام في القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر . ففي هذه القرون الأربعة بلغ الإسلام ذروة حياته الثقافية . ولم يكن العلماء في آلاف المساجد المنتشرة في البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند يقلون عن عدد ما فيها من الأعمدة ، وكانت إيواناتها تردد أصداً علمهم وفصاحتهم ، وكانت طرقات الدولة لا تخلو من الجغرافيين ، والمؤرخين ، وعلماء الدين ، يسعون كلهم إلى طلب العلم والحكمة ؛ وكان بلاط مئات الأمراء يرددون أصداً قصائد الشعراء والمناقشات الفلسفية ؛ ولم يكن أحد يجروء على جمع المال دون أن يعين بماله الآداب والفنون . وسرعان ما استوعب العرب ذوؤ البديهة الوقادة ثقافة الأمم التي فتحوا بلادها ، وبلغ من تسامح المغلوبين أن أصبحت منهم الكثرة الغالبة من الشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة الذين جعلوا اللغة العربية أغنى لغات العالم في العلوم والآداب . وإن كان العرب الأصليون أقلية صغيرة بين هؤلاء الفلاسفة ، والعلماء ، والشعراء .

وقد قوى علماء الإسلام في ذلك العهد دعائم الأدب العربي الممتاز بدراساتهم الواسعة للنحو الذي جعل اللغة العربية لغة المنطق والقياس ؛ وبما وضعوه من المعاجم التي جمعوا فيها ثروة هذه اللغة من المفردات في دقة ونظام ؛ وبموسوعاتهم ، ومختصراتهم ، وكتبهم الجامعة ، التي جمعت كثيراً من أشنات الآداب والعلوم

لولاها لخسرنا العالم ؛ وبمؤلفاتهم في النصوص ، والأدب ، والنقد التاريخي ؛ ولا حاجة بنا إلى ذكر أسماء هؤلاء العلماء الأعلام ، وحسبنا أن نعرف بفضلهم ونمجد أعمالهم .

وأكثر من تحتفظ الذاكرة بأسمائهم من بين أولئك العلماء هم المؤرخون ، لأننا مدينون لهم بما نعرفه عن تلك الحضارة التي لولاها لظلت غامضة غموض حضارة مصر الفرعونية قبل شمشليون . ومن هؤلاء المؤرخين محمد ابن إسحق (المتوفى عام ٧٦٧) كاتب سيرة النبي ؛ وقد راجعها وزاد عليها ابن هشام (٧٦٣) فكانت أقدم كتاب عربي منشور ذا شأن عظيم وصل إلى أيدينا - إذا استثنينا من ذلك القرآن (الكريم) نفسه . وقد كتب العلماء الباحثون المجدون كتباً جامعة في سير الأولياء الصالحين ، والفلاسفة ، والوزراء ، والمشرعين ، والأطباء ، والخطاطين ، وكبار الحكام ، والعشاق ، والعلماء . وكان ابن قتيبة أحد علماء الإسلام الكثيرين الذين حاولوا كتابة تاريخ للعالم ، ولقد بلغ من الشجاعة درجة أوحى إليه أن يجعل نصيب الدين الذي ينتمى إليه لا يشغل من الكتاب إلا ذلك الحيز المتواضع الذي يجب ألا يزيد عليه تاريخ أية أمة أو أي دين في كتاب تاريخ جامع لأحداث الدهر الكثيرة . وأخرج محمد بن النديم في عام ٩٨٧ كتابه « فهرست العلوم » أرخ فيه لكل كتاب ظهر في اللغة العربية ، مؤلفاً كان أو مترجماً ، في كل فرع من فروع العلم ، وأضاف إلى أسماء الكتب ترجمة نقدية لمؤلفيها ، ذكر فيها فضائل كل مؤلف وعيوبه . وفي وسع القارئ أن يحكم على ثراء الأدب الإسلامي في أيامه إذا عرف أن الكتب التي ذكرها - على ما نعلم - لم يبق منها الآن واحد في الألف (١٣) .

وشبيهه بليفي في الغرب أبو جعفر محمد الطبري (٨٣٨ - ٩٢٣) عند المسلمين (١٤) . وكان أبو جعفر من أصل فارسي كما كان كثيرون من المؤلفين المسلمين ، ولد في طبارستان الواقعة في جنوب بحر قزوين . وبعد أن ظل عدة

سنين يطوف في بلاد العرب والشام ومصر ، كما يطوف الفقراء من العلماء من أهل زمانه ، استقر في بغداد واشتغل بالقضاء : ووهب أربعين عاماً من حياته لكتابة تاريخ عام سماه كتاب أخبار الأمم والملوك قص فيه تاريخ العالم من بدء الخليقة إلى عام ٩١٣ . والجزء الباقي إلى الآن من هذا الكتاب يشمل خمسة عشر مجلداً كبيراً ، ويقول المؤرخون إن ما فقد منه يبلغ عشرة أمثال هذا الجزء الباقي : ويرى الطبري ، كما يرى بوسويه *Boussuet* ، يد الله في كل حادثة تقع في العالم ، وقد ملأ الفصول الأولى من كتابه بعبارات تشهد له بالتقوى ولكنها خالية من المعنى كقوله « في امتحان الله تعالى أبانا آدم عليه السلام وابتلائه إياه بما امتحنه به من طاعته » وبأن الله أنزل على الأرض بيتاً مشيداً من الياقوت ليسكنه آدم ، فلما أن عصى آدم ربه عاد فرفعه عن الأرض^(١٦) . ونهج الطبري نهج التوراة فيما كتبه عن تاريخ اليهود ، وقال إن مريم العذراء ولدت المسيح (وإنها حملت به لأن جبريل نفخ في كمها)^(١٧) . ونختم الجزء الأول من كتابه بصعود المسيح إلى السماء . أما الجزء الثاني فهو أقرب إلى العقل من الجزء الأول ، وفيه يقص تاريخ فارس في عهد الساسانيين قصصاً مقبولة حياً ، ذا روعة في بعض المواضع : ويتبع فيه طريقة إيراد الحوادث مرتبة حسب تواريخ وقوعها عاماً بعد عام ، وهي في العادة مصنفة منقولة من راو عن راو قبله حتى يصل بها إلى من شاهدها بعينه ، أو وقعت في أيامه . وفضل هذه الطريقة أنها تعني بذكر المصادر ؛ ولكن الطبري لا يحاول تنسيق الروايات المختلفة ليكون منها قصة موحدة متصلة ، ولهذا فإن تاريخه يبقى أكاداساً من ثمار الجهد المضني لا عملاً من أعمال الفن .

ويرى المسعودي ، وهو أعظم من جاء بعد الطبري من المؤرخين ، أن الطبري أعظم من سبقه منهم . كان أبو الحسن على المسعودي من أصل عربي في بغداد ؛ وجاب بلاد سوريا ، وفلسطين ، وبلاد العرب ، وزنجبار ، وفارس ، وأواسط آسية ، والهند ، وسرنديب (سيلان) ، بل يقول هو إنه وصل إلى بحر

الصين : وقد جمع ثمار رحلاته هذه في موسوعة تشتمل على ثلاثين مجلداً ،
رآها علماء الإسلام أنفسهم ، وهم المعروفون بغزارة مادتهم ، أطول مما
يطبقون ؛ ثم نشر موجزاً لها كان هو الآخر أطول مما يجب ، ولعله
رأى آخر الأمر أن قراءه لا يجدون من الوقت الذى يصرفونه فى القراءة
مثل ما يجده هو . منه ليصرفه فى الكتابة ، فاختصر كتابه مرة أخرى
إلى الحد الذى نعرفه الآن ونسماه بذلك الاسم الغريب « صروج الذهب
ومعادن الجواهر » . ودرس المسعودى جميع أحوال البلاد الممتدة من الصين
إلى فرنسا من النواحي الجغرافية والنباتية ، والحيوانية ، والتاريخية ،
كما درس عادات أهلها ، وأديانهم ، وعلومهم ، وفلسفتهم ، وآدابهم ،
فكان فى العالم الإسلامى كما كان بلنى وهيرودوت فى العالم الغربى . ولم يوجز
المسعودى فى كتابته إلى الحد الذى يجعلها عقيمة جافة ، بل كان فى بعض
الأحيان يتبسط فيها ، وينطلق على سجيته ، فلا يجاز نفسه عن أن يروى
بين الفينة والفينة قصة ممتعة مسلية . وكان متشككاً بعض الشيء فى الدين ،
ولكنه لم يفرض قط تشككه على قرائه : وقد لخص فى آخر سنة من حياته
آراءه فى العلم ، والتاريخ ، والفلسفة فى كتاب *الاستبصار* لما صر فى *سائر
الأعمار* ، وكتاب *دخائر العلوم وما فى سائر الدهور* . وقد أشار إلى تطور
الكائنات من الجهاد إلى النبات ، ومن النبات إلى الحيوانات ، ومن
الحيوان إلى الإنسان (١٨) . ولعل هذه الآراء قد جرت به إلى المشاكل
مع المحافظين من أهل بغداد ، فاضطر على حد قوله إلى مغادرة
المدينة التى ولد فيها وشب وترعرع ، وجاء إلى القاهرة وهو آسف
على فراق موطنه . وقال فى هذا إن من طبيعة ذلك الزمان أن يفرق الناس
جميعاً ويباعد بينهم . . . وإن الله يبارك للأمم إذا أحب أبناؤها مواطنهم ، وإن

من أمارات التقى والاستقامة أن يمن الإنسان إلى مسقط رأسه ، ومن علامات النبيل وكرم المحمد أن يبغض الانفصال عن داره وموطنه (١٩) .

ووافته المنية في القاهرة بعد عشر سنين قضاهها بعيداً عن بلده .

وخبر ما يقال عن هؤلاء المؤرخين أنهم يفوقون غيرهم في اتساع دائرة جهودهم ، ونواحي نشاطهم ، واهتمامهم ، وأنهم يربطون الجغرافية بالتاريخ ربطاً موفقاً صحيحاً ، وأنهم لا يفوتهم شيء مما يتصل ببنى الإنسان ، وأنهم يعلنون علواً كبيراً على معاصريهم من المؤرخين في العالم المسيحي . ولكنهم مع هذا كله كثيراً ما يضلون في دياجير السياسة ، والحرب ، والبلاغة اللغزية ؛ وقلما يعنون ببحث العلل الاقتصادية ، والاجتماعية ، والنفسانية التي تتحكم في الحوادث ، وإن مجلداتهم الضخمة لتعوزها الطريقة البنائية المنتظمة ، فلسنا نجد فيها إلا أكداً من حقائق غير مرتبطة ولا متناسقة - عن الأمم ، والحداث ، والشخصيات ، وهم لا يرقون إلى مستوى بحث المصادر بحثاً (*) دقيقاً نزيهاً ، ويعتمدون اعتماداً كبيراً ، مصدره شدة تقواهم واستمسكهم بالدين ، على الإجماع وتسلسل الروايات تسلسلاً قد تكون حلقة من حلقاته خاطئة أو مخادعة . ومن أجل هذا تهبط قصتهم في بعض الأحيان إلى مستوى أقاصيص الأطفال ، وتمتلئ بالندر ، وأخبار المعجزات ، وبالأساطير . وكما أن في وسع كثيرين من المؤرخين المسيحيين (مع استثناء جين Gibbon على الدوام) أن يكتبوا تاريخ العصور الوسطى ، بحيث يجعلون الحضارة الإسلامية كلها ذيلاً موجزاً للحروب الصليبية ، كذلك اقتضب كثير من المؤرخين المسلمين تاريخ العالم قبل الإسلام فجعلوه كله يدور حول الاستعداد لرسالة النبي محمد : على أننا نعود فنسأل أنفسنا كيف يستطيع العقل الغربي أن يصدر

(*) لا شك أن الكاتب ينظر إلى هؤلاء المؤرخين بعين هذه الأيام ويقيسهم بمؤرخي

القرن العشرين . (المترجم)

على الشرقى حكماً صحيحاً نزيهاً ؟ إن اللغة العربية تفقد جمالها في الترجمة كما تفقد الزهرة جمالها إذا انتزعت من شجرتها ، وإن الموضوعات التي تمتلئ بها صحائف المؤرخين المسلمين ، وهي التي تبدو ذات روعة وجمال لبني أوطانهم ، لتبدو مملة خالية من المتعة الطبيعية للقراء من أهل الغرب الذين لم يدركوا حتى الآن أن الصلات الاقتصادية بين الشعوب واعتماد بعضها على بعض يتطلبان أن يدرس كلاهما الآخر ويفهمه حق الفهم .

الفصل الثاني

العلوم (*)

لم يدخر المسلمون في هذه القرون المحيطة من تاريخ الحياة الإسلامية جهداً في العمل على إيجاد هذا التفاهم الذي أشرنا إليه في الفصل السابق ؟ فلقد أدرك الخلفاء تأخر العرب في العلم والفلسفة كما أدركوا ما خلفه اليونان من ثروة علمية غزيرة في بلاد الشام . لقد كان بنو أمية حكماء إذ تركوا المدارس الكبرى المسيحية ، أو الصابئية ، أو الفارسية ، قائمة في الإسكندرية ، وبيروت ، وأنطاكية ، وحران ، ونصيبين ، وغنديسابور لم يمسوها بأذى ، وقد احتفظت هذه المدارس بأمهات الكتب في الفلسفة والعلم ، معظمها في ترجمته السريانية . واستهوت هذه الكتب المسلمين العارفين باللغتين السريانية واليونانية ، وما لبثت أن ظهرت ترجماتها إلى اللغة العربية على أيدي النساطرة المسيحيين أو اليهود . وشجع الأمراء من بني أمية وبني العباس هذه الاستدانة العلمية المثمرة ، وأرسل المنصور ، والمأمون ، والمتوكل الرسل إلى القسطنطينية وغيرها من المدن الهلنستية - وأرسلوهم في بعض الأحيان إلى أباطرة الروم أعدائهم الأقدمين - يطلبون إليهم أن يمدوهم بالكتب اليونانية ، وخاصة كتب الطب أو العلوم الرياضية . وبهذه الطريقة وصل كتاب إقليدس في الهندسة إلى أيدي المسلمين . وأنشأ المأمون في بغداد عام ٨٣٠ بيت الحكمة وهو مجمع علمي ، ومرصد فلكني ، ومكتبة عامة ،

(*) واجب على كل كاتب عن العلوم عند المسلمين أن يسجل ما هو مدين به إلى جورج سارتن Geroge Sarton صاحب كتاب « المدخل في تاريخ العلوم » . فليس هذا الكتاب القيم من أجل الأعمال في تاريخ البحث العلمي فحسب ، بل لأنه فوق ذلك قد أدى خدمة تجل عن التقدير إذ كشف عن غنى الثقافة الإسلامية واتساع مداها ، وإن العلماء في كل مكان ليرجون من صميم قلوبهم أن يقدم كل ما استطاع تقديمه من المعونة لإتمام هذا العمل الجليل .

وأنفق في إنشائه مائتي ألف دينار (نحو ٩٥٠,٠٠٠ ريال أمريكي) . وأقام فيه طائفة من المترجمين وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال. ويقول ابن خلدون^(٢٠) إن الإسلام مدين إلى هذا المعهد العلمى باليقظة الإسلامية الكبرى التي اهتزت بها أرجاؤه والتي تشبه في أسبابها - وهي انتشار التجارة ، وإعادة كشف كنوز اليونان - وفي نتائجها - وهي ازدهار العلوم والفنون - نقول إنها تشبه في أسبابها ونتائجها النهضة الأوربية التي أعقبت العصور الوسطى :

ودامت هذه الأعمال ، أعمال الترجمة المخصبة المثمرة ، من عام ٧٥٠ إلى ٩٠٠ ، وفي هذه الفترة عكف المترجمون على نقل أمهات الكتب من السريانية ، واليونانية ، والفهلوية ، والسنسكريتية . وكان على رأس أولئك المترجمين المقيمين في بيت الحكمة طيبب نسطورى هو حنين بن إسحق (٨٠٩ - ٨٧٣) : وقد ترجم وحده - كما يقول هو نفسه - إلى اللغة السريانية مائة رسالة من رسائل جالينوس ومدرسته العلمية ، وإلى اللغة العربية تسعا وثلاثين رسالة أخرى . وبفضل ترجمته هذه نجت بعض مؤلفات جالينوس من الفناء . وترجم حنين فضلا عن تلك الرسائل السالفة الذكر كتب المقولات (ويذكره العرب باسم قاطيغورياس) والطبيعة ، والأخلاق الكبرى لأرسطو ، وكتب الجمهورية ، وطيمائوس ، والقوانين لأفلاطون ؛ وعهد أبقرط ، وكتاب الأقرباذين لديوسقوريدس Dioscorides . وكتاب الأربعة لبطليموس ، وترجم العهد القديم من الترجمة السبعينية اليونانية . وكاد المأمون أن يفلس بيت المال حين كافأ حنين على عمله هذا بمثل وزن الكتب التي ترجمها ذهباً ، ولما ولي الخلافة المتوكل عينه طبيباً لبلاطه ، ولكنه زج به سنة في السجن حين أبى أن يركب له دواء يقضى به على حياة عدو له مع أن الخليفة أنذره بالموت إن لم يفعل . وكان ابنه إسحق بن حنين يساعد أباه في أعمال الترجمة ، ونقل هو إلى اللغة العربية من كتب أرسطو

كتب الميتافيزيقا ، والنفس ، وفي نواتج الحيوانات وفسادها كما نقل إليها شروح الإسكندر الأفروديسي ، وهو كتاب كان له أثر كبير في الفلسفة الإسلامية .

ولم يجل عام ٨٥٠ بعد الميلاد حتى كانت معظم الكتب اليونانية القديمة في علوم الرياضة ، والفلك ، والطب قد ترجمت إلى اللغة العربية . وعن طريق الترجمة العربية أطلق اسم المحسطن على كتاب بطليموس في الفلك ، وبفضل الترجمة العربية دون غيرها بقيت للعالم المقولات ٥ ، ٦ ، ٧ من المحرقات لأبولونيوس البرجاوي Apollonius of Perga وكتاب الجبل لهيرو الإسكندري وكتاب الخصائص الأولية للهواء والغازات لفيلون البيزنطي . ومن أغرب الأشياء أن المسلمين رغم ولعلمهم الشديد بالشعر والتاريخ قد أغفلوا الشعر اليوناني والمسرحيات اليونانية وكتب التاريخ اليونانية ، فقد سار المسلمون في ركاب الفرس في هذه النواحي من النشاط العلمي والأدبي بدل أن يسبوا في ركاب اليونان . وكان من سوء حظ الإسلام والإنسانية عامة أن كتب أفلاطون وأرسطو نفسه لم يصل معظمها إلى أيدي المسلمين إلا في الصورة التي أصبحت عليها أيام الأفلاطونية الحديثة : فقد وصلت إليها كتب أفلاطون كما فسرها پورفيرى Porphyry ، ووصلت كتب أرسطو ممسوخة في صورة كتاب اللاهوت المعروف عند الإسلاميين بأوثولوجيا أرسطوطاليس ، وقد ألفه رجل من أتباع الأفلاطونية الحديثة عاش في القرن الخامس أو السادس ، ثم ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية على أنه كتاب أرسطو نفسه . ولم يكده العرب يتركون كتاباً من كتب أرسطو وأفلاطون إلا ترجموه إلى اللغة العربية ، وإن كانت هذه التراجم غير دقيقة في كثير من المواضع ؛ ولكن العلماء المسلمين حاولوا أن يوفقوا بين الفلسفة اليونانية والقرآن ، ولجأوا إلى الشروح التي كتبها رجال الأفلاطونية الحديثة أكثر مما لجأوا إلى كتب الفلاسفة اليونان في صورتها الأصلية . ولهذا لم يصل من كتب أرسطو

الحقبة إلى أيدي المسلمين إلا ما كان منها في المنطق وعلم الطبيعة .

وإن انتقال العلوم والفلسفة انتقالاً مستمراً من مصر ، والهند ، وبابل ، عن طريق بلاد اليونان وبيزنطية ، إلى بلاد الإسلام في الشرق وفي أسبانيا ، ومنها إلى شمالي أوروبا وأمريكا ، نقول إن هذا الانتقال لمن أجل الحوادث وأعظمها شأنًا في تاريخ العالم . لقد كانت علوم اليونان حية في بلاد الشام حين أقبل عليها العرب فاتحين ، وإن كانت هذه العلوم قد ضعف شأنها بسبب ما اكتشفها قبلئذ من غموض وما ساد البلاد من فقر وفساد في الحكم . وكان الراهب سفيرس سبخت Severus Sobokht رئيس دير قنسرين لإحدى مدن أعلى الفرات يكتب باليونانية رسائل في الفلك ، ويذكر لأول مرة الأرقام الهندية في خارج بلاد الهند . (٦٦٢) . لقد ورث المسلمون عن اليونان معظم ما ورثوه من علوم الأقدمين ، وتأتى الهند في هذا في المرتبة الثانية بعد بلاد اليونان . ففي عام ٧٧٣ أمر المنصور بترجمة السرهشتا وهي رسائل هندية في علم الفلك يرجع تاريخها إلى عام ٤٢٥ ق . م . وربما كانت هذه الرسائل هي الوسيلة التي وصلت بها الأرقام « العربية » (*) والصفير من بلاد الهند إلى بلاد الإسلام (٢١) . ففي عام ٨١٣ استخدم الخوارزمي الأرقام الهندية في جداوله الرياضية ؛ ثم نشر في عام ٨٢٥ رسالة تعرف في اللاتينية باسم *Algoritmi de numero Indorum* « أي الخوارزمي عن أرقام الهنود » . وما لبث لفظ الجورثم أو الجورسم أن أصبح معناه طريقة حسابية تقوم على العدّية العشرية . وفي عام ٩٧٦ قال محمد بن أحمد في مفاتيح العلوم إنه إذا لم يظهر في العمليات الحسابية رقم في مكان العشرات وجب أن توضع دائرة صغيرة مساواة الصفوف (٢٢) . وسمى المسلمون هذه الدائرة « صفراً »

(*) يسمى الإفرنج هذه الأرقام بالعربية لأنهم أخذوها من العرب ولكن العرب أنفسهم يسمونها بالأرقام الهندية لأنهم أخذوها عن الهنود . (المترجم)

أى خالية ومنها اشتقت الكلمة الإنجليزية CIPHER ؛ وحوار العلماء اللاتين لفظ صفر Sifr إلى Zephyrum ثم اختصره الطليان إلى Zero .

ويدين علم الجبر ، الذى نجد أصوله فى مؤلفات ديوفانتوس Diophantus اليونانى من رجال القرن الثالث ، باسمه إلى العرب ، الذين ارتقوا بهذا العلم الكاشف للخبايا الحلال للمعضلات . وأبرز الشخصيات فى هذا الميدان العلمى هى شخصية محمد بن موسى (٧٨٠ - ٨٥٠) المعروف بالخوارزمى نسبة إلى مسقط رأسه فى خوارزم (خيوة الحديثة) الواقعة شرقى بحر الخزر ، وقد كتب الخوارزمى رسائل قيمة فى علوم خمسة : كتب عن الأرقام الهندية ، وجمع أزياباً فلكية ، ظلت قرونًا كثيرة بعد أن روجعت فى بلاد الأندلس الإسلامية هى المعمول بها فى جميع البلاد الممتدة من قرطبة إلى شنغان فى الصين ؛ وهو الذى وضع أقدم الجداول المعروفة فى حساب المثلثات ، واشترك مع تسعة وثلاثين من العلماء فى وضع موسوعة جغرافية للخليفة المأمون ، وأورد فى كتابه حساب الجبر والمقابلة حلولاً تحليلية وهندسية لمعادلات الدرجة الثانية . ولقد ضاع الأصل العربى لهذا الكتاب ، لكن جرارد الكريمونائى Gerard of Cremona ترجمه فى القرن الثانى عشر . وظلت ترجمته تدرس فى الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر ، ومنه أخذ الغرب كلمة الجبر وسموا بها ذلك العلم المعروف . واشتهر ثابت بن قرة (٨٢٦ - ٩٠١) ، فضلاً عما ترجمه من الكتب الكثيرة ، بمؤلفاته فى الفلك والطب ، وأصبح أعظم علماء الهندسة المسلمين . وارتقى أبو عبد الله البتانى (٨٥٠ - ٩٢٩) وهو رجل صابى من الرقة يعرف عند الأوربيين باسم البتجنس Albatagnus ، بعلم حساب المثلثات إلى أبعد من مبادئه التى كان عليها فى أيام هيارخوس وبطلميوس ، وذلك حين استبدل المثلثات بالمربعات فى حل المسائل ، واستبدل جيب الزاوية بالقوس كما كان يفعل هيارخوس . وهو الذى صاغ

حساب المثلثات النسب بالصورة التي نستخدمها الآن في جوهرها .
واستخدم المأمون جماعة من الفلكيين ليرصدوا الأجرام السماوية
ويسجلوا نتيجة هذه الأرصاد ، وليحققوا كُشوف بطليموس الفلكي ،
ويدرسوا كلف الشمس . واتخذوا كرية الأرض أساساً بدءوا منه بقياس
الدرجة الأرضية بأن رصدوا موضع الشمس من تدمر وسنجار في وقت
واحد . وتوصلوا من هذا الرصد إلى تقدير الدرجة بستة وخمسين ميلا
وثلاثي ميل - وهو تقدير يزيد بنصف ميل على تقديرنا في الوقت الحاضر .
ومن هذه النتائج قدروا محيط الأرض بما يقرب من عشرين ألف ميل .
ولم يكن هؤلاء الفلكيون يقبلون شيئاً إلا بعد أن تثبته الخبرة والتجارب
العلمية ، وكانوا يسرون في بحوثهم على قواعد علمية خالصة ، وكتب أحدهم
- الفرغاني من أهل فرغانة وهي ولاية وراء جيحون (حوالي عام ٨٦٠) -
كتاباً في الفلك ظل مرجعاً تعتمد عليه أوروبا وغربي آسيا سبعمائة عام . وأوسع
منه شهرة البتاني الذي ظل واحداً وأربعين عاماً يقوم بأرصاد فلكية اشتهرت
بدقتها واتساع مداها . وقد وصل بهذه الأرصاد إلى كثير من « المعاملات »
الفلكية تمتاز بقربها العجيب من تقديرات هذه الأيام - منها تقديره
زيوح الاعتدالين (*) به ٤٥٥ في العام ، وميل مستوى الفلك بـ ٥٥°
٢٣ (٢٣) . ومنهم أبو الوفا الذي كان يعمل تحت رعاية سلاطين بني بويه
الأوليين حكام بغداد والذي كشف (كما يقول سادلر Sadilot وإن كان
قوله لا يزال مثاراً للجدل) الانحراف الثالث للقمر قبل أن يكشفه نيكو
براهي Tycho Brahe بستائة عام (٢٤) . وقد أقيمت للفلكيين المسلمين آلات
غالية الثمن لم تقتصر على الاسطرلاب ، والكرات ذوات الحلق التي
كانت معروفة لليونان الأقدمين ، بل كانت تشمل كذلك آلات
لقياس الزوايا يبلغ نصف قطرها ثلاثين قدماً ، وآلات سدس نصف قطرها
ثمانون قدماً . وقد أدخل المسلمون على الاسطرلاب تحسينات كثيرة ،

ووصل منهم إلى أوروبا في القرن العاشر الميلادي ، وظل شائع الاستعمال بين الملاحين حتى القرن السابع عشر . وقد صوره العرب وأبدعوا صنعه ، حتى أصبح بفضلهم أداة علمية وتحفة فنية معاً .

وهذا الاهتمام العظيم بتصوير السماء قد فاقه اهتمامه بتصوير أقاليم الأرض لأن المسلمين كانوا يعيشون على فلح الأرض وعلى التجارة في أقاليمها المختلفة . فقد حمل سليمان التاجر - الذي عاش حوالي عام ٨٤٠ سلعه إلى بلاد الشرق الأقصى ، وكتب أحد المؤرخين غير المعروفين (٨٥١) وصفاً لرحلة سليمان هذا ، كان هو أقدم وصف عربي لبلاد الصين ، وكتبه قبل رحلت ماركو پولو Marco Polo بأربعمئة وخمسة وعشرين عاماً . وفي ذلك القرن نفسه كتب ابن خردذبه وصفاً لبلاد الهند ، وسيلان ، وجزائر الهند الشرقية ، وبلاد الصين ، ويبدو أنه اعتمد فيما كتب على رحلاته في تلك البلاد وما شاهده فيها بنفسه . ووصف ابن حوقل بلاد الهند وإفريقية ، وكتب أحمد يعقوبى ، من أهل أرمينية وخراسان في عام ٨٩١ كتاب البلدان الذى وصف فيه الأقطار والمدن الإسلامية وكثيراً من الدول الأجنبية وصفاً خليقاً بالثقة . وزار محمد المقدسى جميع البلاد الإسلامية فضلاً عن بلاد الأندلس ، ولاقى في أثناء رحلاته كثيراً من الشدائد ، ثم كتب عام ٩٨٥ كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، وهو أعظم كتاب في جغرافية البلاد الإسلامية قبل كتاب البيرونى عن الهند :

ويمثل أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى (٩٧٣-١٠٤٨) العالم الإسلامى فى أحسن صورة له . فقد كان البيرونى فيلسوفاً ، ومؤرخاً ، ورحالة ، وجغرافياً ، ولغوياً ، ورياضياً ، وفلكياً ، وشاعراً ، وعالمًا فى الطبيعيات - وكانت له مؤلفات كبيرة وبحوث عظيمة مبتكرة فى كل ميدان من هذه الميادين . وكان عند المسلمين كما كان ليبنتز ، ويوشك أن يكون كما كان ليوناردو دافنشى ، عند

الغريبين : وقد ولد كما ولد الخوارزمي بالقرب من مدينة جنوى الحالية ، وتمثل فيه: كما تمثل في الخوارزمي زعامة موطنه في غرب بحر قزوين من الناحية العلمية في هذه الأعوام المائة من العصور الوسطى التي باغ فيها العلم ذروته . وعرف أمراء خوارزم وطبارستان فضله وأدركوا عظم مواهبه فأفردوا له مكاناً في بلاطهم . وسمع محمود الغزنوي بكثرة من كان في خوارزم من الشعراء والفلاسفة ، فطلب إلى أميرها أن يبعث إليه بالبيروني ، وابن سينا ، وغيرهما من العلماء ؛ وأدرك الأمير أن هذا أمر واجب الطاعة (١٠١٨) ، وسافر البيروني ليحيا حياة الجهد والهدوء والعزة والكرامة في بلاد الملوك المحارب فاتح الهند . ولعل البيروني قد دخل الهند في ركاب محمود نفسه ، وسواء كان هذا أو لم يكن فقد أقام العالم الفيلسوف في الهند عدة سنين درس فيها لغة البلاد وآثارها القديمة ، ثم عاد إلى بلاط محمود وأصبح فيه من أعظم المقربين لهذا الحاكم المطلق الذي لا يستطيع الكاتب رسم صورة صادقة له . ويقال إن رجلاً من شمالي آسية زار محموداً ووصف له إقليما ادعى أنه رآه بعينه ، وقال إن الشمس تظل فيه عدة أشهر لا تغيب أبداً . ولم يصدق محمود هذا القول ، وغضب على الرجل وأوشك أن يزرجه في السجن لجرأته على المزاح معه وهو صاحب الحول والطول ، فما كان من البيروني إلا أن شرح هذه الظاهرة شرحاً أقتنع به الملك وأنجى الزائر (٣٦) . وكان مسعود بن محمود من الهواة المولعين بالعلم فأخذ يفتح البيروني بالهدايا والأموال ، وكثيراً ما كان البيروني نفسه يردّها إلى بيت المال لزيادتها على حاجته .

وكان أول مؤلفاته الكبرى رسالة علمية فنية عميقة تعرف باسم الآثار الباقية في التقويم والأعياد عند الفرس ، وأهل الشام ، واليونان ، واليهود ، والمسيحيين ، والصابئين ، والزرذشتيين ، والعرب . والكتاب دراسة نزيهة إلى درجة غير مألوفة ، مبرأة إلى أقصى حد من الأحقاد الدينية . وكان البيروني يميل إلى مذهب الشيعة ، وكان ذا نزعة متشككة خالية من المباهاة والادعاء ؛ غير أنه ظل يحتفظ

يقسط من الوطنية الفارسية ، وأنحى باللائمة على العرب لفضائهم على ما كان في العهد الساساني من حضارة عظيمة^(٢٧) . أما فيما عدا هذا فقد كان موقفه موقف العالم صاحب النظرة الموضوعية ، المجد في البحث العلمي ، النقادة للروايات المتواترة والنصوص (بما فيها نصوص الإنجيل) ، المدقق ، النزيه ، ذى الضمير الحى في أحكامه ، وكثيراً ما كان يعترف بجهله ، ويعد بأن يواصل بحوثه حتى تنكشف له الحقيقة . وقد قال في مقدمة الآثار الباقية مثل ما قال فرانسس بيكن في بعض كتبه « . . . بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الخلق ، والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهى كالعادة المألوفة ، والتعصب ، والتظاهر ، واتباع الهوى ، والتغلب بالرياسة ، وأشبه ذلك وبغير ذلك ، لا يتأتى لنا نيل المطلوب ولو بعد العناء الشديد والجهد الجهد » .

وبينا كان مضيفه يغزو الهند ويدمر مدنها ، كان البيرونى يقضى السنين الطوال في دراسة شعوبها ، ولغاتهم ، وأديانهم ، وثقافتهم ، ومختلف طوائفهم . وأثمرت هذه الدراسة كتابه تاريخ الهند الذى نشره في عام ١٠٣٠ والذى يعد أعظم مؤلفاته . وقد ميز فيه منذ البداية بين ما شاهده بعينه وما سمعه من غيره ، وذكر أنواع الكذابين الذين ألفوا كتباً في التاريخ^(٢٨) . ولم يخص تاريخ الهند السياسى إلا بحيز صغير في كتابه ولكنه خص أحوال الهند الفلكية باثنين وأربعين فصلاً من فصوله وخص أديانها بأحد عشر . وكان من أهم ما سحر لبه البهاجا فاد هيتا وأدرك ما بين تصوف القداننا ، والصوفية ، والفيثاغورية الحديثة ، والأفلاطونية الحديثة من تشابه . وأورد مقتطفات من كتابات مفكرى الهنود ، ووازن بينها وبين مقتطفات شبيهة بها من كتابات فلاسفة اليونان ، وفضل آراء اليونان عن آراء الهنود ، وكتب يقول إن الهند لم ينبغ فيها رجل كسقراط ، ولم تظهر فيها طريقة منطقية تطهر العلم من الأوهام^(٢٩) . ولكنه رغم هذا ترجم إلى اللغة العربية عدداً من المؤلفات السنسكريتية ، وكأنما أراد أن يوفى بدينه للهند (١٤ - ج ٢ - مجلد ٤)

فترجم إلى السنسكريتية كتاب أصول الهندسة لإقليدس والمجسطى لبطليموس .

وكادت عنايته تشمل جميع العلوم ، فقد كتب عن الأرقام الهندية أوفى بحث في العصور الوسطى ؛ وكتب رسالة عن الاسطراب ، ودائرة فلك البروج ، وذات الحلق ، ووضع أزياجا فلكية للسلطان محمود . ولم يكن يخالجه أدنى شك في كرية الأرض ، ولاحظ أن كل الأشياء تنجذب نحو مركزها ، وقال إن الحقائق الفلكية يمكن تفسيرها إذا افترضنا أن الأرض تدور حول محورها مرة في كل يوم ، وحول الشمس مرة في كل عام ، بنفس السهولة التي تفسر بها إذا افترضنا العكس (٣٠) . وقال إن وادي نهر السند ربما كان في وقت من الأوقات قاع بحر (٣١) ، وألف كتاباً ضخماً في الحجارة وصف فيه عدداً عظيماً من الأحجار والمعادن من النواحي الطبيعية وشرح قيمتها التجارية والطبية . وعين الكثافة النوعية لثمانية عشر نوعاً من أنواع الحجارة الكريمة ، ووضع القاعدة التي تنص على أن الكثافة النوعية للجسم تناسب مع حجم الماء الذي يزيغه (٣٢) . وتوصل إلى طريقة لحساب تكرار تضعيف العدد دون الإلتجاء إلى عمليات الضرب والجمع الطويلة الشاقة ، كما تحدث في القصة الهندية عن مربعات لوحة الشطرنج وحيات الرمل . ووضع في الهندسة حلولاً لنظريات سميت فيما بعد باسمه . وألف موسوعة في الفلك ، والتنجيم ، والعلوم الرياضية ؛ وشرح أسباب خروج الماء من العيون الطبيعية والآبار الارتوازية بنظرية الأواني المستطقة (٣٣) . وألف تواريخ حكم السلطان محمود ، وسبكتجين ، وتاريخاً لحوارزم . ويطلق عليه المؤرخون الشرقيون اسم الشيخ ، وكأنهم يعنون بذلك أنه شيخ العلماء . وإن كثرة مؤلفاته في الجليل الذي ظهر فيه ابن سينا ، وابن الهيثم ، والفردوسي لتدل على أن الفترة الواقعة في أواخر القرن العاشر وبداية القرن الحادى عشر هي التي بلغت فيها الثقافة الإسلامية ذروتها ، وهي التي وصل فيها الفكر في العصور الوسطى إلى أعلى درجاته .

ويكاد المسلمون يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علماً من العلوم ؛ ذلك أن المسلمين أدخلوا الملاحظة الدقيقة ، والتجارب العلمية ، والعناية برصد نتائجها في الميدان الذي اقتصر فيه اليونان - على ما نعلم - على الخبرة الصناعية والفروض الغامضة . فقد اخترعوا الأنبيق وسموه بهذا الاسم ، وحلوا عدداً لا يحصى من المواد تحليلاً كيميائياً ، ووضعوا مؤلفات في الحجارة ، وميزوا بين القلويات والأحماض ، وفحصوا عن المواد التي تميل إليها ، ودرسوا مئآت من العقاقير الطبية ، وركبوا مئآت منها(*) . وكان علم تحويل المعادن إلى ذهب ، الذي أخذه المسلمون من مصر هو الذي أوصلهم إلى علم الكيمياء الحق ، عن طريق مئآت الكشوف التي تبينوها مصادفة ، وبفضل الطريقة التي جروا عليها في اشتغالهم بهذا العلم وهي أكثر طرق العصور الوسطى انطباقاً على الوسائل العلمية الصحيحة . ويكاد المشتغلون بالعلوم الطبيعية من المسلمين في ذلك الوقت يجمعون على أن المعادن كلها تكاد ترجع في نهاية أمرها إلى أصول واحدة ، وأنها لهذا السبب يمكن تحويل بعضها إلى البعض الآخر . وكان الهدف الذي يبغيه الكيميائيون هو أن يحولوا المعادن « الحسيسة » كالحديد ، أو النحاس ، أو الرصاص ، أو القصدير إلى فضة ، أو ذهب . وكان حجر الفلاسفة عندهم مادة - يدأبون على البحث عنها ولا يصلون إليها - إذا عولجت بها تلك المعادن العلاج الصحيح ، حدث فيها التغير المطلوب . وكان الدم ، والشعر ، والبراز ، وغيرها من المواد تعالج « بكواشف » متنوعة ، وتعرض لعمليات التكليس ، والتصعيد ، وللضوء ، والنار ، عليها أن يكون فيها ذلك الإكسير السحري^(٣٦) . وكان الاعتقاد السائد أن الذي يستحوذ على هذا الإكسير يستطيع إذا شاء أن

(*) الكحول كلمة عربية ولكن هذه المادة ليست من مخترعات العرب . وقد ذكر أول ما ذكر في مؤلف إيطالي ظهر في القرن التاسع أو العاشر (٣٥) الميلادي ، وكان الكحل عند المسلمين مسحوقاً تظلي به الحواجب .

يطيل حياته : وكان أشهر الكيمائيين المسلمين جابر بن حيان (٧٠٢ - ٧٦٥) المعروف عند الأوربيين باسم جبير Gebir . وكان جابر ابن عقار كوفى ، اشتغل بالطب ، ولكنه كان يقضى معظم وقته مع الأنايىق والبوادق . ويعزو إليه المؤرخون مائة من المؤلفات أو أكثر من مائة ، ولكنها فى الواقع من عمل مؤلفين مجهولين عاش معظمهم فى القرن العاشر : وقد ترجم كثير من هذه المؤلفات التى لا يعرف أصحابها إلى اللغة اللاتينية وكان لها الفضل فى تقدم علم الكيمياء فى أوربا : وحل السحر بعد القرن العاشر محل الكيمياء كما حل محل غيرها من العلوم ، وقضى ذلك العلم بعدئذ ثلثائة عام لا يرفع فيها رأسه .

وليس لدينا إلا القليل من بقايا علم الأحياء عند المسلمين فى ذلك العصر . ومن هذه الآثار كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى الذى رجع فيه إلى مؤلفات ديوسقوريدس ولكنه أضاف فيه إلى علم الصيدلة عقاير أخرى كثيرة . وقد عرف علماء الأحياء المسلمون طريقة إنتاج فواكه جديدة بطريق التطعيم ، وجمعوا بين شجرة الورد وشجرة اللوز ، وأوجدوا بذلك التطعيم أزهاراً نادرة جميلة المنظر^(٣٧) : وشرح عثمان بن عمر الجاحظ (المتوفى سنة ٨٦٩) نظرية فى التطور شبيهة بنظرية المسعودى فقال إن الحياة قد ارتقت من الجهاد إلى النبات ، ومن النبات إلى الحيوان ، ثم من الحيوان إلى الإنسان^(٣٨) : واعتنق الشاعر الصوفى جلال الدين هذه النظرية ، ولم يضيف إليها إلا قوله إنه إذا كان هذا مستطاعاً فى الماضى ، فإن الناس فى المرحلة الثانية سيصيحون ملائكة ثم يرقون إلى مرتبة الإله^(٣٩) .

الفصل الثالث

الطب

وما فقى الناس في هذه الأثناء يحمون الحياة ، وينفقون الأموال الطائلة في تأخير ساعة الموت ، وإن كانوا دائمى الاقتراء عليها والتنديد بها . ولم يكن العرب حين دخلوا بلاد الشام يعرفون من الطب إلا معلومات بدائية ، ولم يكن لديهم من الأدوات والأجهزة الطبية إلا القليل الذى لا يغنى . فلما أن ازدادت الثروة نشأت في الشام وفارس طائفة من الأطباء ، واسعة العلم ، عظيمة المقدرة ، أو استقدمت من بلاد اليونان والهند . . . وإذ كان المسلمون يستنكفون من تشريح الأجسام الحية . أو جثث الموتى فإن علم التشريح عند المسلمين قد اقتصر على ما جاء في كتب جالينوس ، أو على دراسة الجرحى من الناس ؛ ومن أجل هذا كان أضعف فروع الطب الإسلامى هو الجراحة ، وكان أقواها هو الطب العلاجى وخواص العقاقير الطبية . وقد أضاف العرب إلى علم الأقرباذين العنبر ، والكافور ، وخيار الشنبر ، والقرنفل العطرى ، والزئبق ، والسنالكى ، والمر ، وأدخلوا في الأدوية مستحضرات طبية جديدة - منها أنواع الشراب ، والجلاب ، وماء الورد وما إليها . وكان من أهم الأعمال التجارية بين إيطاليا والشرق الأدنى استيراد العقاقير العربية . وكان المسلمون أول من أنشأ مخازن الأدوية والصيدليات ، وهم الذين أنشأوا أول مدرسة للصيدلة ، وكتبوا الرسائل العظيمة في علم الأقرباذين . وكان الأطباء المسلمون عظيمى التحمس في دعوتهم إلى الاستحمام ، وخاصة عند الإصابة بالحُميات^(٤٦) ، وإلى استخدام حمام البخار ؛ ولا يكاد الطب الحديث يزيد شيئاً على ما وصفوه من العلاج للجدرى والحصبة ؛ وقد استخدموا التخدير بالاستنشاق في بعض العمليات الجراحية^(٤٧) ؛ واستعانوا بالحشيش وغيره من

المخدرات على النوم العميق^(٢٣) ، ولدينا أسماء أربعة وثلاثين بيمارستانا كانت قائمة في البلاد الإسلامية في ذلك الوقت^(٢٤) ، ويلوح أنها أنشئت على نمط المجمع العلمي والمستشفى الفارسي الذي كان في جنديسابور ، وأنشئ أول بيمارستان معروف لنا في بغداد في أيام هرون الرشيد ، ثم أنشئت فيها خمسة أخرى في القرن العاشر الميلادي ، ويحدثنا المؤرخون في عام ٩١٨ عن مدير لها في بغداد^(٢٥) : وكان أعظم بيمارستانات بلاد الإسلام على بكرة أبيها هو البيمارستان الذي أنشئ في دمشق عام ٧٠٦ ، وفي عام ٩٧٨ كان به أربعة وعشرون طبيباً . وكانت البيمارستانات أهم الأماكن التي يدرس فيها الطب ، ولم يكن القانون يميز لإنسان أن يمارس هذه الصناعة إلا إذا تقدم إلى امتحان يعقد لهذا الغرض ونال إجازة من الدولة . كذلك كان الصيادلة ، والحلاقون ، والمجبرون يخضعون لأنظمة تضعها الدولة وللتفتيش على أعمالهم . وقد نظم على ابن عيسى الوزير - الطبيب - هيئة من الأطباء الموظفين يطوفون في مختلف البلاد ليعالجوا المرضى (٩٣١) ، وكان أطباء يذهبون في كل يوم إلى السجون ليعالجوا نزلاءها ، وكان المصابون بأمراض عقلية يلقون عناية خاصة ويعالجون علاجاً يمتاز بالرحمة والإنسانية . غير أن الوسائل الصحية العامة لم تلق في معظم الأماكن ما هي خليقة به من العناية ، ودليلنا على ذلك أن أربعين وباء اجتاحت في أربعة قرون هذا البلد أو ذلك من بلاد الإسلام .

وكان في بغداد وجدها عام ٩٣١ ثمانمائة وستون طبيباً مرخصاً^(٢٦) . وكانت أجورهم ترتفع بنسبة قربهم من بلاط الخلفاء . فقد جمع جبريل بن بختيشوع طبيب هرون الرشيد ، والمأمون ، والبرامكة ثروة يبلغ مقدارها ٨٨٠٠٠٠٠٠ درهم أي نحو ٧١٠٤٠٠٠٠ دولار أمريكي) ، ويحدثنا المؤرخون أنه كان يتقاضى من الخليفة مائة ألف درهم نظير حجامته مرتين في العام ، ومثل هذا المبلغ لإعطائه مسهل كل نصف عام^(٢٧) . وقد نجح في علاج الشلل المستعصي في جارية

بأن تظاهر بأنه سيخلع عنها ملابسها أمام الناس . وجاء بعد جبريل في بلاد الإسلام الشرقية عدد من الأطباء كل منهم بعد الآخر ، نذكر منهم يوحنا ابن ماسويه (٧٧٧ - ٨٥٧) ، الذى درس التشريح بتقطيع أجسام القردة ، ومنهم حنين بن إسحاق ، المترجم ، صاحب كتاب العسر مقالوت في العين ، وهو أقدم كتاب دراسى منظم في طب العيون ؛ وعلى بن عيسى أعظم أطباء العيون المسلمين ، وقد ظل كتابه تذكرة السكاليين يدرس في أوربا حتى القرن الثامن عشر .

وأشهر أطباء هذه الأسرة الرحيمة على بكرة أبيها هو أبو بكر محمد الرازى (٨٤٤ - ٩٢٦) اشتهر بين الأوربيين باسم رازيس Rhases . وكان أبو بكر كعظم كبار العلماء والشعراء في وقته فارسياً يكتب بالعربية . وكان مولده في بلدة الرى القريبة من طهران ، ودرس الكيمياء بنوعها ، والطب في بغداد ، وألف ١٣١ كتاباً نصفها في الطب ، ضاع معظمها . ومن أشهر كتبه كتاب الحاوى وهو كتاب في عشرين مجلداً ، ويبحث في كل فرع من فروع الطب . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية وسمى Liber continens ، وأغلب الظن أنه ظل عدة قرون أعظم الكتب الطبية مكانة ، وأهم مرجع لهذا العلم في بلاد الرجل الأبيض ، وكان من الكتب التسعة التى تتألف منها مكتبة الكلية الطبية في جامعة باريس عام ١٣٩٤ (٤٨) . وكانت رسالته في الجدرى والحصبة آية في الملاحظة المباشرة والتحليل الدقيق ، كما كانت أولى الدراسات العلمية الصحيحة للأمراض المعدية ، وأول مجهود يبذل للفرقة بين هذين المرضين . وفى وسعنا أن نحكم على ما كان لهذه الرسالة من بالغ الأثر واتساع الشهرة إذا عرفنا أنها طبعت باللغة الإنجليزية أربعين مرة بين عامى ١٤٩٨ ، ١٨٦٦ . وأشهر كتب الرازى كلها كتاب طبى في عشر مجلدات يسمى كتاب المنصورى

أهداه إلى أحد أمراء خراسان . وقد ترجمه جرار الكريموني إلى اللغة اللاتينية . وظل المجلد التاسع من هذا الكتاب وهو المعروف عند الغربيين باسم *Nonus Almansoris* متداولاً في أيدي طلاب الطب في أوروبا حتى القرن السادس عشر . وقد كشف الرازي طرقاً جديدة في العلاج كمرهم الزئبق ، واستخدام أمعاء الحيوان في التطيب . وهذا من تحمس الأطباء لتحليل البول في عصر أقبل فيه الأطباء على تشخيص كل مرض بالفحص على بول المريض ، دون أن يروه في بعض الأحيان . ولا تخلو بعض مؤلفاته القصيرة من ظرف ودعابة ؛ ومن هذا النوع رسالته « في أن الطبيب الحاذق ليس هو من قدر على إبراء جميع العلل وإن ذلك ليس في الوسع » ورسالته الأخرى « العيلة التي من أجلها ينجح جهال الأطباء والعوام والنساء في المدن في علاج بعض الأمراض أكثر من العلماء وعذر الطبيب في ذلك » . ولقد كان الرازي بإجماع الآراء أعظم الأطباء المسلمين وأعظم علماء الطب السريري (الكلينيكي) في العصور الوسطى (٤٩) . ومات الرجل فقيراً في الثانية والثمانين من عمره .

وقد علفت في مدرسة الطب بجامعة باريس صورتان ملونتان لطبيين مسلمين هما : الرازي وابن سينا . وكان أبو علي الحسين بن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) أعظم فلاسفة الإسلام وأشهر أطبائه ، وتشهد سيرته التي كتبها بيده - وذلك النوع من السير نادر في الأدب العربي - بكثرة ما كان يحدث في العصور الوسطى من تقلب في حياة العلماء والحكام . فقد كان ابن سينا ابن أحد الضيافة في بخارى ، وتلقى العلم على معلمين خصوصيين ، كان لهم أثر فيما ينطوي عليه عقابه العلمي من نزعة صوفية . ويقول عنه ابن خلكان بشيء من المغالاة المألوفة عند المؤرخين العرب إنه لما بلغ عشر سنين من عمره « كان قد أتقن علم القرآن العزيز والأدب وحفظ أشياء من أصول الدين وحساب الهند والجبر والمقابلة » (٥٠) .

وقد تعلم الطب من غير مدرس ، وأخذوه وشاب يعالج المرضى من غير أجر

وشفى وهو فى السابعة عشرة من عمره نوح بن منصور أمير بخارى من مرضه ، وعين فى منصب فى بلاطه ، وكان يقضى فى الدرس ساعات طوالاً فى مكتبة السلطان الضخمة : ولما قضى على سلطان السامانيين فى أواخر القرن العاشر الميلادى لحأ ابن سينا إلى بلاط المأمون أمير خوارزم . ولما استدعى محمود الغزنوى ابن سينا والبيرونى وغيرهما من جهابذة العلماء فى بلاط المأمون ، لم يطع ابن سينا أمره ، وفر هو وزميل له من العلماء إلى الصحراء . وهبت عليهما عاصفة رملية مات فيها زميله ، ونجا ابن سينا ووصل إلى جرجان بعد أن قابى كثيراً من الصعاب ، وفيها عين فى منصب فى بلاط قابوس . ونشر محمود الغزنوى فى بلاد الفرس صورة لابن سينا ، ووعد من يقبض عليه بمجازة سخية ، ولكن قابوس حماه من عيون الأمير . ولما قتل قابوس دعى ابن سينا لعلاج أمير همدان ، وشفى الأمير على يديه فاتخذته وزيراً له ، ولكن الجيش لم يرتح لحكمه ، فقبض عليه ، ونهب بيته ، وأراد أن يقتله . واستطاع ابن سينا أن يفلت منهم ويختبئ فى بيت صيدلى ، وبدأ وهو فى مخبئه يؤلف كتبه التى كانت سبباً فى شهرته . وبينما هو يدبر لنفسه أمر الفرار سراً من همدان قبض عليه ابن الأمير وزج به فى السجن حيث قضى عدة أشهر واصل فيها التأليف . واستطاع مرة أخرى أن يفر من السجن ، وتخفى فى زى أحد رجال الطرق الصوفية ، وبعد عدة مغامرات لا تتسع لها صحائف هذا الكتاب وجد له ملجأ فى بلاط علاء الدولة البويهى أمير إصفهان ، ورجب به الأمير وكرمه ، وهنا التف بحوله جماعة من العلماء والفلاسفة وأخذوا يعتقدون مجالس علمية برياسة الأمير نفسه . ويستدل من بعض القصص التى وصلت إلينا أن فيلسوفنا كان يستمتع بملاذ الحب ، كما يستمتع بملاذ الدرس . غير أن قصصاً تصوره لنا مكباً بالليل والنهار على الدرس ، والتعليم ، والشئون العامة ، وينقل لنا ، ابن خلكان نصائح له قيمة لا تبلى جديتها :

اجعل غذاءك كل يوم مرة واحذر طعاماً قبل هضم طعام
واحفظ منيك ما استطعت فإنه ماء الحياة يراق في الأرحام

وأثرت حياة الكدح في صحته فمات في السابعة والخمسين من عمره وهو
مسافر إلى همدان ، حيث لا يزال قبره موضعاً للإجلال والتكريم .
ولقد وجد ابن سينا في صروف حياته ، في مناصبه أو في سجنه ،
متسهماً من الوقت لتأليف مائة كتاب بالفارسية أو العربية تحدث فيها عن
كل فرع تقريباً من فروع العلم والفلسفة . هذا إلى أن له قصائد من الشعر
الجيد وصلت إلينا منها خمس عشرة قصيدة انزلت واحدة منها إلى رباعيات
عمر الخيام ، ومنها قصيدته العينية في النفس وهبوطها إلى الجسم من عالم
علوى ومطلعها :

هبطت عليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع (*)

ولا يزال الطلاب في بلاد الشرق الإسلامي حتى اليوم يحفظونها عن
ظهر قلب . وقد ترجم كتاب إقليدس في الهندسة ووضع عدة أزياج
فلكية ، وابتكر آلة شبيهة بالورنية المعروفة عندنا اليوم . وله دراسات
مبتكرة في الحركة ، والطاقة ، والفراغ ، والضوء ، والحرارة ، والكثافة
النوعية . وله رسالة في المعادن بقيت حتى القرن الثالث عشر أهم مصادر
علم طبقات الأرض عند الأوربيين . وقد كتب فيها عن تكوين الجبال
كتابة تعد أنموذجاً للوضوح في العلم . فقد قال إن الجبال قد تنشأ من
سببين مختلفين : فقد تكون نتيجة اضطرابات في القشرة الأرضية كما
يحدث في أثناء الزلازل العنيفة ، وقد تكون نتيجة لفعل المياه التي
تشق لنفسها طريقاً جديداً بنحت الأودية . ذلك أن طبقات الأرض مختلفة
في أنواعها ؛ فمنها الهش ومنها الصلب ، والرياح والمياه تفتتان النوع الأول

(*) ومنها :

عجوبة عن كل مقلة عارف
وصلت على كره إليك وربما
وهي التي سمرت ولم يتبرقع
كرهت فراقك وهي ذات تجميع

لكنهما تتركبان صخور النوع الثاني على حالها . وهذا التحول يحتاج إلى آجال طوال . . . ولكن وجود البقايا المتحجرة للحيوانات المائية في كثير من الجبال يدل على أن المياه هي أهم الأسباب التي أحدثت هذه النتائج^(٥٢).

ولابن سينا كتابان يشتملان على تعاليمه كلها أولهما كتاب الشفاء (شفاء النفس) ، وهو موسوعة في ثمانية عشر مجلداً في العلوم الرياضية ، والطبيعة ، وأما وراء الطبيعة ، وعلوم الدين ، والاقتصاد ، والسياسة ، والموسيقى ؛ وثانيهما كتاب القانون في الطب ، وهو بحث ضخم في وظائف الأعضاء ، وعلم الصحة ، والعلاج ، والأقرباذين ، يتطرق من حين إلى حين إلى الموضوعات الفلسفية . وكتاب القانون حسن التنسيق يرقى في بعض الأحيان إلى درجة كبيرة في البلاغة ، وأمكن شغفه الشديد بالتصنيف والتمييز يصح عنده آفة لا يجد لها الرئيس دواء . ويبدأ المؤلف بتحذير لا يشجع على دراسته إذ يقول إن كل من يتبع تعاليمه ويريد أن يفيد منها يجب عليه أن يحفظ عن ظاهر قلب^(٥٣) هذا الكتاب الذي يحتوي ألف ألف كلمة . والطب في رأيه هو فن إزالة العقبات التي تعترض طريق عمل الطبيعة السوى . وهو يبحث أولاً في الأمراض الخطيرة فيصف أعراضها ، وتشخيصها ، وطرق علاجها . وفي الكتاب فصول عن طرق الوقاية والوسائل الصحية العامة والخاصة ، والعلاج بالحقن الشرجية ، والحجامة ، والكفي ، والاستحمام ، والتدليك . وهو ينصح بالتنفس العميق ، وبالصياح من حين إلى حين لتقوية الرئتين والصدر - واللهاة . ويلخص الكتاب الثاني ما عرفه اليونان والعرب عن النباتات الطبية . ويبحث الكتاب الثالث في بعض الأمراض وطبائعها ، وفيه بحوث قيمة ممتازة عن التهاب البلورا والدبيلة^(*) ، والنزلات المعوية ، والأمراض التناسلية ، وفساد الشهوة ، والأمراض العصبية ، بما فيها العشق ،

(*) هذا هو الاسم الذي يطلقه ابن سينا على هذا المرض ويسميه أبو القاسم الزهراوى الدبيلة بالذال المنقوطة وهو معروف بالأهيمياء أى تجمع الصديد في جوف البلورا . (المترجم)

ويبحث الكتاب الرابع في الحميات ، وفي الجراحة ، وأدهان التجميل ،
ووسائل العناية بالشعر والجلد . وفي الكتاب الرابع - الخاص بعلم العقاقير
الطبية - تعليقات مفصلة عن طرق طبخ سبعة وستين نوعاً من العقاقير .
وحل كتاب القانون بعد ترجمته إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر محل
كتب الرازي وجالينوس ، وأصبح هو الذى يعتمد عليه في دراسة الطب
في المدارس الأوربية . وقد احتفظ فيها بمكانته العالية ، وظل الأساتذة
يشيرون على الطلاب بالرجوع إليه في جامعتى منبلييه ولوفان إلى أواسط
القرن السابع عشر .

وجملة القول أن ابن سينا أعظم من كتب في الطب في العصور الوسطى ،
وأن الرازي أعظم أطبائها ، والبيروني أعظم الجغرافيين فيها ، وابن الهيثم
أعظم علمائها في البصريات ، وجابر بن حيان أعظم الكيميائيين فيها . تلك
أسماء خمسة لا يعرف عنها العالم المسيحي في الوقت الحاضر إلا القليل ، وإن عدم
معرفةنا إياها ليشهد بضيق نظرتنا وتقصيرنا في معرفة تاريخ العصور الوسطى .
وليس في وسعنا مع هذا أن نحاجز أنفسنا عن القول بأن العلوم العربية كثيراً
ما تلوثت بالأوهام شأنها في هذا شأن سائر العصور الوسطى ، وأن تفوقها
كلها - عدا علم البصريات - يرجع إلى التركيب والبناء من النتائج التي تجمعت
لديها أكثر من تفوقها في الكشوف المبتكرة أو البحوث المنظمة ؛ لكنها مهما
يكن قصورها في هذه الناحية قد نمت في علم الكيمياء الطريقة التجريبية
العلمية ، وهي أهم أدوات العقل الحديث وأعظم مفاخره . ولما أن أعلن
روجر بيكن هذه الطريقة إلى أوروبا بعد أن أعلنها جابر بضميمة عام كان
الذى هداه إليها هو النور الذى أضاء له السبيل من عرب الأندلس ، وليس
هذا الضياء نفسه إلا قبساً من نور المسلمين في الشرق .

الفصل الرابع

الفلسفة

لقد استعار الإسلام في الفلسفة ، كما استعار في الطب ، من بلاد الشام المسيحية ما خلفته بلاد اليونان الوثنية ، ثم رد هذا الدين إلى أوروبا المسيحية عن طريق الأندلس الإسلامية . وكانت هناك بطبيعة الحال عوامل كثيرة هي التي أدت مجتمعة إلى ثورة المعتزلة ، وإلى فلسفات الكندي ، والفارابي ، وابن سينا ، وابن رشد . فقد جاءت أفكار الهند إلى بلاد الإسلام عن طريق غزنة وفارس ، وكان للأراء الزردشتية واليهودية عن الحشر والحساب بعض الأثر في الفلسفة الإسلامية ؛ وكان الملاحدة المسيحيون قد أثاروا عجاج الجدل في بلاد الشرق الأدنى في صفات الله ، وفي طبيعة المسيح وكلمة الله ، وفي الجبرية والقدرية ، والوحي والعقل . لكن العامل الذي كان له أكبر الأثر في التفكير الإسلامي في آسية - كما كان له أكبر الأثر في إيطاليا أيام النهضة - هو كشف آثار اليونان الفكرية من جديد ؛ فقد أدى هذا الكشف - وإن أتى عن طريق التراجم الناقصة المعيبة لنصوص مشكوك في صحتها - إلى ظهور عالم جديد : عالم كان الناس يفكرون فيه في كل شيء ولا ينجشون أن يصيبهم أذى بسبب هذا التفكير ، ولا تقيد عقولهم نصوص الكتب المقدسة ، ولا يرون أن السماء والأرض وما بينهما قد خلقت عبثاً(*) أو أنها وجدت بمعجزة من المعجزات التي لا تستند إلى قانون من قوانين العقل ، بل يرون أنها تستند إلى قانون عام عظيم

(*) لم يكن هذا التفكير مقصوداً على اليونان وحدهم ، بل قد جاء به القرآن نفسه في عدة آيات : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين » : سورة الأنبياء : ١٦ ؛ وسورة ص : ٢٧ وسورة الحجر : ٨٥ ؛ وسورة الدخان : ٣٨ .

يحكمها جميعاً وتتضح آثاره في كل جزء من أجزاء الكون . وقد افتن المسلمون بالمنطق اليوناني في صورته الكاملة الواضحة التي جاء بها كتاب أورغانون (الآلة الفكرية) لأرسطو وبعد أن أتيح لهم الفراغ الذي لا بد منه للتفكير ، ووجدوا فيه الأدوات التي يحتاجونها لتفكيرهم ؛ وظل المسلمون ثلاثة قرون طوال يحاجون بالمنطق وتسلب لهم بهجة الفلسفة المحيية كما سلبت لب الشباب في أيام أفلاطون . وسرعان ما أخذ صرح العقائد التعسفية يتصدع وينهار ، كما أهارت العقائد اليونانية بتأثير بلاغة السوفسطائيين ، وكما ضعفت العقائد المسيحية وتزعزعت قواعدها تحت ضربات أصحاب الموسوعات الفرنسيين وسخرية فليتر اللاذعة .

وكانت البداية التقريرية للعهد الذي نستطيع أن نسميه عهد الاستنارة الإسلامية هي الجدل الذي ثار حول موضوع عجيب هو موضوع خلق القرآن . ذلك أن عقيدة فيلون في الكلمة وقوله إنها هي حكمة الله الأبدية ، وما جاء به الإنجيل الرابع من أن المسيح هو كلمة الله أو العقل القدسي : « في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله ، هذا كان في البدء عند الله ، كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان » (٥٣) ، وعقيدة المسيحيين العارفين (*) وأتباع الأفلاطونية الحديثة الذين يجسدون الحكمة الإلهية ويقولون إنها هي أداة الخلق الفعالة ، وعقيدة اليهود في أزلية التوراة . كل هذه الآراء قد أوجدت عند المسلمين السنيين عقيدة مماثلة تقول إن القرآن كان على الدوام موجوداً في عقل الله ، وإن نزوله على محمد كان هو دون غيره حادثاً في زمان معين ، وكانت نشأة الفلسفة في الإسلام على يد المعتزلة الذين ينكرون قدم القرآن ، وهم يجهرون باحترامهم لكتاب الله (الكريم) ولكنهم يقولون إنه إذا تعارض هو

(*) القائلين بأن الخلاص بالمعرفة لا بالإيمان . (المترجم)

أو الحديث مع العقل وجب ألا يفسر تفسيراً حرفياً بل مجازياً ، وأطلقوا على هذه الجهود التي يحاولون بها التوفيق بين العقل والدين اسم الكلام أى المنطق . وقد بدا لهم أن من السخف أن تؤخذ بحرفيتها العبارات الواردة فى القرآن والتي تقول إن الله يدين وقدمين ، وإنه يغضب ويكره ، وقالوا إن تشبيه الله بالكائنات البشرية على هذا النحو الشعري ، إذا كان يتفق مع أغراض النبي الأخلاقية والسياسية فى أيام الرسالة ، لا يمكن أن يقبله المتعلمون المستنبطون فى أيامهم ، وإن العقل البشرى عاجز كل العجز عن معرفة طبيعة الله وصفاته الحقة ، وكل ما يستطيعه أن يقبل ما جاء به الدين من إثبات وجود قوة روحية عليا هى أساس الحقائق عامة . وفضلا عن هذا فقد كان المعتزلة يرون أن من الخطر الشديد على أخلاق الناس وأعمالهم أن يؤمنوا كما يؤمن عامة المسلمين بأن الحوادث كلها مقدره تقديراً كاملاً من عند الله ، وأن الله قد اختار منذ الأزل من سيئات ومن سيعذب .

وانتشرت عقائد المعتزلة بهذه الصورة وبما أدخل عليها من الصور الأخرى التي يخطئها الحصر أثناء خلافة المنصور ، وهرون الرشيد ، والمأمون ؛ واعتنق هذه المبادئ العقلية الجديدة سراً فى بادىء الأمر عدد من العلماء والخارجين على الدين ، ثم جهر بها رجال فى ندوة الخلفاء المسائية ، ثم وجدت من يدعو إليها فى المحاضرات التي تلى فى المدارس والمساجد ، بل تغلبت فى أماكن متفرقة على غيرها من الآراء . وافتن المأمون نفسه بهذه النزعة العقلية الآخذة فى القوة ، وبسط عليها حمايته ، وانتهى الأمر بأن جعل عقائد المعتزلة مذهب الدولة الرسمي . ذلك أن المأمون مزج بعض عادات الملكية الشرقية بآخر الآراء الإسلامية المستمدة من الثقافة اليونانية ، وأصدر فى عام ٨٣٢ أمراً يفرض فيه على جميع المسلمين أن يعتقدوا بأن القرآن قد خلق فى وقت بعينه ، وأتبع هذا بأمر آخر يقضى بالأعين قاضياً فى المحاكم من لا يعلن قبوله لهذه العقيدة الجديدة أو أن

تقبل فيها شهادته ، وصدرت بعد هذين القرارين قرارات أخرى تحتم قبول عقيدة حرية الإرادة ، وعجز النفس البشرية عن رؤية الله رأى العين ، وانتهى الأمر بأن جعل رفض هذه العقائد من الجرائم التي يعاقب مرتكبها بالإعدام .

وتوفى المأمون في عام ٨٣٣ ولكن المعتصم والوائق اللذين توليا الخلافة بعده واصلوا هذه الحملة الفكرية ، وقاوم الإمام ابن خنبل هذا الاضطهاد الفكرى وندد به ؛ ولما استدعى لمناقشته في أمر المبادئ الجديدة أجاب عن كل ما وجه إليه من الأسئلة بإيراد شواهد من القرآن تؤيد آراء أهل السنة ، فضرب حتى أغمى عليه ، وألقى في السجن ، ولكنه أصبح في أعين المسلمين بسبب هذا التعذيب من الشهداء والأولياء الصالحين ، وكان تعذيبه هنا من العوامل التي مهدت السبيل للانتفاض على الفلسفة الإسلامية .

وكانت هذه الفلسفة قد أخرجت في ذلك الوقت أول داع كبير لها وهو أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي الذى ولد في الكوفة عام ٨٠٣ م . وكان والد الكندي من ولاية الأعمال في المدينة ؛ وتلقى هو العلم فيها وفي بغداد ، وذاعت شهرته في الترجمة ، والعلم والفلسفة في بلاط المأمون والمعتصم ، ونبغ مثل الكثيرين من أمثاله في مجد الإسلام الفكرى في عدد كبير من العلوم ، فدرس كل شيء ، وكتب ٢٦٥ رسالة في كل شيء - في الحساب والهندسة النظرية ، والهيئة ، والظواهر الجوية ، وتقويم البلدان ، والطبيعة ، والسياسة ، والموسيقى ، والطب ، والفلسفة . . . وكان يرى ما يراه أفلاطون من أنه ليس في وسع إنسان أن يصبح فيلسوفاً من غير أن يكون قبل ذلك عالماً في الرياضة ؛ وحاول أن يبني علم الصحة ، والطب ، والموسيقى على نسب رياضية . وقد درس فيما درس ظاهرة المد والجزر ، وبحث القوانين التي تحدد سرعة الأجسام الساقطة في الهواء ، كما بحث ظاهرة الضوء في كتابه عن البصريات الذى كان له أكبر الأثر في

روجر بيكن Roger Bacon . (وقد أدهش الكندي العالم الإسلامي برسالته في الدفاع عن المسيحية)^(٥٤) (*) واشترك هو وزميل له في ترجمة كتاب أرسطو في الإلهيات (أو ثولوجيا) . وتأثر الكندي أشد التأثر بهذا الكتاب المنحول وسره كل السرور أنه يوفق بين أرسطو وأفلاطون إذ يجعل كليهما من أتباع الأفلاطونية الجديدة . ذلك أن فلسفة الكندي نفسه هي الأفلاطونية الجديدة مصبوغة صبغة جديدة : فالنفس عنده على ثلاث مراتب : الله ، ونفس العالم الخلاقة ، والنفس البشرية التي هي فيض من هذه النفس الثانية . وإذا استطاع الإنسان أن يدرب نفسه على العلم الحق استطاع أن ينال الحرية والخلود . ويلوح أن الكندي قد حاول ما استطاع أن يبتعد عن آراء المعتزلة وأن يعتقد آراء أهل السنة ، ولكنه أجلب عن أرسطو^(٥٦) التفرقة بين العقل الفاعل أي العقل الإلهي ، وعقل الإنسان المنفعل الذي لا يعدو أن يكون هو القدرة على التفكير . ونقل ابن سينا هذا التفريق إلى ابن رشد الذي أثار به العالم واتخذه حجة ضد القائلين بالخلود الفردي . وانتهى الكندي بالانضمام إلى المعتزلة ، فلما قام عليهم أهل السنة صودرت كتبه ، وكاد يقضى على حياته ، ولكنه نجا من هذه العاصفة ، واسترد مكتبته ، وعاش حتى عام ٨٧٣ .

إن المجتمع الذي يرتبط فيه نظام الحكم ، والقانون ، والأخلاق بالعقيدة الدينية يرى في كل خروج على تلك العقيدة تهديداً خطيراً للنظام الاجتماعي نفسه . ولقد عادت إلى النشاط من جديد جميع القوى التي طغى عليها الفتح العربي

(*) ليس للكندي الفيلسوف رسالة في الدفاع عن المسيحية . أما كاتب هذه الرسالة فهو عبد المسيح بن إسحق الكندي ، وقد كتبها رداً على رسالة بعث بها إليه عبد الله بن إسماعيل الهاشمي يدعوها إلى الإسلام ، فبعث هو إليه بهذه الرسالة يدعو عبد الله إلى النصرانية . وقد اختلط الأمر على المؤلف لتشابه الاسمين . وقد ورد ذكر الرائلين في كتاب الآثار الباقية للبيروني . (المترجم)

وهي الفلسفة اليونانية والمسيحية الغنوسطية ، والقومية الفارسية ، والشيعوية
المزدكية ؛ وكان نشاطها عنيفاً ، فأخذت تجادل في القرآن ، وجهر شاعر
فارسي بأن شعره أعلى منزلة من القرآن نفسه ، فكان جزاؤه على قوله هذا
قطع رأسه (٧٨٤) (٥٧) ، وبدا أن صرح الإسلام القائم على القرآن قد
أصبح وشيك الانهيار . غير أن عوامل ثلاثة في هذه الأزمة الشديدة جعلت
النصر النهائي لأهل السنة : وهذه العوامل هي وجود خليفة محافظ مستمسك
بدينه ، واشتداد ساعد الحرس التركي ، وولاء الناس الطبيعي لعقائدهم
الموروثة . فلما أن تولى المتوكل على الله الخلافة في عام ٨٤٧ استمد العون
من الشعب ومن الأتراك . وكان الترك حديثي العهد بالإسلام ، حاقدين
على الفرس ، غريبين عن الفكر اليوناني ، فاندفعوا بكل ما فيهم من قوة
لتأييد السياسة التي ترمي إلى نصره الدين بحد السيف . فنقض المتوكل السياسة
الحرّة العنيفة التي جرى عليها المؤمنون ، وألغى ما أصدره فيها من المراسيم ،
وأخرج المعتزلة وغيرهم من الملحمدين من مناصب الدولة والوظائف
التعليمية ، وحرّم الجهر بالآراء المخالفة لآراء أهل السنة في الأدب والفلسفة ،
وسنّ قانوناً يحتم القول بأن القرآن أزلّ غير مخلوق ، واضطهد الشيعة
وهدم مشهد الحسين في كربلاء (٨٥١) . وجدد المتوكل الأمر المعزول إلى
عمر بن الخطاب ضد المسيحيين ، والذي وسعه هرون الرشيد حتى شمل
اليهود (٨٥٠) ، ثم أهمل العمل به بعيد صدوره ، جدد المتوكل هذا الأمر
ففرض على اليهود والمسيحيين أن يلبسوا ثياباً من لون خاص تميزهم من
غيرهم من أفراد الشعب ، وأن يضعوا رقماً ملوّن على أكتاف عبودهم ،
وأن لا يركبوا غير البغال والحمير ، وأن يشبّثوا صوراً خشبية للشيطان على
أبواب بيوتهم ؛ وأمر بهدم جميع الكنائس والمعابد المسيحية واليهودية الجديدة ،
وحرّم رفع الصليب علناً في المواكب المسيحية ، ولم يسمح لمسيحي أو يهودي
أن يتلقى العلم في المدارس الإسلامية .

والتخذرد الفعل في الجليل التالي صورة أقل عنفاً من هذه الصورة السابق

وصفها . فقد قام جماعة من العلماء السنين وجهروا في شجاعة بقبول حكم المنطق في الجدل القائم ، وعرضوا أن يثبتوا بالرجوع إلى العقل صدق العقائد الأصيلة . وهؤلاء المتكلمون (المناطقة) في الإسلام يشبهون الفلاسفة المدرسين في أوروبا في العصور الوسطى ، وقد حاولوا أن يوفقوا بين العقائد الدينية والفلسفة اليونانية كما حاول ابن ميمون ذلك في القرن الثاني عشر بالنسبة لليهودية ، وتومس أكوناس في القرن الثالث عشر بالنسبة للمسيحية . وظل أبو الحسن الأشعري (٨٧٣ - ٩٣٥) يعلم الناس مبادئ المعتزلة نحو عشر سنين في البصرة ، ولكنه انقلب عليهم حين بلغ الأربعين من عمره ، وهاجمهم بسلاحهم هم أنفسهم ، وهو سلاح المنطق ، وسلط عليهم سيلا جارفاً من الجدل القوي كان له أكبر الأثر في انتصار عقائد أهل السنة . وقد آمن أبو الحسن إيماناً قويا بمبدل الجبرية فقال إن الله قدر منذ الأزل كل عمل وكل حادث ، وإنه علمها كلها ، وإنه يعلم على القوانين والأخلاق ، وإنه يصرف شئون خلقه كما يشاء ، فإذا بعث بهم جميعاً إلى النار فليس في ذلك خطأ قط (٥٩) .

ولم يرض أهل السنة كلهم بإخضاع الدين إلى هذا الجدل العقلي ، ونادى كثيرون منهم بمبدل « بلا كيف » أي أن من واجب الإنسان أن يؤمن دون أن يسأل كيف يكون هذا الإيمان (٦٠) ، وامتنع معظم علماء الدين عن الجدل في الموضوعات الأساسية ولكنهم اندفعوا يجادلون في التفاصيل الجزئية لعقيدة اتخذوا مبادئها الأساسية بدائه يسلمون بها دون مناقشة .

وهكذا هدأت موجة الفلسفة في بغداد ، ولكنها ثارت في الوقت نفسه في العواصم الإسلامية الصغرى ؛ فوهب سيف الدولة أبا نصر الفارابي بيتا في بغداد ، وكان الفارابي أول من نبغ وانتشر صيته من العلماء الأثرالك . كان مولده في فاراب إحدى ولايات التركستان ، ودرس المنطق في بغداد على معلمين مسيحيين

وقرأ كتاب الطبيعة لأرسطو أربعين مرة ، وكتاب النفس مائتي مرة ، وزمى بالزندقة في بغداد ، وارتدى ملابس المتصوفة ، واعتنق مبادئهم ، وعاش كما يعيش طير الهواء . ويقول عنه ابن خلكان إنه « كان أزهد الناس في الدنيا لا يحتفل بأى مكسب ولا مسكن » (٦١) .

وسأله سيف الدولة عما يكفيه من المال فقال الفارابي إنه يكفيه أربعة دراهم في اليوم « فأجرى عليه الأمير هذا القدر من بيت المال واقتصر عليها لقناعته ولم يزل كذلك إلى أن توفى » .

وقد بقي من مؤلفات الفارابي تسعة وثلاثون كتاباً كثير منها شروح لأرسطو وتعليقات على آرائه . وقد لخص في كتابه إحصاء العلوم علم عصره في الفلسفة ، والمنطق ، والرياضيات ، والطبيعة ، والكيمياء ، والاقتصاد ، والسياسة . وقد أجاب إجابة سلبية صريحة عن السؤال الذى أثار ثائرة الفلاسفة المسيحيين بعد قليل من ذلك الوقت وهو هل الكلى (أى الجنس ، والنوع ، والصفة) يوجد قائماً بنفسه منفصلاً عن الجزئى ؟ وقد خدع كما خدع غيره بالهيات أرسطو فبدل الاصطغاغرى العنيد(*) إلى رجل متصوف . وطال به العمر حتى هدأت سورته العلمية واستمسك بقواعد الدين . وكان فى شبابه قد جهر بنزعة لا أدرية متشككة (٦٢) ، ثم خطا فى مستقبل حياته خطوات واسعة ، فأعطانا وصفا مفصلاً للخالق (٦٣) مستعيناً على ذلك بالبراهين التى أوردها أرسطو ليثبت بها وجود الله ، والتى استعان بها أكوناس بعد ثلاثة قرون من ذلك الوقت ، فقال إن حدوث سلسلة من الحوادث العارضة لا يمكن إدراكها إلا إذا أرجعناها فى النهاية إلى كائن لا بد من وجوده لوقوعها ، ووجود سلسلة من العلل يتطلب وجود علة أولى ؛ وسلسلة من الحركات يتطلب مجرماً أول غير متحرك ؛ والتعدد يتطلب الوحدة .

(*) يريد أرسطو المولود فى اصطاغيرا وهى مدينة أيونية على بحر إيجه . (المترجم)

وإن الهدف النهائي للفلسفة ، وهو الهدف الذى لا يمكن بلوغه كاملاً ، هو معرفة العلة الأولى ، وخير طريق للوصول إلى هذه المعرفة هو تطهير النفس . وقد استطاع الفارابى ، كما استطاع أرسطو أن يعنى بجعل أقواله عن الخلود غامضة غير مفهومة . ومات الرجل فى دمشق عام ٩٥٠م .

ومن بين كتب الفارابى الباقية كلها كتاب واحد يدهشنا ما يدل عليه من قوة الابتكار ونعمى به كتاب المدينه الفاضله . ويبدأ الكتاب بوصف قانون الطبيعة بأنه كفاح واحد دائم يقوم به كل كائن حتى ضد سائر الكائنات ؛ وهو فى ذلك يشبه ما يقوله هبز Hobbs من أن الأشياء كلها يحارب بعضها بعضاً ؛ ثم يقول إن كل كائن حتى يرى فى آخر الأمر أن سائر الكائنات الحية وسائل يحقق بها أغراضه ، ثم يعقب على هذا بقوله إن بعض الساعرين يستنتجون من هذا أن الرجل العاقل فى هذا التنافس الذى لا مفر منه هو أقدر الناس على إخضاع غيره لإرادته ، وأعظمهم تحقيقاً لرغباته كاملة . فكيف خرج المجتمع الإنسانى إذن من هذا القانون قانون الغاب ؟ وإذا ما أمعنا الفكر فى أقوال الفارابى رأينا أنه كان بين المسلمين الذين بحثوا هذا الموضوع فلاسفة من طراز روسو وآخرون من طراز نثشة : فمنهم من قال إن المجتمع قام فى بادئ الأمر على أساس نوع من الاتفاق بين أفراد على أن بقاءهم يتطلب قبول بعض القيود التى تعتمد على العادات والقانون ؛ ومنهم من سخر من هذا « العقد الاجتماعى » وقال إن مثل هذا التعاقد لم يوجد قط فى تاريخ العالم ، وأكد أن المجتمع بدأ ، أو أن الدولة بدأت ، بإخضاع الأقوياء للضعفاء وتجنيدهم تحت سلطانها . ويضيف هؤلاء النثشيون أن الدول نفسها أدوات للتنافس ، وأن من الطبيعى أن يقاتل بعضها بعضاً سعياً وراء سيادتها على غيرها ، وسلامتها ، وسلطانها ، وراثتها ؛ وأن الحرب طبيعية ولا مفر من وقوعها ؛ وأن الذى سيسفر عنه هذا الصراع ، لا بد أن يتمشى مع قانون الطبيعة الأزلئ ، وهو أن الحق الوحيد هو القوة . ويقاوم الفارابى هذه

الزعة بأن يدعو الناس إلى إقامة مجتمع على قواعد العقل ، والوفاء ، والحب ، لا على أساس الحسد ، والقوة ، والخصام^(٦٤) . ويختم بحته خاتمة موفقة بالدعوة إلى إقامة ملكية على أساس العقيدة الدينية القوية^(٦٥) .

وأنشأ تلميذ لأحد تلاميذ الفارابي في بغداد عام ٩٧٠ جمعية من العلماء - معروفة لنا باسم موطن منشأها - الجمعية السجستانية^(*) ، غرضها بحث المسائل الفلسفية . ولم تكن هذه الجمعية تسأل أعضاءها عن أصلهم أو ملهمهم ؛ ويبدو أنها صرفت همها كله إلى دراسة المنطق وفلسفة المعرفة ؛ ولكن وجودها يدل على أن الرغبة في البحوث العلمية والعقلية لم تحب جلدوتها في عاصمة الدولة الإسلامية . وأهم من هذه الجمعية شأنًا ، أو بالأحرى أعظم منها أثرًا ، جمعية أخرى من نوعها ، ولكنها في واقع الأمر جمعية سرية من العلماء والفلاسفة ، أنشئت في مدينة البصرة عام ٩٨٣ ، ونعني بها جمعية إخوان الصفا^(**) . وكان سبب قيامها أن هؤلاء الإخوان روعهم ما شاهدوه من ضعف الخلافة الإسلامية ، وفقر شعوبها ، وفساد أخلاقهم ؛ فناقت نفوسهم إلى تجديد الإسلام من النواحي الأخلاقية ، والروحية ، والسياسية ؛ ونخيل إليهم أن هذا التجديد إنما يقوم على مزيج من الفلسفة اليونانية والمسيحية ، والتصوف الإسلامي ، وآراء الشيعة السياسية ، والشريعة الإسلامية . وكانوا يفهمون الصداقة على أنها تعاون بين ذوى الكفايات والفضائل المختلفة ، تأتي فيها كل طائفة بما تحتاجه الجماعة كلها وما لا تجده عند الطوائف الأخرى . وفي اعتقادها أن الوصول إلى الحقيقة عن طريق اجتماع العقول أيسر من الوصول إليها عن طريق التفكير الفردي . ولهذا كانوا يجتمعون في السر ويبحثون في حرية تامة شاملة ، وتفكير واسع

(*) منشأ هذه الجمعية هو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني . (المترجم)

(**) اسمهم الكامل « إخوان الصفاء ، وخلان الوفاء ، وأهل العدل ، وأبناء الحب » .

(المترجم)

الأفق ، وتأدب جم ، جميع مشاكل الحياة الأساسية . وأصدرت الجماعة في آخر الأمر إحدى وخمسين رسالة جمعت شتات أبحاثها كلها ، وضمنتها خلاصة العلوم الطبيعية والدينية ، والفلسفة . وأولع أحد مسلمي الأندلس أثناء تجواله في بلاد الشرق الأدنى حوالى عام ١٠٠٠ م بهذه الرسائل ، فجمعها واحتفظ بها .

ونجد في هذه الرسائل البالغة ١١٣٤ صفحة تفسيراً علمياً للمد والجزر ، والزلازل ، والخسوف والكسوف ، والأمواج الصوتية ، وكثير غيرها من الظواهر الطبيعية ، كما نجد فيها قبولاً صريحاً كاملاً للتنجيم والكيمياء الكاذبة ، ولا تخلو من عبث بالسحر وتلاعب بالأعداد . أما ما فيها من العقائد الدينية فهو شديد الصلة بالأفلاطونية الجديدة كما هو شأن الكثرة الغالبة من كتابات المفكرين المسلمين ؛ فهم يقولون إنه عن الموجود الأول أى الله يصدر العقل الفعال ، وعن هذا العقل يصدر عالم الأجسام والنفوس ؛ وإن جميع الأشياء المادية توجد بها النفس ، وتعمل عن طريقها ؛ وكل نفس تظل مضطربة قلقة حتى تتصل بالعقل الفاعل ، أو نفس العالم ، أو النفس الكلية ، ويتطلب هذا الاتصال تطهير النفس تطهيراً كاملاً ، والأخلاق هى الفن الذى تصل به النفس إلى هذا التطهير ؛ والعلم والفلسفة والدين كلها وسائل لبلوغه ؛ ويجب علينا فى سعيها للتطهير أن ننسج على منوال سقراط فى الأمور العقلية ، وأن نهج نهج المسيح فى الإحسان إلى الخلق عامة ، ونهج على فى نبه وتواضعه . فإذا ما تحرر العقل عن طريق المعرفة ، وجب أن يحس بحريته فى أن يؤول عبارات القرآن التى تتناسب مع فهم بدو غير متحضرين يسكنون الصحراء تأويلاً مجازياً^(٦٦) . ويمكن القول بوجه عام إن هذه الرسائل الإحدى والخمسين أكمل ما وصل إلينا من تعبير عن التفكير الإسلامى فى العصر العباسى ، وإنها أعظم تناسقاً من جميع الرسائل التى لدينا فى هذا التفكير . وقد رأى علماء بغداد أن هذه الرسائل من قبيل الإلحاد فحرقوها فى عام ١١٥٠ ، ولكنها رغم هذا ظلت تتداولها الأيدي ، وكان لها أثر شامل عميق فى الفلسفة

الإسلامية واليهودية - نشاهده في كتابات الغزالي وابن رشد ، وابن جبرول ، وهلين (٦٧) ؛ وتأثر بها كذلك المعري الشاعر الفيلسوف ، ولعلها كان لها أثر في ذلك الرجل الذي بز في حياته القصيرة ما في رسائل هذه الجماعة المتعاونة المؤتلفة من نزعة عقلية ، وكان أكثر من أصحابها سعة في الأفق وعمقاً في التفكير ونعنى به ابن سينا . ذلك أن ابن سينا لم يكفه أن يكون حجة في العلوم الطبيعية ، ومرجعاً ذائع الصيت في الطب ؛ وما من شك في أنه قد أدرك أن العالم لا يكمل علمه إلا إذا أضاف إليه الفلسفة . ويحدثنا أنه قرأ كتاب ما يعر الطبيب لأرسطو أربعين مرة من غير أن يفهمه (*) ، وأنه حين استطاع آخر الأمر أن يدرك معناه بعد أن قرأ تعليق الفارابي عليه ، سر لهذا سروراً عظيماً وحمد الله على هذا وخرج إلى الشارع ووزع الصدقات (٦٨) . وبقى ابن سينا مستمسكاً بفلسفة أرسطو إلى آخر أيامه . وقد سماه في كتاب الفانوروه بالفيلسوف وهو اللفظ الذي أصبح في اللغة اللاتينية مرادفاً للفظ أرسطو نفسه . وقد فصل ابن سينا فلسفته في كتاب الشفاء ثم أوجزها في كتاب التجارة . وكان الرئيس ابن سينا ذا عقل منطقي ، يصر على التعاريف والتحديدات الدقيقة . وقد أجاب عن السؤال الذي شغل علماء العصور الوسطى طويلاً وهو : هل الكليات (كالأإنسان ، والفضيلة ، والاحمرار) توجد منفصلة عن الأشياء الجزئية المفردة فيقول : (١) إنها توجد « قبل الأشياء » في عقل الله وعلى نسقها توجد الأشياء ، (٢) وفي الأشياء بالصورة التي تتمثل فيها (٣) وبعد الأشياء بأن تكون معاني مجردة في العقل البشري . ولكن الكليات لا توجد في العالم الطبيعي منفصلة عن الأشياء الجزئية المفردة . وبعد مائة عام من الجدل والخصام أجاب ابلار Abélard وأكوناس عن هذا السؤال هذا الجواب نفسه .

(*) إن الذي قاله ابن سينا هو « قرأت كتاب السماع الطبيعي لأرسطاطاليس الحكيم أربعين مرة وأرى أني محتاج إن قرأته » . (المترجم)

والحق أن ميتافيزيقية ابن سينا تكاد تكون خلاصة ما وصل إليه المفكرون اللاتين بعد مائتي عام من أيامه من توفيق بين المذاهب الفلسفية المختلفة في الفلسفة المدرسية . وهو يبدأ بشرح مفصل بذل فيه جهداً شاقاً للمذهب أرسطو والفارابي في المادة والصورة ، والعلل الأربع ، والممكن والواجب ، والكثرة ، والواحد ، ويدهشه كيف تستطيع الكثرة الممكنة المتغيرة - كثرة الأشياء الفانية - أن تصدر عن الواحد الواجب الوجود الذي لا يتغير . وهو يفعل ما يفعله أفلوطين فيفكر في حل هذه المشكلة بافتراض وجود وسيط بينهما هو العقل الفاعل منتشرأ في العالم السماوي ، والمادى ، والبشرى ، وهو النفس . ثم إنه وجد شيئاً من الصعوبة في التوفيق بين الانتقال من عدم الخلق إلى الخلق وبين صفة عدم التغير الملازمة لله ، فيزعم إلى الاعتقاد مع أرسطو بقدم العالم المادى ، ولكنه يدرك أن هذا سيؤلب عليه جماعة المتكلمين فيعرض عليهم حلاً وسطاً كثيراً ما لجأ إليه الفلاسفة المدرسيون وهو : أن وجود الله سابق على وجود العالم سبقاً ذاتياً لازماً ، أى في المرتبة والجوهر والعلّة ؛ فوجود العالم يعتمد في كل لحظة من اللحظات على وجود القوة الحافظة له ، وهى الله ؛ ويقول ابن سينا إن كل الموجودات « ممكنة » حتى الأفلاك نفسها أى أنها ليست واجبة الوجود أو محتومة . وهذه الممكنات لا بد لوجودها من علّة تتقدمها وتخرجها إلى الوجود ، ولهذا لا يمكن تفسير وجودها إلا بإرجاعها بعد سلسلة من العلل إلى موجود واجب الوجود ، أى واحد قائم بذاته هو العلّة الأولى لسائر الموجودات . والله وحده هو الموجود بذاته ، وإن وجوده لهن عين ماهيته فهن واجب الوجود . ولولاه لما كان شىء مما يمكن أن يكون . ولما كان العالم كله ممكناً أى أن وجوده ليس بذاته ، فإن الله لا يمكن أن يكون مادة بل إنه برىء من الجسم ، وهو كالعقل ؛ واحد من كل وجه لا تركيب فيه . ولما كان في المخلوقات كلها عقل فلا بد أن يكون في خالقها عقل أيضاً . وهذا العقل الأول يرى كل شىء - الماضى والحاضر والمستقبل - لاني وقت ولا بالتتابع ،

بل يراه كله مرة واحدة . وحدث هذه الأشياء هو النتيجة الزمنية لفكرة
اللازمي . ولكن الأفعال والحوادث لا تصدر عن الله مباشرة ، بل إن
الأشياء تتطور بفعل غائي داخلي → أي أن لها أغراضاً ومصائر في ذاتها ،
ولهذا فإن الله لا يصدر عنه الشر ، بل إن الشر هو الثمن الذي نؤديه نظير
ما لنا من حزية الإرادة ، وقد يكون الشر للجزء هو الخير للكامل (٦٩) .
وجود النفس يدل عليه التأمل الداخلى المباشر . والنفس لهذا السبب عينه
روحانية ، فنحن لا ندرك أكثر من أنها كذلك ، وأفكارنا منفصلة انفصالاً
واضحاً عن أعضائنا . وهى مبدأ الحركة الذاتية والنماء فى الجسم ؛ وبهذا
المعنى تكون للكواكب نفوس . والكون كله مظهر لمبدأ الحياة العام (٧٠) ،
والجسم وحده لا يستطيع أن يكون فاعلاً ، بل إن سبب كل حركة من حركاته
هو نفسه التى تحل فيه ، ولكل نفس ولكل عقل قدر من الحرية والقدرة
أعلى الخلق والإبداع شبيهة بقدرة السبب الأول لأنها فيض منه . وتعود النفس
الخالصة بعد الموت إلى الاتصال بالفعل الكلى ، وفى هذا الاتصال تكون سعادة
السعداء الصالحين (٧١) .

ولقد بذل ابن سينا كل ما يستطيع أن يبذله من الجهود للتوفيق بين الآراء
الفلسفية وعقائد جمهرة المسلمين . فلم يكن مثل لكريشيوس يرغب فى القضاء على
الدين من أجل الفلسفة ، ولم يكن كالغزالي فى القرن الذى بعده يريد أن يقضى
على الفلسفة من أجل الدين ؛ بل هو يعالج كل مسألة مستنداً إلى العقل وحده ،
غير متقيد مطلقاً بالدين ؛ ويحلل الوحي فى ضوء قوانين الطبيعة (٧٢) ، ولكنه
يؤكد حاجة الناس إلى الأنبياء ليبينوا لهم قواعد الأخلاق فى صور من
الاستعارات والحجارات تفهمها عقولهم وتتأثر بها . وبهذا المعنى يكون النبى رسول
الله لأنه يضع الأسس التى يقوم عليها النظام الأخلاقى والاجتماعى (٧٣) . ومن أجل
هذا كان النبى ينادى ببعث الأجسام ، وكان فى بعض الأحيان يصور الجنة
تصويراً مادياً ؛ والفيلسوف ، وإن كان يشك فى خلود الجسم ، يدرك أنه لو أن النبى

قد اقتصر على تصوير الجنة تصويراً روحياً محضاً لما استمع الناس إليه ، ولما تألفت منهم أمة واحدة قوية منظمة . وأرقى البشر وأرفعهم درجة هم الذين يستطيعون أن يعبدوا الله عبادة تقوم على الحب الحر ، وهو الذى لا ينبعث من الرغبة أو الرهبة ؛ ولكن هؤلاء لا يكشفون عن هذه المرتبة السامية لعامة أتباعهم بل يكشفونها لمن كملت عقولهم وسمت نفوسهم (٧٤) .

وكتابا السقاء والقانون لابن سينا هما أرقى ما وصل إليه التفكير الفلسفى فى العصور الوسطى ، وهما من أعظم البحوث فى تاريخ العقل الإنسانى . وهو يسترشد فى كثير من بحوثه فى الكتابين بأرسطو والفارابى ، كما استرشد أرسطو فى كثير من بحوثه بأفلاطون . غير أن هذا لا ينقص من قدره ، ذلك أن نزلاء المستشفيات العقلية هم وحدهم المبلعون تمام الإبداع الذين لا يتأثرون بعقول غيرهم . وفى بعض أقوال ابن سينا ما يبدو لعقولنا المعرضة إلى الخطأ أنه سخف وهراء ، ولكن هذا الحكم بعينه ينطبق أيضاً على أقوال أفلاطون وأرسطو ؛ والحق أنه ليس ثمة سخيف لا يجده فى صحف الفلاسفة . ولسنا نجد عند ابن سينا ما نجده عند البيرونى من أمانة التشكك ، وروح النقد ، واتساع الأفق ، وحرية العقل ؛ وهو أكثر منه أخطاء ؛ ذلك أن البحوث التركيبية لا بد أن تودى هذا الثمن ما دامت الحياة على ما هى من قصر الأمد . ولقد بز الرئيس ابن سينا جميع أقرانه بوضوح أسلوبه ، وحيويته ، وبقدرته على جعل التفكير المجرد مشرقاً بعيداً عن السامة والملل بما يثمه فيه من القصص الإيضاحية وأبيات الشعراتى لا نرى عليه مأخذاً فى إيرادها ، وباتساع مجاله الفلسفى والعلمى اتساعاً منقطع النظير . ولقد كان ابن سينا عظيم الأثر فىمن جاء بعده من الفلاسفة والعلماء ، وقد تعدى هذا الأثر بلاد المشرق إلى الأندلس حيث شكل فلسفة ابن رشد وابن ميمون ، وإلى العالم المسيحى اللاتينى وفلاسفته

المدرسين ؛ ولنا لنددهش من كثرة ما نجده من آراء ابن سينا في فلسفة ألبرتس مجنس ، وتومس أكوناس ، ويسميه روجرييكن : « أكبر عميد للفلسفة بعد أرسطو » (٧٥) . ولم يكن أكوناس وهو يتحدث عنه بنفس الاحترام الذي يتحدث به عن أفلاطون مجاملا قط كالمؤلف عادته حين يتحدث عن عطاء الرجال (*) .

وكاد أجل الفلسفة العربية في الشرق ينقضى بموت ابن سينا ؛ ذلك أن نزعة السلاجقة السنية القوية ، وارتياح رجال الدين من الآراء الفلسفية الجريئة ، وانتصار نزعة الغزالي الصوفية ، لم تلبث كلها أن قضت على كل تفكير . وإن مما يؤسف له أن يكون علمنا بتلك القرون الثلاثة (٧٥٠ - ١٠٥٠) التي ازدهر فيها التفكير الإسلامي ناقصاً كل النقص . ويرجع سبب ذلك إلى أن آلافاً من المخطوطات العربية في العلوم ، والآداب ، والفلسفة لاتزال مخبوءة في مكتبات العالم الإسلامي . ففي إسطنبول وحدها ثلاثون من مكتبات المساجد ، لم ير الضوء من مخطوطاتها إلا النزر اليسير ؛ وفي القاهرة ، ودمشق ، والموصل ، وبغداد ودهلي ، مجموعات ضخمة ، لم يعن أحد حتى بوضع فهرس لها (***) ؛ وفي الأسكوريال بالقرب من مدريد مكتبة ضخمة لم يفرغ بعد من إحصاء ما فيها من

(*) احتفل في عام ١٩٥٢ بالعيد الألفى لابن سينا حسب التاريخ الهجري وأقيم له قبر رائع في همدان ونشرت مصر بهذه المناسبة بعض مؤلفاته . (المترجم)

(**) مما نسجله بمزيد الحمد للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية أنها عنيت عناية كبيرة بالبحث عن هذه المخطوطات في مكتبات العالم الإسلامي ، فأرسلت الوفود العلمية لتصوير ما يوجد منها في تلك المكتبات ، وهي جادة في هذا العمل الجليل . لكننا نرجو أن تقوم وزارات المعارف في الدول الإسلامية بنصيحها فيه ؛ فإنه في اعتقادنا أوسع من أن تضطلع به الإدارة الثقافية وحدها . (المترجم)

مخطوطات إسلامية في العلوم ، والآداب ، والشريعة ، والفلسفة (٧٧) .
وليس ما نعرفه من ثمار الفكر الإسلامي في تلك القرون الثلاثة إلا جزءاً
صغيراً مما بقي من تراث المسلمين ، وليس هذا الجزء الباقي إلا قسماً ضئيلاً
مما أثمرته قرائمهم ؛ وليس ما أثبتناه في هذه الصحف إلا نقطة من بحر
تراثهم . وإذا كشف العلماء عن هذا التراث المنسى فأكبر ظننا أننا سنضع
القرن العاشر من تاريخ الإسلام في الشرق بين العصور الذهبية في تاريخ
العقل البشري . .

الفصل الخامس

التصوف والإحساد

يلتقى الدين والفلسفة في أعلى درجاتهما في معنى وحدة الكون وفي تأمل هذه الوحدة . والنفس حين لا تسلك طريق البحث على منهاج العقل والمنطق ، وحين تعجز عن الانتقال من الكثرة إلى الوحدة ، ومن الحادث الفرد إلى القانون العام ، قد يكون في وسعها أن تصل إلى هذه الرؤيا عن طريق اندماج النفس الفردية وتلاشيها في النفس الكلية . وحيث عجز العلم وعجزت الفلسفة ، وحيث يرتد عقل الإنسان القاصر المحدود أمام اللانهاية نحاساً وهو حسير ، فإن الإيمان قد يسمو بالإنسان إلى ما بين عرش الله إذا أخذ نفسه بنظام صارم من الزهد ، والتقشف ، والتفاني في العبادة ، والتجرد من كل رغبة أنانية ، وإفناء الجزء في الكل لإفناء كاملاً .

ويرجع التصوف الإسلامي إلى أصول كثيرة : منها نزعة الزهد عند فقراء الهندوس ، وغنوطسية مصر والشام ، وبحوث الأفلاطونية الجديدة عند اليونان المتأخرين ، وتأثير الرهبان المسيحيين الزاهدين المنتشرين في جميع بلاد المسلمين . وقد وجدت في العالم الإسلامي ، كما وجدت في العالم المسيحي ، أقلية تقيّة تعارض في تكييف الدين حسب وسائل العالم الاقتصادي ومصالحه ؛ فكانوا ينددون بترف الخلفاء ، والوزراء ، والتجار ، ويدعون المسلمين أن يعودوا إلى بساطة أبي بكر وعمر بن الخطاب . وكانوا يرفضون فكرة وجود وسيط أياً كان بينهم وبين الله ؛ وحتى فروض الصلاة الصارمة نفسها كانت تبدو لهم عقبة تحول بينهم وبين تلك المرتبة التي تسمو فيها الروح بعد أن تتطهر من جميع مشاغلها الدنيوية حتى تشهد ذات الله العلية : فإذا سمت فوق هذه المرتبة استطاعت أن تتحد

مع ذات الله نفسها . وازدهرت حركة التصوف في بلاد الفرس بنوع خاص ولعل سبب ازدهارها فيها قربها من بلاد الهند ، كما ازدهرت في جنديسابور بتأثير الديانة المسيحية وتقاليد الأفلاطونية الجديدة التي وضعها فلاسفة اليونان بعد أن فروا من أثينة إلى فارس في عام ٥٢٩ . وكلمة صوفي التي تطلق على معظم الزهاد المسلمين مشتقة من ثياب الصوف البسيطة التي كانوا يرتدونها(*) . وكانت طوائف الصوفية تضم كثيرين من المؤمنين بمبادئها المتحمسين لها ، ومن كبار الشعراء ، والقائلين بوحدة الوجود ، والزهاد ، والمشعوذين ، والكثيرى الزوجات . وكانت مبادئهم تختلف باختلاف الأوقات والبيئات ؛ ويقول ابن رشد إن الصوفيين يعتقدون أن معرفة الله مستقرة في قلوبنا ، بعد أن نتخلى عن جميع الشهوات الجسدية والانقطاع إلى الله (٧٨) . ولكن كثيرين من الصوفيين حاولوا أن يصلوا إلى الله عن طريق الأشياء الخارجية أيضاً ، فقالوا إن كل ما نراه في العالم من آكمال وجمال سببه حلول الله فيه . ويقول أحد الصوفية إنه لا يسمع صوت الحيوان ، أو خفيف أوراق الشجر ، أو خرير الماء ، أو تغريد الطير ، أو هبوب الريح ، إلا أحس أنها كلها شواهد على وحدانيته وأنه سبحانه لا شبيه له (٧٩) .

والحق أن الصوفي يعتقد أن هذه الأشياء المتفرقة إنما توجد بما فيها من القوة الإلهية ، وأنها إنما وجدت لما هو كامن فيها من روح الله . وعلى هذا فالله هو كل شيء ، وهم لهذا لا يكتفون بالقول بأنه لا إله إلا الله ، بل يضيفون إلى هذا أنه لا موجود بحق سواه (٨٠) . وعلى هذا فكل نفس هي الله ؛ والصوفي الكامل يجهر في غير موارد بأنه « هو نفس الذات الإلهية » . ويقول أبو يزيد (حوالي عام ٩٠٠) : « إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني » (٨١) (***) . ويقول الحسين

(*) في كتاب الأستاذ رينولد ا . نيكولسون ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفي فصل قيم في سبب هذه التسمية فليرجع إليه من يريد التوسع في هذا البحث . (المترجم)
(**) يقول الأستاذ نيكولسون إن في نسبة هذه الأقوال إلى أبي يزيد بعض الشك . انظر ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفي السالفة الذكر . (المترجم)

ابن منصور الحلاج :

«أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا
إني مغرق قوم نوح ومهلك عاد وثمود . . . أنا الحق» (٨٢) (*)

وقبض على الحلاج لمقالاته في عقيدته الصوفية ، وضرب مائة سوط
وألقى في النار حتى مات (٩٢٢) . ويدعى أتباعه أنهم شاهدوه وتحدثوا
إليه بعد أن خمدت أنفاسه على هذا النحو إلى حين ، واتخذة كثيرون من
الصوفية وليهم وحاميم .

ويعتقد الصوفي كما يعتقد الهندوسي أن نظاماً صارماً من التطهير لا بد
منه لكي ينكشف عنه الغطاء ويرقى إلى عالم الفيض والإلهام . والتطهير
يكون بضروب من التفاني في الطاعات ، والتأمل والنظر والتدبير ، والصلاة ،
وإطاعة المرشد لأستاذه الصوفي أو معلمه ، والتجرد الكامل من جميع
الشهوات البدنية ، بما فيها التجرد من شهوة النجاة ، والاتحاد الصوفي مع
الله . والصوفي الكامل يحب الله لذاته لا رغبة في ثواب ولا خوفاً من عقاب .
وفي ذلك يقول أبو القاسم إن المعطى خير من العطية (٨٣) . والصوفي عادة
يتخذ هذا النظام وسيلة يصل بها إلى معرفة الأشياء معرفة حقيقية ، ومنهم
من يتخذ نهجاً يرتفع به إلى درجة من الكرامة تجعل له سلطاناً على
الطبيعة ، ولكنه يكاد يكون على الدوام سبيلاً إلى الاتحاد مع ذات الله .
ومن فنيت نفسه فناء تاماً في هذا الاتحاد يسمى عندهم الإنسان الكامل (٨٤) .
ويعتقد الصوفية أن من وصل إلى هذه المرتبة أصبح فوق كل القوانين ،
وغير ملزم حتى بأداء فريضة الحج . وفي ذلك يقول أحد المتصوفة

(*) يذكر ابن النديم صاحب الفهرست أسماء ٣٥ كتاباً للحلاج منها كتاب نور النور
التجليات ، وكتاب علم البقاء والفناء ، وكتاب كيف كان وكيف يكون ، وكتاب لا كيف .
(المترجم)

إن كل العيون تتجه نحو الكعبة أما عيوننا ففتتجه نحو وجه الحبيب (٨٥) .
وظل الصوفية يعيشون في الدنيا كسائر الناس حتى منتصف القرن
الحادى عشر ، وكانوا أحياناً يعيشون مع أسرهم وأبنائهم . بل إنهم كانوا
لا يرون أن للعزوبة قيمة كبرى من الناحية الأخلاقية . وفي ذلك يقول
أبو سعيد إن الولى الحقيقى يسير بين الناس ، ويأكل وينام معهم ، ويشترى
ويبيع فى الأسواق ، ويتزوج ، ويشترك مع الناس فى مجالسهم ، ولا ينسى
الله لحظة واحدة (٨٦) .

ولم يكن هؤلاء الصوفية يمتازون عن غيرهم بشىء سوى بساطة حياتهم ،
وتقواهم وخشوعهم ، وهم يشبهون من هذه الناحية طائفة الكويكرين
المسيحيين . وكانوا من حين إلى حين يجتمعون حول شيخ من الأتقياء
الصالحين أو يجتمعون جماعات للصلاة والدعوة المتبادلة إلى التقى والصلاح ،
وقد بدأت منذ القرن العاشر مجالس الذكر التى أصبح لها شأن عظيم عند
الصوفية المتأخرين . ومنهم عدد قليل اعتزلوا العالم وعذبوا أنفسهم ، وإن
كان الزهد فى ذلك الوقت من الأمور النادرة ، وكان يلقى كثيراً من المقاومة .
وكثر الأولياء من بين الصوفية بعد أن لم يكن لهم وجود فى بداية الإسلام .
ومن أوائل هؤلاء رابعة العدوية من أهل البصرة (٧١٧ - ٨٠١) .
وكانت فى شبابه جارية اشترت بالمال ولكن سيدها أعتقها لأنه شاهد
هالة من النور فوق رأسها وهى قائمة للصلاة . وأبت رابعة أن تزوج
وعاشت عيشة الزهد ، وإنكار الذات ، وفعل الخير . وسملت فى يوم من
الأيام « هل تكرهين الشيطان ؟ » ، فأجابت : « إن حبى لله قد منعنى من
الاشتغال بكراهية الشيطان » . ومما يروى عنها تلك المناجاة الصوفية الدائمة
الصيت : « إلهى ! إن كنت عبدتك خوف النار فاحرقنى بالنار ، أو طمعاً
نى الجنة فحرّمها علىّ ، وإن كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمنى
(١٦ - ج ٢ - مجلد ٤)

من مشاهدة وجهك ؛ إلهى ! كل ما قدرته لى من خير فى هذه الدنيا أعطه لأعدائك ، وكل ما قدرته لى فى الجنة امنحه لأصدقائك ، لأنى لا أسعى إلاّ إليك وحدك» (٨٧) (*).

ولنختر من بين الصوفية وهم كثيرون واحداً من الأولياء الصالحين هو الشاعر أبو سعيد بن أبى الخير (٩٦٧ - ١٠٤٩) . ولد هذا الرجل فى مهنة من أعمال خراسان واتصل بابن سينا ؛ ويروى عنه أنه قال فى هذا الفيلسوف إن ما يراه ابن سينا يعرفه هو (٨٨) . وقد أولع فى صباه بالأدب البندى ، ويقول عن نفسه إنه حفظ عن ظهر قلب ثلاثين ألف بيت لشعراء الجاهلية ؛ ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره سمع فى يوم من الأيام درساً لأبى على يدور حول قوله تعالى « قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » . ويقول أبو سعيد إنه ما كاد يسمع هذه الآية حتى فتح فى قلبه باب الإيمان وكأنما انزع من نفسه فجميع كتبه كلها وأحرقها ثم آوى إلى ركن فى بيته ، وجلس فيه سبع سنين يذكر فيها اسم الله . ولقد كان تكرر لفظ الجلالة عند الصوفية المسلمين سبيلاً محببة إلى « الفناء » ويقصدون به انتقال الصوفى عن نفسه فى حال وجده . وزاد أبو سعيد على هذا عدة أساليب من الزهد والتقشف ، فلم يلبس إلا قيصاً واحداً ، ولم يتكلم إلا عند الضرورة القصوى ، ولم يذق الطعام إلا وقت الغروب . ولم يكن طعامه إلا كسرة من الخبز ، ولم يرقد على فراش لينام ، وحضر فى جدار بيته حفرة ، لا تزيد حين يقف فيها على طولته وعرضه ، وكثيراً ما كان يحبس نفسه فيها . ويسد أذنيه لكيلا تصل إليهما أصوات من الخارج . وكان فى بعض الليالى يربط نفسه بجبل ويتدلى برأسه فى بئر ، ويتلو القرآن كله قبل أن يخرج إلى سطح الأرض - هذا إذا صدقنا قول أبيه عنه . وقد عكف على خدمة غيره من الصوفية ، فكان يتسول لهم ، وينظف

(*) نقلنا هذا النص عن « تذكرة الأولياء للمطار ، والذى أورده المؤلف هو الجزء الثانى ، وقد أضفنا نحن الجزء الأول إتماماً للفائدة . (المترجم)

لم خلواتهم وفضلاتهم . ويقول عن نفسه إن امرأة صعدت إلى سقف المسجد وهو فيه وألقت عليه الأقدار ، ولكنه مع ذلك ظل يسمع صوتاً يناديه « أليس الله بكاف عبده ؟ » . ولما بلغ الأربعين من عمره وصل إلى مرتبة الإشراف الكامل وبدأ يخطب الناس ، والتف حوله كثيرون من الأنقياء المخلصين ، ويؤكد لنا هو أن بعض مستمعيه كانوا يلبخون وجوههم بروث حمارة لتحل عليهم بركته^(٨٩) . وقد ترك أثره في التصوف بأن أنشأ خانقاه للدررايش ووضع لها طائفة من القواعد جعلها نموذجاً لأبناء الطائفة في القرن الذي بعده .

وكان أبو سعيد يعلم الناس ، كما علمهم القديس أوغسطين ، أن رحمة الله ، لأعمال العبد الصالحة ، هي سبيل النجاة ؛ ولكنه كان يعنى بالنجاة ، التحرر الروحي ، ولم يفهمها على أنها دخول الجنة ، ويقول إن الله يفتح للإنسان باباً بعد باب وأولها باب التوبة ثم يأتي بعدها باب اليقين فإذا بلغه تقبل السباب والتحقير وعلم علم اليقين مصدره ... ثم يفتح له الله بعدئذ باب الحب ، ولكنه لا ينفك يقول في نفسه « أحب » . . . ثم يفتح له باب التوحيد . . . وعنده يدرك أن الله كل شيء وأن كل شيء منه وإليه . . . ويعرف أنه غير محق في قوله « أنا » أو « لى » . . . لأن الرغبات تتساقط عنه فيتخلى عنها ويهدأ باله . . . لأن الإنسان لا يفر من نفسه إلا إذا قتلها . إن نفسك تبعذك عن الله ، وتقول إن فلاناً وفلاناً يتوعداًني في الشر . . . وهذا قد أحسن إلى - كل هذا شرك بالله ، فليس شيء يعتمد على المخلوقات ، بل يعتمد كل شيء على الخالق . إن عليك أن تعرف هذا ، فإذا قلته فاثبت عليه . . . والثبات معناه أنك إذا قلت « واحداً » فلا تقل « اثنين » أبداً . . . قل الله واثبت على هذا القول^(٩٠) .

وتظهر هذه العقيدة الهندية - الإرسونية^(*) في بعض الأقوال المنسوبة إلى أبي سعيد وإن كانت نسبتها إليه مشكوكاً فيها !

(*) أى التى هى مزيج من عقائد الهند وإرسن الفيلسوف الأمريكى . (المترجم)

وسألته : « لمن يكون جمالك ؟ » فقال : « لى » لأنه لا موجود سوى ؛
أنا الحب ، والمحجوب ، والحب كلها فى واحد ، أنا الجمال ، والمرآة ،
والعينان اللتان تريان (٩١) ؛

وإذا لم يكن عند المسلمين ، كما كان عند المسيحيين ، كهانة تثبت
لهؤلاء الأبطال الصالحين قداستهم ، فقد خلع عليهم الشعب نفسه هذه
القداسة ، ولم يجل القرن الثانى عشر الميلادى حتى غلبت عواطف الشعب
الطبيعية ، ما نهى عنه الدين من تقديس الأولياء الصالحين واعتبار هذا
التقديس ضرباً من الوثنية . وكان من أوائل هؤلاء الأولياء الصالحين لإبراهيم
ابن أدهم (القرن الثامن ؟) ، وهو الذى يسميه لى هنت Leigh Hunt
فى قصيدة له مشهورة أبو بن أدهم Abou ben Adhem . ويعزو خيال
العامة لى هؤلاء الأولياء قوى خارقة فيقولون إنهم قد كشف عن أعينهم
الغطاء فأصبحوا يرون ما لا يراه عامة الناس ، ويقرءون الأفكار ،
ويتبادلون الخواطر والمشاعر مع الناس ، بل إنهم يبالبغون فى مقدرتهم
فيقولون إن فى وسعهم أن يتتلعوا النار والزجاج دون أن يصيبهم من ذلك
أذى ، وأن يخرقوا النيران من غير أن يخرقوا بها ، وأن يمشوا على
الماء ، ويطيروا فى الهواء ، ويمتازوا المسافات الشاسعة فى غمضة عين .
ويروى أبو سعيد حالات من قراءة الأفكار لا تقل غرابة عن أغرب
ما يروى من نوعها فى هذه الأيام (٩٢) . وهكذا يحدث على توالى الأيام
أن الدين (*) الذى يظن بعض الفلاسفة أنه من صنع القساوسة والكهان ، يتشكل
ثم يتشكل بتأثير حاجات الناس وعواطفهم وخيالهم ، حتى يصبح التوحيد
الذى يجرى به الأنبياء ثم يكون هو بعينه الشرك الذى يعتقدته عامة الشعب .
وقبل المسلمون من أهل السنة الصوفية فى حظيرة الدين الإسلامى ، وأفسحوا

(*) لا حاجة إلى التنبيه بأن الكاتب لا يقصد بهذا ديناً معيناً بل يشير إلى الأديان

بوجه عام . (المترجم)

لهم مجالاً كبيراً في عقائدهم وأقوالهم : ولكن هذه الخطة الحكيمة لم تمتد إلى الطوائف المارقة التي تخفى تحت ستار العقائد الدينية آراء سياسية ثورية ، أو تدعو إلى الفوضى الأخلاقية والقانونية : ومن بين هذه الطوائف الثورية التي مزجت في عقائدها الدين بالسياسة طائفة « الإسماعيلية » : ويذكر القارىء ما قلناه قبل من أن الشيعة يقولون إن على رأس كل جيل من أبناء علي إلى الجيل الثاني عشر إماماً أو زعيماً ، وإن هذا الإمام يختار من يخلفه في هذه الزعامة . وعلى هذا الأساس عين الإمام السادس جعفر الصادق ابنه إسماعيل خليفة له من بعده . ويقال إن إسماعيل هذا أدمن الخمر ، فخلعه جعفر عن الإمامة واختار بدله موسى الإمام السابع (حوالي عام ٧٦٠) : ورأى بعض الشيعة أن بيعة إسماعيل لا يجوز نقضها وقالوا إنه هو أو ابنه محمد هو الإمام السابع وآخر الأئمة . وظلت طائفة « الإسماعيلية » هذه نحو مائة سنة قليلة الخطر لا يؤبه بها ، حتى تزعمها عبد الله بن ميمون القداح وأرسل المبشرين يدعون إلى عقيدة الطائفة في بلاد الإسلام . وكان يطلب إلى المبتدئ قبل الدخول في الطائفة أن يقسم بالألا يفشى شيئاً من أسرارها ، وأن يطيع الزعيم الأكبر للطائفة في كل ما يأمره به . وكانت تعاليمهم قسمين أحدهما باطنى وآخر ظاهري . وكان يقال لمن يدخل في مذهبهم إنه بعد أن يمر بتسعة مراحل ترفع عنه جميع الحجب ، وينكشف له التعليم أو العقيدة الخفية (الله هو كل شيء) فيصبح فوق كل عقيدة وكل قانون . وفي المرتبة الثامنة يقال له إن الكائن الأعلى لا يمكن أن يعرف عنه شيء ، وإن أحداً لا يستطيع أن يعبده (٩٣) ، وقد انضم إلى طائفة الإسماعيلية كثيرون من فلول الحركات الشيوعية ، دفعهم إلى هذا ما تقول به من أن مهدياً سيظهر في وقت من الأوقات ، ويبسط على الأرض عهداً من المساواة ، والعدالة ، والحب الأخوي . وقد أوضحت هذه الطائفة الأخوية العجيبة قوة ذات شأن عظيم في الإسلام سيطرت في وقت من الأوقات على شمالي إفريقية ومصر ، وأسست الخلافة الفاطمية ، وقامت في أواخر

القرن التاسع بحركة كادت تقضى على الخلافة العباسية :

ولما مات عبد الله القداح في عام ٨٧٤، تولى زعامة الإسماعيلية فلاح عراقي اشتهر باسم حمدان قرمط ، وبعث فيها من النشاط ما جعل الناس في آسية يسمون أتباعها في وقت من الأوقات بالقرامطة نسبة إليه : وكان يرمى إلى القضاء على قوة العرب ، وإعادة الدولة الفارسية ؛ وضم إليه خفية آلافا من المؤيدين ، والأهوان ، وفرض عليهم أن يخرجوا عن خمس أملاكهم ودخلهم ليصبح ملكا عاما للجماعة : ودخل للمرة الثانية عنصر من عناصر الثورة الاجتماعية في تلك الحركة التي كانت في ظاهر أمرها نوعا من الصوفية الدينية . فكان القرامطة يقولون بشيوعية الملك والنساء^(٩٤) ، وقد نظموا العمال في طوائف للحرف ، ونادوا بالمساواة بين كافة الناس ، وأخذوا يفسرون القرآن تفسيراً مجازياً لا يتقبلون فيه بأقوال أهل السنة . وكانوا يتحللون من الشعائر الدينية ومن الصيام ، ويسخرون من البلهاء الذين يعبدون الأضرحة والحجارة^(٩٥) : وبلغ من أمرهم أن أقاموا في عام ٨٩٩ دولة مستقلة على الشاطئ الغربي للخليج الفارسي ، وهزموا جيش الخليفة في عام ٩٠٠ ، وأفنوه عن آخره ، ولم ينج من القتل جندي واحد . وفي عام ٩٠٢ اجتاحوا بلاد الشام ووصلوا إلى أبواب دمشق ، وفي عام ٩٢٤ نهبوا البصرة ثم الكوفة ؛ وفي عام ٩٣٠ نهبوا مكة نفسها ، وقتلوا ثلاثين ألفا من المسلمين ، وعادوا بكثير من الغنائم ، منها كسوة الكعبة ، والخنجر الأسود^(*) : غير أن هذا الغلو وهذه الانتصارات استنفدت قوة تلك الحركة ؛ واتحد الناس لمقاومة دعوتها التي كانت تهدد الملك والنظام العام ؛ ولكن مبادئها وأساليبها العنيفة انتقلت في القرن التالي إلى إسماعيلية الموت^(**) ، وهم المعروفون بالحشاشين ٥

(*) وأعيد الحجر إلى الكعبة في عام ٩٥١ بأمر الخليفة الفاطمي المنصور .

(**) ويسمى أيضاً عش النمر . (المترجم)

الفصل السادس

الأدب

لقد كان في الحياة والدين في الإسلام مواقف أشبه ما تكون بالمرسحيات ، أما الأدب الإسلامي فقد خلا من هذا الصنف من صنوف الكتابة ، وهو صنف يبدو أنه غريب على العقلية السامية ، كذلك خلا ذلك الأدب كما خلا غيره من آداب العصور الوسطى من الروايات القصصية ، فقد كانت معظم الكتابات مما يستمع إليه الناس لا مما يقرؤونه وهم صامتون ، ولم يكن في وسع من يهتمون بنتائج الخيال أن يرقوا إلى الدرجة التي يستطيعون أن يركزوا فيها عقولهم ذلك التركيز الذي لا بد منه لكتابة القصة المعقدة المتصلة الحلقات ، أما القصص القصيرة فكانت قديمة قدم الإسلام نفسه أو قدم آدم أبي البشر ، وكان أكثر المسلمين سذاجة ينصتون إليها في حماسة الأطفال وتشوفهم ، أما العلماء فلم يكونوا يحسبونها أدباً ، وكانت أشهر هذه القصص القصيرة قصص بيدبا ، وقصص ألف ليلة وليلة . وقد نقلت القصص الأولى من الهند إلى فارس في القرن السادس ، وترجمت إلى اللغة الفهلوية ، ومنها ترجمت إلى اللغة العربية في القرن الثامن . ثم فقد أصلها السنسكريتي ، وبقيت الترجمة العربية ، ومنها نقلت إلى ما يقرب من أربعين لغة أخرى .

يحدثنا المسعودي (المتوفى عام ٥٩٧) في مروج الذهب عن كتاب فارسي يدعى هزارأفسانه أو ألف قصة وعن ترجمته العربية ألف ليلة وليلة ؛ وهذه على ما نعلم أول مرة ذكر فيها كتاب ألف ليلة وليلة . وخطة الكتاب كما يصفها المسعودي هي الخطة التي نجدها في كتاب ألف ليلة وليلة العربي . وكان هذا

الإطار المحتوى على سلسلة من القصص معروفاً من قديم الزمن في بلاد الهند ، وكان عدد كبير من هذه القصص متداولاً في العالم الشرقى ، ولربما كانت كل مجموعة منها تختلف في محتوياتها عن غيرها من المجموعات ، ولسنا واثقين أن أية قصة في المجموعة المعروفة لنا الآن كانت من القصص التي تحتويها المجموعة التي يحدثنا عنها المسعودى . وحدث بعد سنين قلائل من عام ١٧٠٠ أن أرسل مخطوط غير كامل ، لا يمكن تتبع تاريخه إلى ما قبل عام ١٥٣٦ ، من بلاد الشام إلى المستشرق الفرنسى أنطوان جالان . Antoine Galland ، وافتتن هذا المستشرق بخيال القصص الغريب ، وبما فيها من وصف لحياة المسلمين الداخلية ، ولعله افتتن أيضاً بما فيها من بداعة ، فأصدر في باريس عام ١٧٠٤ أولى تراجمها إلى اللغات الأوربية Les mille et une nuits . ونجح الكتاب نجاحاً فوق ما كان يتوقع له ، وترجم إلى جميع اللغات الأوربية ، وشرع أطفال جميع الأمم يتحدثون عن السندباد البحرى ، وعن مصباح علاء الدين ، وعن على بابا والصوص الأربعين . وخرافات بيدبا ، وقصص ألف ليلة أكثر ما يقرأه الناس من الكتب في العالم كله إذا استثنينا الكتاب المقدس (وهو أيضاً كتاب شرقى) (*) .

والنثر الأدبى فى الكتب الإسلامية صوره من الشعر . ذلك أن المزاج العربى ينزع إلى الشعور القوى ، والآداب الفارسية تميل إلى الكلام المزخرف ، واللغة العربية التي كانت فى الوقت الذى نتحدث عنه يتكلم بها أهل البلدين تدعو إلى جعل النثر مقفى لتشابه أواخر الألفاظ طوعاً لقواعد الصرف ؛ ولهذا فإن النثر الأدبى كثيراً ما يكون مسجوعاً ؛ وكان الوعاظ ، والخطباء ، والقصاصون ، يلجأون إلى النثر المسجع ، وبهذا كتب بديع الزمان الهمداني (المتوفى عام ١٠٠٨) مقاماته — وهى قصص كان يرويها للجماعات مختلفة عن وغد

(*) والقرآن بطبيعة الحال وهو الذى يقرؤه كله أو بعضه مسلمو العالم أجمعون . (المترجم)

أفاق أوتى من الذكاء والفكاهة أكثر مما أوتى من الأخلاق الطيبة : وكانت حقول أهل الشرق الأدنى في ذلك الوقت تتأثر بما يصل إليها عن طريق الأذن ، شأنهم في هذا شأن جميع الناس قبل اختراع الطباعة ، وكان الأدب عند معظم المسلمين لا يعدو أن يكون قصيدة تنشد أو قصة تروى ، وكانت القصائد تكتب لكي تقرأ بصوت عال أو تغنى ، وكان كل شخص في بلاد الإسلام من الخليفة إلى الفلاح يطرب لسماعها . ولما كان هناك شخص لا يقرض الشعر - كما كانت الحال عند طبقة السموراي في بلاد اليابان . وكان من ضروب التسلية العامة لدى الطبقات المتعلمة أن يكمل شخص بيتا من الشعر بدأه غير ، أو يتم مقطوعة بدأها زميله ، أو ينافس مناظراً له في ارتجال مقطوعة غنائية أو نكتة شعرية . وكان الشعراء ينافس بعضهم بعضاً في ابتداع ضروب معقدة من الأوزان والقوافي ، وكان كثيرون منهم يقفون أواسط الأبيات الشعرية وأواخرها ، وكثرت ضروب الأوزان والقوافي في الشعر العربي وكان لها بالغ الأثر في نشأة القافية في الشعر الأوربي .

ولم تضارع حضارة من الحضارات ولم يضارع عصر من العصور - لانستثنى من هذا التعميم حضارة الصين في أيام لي بو ، ودوفو ، ولا حضارة فيمار Veimar حين كان فيها « مائة مواطن وعشرة آلاف شاعر » - الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية في عدد شعرائها وتراثهم . وقد جمع أبو الفرج الإصفهاني (٨٩٧ - ٩٦٧) في أواخر ذلك العصر كثيراً من أشعارهم في كتاب الأوغالي . وحسينا دليلاً على غنى الشعر العربي وتنوعه أن نعرف أن هذا الكتاب يتكون من عشرين مجلداً . وكان الشعراء ينشرون الدعايات المختلفة ، والتاس ينشون هجوهم اللاذع ، والأغنياء يتعاونون بمديحهم بيتا بيتا ، والخلفاء يجيزون الشعراء بالمناصب العالية وينفحونهم بالهبات السخية إذا قالوا فيهم قصائد من الشعر أو مجدوا أعمالهم أو مدحوا قبائلهم . ويحكى أن هشاماً أراد مرة أن

يتذكر قصيدة من القصائد فأرسل في طلب حماد الشاعر الراوية ، وكان من حظه أنه يذكر هذه القصيدة بأكملها ، فلما أنشدها لهشام أجازته بجاريتين وبخسعين ألف دينار (٩٧) ، وأكبر ظننا أن أحداً من شعراء هذه الأيام لن يصدق هذه القصة . وبعد أن كان الشعر العربي ينشد لبدو الصحراء ، أضحى الآن يوجه إلى قصور الخلفاء ورجال حاشيتهم ، وأصبح الكثير منه متكلفاً ، أكثر ما يعنى به هو الشكل ، شديد التأنق إلى حد التفاهة ، كثير المجاملة خالياً من الإخلاص ؛ ولهذا نشبت معركة بين أنصار القديم وأنصار الحديث ، وأخذ النقاد يشكون وهم متألمون قائلين إنه لم يوجد شعراء عظماء إلا قبل عهد النبوة (٩٨) .

والحب والحرب أكثر مواءمة للشعر من الموضوعات الدينية ، وقلما كان شعر العرب صوفي النزعة (وإن كان هذا الحكم لا يصدق على شعر الفرس) ؛ فقد كان الشاعر العربي يفضل أناشيد القتال ، والعاطفة ، والانفعالات النفسية ؛ ولما أن اختتم قرن الفتح الإسلامية أخذ الشعراء يستمدون وحيمهم من النساء أكثر مما يستمدونه من الموضوعات الحربية والدينية ، وأخذ شعراء الإسلام يصفون مفاتن المرأة - شعرها العطر ، وعينيها الشبيهتين بالدرتين ، وشفثها القرمزيتين ، وأطرافها الفضية ؛ وظهرت الصحراوات وفي المدينتين المقدستين القصائد الغنائية ؛ وأصبح الأدب في عرف الفلاسفة والشعراء يعني آداب الحب وسلوك المحبين ؛ وانتقل هذا المعنى عن طريق مصر وإفريقية إلى صقلية وأسبانيا ، ومنها إلى إيطاليا وپروفانس Provence في فرنسا ، وانطلقت الألسن وجادت القرائح بالشعر الموزون المقفى .

واشتهر الحسن بن هاني باسم أبي نواس - لغدائره التي كانت تنفوس على كتفيه . وكان مولده في بلاد الفرس ، ثم رحل إلى بغداد ، ونال الخطوة عند الخليفة الرشيد ، ولعله اشترك معه في واحدة أو اثنتين من المغامرات التي تعزى إليهما في كتاب ألف ليلة وليلة . وكان أبو نواس مولعاً بالخمير والنساء والغناء ،

وكثيراً ما أغضب الخليفة بإدمانه الخمر جهرة ، وبزندقته ودعارته ؛ وكثيراً ما سجنه ثم أطلقه ، وتاب أبو نواس شيئاً فشيئاً واستمسك آخر الأمر بأهداب الفضيلة ، وانتهى بأن كان يحمل المسبحة والقرآن معه أينما سار . ولكن أكثر ما كانت تحبه مجامع العاصمة هو أغانيه التي وصف فيها الخمر والفساد :

يا سليمان ! غننى ومن الراح فاسقنى
فإذا ما دارت الزجبا جبهة خذها واعطنى
ما ترى الصبح قد بدا في إزار مُسبِّين
غاطنى كأس سلوة عن أذان المؤذن^(٩٩)

تكثر ما استطعت من الخطايا فأذك بالغ ربنا غفورا
ستبصر إن قدمت عليه عفواً وتلقى سيدياً ملكاً كبيراً
تعض ندامة كفيك مما تركت مخافة النار السروراً^(١٠٠)
وكان في بلاط صغار الأمراء والسلاطين أيضاً شعراؤهم - فكان في بلاط سيف الدولة شاعر لا تكاد تعرف عنه أوربا شيئاً ، ولكن العرب يحسبونه خير شعرائهم على الإطلاق . واسم هذا الشاعر أحمد بن الحسين ، ولكنه يشتهر عند المسلمين باسم المتنبي - أى مدعى النبوة . وقد ولد هذا الشاعر في الكوفة عام ٩١٥ ، وتلقى العلم في دمشق ، ثم ادعى النبوة ، فقبض عليه وأطلق بعدئذ سراحه ، وأقام في بلاط أمير حلب . وكان كأبي نواس مستهتراً بالدين لا يصوم ولا يصلى ولا يقرأ القرآن^(١٠١) ، ومع أنه لم يكن يرى أن الحياة ترقى إلى المستوى اللائق به ، فإنه كان يستمتع بها استمتاعاً يصرفه عن التفكير في الخلود . وقد أشاد بانتصارات سيف الدولة في شعر جمع بين قوة المعنى وجمال اللفظ إلى حد أصبح معه هذا الشعر واسع الانتشار بين قراء العربية متعلد الترجمة إلى اللغة الإنجليزية . ومن هذا الشعر بيته المشهور الذي كان سبباً في هلاكه وهو :

الخليل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وذلك أن جماعة من الصووص هاجمته ، وأراد هو الفرار ، فذكره
غلامه بهذا البيت وما يحويه من تفاخر ؛ وأراد المتنبي أن يصدق فعله قوله ؛
فحارب ومات مشخناً بجراحه (٩٦٥) (١٠٢) .

وبعد ثمان سنين من ذلك العام ولد في معرة النعمان القرية من حلب
أبو العلاء المعري أعجب شعراء العرب على الإطلاق . وفقد أبو العلاء
بصره في سن الرابعة على أثر إصابته بالجدري ، ولكنه جد في طلب العلم ،
وحفظ عن ظهر قلب ما أعجبه من المخطوطات التي وجدها في دور
الكتب ، وطاف بأحاء العالم الإسلامي ليستمع إلى المشهورين من العلماء ،
ثم عاد إلى مسقط رأسه . وكان دخله السنوي خلال الخمسة عشر عاما
التي أعقبت عودته لا يزيد على ثلاثين ديناراً ، أي ما يعادل اثني عشر ريالاً
أمريكياً في الشهر ، يشاركه فيها خادمه ومرشده . وأذاعت قصائده شهرته
في العالم الإسلامي ، ولكنه كاد يهلك من الجوع لأنه أبي أن يلجأ إلى
المدنيح . وزار بغداد في عام ١٠٠٨ وأكرم الشعراء والعلماء وفادته ، ولعله
تأثر في العاصمة بآراء بعض المتشككة ، وهي الآثار التي تتخلل بعض
قصائده . وعاد منها إلى المعرة في عام ١٠١٠ وأصبح فيها من الأغنياء ،
ولكنه ظل إلى آخر أيامه يحيا حياة الحكماء البسيطة الخالية من جميع مظاهر
النعم . وكان المعري نباتياً إلى أقصى حد ، لا يكتفي بالامتناع عن لحم
الحيوان والطيور بل يمتنع كذلك عن اللبن ، والبيض ، وعسل النحل ؛ فقد
كان يرى أن الاستيلاء على هذه الأطعمة من الحيوان هو النهب بعينه . ولهذا
السبب أيضاً أبي أن يتخذ شيئاً من اللباس من جلد الحيوان ، وعاب على النساء
لبس القراء ، وأشار بلبس الأحذية الخشبية (١٠٣) . ومات المعري في الرابعة
والثمانين من العمر ، ويقول أحد أتباعه المخلصين إن مائة وثمانين شاعراً
ساروا في جنازته ، وإن أربعة وثمانين من العلماء رثوه على قبره (١٠٤) .

وأعظم ما يشهر به في بلاد الغرب هو قصائده القصيرة البالغ عددها ١٥٩٢ .

قصيدة والمعروفة بالزوميات . ولم يتحدث أبو العلاء في هذه القصائد عن النساء والحرب كما كان يتحدث عنهما زملاؤه من الشعراء ، بل عمد في جرأة إلى الحديث عن أهم الموضوعات الأساسية في الحياة : هل تتبع الوحي أو العقل ؟ - وهل الحياة خليفة بأن يحيها الإنسان ؟ - هل ثمة حياة بعد الموت ؟ - هل يوجد له ؟ . . . ويجهر الشاعر من حين إلى حين بإيمانه ؛ ولكنه يقول محذراً إن هذا الجهر هو احتياط مشروع من الاستشهاد الذي لا يرغب فيه :

إذا قلت المحال رفعت صوتي وإن قلت اليقين أطلت همسي (١٠٥)
وهو يعيب في أقواله الأمانة العلمية المطلقة ويقول :

لا تخبرن بكنه دينك معشراً شطراً وإن تفعل فأنت مغرر (١٠٦)
والمعري بصريح العبارة متشائم ، لا أدري ، يؤمن بالعقل دون الوحي :
يرتجى الناس أن يقوم إمام ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء
.....

هل صبح قول من الخاكي فنقبله أم كل ذلك أباطيل وأسماير
أما العقول قالت أنه كذب والعقل غرس له بالصدق إثمار (*)

(*) وهنا أورد الكاتب أبياتاً أخرى قال إنها من شعر أبي العلاء ، وقال في سجل المراجع إنه نقلها من كتاب أمين الريحاني المسمى 'The Quatrains of Abu, el'Ala'. وقد بحثنا أولاً فيما لدينا من كتب أبي العلاء : الزوميات ، وسقط الزند ، ورسالة الغفران فلم نعث على هذه الأبيات ، وقد وجدنا في كتاب أمين الريحاني الأبيات التي أوردها المؤلف وما بعدها ، وقوله إنها مترجمة عن الزوميات طبعة القاهرة سنة ١٨٩١ . وأعدنا البحث فلم نعث على الأبيات في هذه الطبعة . وأخيراً وجدنا الأبيات التي نقلها مؤلف هذا الكتاب وما جاء بعدها في كتاب أمين الريحاني وجدناها في شعر محيي الدين بن عربي وهي :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
فأصبح قلبي قابلاً كل صورة فرعى لغزلان وبيت لأوثان
ودير لرهبان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أني توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

وهو ينسدد بعلماء الدين الذين يسخرونه لمآرب الإنسان الدنيئة ،
والذين يملوون المساجد بالرعب حين يخطبون ، ولكنهم ليسوا في مسلكهم
خيراً من الذين يحتسون الخمر في الحانات على نفقات المغنين .

لا تطيعن قوماً ما ديانتهم إلا احتيال على أخذ الإتاوات

إتاما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا إلى الرومساء

كذب يقال على المناير دائماً أفلا يمسد لما يقال المنبر

رويدك قد غررت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء

يحرم فيكم الصبء صباحاً ويشربها على عمد مساء

تحساها فمن مزج وَصرف يعمل كأنما ورد الحساء

طلب الحسائس وارتقى في منبر يصف الحساب لأمة أيهوها

ويكون غير مصدق بقيامه أضحى يمثل في النفوس ذهوها (١٠٨)

ومن أقواله أن أحط الناس في وقته هم الذين يشرفون على الأماكن
المقدسة في مكة . فهم لا يتورعون عن أن يرتكبوا أي إثم في سبيل المال ،
وينصح مستمعيه بالألا يضيعوا أوقاتهم في الحج (١٠٩) وأن يقنعوا بعالم واحد .

وفي بطحاء مكة شر قوم وليسوا بالحماة ولا الغيارى

وإن رجال شبية سادنيا إذا راحت لكعبتها الجمارى

قيام يدفعون الناس (*) شفعا إلى البيت الحرام وهم سكارى

إذا أخذوا الزوائف أوبخوهم وإن كانوا اليهود أو النصرارى

— والأبيات الإنجليزية التي أوردتها المؤلف متقولة من كتاب أمين الريحاني ، تكاد تكون
ترجمة حرفية لهذه الأبيات . (المترجم)

(*) ويروى يدفعون الوفد . (المترجم)

وما حجي إلى أحجار بيت كؤوس الخمر تشرب في ذراها

وما الركن في قول ناس لست أذكرهم إلا بفيئة أوثان وأنصاب

لاحس للجسم بعد الروح نعلمه فهل نحس إذا بانث عن الجسد (١١٠)

ضحكنا وكان الضحك مناسفاة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا (*)

تحطمتنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك (١١١)

ويصل آخر الأمر إلى هذه النتيجة .

وإن جعلت بحكم الله في خزف يقضى الطهور فإني شاكر راضى (١١٢)

وهو يؤمن بوجود إله حكيم قادر على كل شيء ، ويعجب من الطيب الذى ينكر وجود الخالق بعد أن درس التشريح .

عجبي للطيب يلحد في الخا لئ من بعد درسه التشرىحا (١١٣)

لكنه حتى في هذه النقطة يثير بعض الصعاب فيقول :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر

لا ذنب للذنيا فكيف نلومها واللوم يلحقنى وأهل نحاسى

عنب وخر فى الإناء وشارب فمن الملووم أعاصر أم حاسى

ويقول فى سخرية شبيهة بسخرية فلنير :

رأيت سجايا الناس فيها تظالم ولاريب فى عدل الذى خلق الظلم (١١٤)

ثم ينفجر غضبه كما ينفجر غضب ديدرو Diderot فيقول :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فلئما دياناتكم مكر من القدماء

أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا وماتت سنة اللوئماء (١١٥)

(*) ومثل هذا قوله :

ضحكنا وليس ما يوجب الضحك لك لدينا بل ما يهيج انتحابا (المترجم)

وساءة ما بدا له من كذب الناس وقسوتهم فاعتزل الناس وغلب عليه
التشاؤم ، فكان عند المسلمين شيئا بئسها بئسها الأثيني (*) : يرى أن لا أمل
في إصلاح الناس لأن شرور المجتمع ناشئة من طبائع الخلق :

كتب الشفاء على الفتى في عيشه وليلغن قضااه المحتوما
فما أذنب الدهر الذي أنت لأثم ولكن بنو حواء جاروا وأذنبوا (١١٦)
رب متى أرحل عن عالمي فأنت بالناس خبير عليم
رب متى أرحل عن هذه الدنيا فقد أطلت المقام
ولهذا فإن خير ما يفعله الإنسان أن يهتزل العالم ويعيش وحيداً لا يلتقي
إلا صديقاً واحداً أو اثنين ، وأن يجيأ كما يجيأ الحيوان الوديع بعيداً
عن الخلق .

ويقول : لقد كان أفضل من هذا لو أن الإنسان لم يولد لأنه إذا ولد
قاسى العذاب والمحن حتى يبسط عليه الموت لواء السلام (١١٧) :

وما العيش إلا علة بروها الردى فخل سبيلي أنصرف لطياتي
والعيش داء وموت المرء عافية إن داؤه يتوارى شخصه حسما
والعيش سقم للفتى منصب والموت يأتي بشفاء السقام
على الموت يجتاز المعاشر كلهم مقيم بأهليه ومن يتغرب
وما الأرض إلا مثلنا الرزق تبتغي فتأكل من هذا الأنام وتشرب
كأن هلالا لاح للطعن فيهم حناء الردى وهو السنان المحرب
كأن ضياء الفجر سيف يسله عليهم صباح في المنايا ملرب
وليس في وسعنا أن ننجو من منجل الموت ، ولكن في وسعنا أن نفوت عليه

(*) انظر قصة تيمن الأثيني في مسرحية شيكسبير المعروفة بهذا الاسم ، أو في قصته
كما رواها تشارلس لام مترجمة في كتابنا «قصص من شيكسبير» : (المترجم)

غرضه بالأنا نلد له أطفالا : وفي ذلك يقول أبياتاً من الشعر لا تفترق عن أقوال
المؤمنين أشد الإيمان بأقوال شوبهور :

وإذا أردتم للبنين كرامة فالخزم أجمع تركهم في الأظهر (**)(١١٨)

وقد عمل هو بهذه النصيحة ، وكتب بنفسه قبريته وهي أشد القبريات
مرارة وأكثرها إيجازاً وأعظمها حكمة :

هذا جناه أبي عليّ . وما جنيت على أحد (**)(١١٩)

ولسنا نعرفكم من المسلمين كانوا يشاركون المعري في تشككه ؛ ذلك
أن عودة العقائد السنية القوية بعد أيامه كانت أشبه برقابة مقصودة أو غير
مقصودة على ما انحدر إلى الأجيال التالية من أدب ذلك العصر ، وقد يؤدي بنا
هذا إلى الاستخفاف بما كان في العصور الوسطى من تشكك في العالم الإسلامي
كما حدث في العالم المسيحي . وبلغ الشعر العربي عند المتنبّي والمعري ذروتها ، فلما
انقضى عهدهما علا شأن البحوث الدينية وسكن صوت الفلسفة ، فصنع هذا وذلك
الشعر العربي صبغة جديدة تنسم بعدم الإخلاص ، وتَصْنَعُ العاطفة ، وتكلف
الأناقة اللفظية في قصائد غثة تدور حول شئون بلاط الأمراء . وفي هذا الوقت
عينه كانت نهضة الفرس ، وبعثها ، وتحررها من حكم العرب تثير حمية الأمة
وتخلق فيها نهضة حققة . ولم تكن اللغة الفارسية قد استسلمت للغة العربية استسلاماً

(*) ومثلها :

أرى ولد الفقى عيماً عليه لقد سعد الذى أمسى عقيماً
أما شاهدت كل أبى وليد يؤم طريق حنق مستقيماً
فإما أن يربيه عدواً وإما أن يخلفه يتيماً
أرى النسل ذنباً للفقى لا يناله فلا تنكحن الدار غير عقيم

(**) لقد اعتمد المؤلف في إيراد هذه الأبيات وما سبقها على كتب نكلسون الواردة

في ثبت المراجع وهي جميعاً كتب مفيدة تمتعاً يرجع إليها الفضل فيما يعرفه علماء الغرب عن
روعة الشعر الإسلامى وتنوع أغراضه .

كلياً بل بقيت يتحدث بها الشعب ؛ فلما حل القرن العاشر أخذت هذه اللغة تثبت وجودها بالتدريج ، وتعود كما كانت لغة الحكيم والأدب . وكانت بذلك مظهراً لاستقلال الأمة الثقافي في عهد الأمراء الساسانيين والغزنويين . وظلت سائدة في هذا الطريق حتى أصبحت هي اللغة الفارسية الجديدة في هذه الأيام ، بعد أن استمدت ثروة طيبة من الألفاظ العربية ، وبعد أن استخدمت الخط العربي الجميل . وكان من أعظم مظاهر هذه النهضة الحديثة عمائرها الفخمة وشعرها العظم . وأضاف شعراء إيران إلى القصيدة والقطعة ، وإلى شعر الغزل المثنوي أو الشعر القصصي والرباعيات . وما لبث كل شيء في فارس - من وطنية ، وعاطفة ، وفلسفة ، ولواط ، وصلاح - أن عبر عنه الشعر .

• وبدأت هذه النهضة بالرودكي (المتوفى عام ٩٥٤) الذي كان يرتجل الشعر وينشد الأغاني ، ويعزف على القيثارة في بلاط السامانيين ببخارى . وفي هذا البلد نفسه ، وبعد جيل من ذلك الوقت طلب الأمير نوح بن منصور إلى الشاعر الدقيق أن يصوغ الخرينامة أو كتاب الملوك شعراً . وكان دانشوار (حوالي عام ٦٥١) قد جمع في هذا الكتاب قصص بلاد الفرس القديمة . وما كاد الدقيق يتم كتابة ألف بيت حتى طعنه أحد عبيده المقربين طعنة قضت على حياته . وقام الفردوسي بالعمل بعده وأتمه وأصبح هو من بلاد الفرس .

وولد أبو القاسم منصور (أو حسن) في مدينة طوس (قرب مشهد) حوالي عام ٩٣٤ ، وكان والده يشغل منصباً إدارياً في بلاط السامانيين ، وخلف لولده بيتاً ريفياً في بزاعة بالقرب من طوس . وكان أبو القاسم يقضي وقت فراغه في البحث عن الآثار القديمة . واسترعى كتاب الخرينامة انتباهه فاعتزم أن يحول هذه القصص الثرية إلى ملحمة قومية ، وسمى كتابه الشاهنامه ، أي كتاب الملوك ، واتخذ له حسب عادة تلك الأيام اسماً مستعاراً هو الفردوسي ، ولعله اشتق ذلك الاسم من غياض ضيعته . وأتم الفردوسي ملحمة في صورتها الأولى بعد

خمس وعشرين سنة من الكدح المتواصل ، ثم سافرها إلى غزنة (٩٩٩)
راجياً أن يهديها إلى أميرها محمود الرهيب :

ويؤكد لنا أحد شعراء الفرس الأقدمين أنه كان في غزنة « أربعمائة شاعر
لا يفارقون مجالس السلطان محمود » . ولوصح هذا لكان وجود هؤلاء
الشعراء عقبة كأداء في سبيل الفردوسى ، ولكنه مع هذا أفلح في استرعاء
اهتمام الوزير فجاء بالمخطوط الضخم إلى السلطان . وتقول إحدى الروايات
إن محموداً هباً للشاعر مسكناً مريحاً في قصره ، وأمهه بقدر ضخم من المادة
التاريخية ، وأمره أن يضمها إلى ملحمته . وتجمع كل الروايات التي وصلتنا
من هذه القصة على اختلاف صورها أن محموداً وعده أن يعطيه ديناراً
ذهيباً (٤٧٠ دولار) نظير كل بيت من القصيدة في صورتها الجديدة .
وظل الفردوسى يكدح زمناً لا نعرف طوله ؛ بلغت بعده القصيدة (حوالى
عام ١٠١٠) صورتها النهائية ، واشتملت على ٦٠٠٠ بيت وجيء بها
إلى السلطان . وأوشك محمود أن يبعث إلى الفردوسى المبلغ الموعود ، ولكن
بعض بطانته استكثروا العطاء ، وأضافوا إلى هذا قولهم إن الفردوسى
زنديق شيعى ومعتزل . واستمع لهم محمود وبعث إلى الشاعر بستين ألف
درهم فضى (٣٠٠٠٠ ريال أمريكى) . وغضب الشاعر وأراد أن يظهر
غضبه واحتقاره فقسم المبلغ بين خادم حمام وبائع شراب ثم فر إلى هراة ،
حيث اختفى ستة أشهر في حانوت بائع كتب ، حتى يئس من العثور عليه عمال
محمود الذين أمرهم بالقبض عليه . ثم بلأ الفردوسى إلى شهر يار أمير شيرزاد (*) في
طبرستان ، ونظم قصيدة يهجو فيها محموداً هجواً لا ذعاً . وخشى شهر يار غضب

(*) ليس شيرزاد أو شهرزاد اسم إقليم ولعل الأمر قد اختلط على المؤلف أو على من
رجع إليه من المؤلفين . ولم يرد شيرزاد إلا في رواية محمد بن عبد الوهاب القزوينى في حواشى
جهار مقاله إذ يقول إنه وجد في أصل الكتاب شهرزاد أو شيرزاد مكان شهر يار .
انظر مقدمة الشاهنامه للكتور عبد الوهاب عزام في هذا وفي قصة يوسف وزليخا ففيها تفصيل
وإف عن قصة هذا الشاعر وبحث علمى قيم في هذا الموضوع . (المترجم)

السلطان فابتاع القصيدة بمائة ألف درهم وأتلفها . وإذا جاز لنا أن نصدق هذه الأرقام ، ونعتقد بصحة تقديرنا إياها بنقود هذه الأيام ، حكمتنا من فورنا أن الشعر كان من أكثر الأعمال إدراراً للربح في فارس في العصور الوسطى . وانتقل الفردوسى بعدئذ إلى بغداد وكتب فيها قصة شعرية طويلة هي قصة يوسف وزليخا ، ثم عاد إلى طوس وكان وقتئذ شيخاً في السادسة والسبعين من العمر . وبعد عشر سنين من عودته سمع محمود بيتاً من الشعر فأعجب بقوة معناه وجزالة لفظه ، فسأل عن قائله ، ولما علم أنه من شعر الفردوسى ندم على أنه لم يكافئ الشاعر بما وعده به ، وأرسل إليه قافلة من الإبل تحمل ما قيمته ستين ألف دينار من النيلج ، ومعها رسالة اعتذار منه ، ولما دخلت القافلة مدينة طوس التقت فيها بجنّازة الشاعر (١٠٢٠ ق) .

وتعد الشاهنامه من أعظم الأعمال في الآداب العالمية في حجمها إن لم تكن في غيره . وإن من النبل بحق أن يترك شاعر الموضوعات التافهة ، والأعمال اليسيرة ، ويقضى خمسة وثلاثين عاماً من حياته يروى فيها قصة بلده في ١٢٠٠٠٠ بيت من الشعر - فكانت القصيدة بذلك أطول من الإلياذة والأوديسة مجتمعين . فهاهو ذا شيخ طاعن في السن جن جنونه بوطنه ، وشغف حبا بكل ما حوته سجلاته من تفاصيل ، خرافة كانت أوحقيقة . وتصل الملحمة إلى نصفها قبل أن يصل بها الشاعر إلى العصور التاريخية . ويبدأها بالشخصيات الأسطورية الواردة في الأستاق ، ويحدثنا عن جيومرث ، آدم الديانة الزردشتية ، ثم عن جمشيد العظيم حفيد جيومرث « الذي حكم العالم ٧٠٠ سنة . . . والذي سعد للعالم بحكمه ، ولم يكن يُعرف في أيامه موت ولا حزن ولا ألم » . ولكن جمشيد بعد أن مرت به بضعة قرون « باض الشيطان في رأسه وفرخ ولوى جيده عن طاعة ملاك الرقاب ، متعرضاً بغمظ نعمه لقاصمة العقاب » « وظن أنه ليس على ظهر الأرض سواه ، وادعى أنه إله ، وبعث بصورته لكي يعبدوها الناس » (١٢١) . ونصل أخيراً

للى بطل الملحمة رستم بن زال أحد أمراء الإقطاع في تلك الأيام . ولما بلغ رستم من العمر خمسمائة عام وقع زال في هوى جارية شابة فولدت منه أخا لرستم . ويخدم رستم ثلاثة ملوك وينجيهم من الموت ، ثم يهجر حياة القتال حين تبلغ سنه أربعائة عام . ويطول عمر جواده الأمين الرخش كما يطول عمر سيده أو ما يقرب منه ، ويكاد يبلغ من البطولة ما بلغه ، ويلقى هذا الجواد من الفردوسى الحب والدعابة اللذين يلقاها الجواد الأصيل من كل فارسي . وفي الشاهنامه قصص حب جميلة ، وفيها بعض ما في شعر شعراء الفروسية الغزلين في أوروبا في العصور الوسطى من تعظيم للنساء . فيها صور ساحرة للنساء البارعات الجمال - منها صورة للملكة سودابة التي كانت تتحجب حتى لا يرى أحد جمالها ، والتي كانت تسير مع الرجال كما تسير الشمس خلف السحاب (١٢٢) . ولكن الحب ليس له شأن كبير في حياة رستم ، لأن الفردوسى يرى أن عاطفة الحب الأبوى والبنوى يمكن أن تكون أعظم وقماً في النفوس من عاطفة الحب الجنسى . بيد أن رستم يقع أثناء إحدى حروبه البعيدة في حب فتاة تركية تدعى تهيمية ، ثم تختفى عن عينه فلا يقف على أثرها ، ثم تربى ابنهما سهراب والحزن يملأ قلبها والكبرياء يرفع رأسها بين أترابها ، وتحدث الشاب عن أبيه العظيم الذى لا تعرف مقره ، ويلتقى الأب والابن في حرب بين الترك والفرس ، ويقف كلاهما ليقاتل الآخر دون أن يعلما حقيقة أمرهما . ويعجب رستم بشجاعة الصبى الوسيم ، ويعرض عليه أن يحفظ عليه حياته ؛ فيرفض الغلام هذا العرض بازدراء ، ويقاقل قتال الأبطال ، ويصاب بجرح مميت . ويقول وهو يحتضر إن أشد ما يحزنه أنه لم ير أباه رستم ، ويدرك المنتصر أنه قتل ابنه . ويعدد جواد سهراب بغير فارسه حتى يدخل معسكر الترك ويصل الخبر إلى والدته في منظر من أجمل مناظر الملحمة :

تئن وتجار جهل الحزين وينتابها الغشى في كل حين
أطالت بكاء ابنها والنحيبا فأجرت من الناس دعماً سكوبيا

وخرت على الأرض جمرأ نجد كأن بها دمها قد جمد
وعادت ترجع نخانها وتذكى على الابن أحزانها
وجاءت إلى طرفه الطائر إلى زينة الزمن الناظر
فلزت إلى رأسه صدرها يرى الناس في عجب أمرها
وجاءت لخلته في كمد تعانقها كابنها المفتقد(*)

والقصة كلها غاية في الوضوح يتنقل القارئ فيها تنقلا سريعا من
حادثة إلى حادثة ، ولا يحس بوحدها إلا حين يشعر بوجود الوطن المحبوب
في كل سطر من سطورها وإن كان لا يبصره بعينه : ونحن ، الذين لانجد
لدينا من الفراغ ما كان يجده الناس قبل أن تخترع تلك الوسائل الكثيرة التي
توفر عليهم أوقاتهم ، لانجد متسعا من الوقت نقرأ فيه كل أبيات القصيدة
وندفن فيه كل ملوكها ، ولكن هل منا من قرأ كل سطر من أسطر
الإلياذة أو الإنياذة ، أو المسلاة المقدسة ، أو الفردوس المفقود ؟ إن هذه
الملاحم القصصية لا يستطيع قراءتها إلا الذين أوتوا القدرة على هضمها .
أما نحن فبعد أن نقرأ مائتي صفحة من صفحات الشاهنامه نمل من قراءة
أخبار انتصارات رسم على الشياطين ، والوحوش ، والسحرة ، والأتراك .
ولكن سبب هذا الملل أننا لسنا إيرانيين ، لم نسمع إلى أنغام الشعر الفارسي
الأصيل الرنانة العذبة ، ولا نتأثر بها كما يتأثر بها الفرس الذين أطلقوا اسم
رسم على ثلثمائة قرية في ولاية واحدة من بلادهم . وقد احتفل العالم المتمددين
في آسية وأوربا والأمريكيتين في عام ١٩٣٤ بالعيد الألفي للشاعر الذي ظل
كتابه الضخم غذاء لروح الشعب الإيراني مدى ألف عام :

(*) هذه الأبيات منقولة عن الترجمة العربية للشاهنامه من الفصل الذي أغفله الفتح بن
عل البنداري وترجمه الدكتور عبد الوهاب عزام . (المترجم)

الفصل السابع

الفن (*)

لما فتح العرب بلاد الشام لم يكن لديهم من الفنون سوى الشعرة ويقال إن النبي حرم فنّي النحت والتصوير لأنهما من قبيل عبادة الأوثان - كما نهى عن الموسيقى ، ولبس الحرير الثمين ، والتحلّي بالذهب والفضة لأنهما من أسباب التعمم المؤدى إلى الانحلال ؛ ومع أن العرب أخذوا يتحللون شيئاً فشيئاً من هذا التحريم ، فإن الفن الإسلامي في ذلك العهد الأول كان ينحصر في فنون العمارة ، والحرف ، والزركشة . يضاف إلى هذا أن العرب أنفسهم كانوا إلى عهد قريب بدواً أو تجاراً ، ولم يكونوا ذوى براعة فنية ناضجة ؛ وكانوا يعترفون بقصورهم في هذا الميدان ، ولذلك لجأوا إلى الأشكال والتقاليد الفنية المتبعة في بزنطية ، ومصر ، والشام ، وبلاد العراق ، وإيران ، والهند ، فعنلواها بما يوائم طبيعتهم ، كما لجأوا إلى الفنانين والصناع من أهل تلك البلاد . من ذلك أن نقوش قبة الصخرة في بيت المقدس وعمارة مسجد الوليد الثاني في دمشق كانت بزنطية خالصة . وفيما يلي هذه البلاد من جهة الشرق اتخذ العرب حليات القرميد التي كانت متبعة في بلاد آشور وبابل القديمة ، كما اتخذوا أشكال الكنائس الأرمنية النسطورية ؛ وبعد أن دمر المسلمون في بلاد الفرس كثيراً من الأعمال الساسانية الأدبية والفنية تنهبوا إلى مزاييا مجموعات العمد ، والأقواس

(*) نحن مدينون بهذا الفصل إلى كتاب « نظرة شاملة في الفن الفارسي » Survey of Persian Art . الذى نشره آرثر أهام پوپ Arthur Upham Pope ، وبخاصة للفصول التى كتبها بنفسه . وإن عمله العظيم في هذا الميدان الذى أجاده وأخلص فيه ، والذى يضارع في عظمته ما عمله جيمس هنرى برستد في تاريخ مصر لمن الأعمال الخالدة التى تشهد له بدقة البحث وغزارة العلم وحب الإنسانية في أجمل مظاهرها .

المستدقة والعقود ، والنقوش المكونة من أوراق النبات والأشكال الهندسية التي أثمرت آخر الأمر طراز الزخرفة العربي المعروف . ولم تكن هذه النتيجة تقليداً محضاً ، بل كانت تركيباً بارعا من أشكال مختلفة لا يتقصر من شأنها ما أخذه المسلمون عن غيرهم من الأمم ، وتخطى الفن الإسلامي الذي انتشر من قصر الحمراء في الأندلس إلى التاج محال في الهند كل حدود الزمان والمكان ، وكان يسخر من التمييز بين العناصر والأجناس ، وأنتج طرازاً فذاً ولكنه متعدد الأنواع ، وعبر عن الروح الإنسانية بأناقة موفورة فياضة لم يفقها شيء من نوعها حتى ذلك الوقت .

ويكاد فن العمارة الإسلامية ، كمعظم فنون العمارة في عصر الإيمان ، أن يكون كله فناً دينياً خالصاً . ذلك أن مساكن البشر كانت تقام ليقضوا فيها حياتهم الدنيوية القصيرة الأجل ؛ أما بيوت الله فكانت ، من داخلها على الأقل ، نماذج من الجمال الخالد . غير أننا مع هذا نسمع عن قناطر ، وقنوات لجر مياه الشرب ، وفساق ، وخزانات لمياه الري ، وحمامات عامة ، وقلاع ، وأسوار ذات أبراج وإن لم يبق من آثار هذه كلها إلا القليل . وقد أقامها مهندسون معماريون ، كان الكثيرون منهم في القرن الأول بعد الفتح الإسلامية من المسيحيين ، ولكن كثرتهم الغالبة كانت فيما بعد من المسلمين . ولما جاء الصليبيون إلى بلاد المسلمين وجدوا مباني حربية ممتازة في حلب ، وبعبلبك ، وغيرها من مدن الإسلام في الشرق ، وعرفوا هناك فوائد الأسوار ذات المزاغل ، وأخذوا عن أعمدائهم كثيراً من الأفكار التي أقاموا على أساسها حصونهم وقلاعهم المعلومه النظر ، ولقد كان قصر إشبيلية ، وقصر الحمراء في قرطبة حصنين وقصرين معاً .

ولم يبق من قصور بني أمية إلا القليل . ومن هذا القليل الباقي بيت ربنى في قصر عمرة بالصحراء الواقعة في شرق البحر الميت ، وتكشف بقاياها عن حمامات ذات قباب ، وجدران ذات مظلمات ؛ ويؤكد لنا المؤرخون أن قصر عضد الدولة

في شيراز كان يحتوي على ثلثمائة وستين حجرة واحدة منها لكل يوم من أيام السنة ، وقد طليت كل حجرة بطلاء مكون من مجموعة فذة من الألوان ، وخصصت منها واحدة للمكتبة ، وكانت حجرة رحبة يبلغ ارتفاعها طابقين ، ذات بواك وعقود ، ويقول عنها أحد مؤرخي الإسلام المتحمسين إنه لم يكن ثمة كتاب في أى موضوع من الموضوعات لا تحتوى المكتبة نسخة منه (١٢٤) .

ولسنا نشك في أن للخيال أكبر نصيب فيما وصفت به شهرزاد مدينة بغداد ، ولكنه وصف بصور ما كانت عليه فخامة النقوش في داخل القصور أصدق تصوير (١٢٥) . وكان لأغنياء المسلمين بيوت في الريف وقصور في المدن . وكانت لهم في المدن نفسها حدائق كبرى ، أما بيوتهم في الريف فكانت حدائقها « جنات » حقة - فيها بساتين ذات عيون ، وجداول ، وغساق ، وبرك مبطنة بالقرميد ، وأرهار نادرة ، وظلال ، وأشجار فاخرة ونخيل ، وكانت تحتوى عادة على سرادق يستمتع فيه أهل القصر بالهواء الطلق ، دون أن يضايقهم وهج الشمس . ركان الدين في فارس دين أرهار ، فقد كانت تحتفل بأعياد الورد احتفالات تحوى جميع مظاهر الأبهة والفخامة ، وطبقت شهرة ورد شيراز وفيروزباد جميع أرجاء العالم ، وكانت الورد ذات المائة من الأوراق من الهدايا التي يحمدها لمهديها الخلفاء والملوك (١٢٦) .

وكانت بيوت الفقراء وقتئذ ، كما هي الآن ، أبنية مستطيلة الشكل ، مقامة من اللبن الملتصق بالطين ، سقفها خليط من الطين ، وأعواد النبات ، وغصون الأشجار ، وجريد النخل ، والقش . وكانت البيوت الأرقى من هذه نوعاً تشتمل على فناء داخلي مكشوف ، ذى فسقية ، وشجرة في بعض الأحيان ؛ وكانت تحتوى أحياناً على طائفة من العمدة الخشبية ، ورواق مسقوف بين الفناء والحجرات . وقلما كانت البيوت تبقى على الشارع أو تطل عليه ، لأنها كانت حصوناً للعزلة ، تقام للأمن والسلام ؛ وكان لبعضها أبواب سرية ، يهرب منها سكانها من فورهم إذا هوجموا أو أريد اعتقالهم ، أو يدخل منها الحبيب سرّاً (١٢٧) .

وكان في كل البيوت ، عدا بيوت أفقر الناس ، أجنحة خاصة بالنساء ، لكل منها في بعض الأحيان فناء مستقل . وكانت بيوت الأغنياء خالية من أنابيب الماء ، الذي يحمل إليها من خارجها كما تحمل الفضلات منها . وكانت بعض البيوت الحديثة الطراز تؤلف من طابقين تتوسط الواحد منهما حجرة لجلوس الأسرة عامة تعلوها قبة ، وفي الطابق الثاني منها شرفة تطل على فناء البيت . ولم يكن بيت من البيوت عدا أفقرها يخلو من مشربية من الخشب تلخل الضوء ، وتمنع حرارة الشمس ، وتمكن من بداخل البيت أن يطلوا على خارجه دون أن يراهم من الخارج . وكثيراً ما كانت هذه المشربيات متقنة النحت ، وكانت هي النماذج التي صنعت على غرارها الستر الحجرية أو المعدنية التي ازدانت بها القصور والمساجد فيما بعد . ولم يكن بالبيت مدفأة ثابتة في جدرانها ، بل كان يدفأ بموقد نحاسي متنقل يحرق فيه الفحم الخشبي ، وكانت الحجرات تجصص وتطلّى عادة بألوان متعددة . وكانت الأرض تفرش بطنافس من نسيج اليد ، وقد يكون عليها كرسي أو كرسيان ، ولكن المسلمين كانوا يفضلون أن يتربعوا فوق الطنافس . وكانت أرض الحجرة ترتفع بجوار الجدران في ثلاث نواح منها بقدر قدم ، أو ما يقرب منه ليتكون من ذلك دلوام يفرش بالوسائد . ولم تكن في هذا النوع من البيوت حجرة خاصة بالنوم ، وكان فرش النوم مكوناً من حشية تعلوى في أثناء النهار وتوضع في مكان لجاص كما يفعل أهل اليابان في هذه الأيام . وكان أثاث البيت بسيطاً : يتألف من بضع مزهريات ، وآنية المطبخ ، ومصابيح ، وكوة للكتب في بعض الأحيان .

وكان حسب المسلم التي الفقير أن يكون المسجد جميلاً ، وكان ينفق في تشييده جهده وماله . ويجمع فيه فنونه وصناعاته ويضعها كالطمنسة بين يديه الله ، وكان في وسع الناس جميعاً أن يستمتعوا بهذا الجمال وبتلك العظمة ، وكان

المسجد يقام عادة بالقرب من سوق المدينة يسهل الوصول إليه من كافة
أنحائها . ولم يكن عادة فخماً ذا روعة وبهاء من خارجه . وإذا استثنينا
واجهته الأمامية فإنه لم يكن يسهل تمييزه في بعض الأحيان من المباني المجاورة
له ، وقد يكون أحياناً ملتنصفاً بها التنصافاً ، وقلما كان يشيد من مواد أفخم
من الآجر المطلق بالمصيص . وقد حدد شكله الغرض الذي أقيم من أجله :
فكان يتألف من بهو رباعي الشكل يتسع للمصلين ، ومن حوض أوسط
ونافورة للوضوء ، تحيط بها إيواناته ذات البواكي لوقاية المصلين وإظلالهم ،
وليتلقوا فيها الدروس ، وفي ناحية الصحن المتجهة إلى مكة كان يقوم بناء
المسجد الأصلي ، وهو في العادة قسم مسور من الرواق . وكان هذا القسم
أيضاً ذا شكل رباعي يمكن المصلين من أن يقفوا صفوفاً مترابطة متجهين
أيضاً إلى مكة . وقد يكون فوق هذا الصرح قبة ، تكاد تبنى في جميع الأحوال
من الآجر ، تبرز كل طبقة منها عما تحتها بمقدار قليل نحو الداخل وتطلى
بالحص لإخفاء هذا البروز (١٢٨) . وكان الانتقال من القاعدة الرباعية إلى
القبة المستديرة يتم كما يتم في العبارة الساسانية أو البيزنطية بأن تتوسطهما في
القبة عدة أكتاف مثلثة الشكل بين عقدين متعامدين ، أو سلسلة من العقود
الحجرية الصغيرة تقام عليها جوانب القبة . وأهم ما يمتاز به عمارة المساجد
هو المثانة ، والراجع أن المسلمين في بلاد الشام قد أخذوا فكرة المثانة من
الزجورات - الصرح - البابلي وبرج الجرس في الكنائس المسيحية ، وأخذ
الهنود المسلمون الشكل الأسطواني من بلاد الهند ، وتأثر مسلمو إفريقية
في تخطيطها بمنارة الإسكندرية ذات الأركان الأربعة (١٢٩) . وليس بعيد
أن تكون الأبراج ذات الأركان الأربعة في المساحة التي أقيم عليها الهيكل القديم
في دمشق ، ذات أثر في شكل المثانة (١٣٠) ، وكانت في هذا العهد الأول بسيطة
خالية في أغلب الأحيان من الزخرف ، ولم تصل إلا في القرون المتأخرة إلى
ما وصلت إليهم من الدقة والارتفاع ، أو نحو ما احتوته من الشرفات الرقيقة الهشة ،

والبواكى الزخرفية ، والسطوح القاشانية ، التي أنطقت فرجسون Fergusson بقوله « إنها أعظم الأبراج رشاقة في عمارة العالم كله » (١٣١) .

وقد احتفظ المسلمون لداخل المسجد بأبهج الزخارف وأجملها وأكثرها تنوعاً ، احتفظوا لهذا الداخل بالفسيفساء وقطع القرميد البراقة لأرض المسجد ومحرابه ؛ وبالزجاج ذي الأشكال والألوان البديعة لنوافذه ومصايحه ؛ وبالطنافس العالية والبسط الفخمة تفرش على أرضه للصلاة ؛ وبألواح الرخام الجميل الألوان تثبت على الأجزاء السفلى من الجدران ؛ وبالأفاريز الجميلة ذات الكتابة العربية حول المحراب والطنف ؛ وبالتقوش الجميلة في الخشب أو العاج أو المصنوعة من المعدن في الأبواب ، والسقف ، والمنابر ، والسجف . . . أما جسم المنبر نفسه فكان يصنع من الخشب تبدل أعظم العناية في نحته ونقشه وتطعيمه بالعاج والأبنوس . وبالقرب من المنبر توجد الدكة المقامة على عمد صغيرة وعليها نسخة من كتاب الله . وكان الكتاب نفسه بطبيعة الحال أنموذجاً لجمال الخط وروعة الفن الدقيق . ويجاور المنبر القبلة وهي جزء داخل في جدار المسجد لعله مأخوذ من القبا في الكنائس المسيحية . وقد أفرغ الصناع والفنانون كل جهودهم في تزيين هذا المحراب حتى كان يضارع المذبح أو المحراب المحيط به في الكنائس والهياكل ، فجملوه بالقاشاني والفسيفساء ، وصور أوراق الشجر وأزهاره ، والتقوش البارزة ، والأنماط الجميلة ، ذات الألوان البديعة من الآجر ، والجص ، والرخام ، والطين المحروق ، والقاشاني .

وأكبر الظن أننا مدينون بما بلغه فن الزخرفة من عظمة وفخامة إلى تحريم الساميين تمثيل صور الإنسان والحيوان في الفن ! فكان الفنانين المسلمين أرادوا أن يعوضوا هذا التحريم فاخترعوا هذا الفيض الغامر من الأشكال غير البشرية أو الحيوانية ، وأخذوا ما كان منها موجوداً عند غيرهم . فبحث الفنان في أول الأمر عن منفذ لمواهبه الفنية في الأشكال الهندسية - الخط ، والزاوية ، والمربع ،

والمكعب ، والكثير الأضلاع ، والمخروط ، والشكل اللولبي ، والقطع الناقص ، والدائرة ، والكرة ، وكرر هذه الأشكال كلها وركب منها مئات التراكيب ، وأنشأ منها الدوامات ، والأربطة ، والخطوط المتشابكة المتداخلة ، والنجوم . ولما انتقل إلى الأشكال النباتية عمد إلى المواد المختلفة ، فصور من مختلف المواد ، تيجاناً ، وكروما ، وأزهار البشيين . والكُنُكُور ، وخصوص النخل وجريده . فلما جاء القرن العاشر مزج هذه كلها فأنشأ منها الزخرف العربي الذائع الصيت ، وأضاف إليها كلها حلية فذة كبرى هي الكتابة العربية . ذلك أنه عمد في العادة إلى الحروف الكوفية فأطالها إلى أعلى أو مدها على الجانبين ، أو نَمَقَها بالذيول والنقاط ، حتى استحالت الحروف الهجائية على يديه تحفة فنية ذات روعة وجمال . ولما تحلل الناس بعض الشيء من القيود والمحرمات الدينية أدخل الفنان أنواعاً جديدة من الزينة بأن رسم طير السماء ، وحيوان الحقل ، أو ابتدع أشكالاً عن الحيوانات المختلفة لا وجود لها إلا في مخيلته . واستطاع ببطنته وشغفه بالزينة أن يسمو بكل شكل من أشكال الفن - التسييساء ، والنقوش الصغيرة على العاج ونحوه ، والخزف ، والأقمشة ، والبسط . وكان النقش في كل حالة تقريباً تؤلف بين أجزائه وحدة منظمة ، تسيطر عليها صورة رئيسية ، أو موضوع رئيسي ، ينمو ويتطور من الوسط إلى الأطراف أو من البداية إلى النهاية ، كما يفعل المؤلف بالموضوع الموسيقي . ولم يكن الفنان المسلم يرى أن أية مادة مهما قست تستعصى على فنه ؛ ولهذا أصبح الخشب ، والمعدن ، والآجر ، والجص ، والحجر ، والقرميد ، والزجاج ، والقاشاني - أصبحت هذه كلها وسائل يستخدمها لإظهار ما في خياله من صور وأشكال فنية مجردة لم يسم إلى مستواها فن آخر من قبل لا نستثنى من ذلك الفن الصيني نفسه .

واستعانت العمارة الإسلامية بهذا الفن الزخرفي فأقامت في جزيرة العرب ، وفلسطين ، والشام ، وأرض الجزيرة ، وفارس ، والتركستان ، والهند ، ومصر

وتونس ، وصقلية ، ومراكش ، والأندلس — أقامت في هذه البلاد كلها عدداً لا يحصى من المساجد جمعت بين القوة والمتانة في خارجها ، والرشاقة والرفقة في داخلها ، نذكر منها مساجد المدينة ، ومخة ، وبيت المقدس ، والرملة ، ودمشق ، والكوفة ، والبصرة ، وشيراز ، ونيسابور ، وأردبيل ، ومسجد جعفر في بغداد ، ومسجد سر من رأى العظيم ، ومسجد زكريا في حلب ، ومسجد ابن طولون والجامع الأزهر في القاهرة ، ومسجد تونس الكبير ، ومسجد سيدى عقبة في القيروان ، والمسجد الأزرق في قرطبة — وليس في مقدورنا إلا أن نكتفي بذكر أسمائها لأن مئات المساجد التي بنيت في ذلك الوقت لم يبق منها ما يمكن تمييزه إلا عشرة أو نحوها ، أما سائرها فقد عدا عليه الزمان فدمره بفعل الزلازل أو الإهمال أو الحروب .

وقد كشف في العصر الحديث في بلاد الفرس وحدها — وهي جزء صغير من بلاد الإسلام — عن صروح فخمة لم يكن يدور بخلدنا أنها توجد في تلك البلاد ، وكان كشف آثارها من الحوادث الكبرى في إزاحة الستار عن الماضي المجهول (*) وإن كان هذا الكشف قد جاء بعد أوانه بزمن طويل ؛ لأن كثيراً من روائع العبارة الفارسية قد صحت به قبل ذلك الكشف يد الزمان فلم تبق منه شيئاً . وحسبنا أن نذكر في هذا المقام أن المقدسى يصف في فارس مساجد لا تقل روعة عن مساجد المدينة ودمشق ويقول إن مسجد نيسابور ذا العمود الرخامية ، والصفائح الذهبية ، والجلدران ذات النقوش المحفورة الكثيرة كان من عجائب الزمان ؛ وإنه لم يكن في خراسان أو سجستان من المساجد ما يضارع في جماله مسجد هيراة (١٣٣) . وفي وسعنا أن نصور لأنفسنا صورة غامضة مما بلغته

(*) في عام ١٩٢٥ صرح رضا خان ، الذى جلس بهند على عرش فارس ، إلى آرثر أهام پوپ Arthur Upham Pope بدخول مساجد بلاد الفرس وكان محرماً على غير المسلمين من قبل أن يدخلوها ، لكي يصورها من الداخل . وكان هذا حادثاً عظيماً كشف للعالم عن بدائع الفن الفارسي وروعته .

العمارة الفارسية في القرنين التاسع والعاشر من روعة ووفرة ، بدراسة النقوش الحصية البارزة ، والعمد والبيجان المحفورة الباقية ، من محراب مسجد تايين الجامع المحرب ، والمثلثتين الجميلتين الباقيتين في دماغان . وقد بقي من مسجد أردستان (١٠٥٥) محراب وباب جميلان ، كما كشف فيه عن كثير من العناصر التي تجلت فيما بعد في العقود القوطية المستدقة ، والأكتاف المركبة ، والأقبية المتقاطعة ، والقبة المضلعة (١٣٣) . وكانت المادة التي شيدت منها هذه المساجد والكثرة الغالبة من المساجد والقصور الفارسية هي الآجر ، شأنها في ذلك شأن المباني القديمة في بلاد سومر وأرض الجزيرة ؛ وسبب ذلك ندرة الحجارة وكثرة ما تتطلبه من النفقات ، ووفرة الطين واليران ؛ لكن الفنان الفارسي قد حول طبقات الآجر بفضل ما أدخله عليها من الضوء والظل ، والنماذج الفنية الجديدة ، والأوضاع الفنية المختلفة ، حول هذه الطبقات إلى أنواع من الزخرف لم تعرف هذه المادة القليلة الشأن نظيراً لها من قبل . وقد اكسب الخزاف الفارسي الآجر في أماكن خاصة ، كدخال المساجد والمنابر والمحاريب ، بطبقة من القسيفساء متعددة الألوان ، وبالقرميد الزاهي البراق ؛ ولما أقبل القرن الحادي عشر زاد السطح البراق للأداء وبهاء بطبقة من القاشاني الملون اللامع . وهكذا نخدم المسجد كل فن في بلاد الإسلام ، نزل إلى هذه الخدمة من العلياء وكسب بها فكراً وكبرياء .

وإذ كان قد حرم على المثالب أن ينحت التماثيل خشية أن يعود الناس إلى عبادة الأوثان ، فقد وجه جهوده إلى الزخرفة بالنقوش البارزة . فأثقت تحت الحجارة ، وشكل الجص باليد قبل أن يجف ، وصاغ منه أشكالاً كثيرة مختلفة ، وقد بقي أنموذج رائع من هذه العماير ، وهو القصر الشتوي الذي بدأه الوليد الثاني عام ٧٤٣ بالصحراء الشرقية إلى شرق نهر الأردن وتركه دون أن يتمه . وكان حول سطح الواجهة من أسفل إفريز من الحجر المنحوت ذو جمال بارع يتكون نقشه من مثلثات وأزهار الورد يحيط بها إطار من الأزهار ، والفاكهة ، والطير ،

والحيوان ، والنقش العربي . وقد نقل هذا النقش الراجع إلى برلين في عام ١٩٠٤ ونجا من الدمار في أثناء الحرب العالمية الثانية . وكان النجارون يحملون النوافذ ، والأبواب ، والستر الخشبية ، والشرفات ، والسقف ، والمناضد ، وكراسي المصاحف ، والمناير ، والمخاريب ، ويبدعون في نقشها إبداعا يستطيع الإنسان أن يراه في لوحة وجدت في تكريت ونقلت إلى المتحف الفنّي في نيويورك . كذلك كان الصناع المشتغلون بنحت العاج والخشب يزینون بفنهم المساجد ، والمصاحف ، والأثاث ، والآنية ، والأشخاص أنفسهم ، ويحملونها بمصنوعاتهم المنحوتة والمطعمة . غير أنه لم يصلنا من مصنوعات ذلك العصر إلا قطعة واحدة هي طابية من قطع الشطرنج (توجد الآن في المتحف الأهلي بفلورنس) ويقال إنها لأحدى قطع الشطرنج الذي أهدها هرون الرشيد إلى شارلمان في القرن التاسع الميلادي (١٣٤) . كذلك أخذ صانعو المعادن المسلمون عن الساسانيين هذا الفن الدقيق ، وصنعوا من النحاس والشبه مصابيح ، وأباريق ، وجفانا ، وجرارا ، وكيزانا ، وأقداحا ، وأطساتا ، ومواقد ، ومصبوها في صور الآساد ، والأفاعي ، وآباء الهول ، والطواويس ، والجمام . ونقشوا عليها في بعض الأحيان رسوماً بديعة تشاهد مثلا منها في المصباح الشبيه بالقماش المخرم والمحفوظ في معهد الفن بمدينة تشكاجو . ومن الصناع من كانوا يحشون الرسوم المحفورة بالفضة والذهب ، ويبدعون المصنوعات المعدنية « الدمشقية » أي المزخرفة بفن الدمشقيين وإن لم يكن قد نشأ في مدينتهم (١٣٥) . وكانت السيوف الدمشقية تصنع من الفولاذ المسقى المزين بالتقوش البارزة أو المطعم بالرسوم العربية ، أو الحروف الهجائية ، أو غيرها من الأشكال المتخذة من خيوط الذهب أو الفضة . وقصارى القول أن صناع المعادن المسلمين قد برعوا في هذا الفن براعة ليس بعدها زيادة لمستزيد .

ولما انتهى عصر الفتح الإسلامية واستقر المسلمون في البلاد المفتوحة وأخلوا عنها ثقافتها ألفوا أنفسهم في صناعة الفخار الوارثين لتقاليد خمسة في هذا

الفن هي التقاليد المصرية ، والإغريقية - والرومانية ، والعراقية ،
والفارسية ، والصينية . ونقول الصينية لأن سار Sarre كشف في سر من
رأى فخارا من عهد أسرة تانج ومعه قطع من الخزف الصيني الرقيق ؛
وكانت الأواني الفارسية - الإسلامية في عهدها الأول منقولة نقلا لا خفاء
فيه عن نماذج صينية . ونشأت مراكز صناعة الفخار في بغداد وسامرا(*) ،
والرى ، وكثير غيرها من البلدان . ولم يحل القرن العاشر الميلادي حتى
كان صانعو الفخار من الفرس يصنعون كل أنواع الآنية الفخارية ما عدا
الخزف الصيني ، ويصنعونه في أشكال لا حصر لها تبدأ من المباسق اليدوية
الصغيرة إلى المزهريات الضخمة المهولة ، التي تتسع في القليل لأحد
« اللصوص الأربعين » (١٣٦) ، ويتبين الإنسان في خير المصنوعات الفخارية
الفارسية دقة في التصوير ، وبراعة في التلوين ، وحذاق في الصناعة لا تسمو
عليها. إلا الصناعتان الصينية واليابانية ؛ وظلت ستة قرون لا تضارعها
صناعة أخرى في جميع الأقاليم الممتدة جنوب هضبة الهامير وغربها (١٣٧) ؛
وكان هذا الفن من أحب الفنون إلى الفرس وأكثرها مواءمة لهم ؛ وكان
أهل الطبقة العليا منهم يحرصون أشد الحرص على جمع روائعه ، وكثيراً
ما أخذ عنه الشعراء أمثال أبي العلاء المعري وعمر الخيام تشبيهات واستعارات
في أقوالهم الفلسفية . ويحدثنا الكتاب عن مأدبة أقيمت في القرن التاسع
ارتجلت فيها قصائد ، وأهديت إلى الآنية التي كانت تزدان بها المائدة (١٣٨) .

وقد امتاز صانعو الفخار في سامرا وبغداد في ذلك القرن بصنع الفخار اللامع
أو لعلهم هم ابتدعوه ابتداعاً . وكانت النقوش التي تحايه ترسم بأكسيد
معدني على طبقة من الطين المزجج ، ثم يعرض الإناء بعدئذ إلى نار ثانية ملدنة
مكتومة تحول الصبغة إلى طبقة معدنية رقيقة ، وتكسب الطلاء بريقا متعدد

(*) وهي مسر من رأى وتسمى أيضاً مسراء . (المترجم)

الألوان . وبهذه الطريقة أخرج الصانع أواني ذات لون واحد جميل ،
وأخرى ذات ألوان متعددة أجمل منها خضراء ذهبية ، وبنية داكنة ،
وصفراء ، وحمراء ، تتدرج بعضها تدرجاً لا يكاد الإنسان يحسه ولا تقل
عن المائة عدا . وكذلك طبق هذا الفن نفسه فن الطلاء البراق على قطع
الفرميد التي كانت تستخدم للزينة في فن العراق القديم ، فكانت ألوان
هذه المربعات الكثيرة وما تألف منها من وحدات متناسقة . مما أكسب مداخل
مئات المساجد ومحاريبها وكثيراً من جدران قصور العظماء روعة منقطعة
النظير . وورث المسلمون في صناعة الزجاج - وهو الفن الشديد الاتصال
بصناعة الفخار - كل ما امتاز به أهل مصر والشام من حذق وبراعة ،
فقد لونوا المصابيح بظلال من الألوان البراقة المتعددة ، وزينوها بالرصاص
والنقوش ، ورسوم النبات والأزهار ، ولعل أهل الشام قد ابتدعوا
في ذلك الوقت فن طلاء الزجاج بالمينا ، وهو الفن الذي بلغ ذروة مجده
في القرن الثالث عشر .

وإذا ما ذكرنا سعة انتشار فن التصوير والنحت في الكنائس الكاثوليكية
الكبرى وهي التي لا تكاد تخلو من آثاره واحدة منها ، وذكرنا في الوقت
نفسه أهمية هذين الفنين في نشر العقائد والقصص المسيحية ، إذا ما ذكرنا
هذا وذاك دهشنا لعدم وجود نظيريهما في الإسلام . نعم إن القرآن قد
حرم النحت (سورة المائدة الآية ٨٩) ولكنه لم يقل شيئاً عن التصوير ؛
غير أن حديثاً يعزى إلى عائشة يقول إن النبي قد نهى أيضاً عنه (١٣٩) .
ولهذا فإن الشريعة الإسلامية عند الشيعة وعند أهل السنة على السواء
تحرم التصوير وإقامة التماثيل جميعاً . ولهذا التحريم نظير في الوصية الثانية
وفي التعاليم اليهودية . ولعل من أسباب هذا التحريم الاعتقاد أن الفنان حين
يخرج مثالا للكائنات الحية إنما يدعى لنفسه ما هو من حقوق الخالق
جل جلاله . ومن علماء الدين من يتساهلون في هذا فيجزون تصوير
الجماد . ومنهم من يتخاضون عن تصوير الحيوان أو الإنسان على

الأشياء التي لا تستعمل إلا في الأغراض الدنيوية . وكان بعض خلفاء بى أمية لا يعثون قط بهذا التحريم ؛ وشاهد ذلك أن الوليد الأول زين قصره الصيبي في قصر عمره حوالي عام ٧١٢ بمظلمات هلنستية صور فيها رجالا يطاردون الوحوش ، وبنات يرقصن ، ونساء يغتسلن . وهو يجالس فوق عرشه يشاهد هذا كله (١٤٠) . وكان خلفاء بنى العباس يجهرون بتقواهم ، ولكن كانت لهم قصور حوت في حجراتهم الخاصة جدراناً مزينة بالصور ؛ وقد استأجر المعتصم فنانين ، أغلب الظن أنهم مسيحيون ، ليصوروا على جدران قصره في سامرا مناظر صيد ، ورجال دين ، وبنات عاريات يرقصن ؛ وأجاز المتوكل ، وهو الذي كان يضطهد الملحدين ، المصورين من أهل بزنطية أن يضيفوا إلى هذه المظلمات مظلمة آخر يمثل رهباناً مسيحيين وكنيسة مسيحية (١٤١) .

وزين محمود الغزنوي قصره بصور تمثله هو وجيوشه ، وفيلته ؛ وخطى ابنه مسعود ، قبل أن يخلعه الأتراك السلاجقة جن عرشه بزمن قليل ، جدران حجرات قصره في هراة بمناظر قائمة على أسس مأخوذة من كتب الفن الشهواني الفارسي أو الهندي (١٤٢) . وتروى إحدى القصص أن اثنين من رجال الفن أخذوا يتباريان في بيت أحد الوزراء في التصوير الواقعي ؛ فعرض أحدهما أن يصور فتاة راقصة تبدو كأنها خارجة من ياطن الجدار ؛ وعرض الثاني أن يقوم بعمل أشق من هذا - وهو أن يصورها بحيث تبدو وهي تم بدخول الجدار . ونجح كلاهما في إبراز نكرته نجاحاً حمل الوزير على أن يخلع عليهما خلعاً سنياً ويهبهما كثيراً من الذهب (١٤٣) . وفي وسعنا أن نذكر كثيراً من الشواهد البدالة على أن المسلمين قد خالفوا أمر التحريم ؛ وحسبنا أن نقول إنا نجد في بلاد الفرس بنوع خاص حيوانات وأناسى مصورة بكثرة يطرب لها الرائي ، ومثلة بجميع أنواع فنون التصوير . ولكن التحريم رغم هذا كله ، يؤيده الشعب تأييداً وصل من القوة إلى درجة أن كان بعض أفراده يشوهون روائع الفن أو يتلفونها ، قد عاق

نمو فن التصوير الإسلامي ، حتى اقتصر الكثير منه على التحلية المجردة ، وكاد يمنع تصوير الأشخاص (وإن كنا نسمع عن وجود أربعين صورة لابن سينا) ، وترك الفنانين يعتمدون كل الاعتماد على مناصرة الملوك أو الأشراف ،

ولم يبق من صور الجدران في ذلك العصر إلا صور قصير عمرة ؛ وهي تكشف عن خليط غريب مجذب من القواعد الفنية البيزنطية والأنماط الساسانية . وكان المسلمون أرادوا أن يعوضوا هذا النقص فارتفعوا بالرسوم الصغرى على العاج ومثله إلى درجة من الجمال لا تعلق عليها درجة أخرى في التاريخ كله . وقد وجد هذا الفن تراثاً متعدد الأنماط بنى عليه ، وأخرج منه ثماراً مختلفة ، ونعني بذلك التراث البيزنطى ، والساسانى ، والصينى ؛ وكان تزوين المخطوطات الإسلامية بالرسوم الصغيرة في العصور الوسطى فناً اختلفت به طبقات الأشراف القليلة العدد ، شأنه في هذا شأن موسيقى الحجرات في أوروبا الحديثة ؛ فقد كان الأغنياء وحدهم هم الذين يستطيعون الاحتفاظ بالفنان الفقير المخلص لفنه فقراً وإخلاصاً أنتجا هذه الروائع التي تتطلب كثيراً من الجهد والأناة . وهنا أيضاً أخضع التزيين تمثيل الكائنات الحية لسلطانها ؛ فأغفل الفنان عن قصد قواعد المنظور ، وخرج على الشكل الذى اتخذته أعمودجاليه ، فكان يعتمد إلى موضوع أو شكل مركزى - قد يكون شكلاً هندسياً أو زهرة واحدة - ويتبسط فيه ويتوسع ويخلق منه مائة صورة مختلفة حتى لتكاد كل لصنيع من الصفحة بما في ذلك إطارها تمتلئ بالخطوط المرسومة بدقة متناهية كأنها قد حفرت حفرأ . وكان في وسع الفنان أن يزين الكتب غير الدينية بصور للرجال والنساء والحیوان ، في مناظر الصيد واللهو والحب ، ولكن طراز التزيين كان هو بعينه على الدوام ، كان هو الصورة المكونة من خطوط دقيقة ، ومن ألوان مؤتلفة منسجمة يفنى بعضها في بعض ، ومن الجمال المجرد الهادئ البالغ أقصى درجات الكمال ، والذي يهدف إلى متعة العقل المطمئن المستريح .

وكان الخط العربي الجميل جزءاً لا يتجزأ من فن التنميق ؛ ولستنا نجد مثلاً آخر لاجتماع الكتابة والتصوير وتآخيهما على هذا النحو إلا في بلاد الصين البعيدة . لقد كانت الحروف الكوفية في موطنها الأول ، بلدة الكوفة نفسها ، حروفاً سمجة ذات زوايا ، وأركان محددة فجدة ، ولكن الخطاط كسا هذه العظام العجاف بالحركات وعلامات الإمالة والنقط وحروف المد ورسوم صغيرة متخذة من أوراق النبات ؛ فلما ارتقى الخط الكوفي إلى هذه الدرجة من الجمال أصبح كثير الاستعمال في تزيين المباني نفسها . أما الكتابة الدارجة فكان خط النسيج فيها أكثر جاذبية من الخط الكوفي ؛ وكانت حروفه المستديرة وكان امتداد الأفقى المتعرج كان هذان في حد ذاتهما وسيلة للزينة في غنى عن الإضافات الأخرى . وليس في خطوط العالم كاه سواء كانت مكتوبة باليد أو مطبوعة ما يضارع هذا الخط في جماله ؛ ولم يحل القرن العاشر حتى كانت له الغلبة على الخط الكوفي في تزيين المباني أو الخزف ؛ والكثرة الغالبة من الكتب الإسلامية التي وصلت إلينا من العصور الوسطى مكتوبة بخط النسخ ؛ ومعظم هذه من المصاحف لأن كتابة القرآن كانت في حد ذاتها من الأعمال الصالحة التي يثاب عليها صاحبها ؛ وكان تزيينها بالصور يعد انتهاكاً لحرمتها ، ولكن كتابتها بالخط الجميل كانت تعد من أشرف الفنون . وبينما كان رسامو الصور الصغيرة على العاج أو غيره صناعاً يستأجرون بأجر قليل ، كان الخطاطون يبحث عنهم في جميع أنحاء البلاد ويغدق عليهم الموك والأمراء الهدايا والأموال ، وكان منهم هم أنفسهم ملوك وساسة . وكانت الرقعة المكتوبة بيد أحد هؤلاء الفنانين كنزاً لا يقدر بحال ، وكان في البلاد منذ القرن العاشر طائفة من المولعين بجمع الكتب يعيشون ويتحركون ويقضون حياتهم كلها بين ما جمعه من المخطوطات الجميلة المكتوبة على الرق بالمداد الأسود ، والأزرق ، والبنفسجي ، والأحمر ، وبالذهب الإبريز . ولم يصل لنا إلا عدد قليل من كتب ذلك العصر ، وأقدمها كلها نسخة من القرآن موجودة

في دار الكتب المصرية بالقاهرة يرجع تاريخها إلى عام ٧٨٤ : وإذا ذكرنا بعد ذلك أن هذه الكتب كانت تجلد بأعظم أنواع الجلد لينا ومتانة ، وأنه قد بذل في تجليدها من حسن الذوق ومن المهارة ما لا زيادة بعده لمستزيد ، وأن الجلد المغلفة به كان في كثير من الأحيان يزدان بأجمل الرسوم وأدقها ، إذا ذكرنا هذا حق لنا أن نقول دون أن نتهم بالمغالاة إن الكتب الإسلامية من بداية القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر هي أجمل ما رأته العين من الكتب في العالم كله . وهل منا من يطمع في أن تنشر كتبه اليوم بهذا الروتق وتلك الفخامة ؟

وقد اجتمعت الفنون كلها في تزيين الحياة الإسلامية والسمو بها إلى ذروة الجمال ، فامتزجت أشكال الرسوم الدقيقة بالخط الجميل في المنسوجات ، وطبعت بالنار على الفخار ، وأقيمت على مداخل المباني والمحاريب . وإذا كانت حضارة العصور الوسطى لم تفرق بين الصانع الماهر والفنان ، فلم يكن ذلك ليحط من شأن الفنان ، بل كان يرفع من قدر الصانع الماهر ، وكان الهدف الذي تبتغيه كل صناعة أن تصبح فناً من الفنون الجميلة . لقد كان النسيج يخرج منسوجات عادية يستعملها عامة الناس وتبلى بعد قليل ، مثله في هذا كمثل صنائع الفخار سواء بسواء ؛ ولكنه كان في بعض الأحيان يعبر عن حذقه وصبره ، كما يصور أحلامه ، في الأتواب ، والسجف ، والطنافس ، وأغطية الفراش ، والنسيج المطرز ، والخزير المشجر ، يخرج له عتدة أجيال ، وقد أبدع نقشه ، وصبغه بالألوان الزاهية المحبوبة في بلاد الشرق . لقد كانت المنسوجات البيزنطية ، والقبطية ، والساسانية ، والصينية ذائعة الصيت حين فتح المسلمون بلاد الشام ، وفارس ، ومصر ، والتركستان ؛ وما أسرع ما تعلم المسلمون صناعات تلك البلاد ، فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى أخرجت المصانع الإسلامية المنسوجات الحريرية التي نهى النبي عن لبسها ، وأخرجتها بكثرة ، ولبسها النساء والرجال وهم يدعون الله أن يغفر لهم خطاياهم الجسمية والروحية . وكانت حلة الشرف أئمن ما يستطيع الخليفة أن يخلعه على من

يؤدى له خدمة جليلة ، وسرعان ما أصبح المسلمون كبار تجار الحرير في العالم كله في العصور الوسطى . وكانت أقمشة التفتاه الحريرية تباع للملابس السيدات في أوروبا ، واشتهرت شيراز بالأقمشة الصوفية ، كما اشتهرت بغداد بأقمشة الستائر ، والمظلات ، والحرير المموج ، وخوزستان بالأقمشة المنسوجة من وبر الجمال وشعر الماعز ، وخراسان بأغطية الموائد ، وصور بالطنافس ، وبخارى بسجاجيد الصلاة ، وهرات بالحرير المنقوش بخيوط الذهب . ولقد عدا الدهر على هذا كله فلم يبق لنا منه مثال واحد ، وكل ما نستطيعه هو أن نتصور ما كانت عليه هذه المنسوجات من الرونق والفخامة . بالنظر إلى ما كان منها في القرون التالية ، وبدراسة ما وصفها به الكتاب المعاصرون لها . وقد وجدت في المحفوظات الباقية من أيام هرون الرشيد مذكرة جاء فيها « ٤٠٠٠٠٠ قطعة من الذهب ثمن حلة وهبت لجعفر بن يحيى الوزير » (١٤٤) .

الفصل الثامن

الموسيقى

كانت الموسيقى في أول الأمر محرمة في الإسلام تعدّ من الآثام ، شأنها في ذلك شأن النحت (١٤٥) . نعم إنه لم ينص على تحريمها في القرآن ، ولكن حديثاً مشكوكاً في صحته يعزو إلى النبي . أنه لخوفه من عاقبة أغاني النساء الخليعات ورقصهن قال ما معناه إن الآلة الموسيقية كموذن الشيطان يستفز من استطاع إلى عبادته . وكان علماء الدين وأتباع المذاهب الأربعة ينفرون من الموسيقى لأنها تثير الشهوات ، ولكن منهم من قال متساهلاً إنها ليست إثماً في ذاتها . أما الناس ، وهم أحكم في مسلكهم منهم في عقائدهم ، فكان يجري على ألسنتهم مجرى الأمثال أن « الخمر كالجسد والسماع كالروح والسرور ولدهما » (١٤٦) . وقد رافقت الموسيقى كل مرحلة من مراحل الحياة الإسلامية وملاّت آلاف الليالي العربية بأغاني الحب والحرب والموت ؛ فكانت قصور الأمراء وكثير من بيوت العظماء تستخدم المغنين ليطربوا أهلها بقصائد الشعراء أو بقصائدهم هم أنفسهم ، وفي ذلك يقول مؤرخ قدير صائب الحكيم على هذه الأمور قولاً خليقاً بأن يثير الدهشة : إن المنزلة التي بلغتها الموسيقى بجميع فروعها عند العرب لتزرى بمنزلة هذا الفن في تاريخ أي بلد آخر (١٤٧) . نعم إن الأذن الغربية لا تستطيع بغير مران طويل أن تقدر خصائص الموسيقى العربية - ونعني بتلك الخصائص تفضيلها حسن الإيقاع على انسجام الألحان ، وتقسيم النغمات إلى أثلاث لا إلى أنصاف ، وما في تكوينها وتوقيعها من نضارة وبهجة هي من مميزات بلاد الشرق . وقد تبدو لنا نحن الغربيين تكراراً بسيطاً ، محزناً مملاً ، غريباً مستهجننا غير منتظم . لكن الموسيقى الأوربية نفسها تبدو للعربي ناقصة في عدد نغماتها ،

وفي دقة هذه النغمات ؛ مولعة إلى حد الإسفاف بالتحديد الذي لاخير فيه ، وبالأصوات الناشزة الشديدة الارتفاع . وإن ما في الموسيقى العربية من رقة تبعث على التفكير لتؤثر في نفس المسلم أعمق التأثير . ويحدثنا السعدى عن غلام يعنى بنغمة حمزنة مؤثرة تستوقف الطائر في كبد السماء^(١٤٨) . ويصف الغزالي النشوة بأنها الحالة التي يبعثها الاستماع إلى الموسيقى^(١٤٩) . وقد أفرد أحد المؤلفين العرب فصلاً في كتابه للحديث عن الذين فقدوا وعيهم أو ماتوا وهم يستمعون إلى الموسيقى الإسلامية ، وقد استعان بها الدراويش في أذكارهم وشعائرهم وإن كان الدين نفسه قد ندد بها في أول الأمر :

وبدأت الموسيقى الإسلامية بالألحان والأشكال السامية القديمة ، ثم تطورت على ضوء صلاتها بالتقاسيم اليونانية الآسيوية النشأة وتأثرت تأثراً قويا بالموسيقى الفارسية والهندية . وقد أخذت إحدى العلامات وكثير من القواعد الموسيقية عن اليونان ؛ وللكندى ، وابن سينا ، وإخوان الصفا ، كتاباب مطولة في هذا الموضوع ؛ وكتاب الفارابي في الموسيقى أشهر ما ألفه في العصور الوسطى في النظريات الموسيقية وهو « يضارع أى كتاب وصل إلينا من المصادر اليونانية إن لم يفقه »^(١٥٠) . وقد وضع المسلمون منذ القرن السابع الهجـم الموسيقى (ويبدو أن ذلك لم يكن معروفاً في أوربا قبل عام ١١٩٠)^(١٥١) — وكانت علاماتهم تدل على طول الزمن الذي تمتد إليه كل نغمة وعلى مقامها^(١٥٢) .

وكان عند العرب آلات موسيقية تبلغ المائة عدداً أشهرها كلها العود ، والقيثارة ، والبندور ، والسنطير ، والناي ، يقويها في بعض الأحيان البوق ، والدفت ، والصنج ، والرق ، والطبل . وكان العود على أنواع وأحجام كثيرة لا تقل عن الأثني عشر ؛ وكان الكبير منها يسمى القيثارة . وعن العرب أخذت كلمتا guitar ، و lute ؛ وكان القوس يستعمل للعزف على بعض الآلات الوترية ، وكان الأرغن بنوعيه الهوائى والمائى معروفاً عند العرب ؛ وقد اشتهرت

بعض المدن الإسلامية كإشبيلية يصنع الآلات الموسيقية الدقيقة التي لا تضارعها آلات أخرى مما كان يصنع وقتئذ في بلاد الإسلام (١٥٣). وكان يقصد بالموسيقى الآلية كلها تقريباً أن تصاحب الغناء أو أن تكون مقدمة له. وكان يقتصر في العادة على استخدام أربع آلات أو خمس في وقت واحد، ولكننا نقرأ أيضاً عن فريق موسيقية كبيرة العدد (١٥٣)، وتقول إحدى الروايات المتواترة إن سريج الموسيقى من أهل المدينة أول من استعمل القصب (١٥٤)؛ وكانت منزلة الموسيقين عند المسلمين منحطة إذا استثنينا مشهورى الفنانين وذلك على الرغم من ولع المسلمين بهذا الفن ولعاً يبلغ حد الجنون... وشاهد ذلك أننا قلما نرى من أفراد الطبقات العليا من نزل من عليائه فدرس هذا الفن الفاتن الذى يسلب العقول. ومن أجل هذا كانت الموسيقى في بيوت الأغنياء من عمل القيان، ومن المشترعين فئة تقول إن شهادة الموسيقى لا تقبل في الحكمة (١٥٥). كذلك كاد الرقص عندهم يقتصر على الجوارى يدرين عليه ويستأجرون له؛ وكان في كثير من الأحيان رقصاً شهوانياً، وفي كثير منها فنياً. وقد أقام الخليفة الأمين حفلة راقصة دامت طول الليل رقص فيها عدد كبير من الفتيات وغنين. ولما اتصل العرب باليونان والفرس ارتفعت منزلة الموسيقين عندهم، وكان الخلفاء الأمويون والعباسيون يغدقون الهبات على كبار الموسيقين في أيامهم؛ فهاهو ذا سليمان بن عبد الملك يعرض جوائز تبلغ عشرين ألف قطعة من الفضة (١٠,٠٠٠ دولار أمريكي) لمباراة بين الموسيقين في مكة. وهاهو ذا الوليد الثاني يعقد مباريات في الغناء كانت الجائزة الأولى في واحدة منها ٣٠٠,٠٠٠ قطعة من الفضة (١٥٠,٠٠٠ دولار أمريكي) (١٥٦)، وربما كانت هذه الأرقام مبالغاً فيها كمعادة أهل الشرق. وقد دعا المهدي إلى بلاطه مغنياً مشهوراً من أهل مكة، ودعا هرون الرشيد إلى بلاطه إبراهيم الموصلي وأعطاه ١٥٠,٠٠٠ درهم (٧٥,٠٠٠ دولار أمريكي) ورتب له عشرة آلاف كل شهر ووجهه ١٠٠,٠٠٠ نظير أغنية واحدة. وقد بلغ من حب هرون للموسيقى أن شجع تلك الموهبة في

أخيه لأبيه ، الشاب إبراهيم بن المهدي - على الرغم من تقاليد طبقة - لأن إبراهيم كان له صوت غاية في القوة يبلغ مداه ثمانى طبقات . وإن الزمن ليتضائل في خيالنا وتضيق دائرته إلى أقصى حد عند ما نسمع أنه قام بحركة ابتداعية في الموسيقى العربية مضادة للزعة الإبتاعية نزعة إسحق بن إبراهيم الموصلى . وكان المأمون يقول عنه إنه لم يغنّ لى قط إلا شعرت بأنى قد اتسع ملكى (١٥٩) .

والقصة الآتية التى يروها مخارق تلميذ إبراهيم الموصلى تصور لنا المجتمع الإسلامى بصورة مبهجة ، وتظهر ما كان للموسيقى الإسلامية من أثر قوى فى نفس المسلم ؛ ولسنا فى حاجة إلى تصديقها لكى نحس بمغزاها ، قال :
تطلعت طفيلة قامت على أمير المؤمنين المعتصم بمائة ألف درهم ، فقيل له : كيف ذلك ؟ قال : شربت معه ليلة إلى الصبح ، فلما أصبحنا قلت له : يا سيدى إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فأخرج إلى الرصافة فأتسم إلى وقت انتباه أمير المؤمنين : قال نعم ، وأمر البوابين أن يتركونى ؛ فخرجت أتمشى ، وإذا أنا بجارية كأن الشمس تشرق من وجهها فتبعتها ، ورأيت معها زنبيلاً فوقفت على صاحبها فأكهة فاشترت منه سفرجلة بدرهم ، ورمائة بدرهم وكهراية بدرهم وانصرفت . فتبعتها ، فالتفت فرأتى فقالت يا ابن الفاعلة إلى أين تريد ؟ قلت خلفك يا سيدى ؛ فقالت ارجع يا ابن الزانية لتلايرك أحد فيقتلك : فتأخرت ومشيت من بعيد وهى تمشى أمامى ، ثم التفت فرأتى فشمتمنى شتما قبيحاً . ثم جاءت إلى باب كبير فدخلت فيه وجلست أنا بجذاء الباب ، وقد ذهب عقلى ، ونزلت على الشمس ، وكان يوماً حاراً ، فما لبثت أن جاء فتىيان كأهما بدران على حمارين ؛ فلما وصلا إلى الباب استأدنا فأذن لهما ، فدخلا ، ودخلت معهما ، فظننا أن صاحب المنزل قد دعانى . وجىء بالأكل فأكلنا وغسلنا أيدينا ، ثم قال لنا صاحب المنزل : هل لكما فى فلانة ؟ قالوا : إن تفضلت . فاستدعى تلك الجارية ، فخرجت صاحبتي ووراءها وصيفة تحمل عودها ، فوضعت فى حجرها وغطت ، فشرىوا وطرىوا ، فقالوا : لمن هذا الصوت ؟ فقالت : لسيدى مخارق . ثم غنت صوتاً آخر فشرىوا

وطربوا وهي تلحظني وتشك في ، فقالوا : لمن هذا الصوت ؟ فقالت :
لسيدي مخارق ، ثم غنث صوتاً ثالثاً فطربوا وشربوا ، فقالوا : لمن هذا
الصوت ؟ فقالت : لسيدي مخارق . فلم ألبث أن قلت : يا جارية شدي
بدك فشدت أوتارها وخرجت عن إيقاعها الذي تقول عليه . فاستدعيت
يدواة وقضيب وغنيت الصوت الذي غنته الجارية أولاً ، فقاموا إلى وقبلوا
رأسي : (قال الراوي) وكان مخارق أحسن الناس صوتاً وكان يوقع بالقضيب
توقيعاً عجيباً . ثم غنيت الصوت الثاني والثالث فكادت عقولهم تطير : فقالوا
بالله من أنت يا سيدي ؟ فقلت : أنا مخارق . فقالوا ما سبب مجيئك ؟ قلت :
طفيلي أصلحك الله ، وأخبرتهم بخبري ، فقال صاحب البيت لصديقيه :
أما تعلمان أني أعطيت في الجارية ثلاثين ألف درهم فامتنت عن بيعها ؟
قالا : بلى . قال : هي له . قال صديقه : علينا عشرون ألف درهم عليك
عشرة آلاف . قال مخارق فلكوني الجارية وجلست عندهم إلى العصر
وانصرف بها (وبغيرها من الأثواب الغالية والهدايا الأخرى الثمينة التي
أهدوها لي) ، وكلما مرت بالمواضع التي شتمتني فيها أقول لها : يا مولاتي :
أعيتي كلامك ، فتستحي مني فأحلف عليها لتعيده فتمعيده حتى وصلنا إلى
باب أمير المؤمنين (فقيل لي إنه انتبه وطلبك في منازل أبناء القواد فلم يجدهك
وتغيظ عليك غيظاً شديداً) ، فدخلت عليه ویدی في يدها فلما رأني
سبتني وشتمني ، فقلت : يا أمير المؤمنين : لاتعجل . وحدثته القصة
فضحك وقال : نحن نكافئهم عنك . فأحضرهم وأمر لكل واحد منهم بثلاثين
ألف درهم ولي بعشرة آلاف (١٦٠) (*) .

(*) نقل المؤلف هذه القصة عن كتاب *Arabian Society in the Middle Ages* (المجتمع العربي في العصور الوسطى) تأليف إدورد لين Edward Lane ونقلها لين عن كتاب
حلبة الكيت . ونقلناها نحن عن الكتاب الأخير وهي مطابقة في جملها لمسا ورد في كتاب لين
هذا الجزأين المحصورين بين أقواس فالجزء الأول غير موجود في حلبة الكيت ، والجزء الثاني
غير موجود في الأصل الإنجليزي ، ولعل مؤلفنا أو لعل لين نفسه قد حذفه . وهناك اختلاف آخر
فيما كانا به الخليفة صاحب الجارية وصديقيه فؤلفنا يقول إن أمير المؤمنين أعطى صاحب الجارية
أربعين ألف درهم ، وكل واحد من صديقيه ثلاثين ألفاً ، ومخارقاً مائة ألف ، أما صاحب حلبة
الكيت فيقول إنه أمر لسيد الجارية ولكل واحد من صاحبيه بثلاثين ألف درهم ، ومخارق بعشرة
آلاف ، وهذا يتفق مع ما جاء في أول القصة الذي لم ينقله المؤلف . (المترجم)

الباب الثالث عشر

الإسلام في الغرب

٦٤١ - ١٠٨٦

الفصل الأول

فتح إفريقية

لم يكن الشرق الأدنى إلا جزءا من العالم الإسلامي ، وقد استعادت مصر تحت حكم المسلمين مجدها الفرعوني ؛ كما استعادت تونس ومراكش بزعامة العرب ما كان لها من حكومة منظمة ؛ وازدهرت مدائن القيروان وبالرم وفاس إلى حين . أما أسبانيا في عهد العرب فقد وصلت إلى الذروة في تاريخ الحضارة ؛ ولما حكم المغل المسلمون بلاد الهند فيما بعد شادوا كما يشيد الجبابرة ، وأبدعوا كما يبدع الصياغ .

وبينا كان خالد بن الوليد وغيره من الفاتحين يخضعون بلاد الشرق زحف عمرو بن العاص ، بعد موت النبي بما لا يزيد على سبع سنين ، من مدينة غزة في فلسطين واستولى على بلوز(*) ، ومنفيس ، ثم زحف على الإسكندرية . لقد كان لمصر مرافئ وقواعد بحرية ، وكان العرب في حاجة ماسة إلى أسطول ؛ وكانت مصر تصنر الحبوب إلى القسطنطينية ، وكانت بلاد العرب في حاجة إلى الحبوب ؛ وكانت الحكومة البيزنطية منذ قرون طوال تستخدم العرب في شرطتها ، ولم يكن هؤلاء ممن يعوقون زحف الفاتحين ؛ وكان المسيحيون اليعاقبة في مصر قد قاسوا

(*) أو بلوزيوم ويسمها العرب الفرما . (المترجم)

الأمرين من جراء اضطهاد بزنطية ؛ ولهذا رحبوا بقدوم المسلمين ، وأعانوهم على الاستيلاء على منفيس ، وأرشدوهم إلى الإسكندرية (***) ، وبما سقطت تلك المدينة في يد عمرو بعد حصار دام ثلاثة عشر شهراً (٦٤١) كتب إلى الخليفة عمر ابن الخطاب يقول : « أما بعد ، فلإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها ، غير أني أصبت فيها أربعة آلاف قصر وأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية وأربعمائة ملهى للملوك » (***) (١) .

وحال عمرو بين العرب وبين نهب المدينة وفضل أن يفرض عليها الجزية . ولم يكن في وسعه أن يدرك أسباب الخلافات الدينية بين المذاهب المسيحية المختلفة ، ولذلك منع أعوانه اليعاقبة أن ينتقموا من خصومهم الملكانيين ، وخالف ما جرت عليه عادة الفاتحين من أقدم الأزمنة فأعلن حرية العبادة لجميع أهل المدينة .

وبعد ، فهل أحرق عمرو مكتبة الإسكندرية ؟ لقد وردت هذه القصة أول ما وردت في كتاب عبد اللطيف (١١٦٢ - ١٢٣١) ، أحد العلماء المسلمين (٢) ؛ ثم أوردتها بتفصيل أوفى بار هيربوس Bar Hebraeus (١٢٢٦ - ١٢٨٦) وهو مسيحي يهودي الأصل من شرقي بلاد الشام كتب باللغة العربية ، باسم أبي الفرج ، مختصراً لتاريخ العالم . وقد جاء في روايته لهذه القصة أن رجلاً من أهل الإسكندرية يسميه العرب حنا الأجرومي (واسمه عند الغربيين John Philoponus) طلب إلى عمرو أن يعطيه ما في المكتبة من مخطوطات ،

(*) ليست هذه الرواية من الروايات الموثوق بها ، ويذكر الدكتور بطلر في كتابه فتح العرب لمصر مصدر هذه الرواية ويورد الأدلة التي تنقصها . اقرأ هذا في الترجمة العربية لهذا الكتاب في هامش ص ٢٥٧ .

(**) في الأصل الإنجليزي أربعمائة حمام ولكن حتى نقلنا عن ابن الحكم والدكتور بطلر يذكر أنها أربعة آلاف حمام ، وقد تكون أربعمائة أقرب إلى العقل . (المترجم)

فكتب عمرو إلى الخليفة عمر يستأذنه في هذا ؛ فرد عليه عمر ، كما تقول الرواية ، بقوله : « أما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء في كتاب الله فلا حاجة لنا به ، وإذا خالفه فلا أرب لنا فيه واحرقها » . وتختصر الأسطورة هذا الرد الأسطوري في أغلب الظن إلى هذا الجواب القصير : « احرقها لأن ما فيها كله محتويه كتاب واحد هو القرآن » . ويضيف بارهريوس أن عمراً أمر بالكتب فوزعت على حمامات المدينة البالغ عددها أربعة آلاف حمام لتوقد بها ، فما زالوا يوقدون بملفات البردي والرق ستة أشهر (٦٤٢) . ومن نقط الضعف في هذه القصة : (١) أن جزءاً كبيراً من هذه المكتبة قد أحرقه المسيحيون المتحمسون في عهد البطرق توفيلس عام ٣٩٢م (٢) ، وأن ما بقي فيها قد تعرض لإهمال المهملين وعداء الأعداء تعرضاً « أدى إلى ضياع معظمه قبل عام ٦٤٢ » (٤) ، (٣) وأن أحداً من المؤرخين المسيحيين لم يشر بكلمة إلى هذا الحادث المزعوم في الخمسمائة العام الواقعة بين حدوثه وبين ذكره لأول مرة ، مع أن أحد هؤلاء المؤرخين وهو أوتكيوس Eutychius كبير أساقفة الإسكندرية في عام ٩٣٣م* قد وصف فتح العرب للإسكندرية بتطويل كبير (٥) . ولهذا فإن معظم المؤرخين يرفضون هذه القصة ويرون أنها من الخرافات الباطلة . هذا ولقد كان ضياع مكتبة الإسكندرية شيئاً فشيئاً من المأسى الكبرى في تاريخ العالم ؛ وذلك بأنها ، كما يعتقد العلماء ، كانت تحتوي على مجموعة كاملة مما نشر من كتب إسكلس ، وسفكل ، وبولبيوس ، وإيني ، وتاستوس ، ومائة آخرين من المؤلفين الذين وصلت إلينا كتبهم مختلطة مهوشة ، كما كانت تحتوي على النصوص الكاملة لمن جاء قبل سقراط من الفلاسفة ، وهي النصوص التي لم يبق منها إلا جذاذات متفرقة ، وعلى آلاف من المجلدات في تاريخ اليونان ، والمصريين ،

(*) ولقد أورد الدكتور بقلر في كتابه « فتح العرب لمصر » المترجم إلى اللغة العربية من الأدلة القاطعة ما يفند هذه القصة . (المترجم) .

والرومان ، وفي العلوم الطبيعية ، والآداب والفلسفة .

وحكم عمرو مصر حكماً صالحاً ؛ وخصص جزءاً من الضرائب الباهظة(*) لتطهير قنوات الري وترميم الجسور ، وإعادة فتح الخليج الذي كان يوصل النيل بالبحر الأحمر ، والذي يبلغ طوله ثمانين ميلاً . وبذلك استطاعت السفن وقتئذ أن تصل من البحر المتوسط إلى المحيط الهندي^(٦) (وقد طمر هذا الخليج مرة أخرى في عام ٧٣٢ وأهل شأنه) . وأنشأ عمرو عاصمة جديدة لمصر في الموضع الذي أقام فيه معسكره عام ٦٤١ وسميت العاصمة الجديدة بالقسطاط ، وهي كما يبدو الكلمة المرادفة لخيمة ؛ وكانت هذه المدينة بداية مدينة القاهرة الحاضرة ؛ وقد ظلت قرنين كاملين (٦٤١ - ٨٦٨) مقر الولاة المسلمين يحكمون منه مصر نيابة عن خلفاء دمشق أو بغداد ؛

وبعد فإن من الحقائق المقررة أن كل فتح يخلق حدوداً جديدة تتعرض للخطر فتوحى بفتح جديد . وأراد المسلمون أن يحموا مصر الإسلامية من هجوم على جناحها الغربي من قبرين البيزنطية فزحفوا بجيش تبلغ عدته أربعين ألف مقاتل محترقين الصحراء إلى برقة ، واستولوا عليها ، ووصلوا قرب قرطاجنة ؛ وغرس قائد المسلمين ربحه في الرمل جنوبي مدينة تونس الحالية بنحو ثمانين ميلاً ، وأقام في هذه النقطة معسكره ، وأنشأ بذلك (٦٧٠) مدينة من أكبر المدائن الإسلامية . وهي مدينة القيروان - « المحطة » (***) . وعرف عاهل الروم أن الاستيلاء على قرطاجنة يمكن المسلمين من السيطرة على البحر المتوسط ، ويفتح لهم الطريق إلى أسبانيا ؛ فسير إليها الجند والأسطول ؛ ونسى البربر إلى حين حقدهم على الروم فانضموا إليهم في الدفاع عن المدينة ، فظلت تقاوم المسلمين ولم تخضع إليهم إلا في عام ٦٩٨ . ولم يلبث

(*) لعل المؤلف يقصد الضرائب التي كانت باهظة في أيام الرومان لأن المعروف أن عمراً خفف الضرائب ووزعها توزيعاً عادلاً . (المترجم)

(**) الذي في قاموس الفيروزبادي أن القيروان القافلة . (المترجم)

شمال إفريقيا أن خضع للمسلمين حتى شاطئ المحيط الأطلسي : واقتنع البربر - بشروطهم هم أنفسهم تقريباً - بقبول حكم المسلمين ، ولم يلبثوا أن اعتنقوا الدين الإسلامى ، وقسمت أملاك المسلمين فى إفريقيا إدارياً إلى ثلاث ولايات : مصر وعاصمتها القسطنطينية ، وإفريقية وعاصمتها القيروان ، والمغرب (مراكش) وعاصمته فاس .

وظلت هذه الولايات نفسها قرناً من الزمان تعترف بالسيادة لخلفاء المشرق ؛ ولكن انتقال مقر الخلافة إلى بغداد زاد من صعاب الاتصال والنقل ، فأخذت الولايات الإفريقية تتحول واحدة بعد الأخرى إلى ممالك مستقلة . فقامت أسرة الأدارسة فى فاس (٩٧٤) ، وأسرة بنى الأغلب (٨٠٠ - ٩٠٩) تحكيم فى القيروان ، وقامت الأسرة الطولونية (٨٦٩ - ٩٠٥) فى مصر . ولم تعد مصر - هرى العالم القديم - نهياً للحكام الأجانب ، ودخلت فى نهضة صغرى جديدة ، وفتح أحمد بن طولون عام (٨٦٩ - ٨٨٤) بلاد الشام وضمها إلى مصر ، وبنى له عاصمة جديدة تدعى القطائع (ضاحية من ضواحي القسطنطينية) وشجع العلوم والفنون ، وشاد القصور ، والحمامات العامة ، وأنشأ بيارستاناً ، ومسجداً عظيماً لا يزال حتى اليوم ناطقاً بفضله : وقلب ابنه نجمارية (٨٨٤ - ٨٩٥) هذا النشاط إلى ترف ، ورضع جدران قصره بالذهب ، وفرض على شعب مصر الضرائب الباهظة لينثىء لنفسه بركة من الزيت ليطأ رجب بلطف على فراشه المصنوع من الجلد المنفوخ حتى يغلبه النوم : وخالفت الأسرة الطولونية بعد أن حكمت أربعين عاماً أسرة أخرى تركية أنشأها الإخشيد (٩٣٥ - ٩٦٩) . ولم تكن لهذه الممالك الإفريقية جذور تمتد إلى دماء الشعب أو تقاليده ، ولهذا كان لا بد لها أن تقيم حكمها على القوة والزعامة الحربيتين ، فلما أضعفت الثروة حاستها العسكرية ذابت قوتها واختفت من الوجود .

وأيدت أعظم الأسر الحاكمة الإفريقية سياستها الحربية بعقيدة دينية تكاد

تبلغ درجة التعصب ؛ ذلك أن أبا عبد الله قام في بلاد تونس عام ٩٠٥ وأخذ يدعو إلى المذهب الشيعي وإلى عقيدة الأئمة السبعة ، ويبشر بقرب ظهور المهدي ؛ وقد بلغ من قوة أتباعه البربر أن استطاع لإزالة حكم الأغالبة من القيروان . وكان قد أعد العدة لتحقيق ما أثاره في أتباعه من آمال مرتقبة فاستدعى من بلاد العرب عبيد الله بن محمد ، وزعم أنه حفيد جبد الله إمام الاسماعيلية ، وأعلن أنه المهدي المنتظر ، ونادى به ملكا (٩٠٩) ، وما لبث هذا الداعية أن قُتِلَ بأمر مليكه . وقال عبيد الله إن نسبه يمتد إلى السيدة فاطمة بنت النبي (صلى الله عليه وسلم) وسمى أسرته بالأسرة الفاطمية نسبة لها .

واستعاد شمال إفريقيا تحت حكم الأغالبة والفاطميين ما عرفه من رخاء في أيام مجد قرطاجنة تحت حكم الرومان . ذلك أن الفاتحين المسلمين قى عنفوان شباهم في القرن التاسع أنشئوا ثلاث طرق كبرى يتراوح طولها بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ ميل وتخترق الصحراء الكبرى إلى بحيرة شاد وتمبكتو ، كما أنشئوا من الثغور في الشمال والغرب بونة ، ووهران ، وسبته ، وطنجة ؛ وقامت تجارة عظيمة مريجة ربطت بلاد السودان بالبحر المتوسط ، وبلاد الإسلام الشرقية بمراكش والأندلس ، ونقل المهاجرون الأسبان إلى مراكش الصناعات الجلدية ؛ وأضحت مدينة فاس مركزاً لتبادل التجارة مع أسبانيا ، واشتهرت بأصباغها وعطورها ، وطرايبها الحمر المغربية .

وانتزع الفاطميون في عام ٩٦٩ مصر من بنى الإخشيد ، ومالبثوا أن بسطوا حكمهم على بلاد العرب والشام . ونقل المعز الخليفة الفاطمي عاصمة ملكه إلى القاهرة ؛ وكانت امتداداً للقطائع في جهة الشمال الشرق كما كانت القطائع نفسها امتداداً للقساط في نفس هذا الاتجاه . وحذا المعز حذو أسلافه فشرع يغزو البلاد ويفتح الأمصار . وفي عهد المعز (٩٥٣ - ٩٧٥) وابنه العزيز (٩٧٥ - ٩٩٦) أعاد يعقوب بن كلس - وهو يهودى من بغداد اعتنق الإسلام - تنظيم الإدارة

المصرية ، وجعل الفاطميين أغنى حكام زمانهم . يشهد بذلك أنه حين توفيت
رشيدة أخت المعز خلقت وراءها ٢٧٠٠٠٠٠٠ دينار (١٢٨٢٥٠٠٠٠
دولار أمريكي) ، و ١٢٠٠٠٠٠٠ ثوب ؛ ولما ماتت أخته عبدة تركت ثلاثة
آلاف مزهرية فضية ، وأربعمائة سيف ذات نقوش دمشقية ذهبية ، وثلاثين
ألف قطعة من المنسوجات الصقلية ، ومقداراً ضخماً من الجواهر (٧) . ولكن
لا شيء يسقط كالنجاح ؛ وآية ذلك أن الحاكم الخليفة التالي (٩٩٦ - ١٠٢١)
جن من فرط الثراء والسلطان ، فدبر اغتيال عدد كبير من الوزراء ،
واضطهد المسيحيين واليهود ، وأحرق كثيراً من الكنائس والمعابد ، وأمر
بهدم كنيسة بيت المقدس التي فيها قبر المسيح ، وكان تنفيذ هذا الأمر من
أسباب قيام الحروب الصليبية . وكأنما أراد الحاكم أن يعيد سيرة الإمبراطور
كلجيولا ، فنأدى بنفسه إلهماً ، وأرسل البعوث لنشر هذه العقيدة بين الناس ،
فلما أن قتل بعض هؤلاء الرسل عاد هو إلى حب المسيحيين واليهود ، وأعاد
بناء كنائسهم ومعابدهم . واغتيل الحاكم في سن السادسة والثلاثين .

وعم الرخاء مصر رغم ما كان يخص به الخلفاء أنفسهم من امتيازات واسعة
لأنها كانت حلقة الاتصال التجاري بين أوروبا وآسية ، وازداد عدد السفن التي
ينقل عليها تجار الهند والصين بضائعهم من تلك البلاد مارة بالخليج الفارسي ،
والبحر الأحمر ، والنيل إلى مصر . واضمحلت ثروة بغداد ، وضعفت قوتها بينما زاد
سلطان القاهرة وثوراتها . وقد زار ناصر خسرو العاصمة الجديدة في عام ١٠٤٧
وجاء في وصفه لها أن بها عشرين ألف بيت ، معظمها من الآجر ترتفع إلى خمس
طبقات أوست ، وعشرين ألف متجر مملوءة بالذهب ، والجواهر ، والأقمشة
المطرزة ، والحرير إلى درجة لا يجد الإنسان فيها مكاناً يجلس (٨) فيه . وكانت
الشوارع الكبرى مظلة من وهج الشمس وتضيؤها المصابيح بالليل . وكانت
الحكومة تحدد الأثمان ، وتقض على من يبيع بأعلى منها ، ويطاف به في شوارع
المدينة على حمل ، وهو يدق بيده ناقوساً ويعلن بنفسه جريمة (٩) . وكان ذوو

الثروات الضخمة كثرى العدد ؛ وقد استطاع أحد التجار ، وهو مسيحي ، أن يطعم السكان كلهم من ماله الخاص مدة خمس سنين أصنبت فيها البلاد بالتمحط بسبب انخفاض فيضان النيل ؛ وترك يعقوب بن كلس وراءه ضياعاً تقدر قيمتها بما يوازي ثلاثين مليون دولار أمريكي^(١٠) . واشترك هؤلاء الأثرياء مع الخلفاء الفاطميين في بناء المساجد ، وإنشاء دور الكتب ، والمدارس الكبرى ، وتشجيع العلوم والفنون . وكان حكم الفاطميين بوجه عام حكماً صالحاً خيراً طابعه الحرية والتسامح على الرغم مما كان يشينه أحياناً من قساوات ، ومن ترف وإتلاف ، وبالرغم من الاستغلال المعتاد للعامل ، ومن العدد المطلوب من الحروب ؛ وكان يضارع في رخائه وثقافته أى عهد آخر في تاريخ مصر^(١١) .

وأخذ حكم الفاطميين في الضعف أيام المستنصر (١٠٣٦ - ١٠٩٤) ، وهو ابن أمة سودانية . وقد أقام هذا الخليفة سرادقاً فخماً^(*) يقضى فيه أوقات منعمته ، وعاش عيشة الموسيقى ، والخمر ، واللذة ؛ وكان يقول إن تلك الحياة خير لديه من التحديق في الحجر الأسود ، والاستماع إلى صوت المؤذن الممل ، وشرب الماء العكر (من بئر زمزم في مكة)^(١٢) . وثار عليه جنوده الأتراك في عام ١٠٦٧ ، وأغاروا على قصره ، ونهبوا منه كنوزاً فنية لا تقدر بثمن ، ومقداراً عظيماً من الجواهر ، وحمل خمسة وعشرين بعبراً من المخطوطات اتخذ الضباط الأتراك بعضها وقوداً لتدفئة بيوتهم ، كما اتخذوا جلودها المصنوعة من الجلد الرقيق البديع لإصلاح نعال جوارحهم . ولما توفي المستنصر تمزقت أوصال الدولة الفاطمية ، وانقسم جيشها الذي كان من قبل قوياً إلى شيع متنازعة من بربر ، وسوادنيين ، وأتراك ؛ وكانت إفريقية ومراكش قد انفصلتا عنها ، وثار عليها فلسطين ، وضاعت منها بلاد الشام . ولما أن خلع صلاح الدين آخر الخلفاء الفاطميين في عام ١١٧١ ، كانت أسرة أخرى من الأسر التي حكمت مصر قد ساقها السلطان والانغماس في الملذات إلى ما ساق إليه سابقاتها من الضعف والفناء .

(*) على شكل الكعبة .



(شكل هـ) معن الجامع الأزهر بالقاهرة

الفصل الثاني

الحضارة الإسلامية في إفريقية

كان الأمراء والخلفاء في القاهرة ، والقيروان ، وفاس ، ينافس بعضهم بعضاً في إقامة المباني ، وتشجيع التصوير ، والموسيقى ، والشعر ، والفلسفة ؛ ولكن كل ما بقي من المخطوطات من ذلك الوقت في شمالي إفريقية منجوع الآن في دور الكتب التي لم يبدأ علماء الغرب في ارتيادها إلا منذ وقت قريب(*) . وقد اندثرت معظم آيات الفن ولم يبق ما يشهد على عظمة ذلك العصر وروحه إلا المساجد وحدها . ففي القيروان مسجد سيدى عقبة الذى أنشئ أولاً في عام ٦٧٠ وجدد بناؤه سبع مرات ، والذى يرجع الجزء الأكبر منه إلى عام ٨٣٨ . وتعتمد أروقته ذات العقود المستديرة على مئات من العمود الكورنثية المأخوذة من خرائب قرطاجنة ، ومينبره آية رائعة من آيات النحت الخشبي ، ومحرابه من الرخام السماقي والقاشاني ؛ ومثلثته المربعة الضخمة - وهى أقدم مثلثة في العالم (١٣) - أصبحت هى الطراز السورى الذى أقيمت على مثاله مآذن الغرب ؛ وبفضل هذا المسجد أصبحت القيروان رابعة المدن الإسلامية المقدسة « أبواب الجنة الأربعة » ولا تقل مساجد فاس ، ومراكش ، وتونس ، وطرابلس عنها في الروعة والفخامة إلا قليلاً .

وكانت المساجد في القاهرة ضخمة كثيرة العدد ؛ ولاتزال هذه الحضارة الفائتة تزدان بنحوئثلثمائة من هذه المساجد . ومن أشهرها مسجد عمرو بن العاص ، وقد بدئ بإنشائه في عام ٦٤١ ، وأعيد بناؤه في القرن العاشر ؛ ولم يبق من

(*) وقد شرعت جامعة الدول العربية في البحث عن هذه المخطوطات في هذه البلاد وفي غيرها من بلدان آسيا وأوروبا وتصويرها . (المترجم)

أجزائه الأولى في هذه الأيام إلا عمدته الكورنثية التي أنقذها العرب بحكمتهم من الجراثب الرومانية والبيزنطية . ولا يزال مسجد ابن طولون محتفظا بشكله الأصلي ونقوشه الأولى ، ويحيط بصحنه الواسع سور ذو شرفات ، وفي داخله عقود مستدقة (غير مستديرة) هي أقدم ما يوجد من نوعها في مصر ، إذا استثنينا عقد مقياس النيل بالروضة (٨٦٥) - وهو بناء مقام على جزيرة الروضة بالقاهرة يقاس به ارتفاع ماء النهر . وربما كان هذا الطراز الرشيقي من العقود قد انتقل من مصر إلى أوروبا القوطية عن طريق صقلية والنورمان^(١٤) ، وفي مئذنة المسجد (ذات السلم الخارجى) والشبيهة بصروح الزجورات البابلية ، وفي القبة المقامة فوق قبر ابن طولون ، عقود على شكل حذاء الفرس ، وهي لإحدى المظاهر الإسلامية التي لا ترتاح إليها العين كما ترتاح إلى غيرها من مظاهر الفن الإسلامى . ويروى أن أحمد بن طولون أراد أن يرفع العقود على ثلثائة عمود ، فلما علم أن هذه العمدة لا يمكن الحصول عليها إلا إذا انتزعت من العائر الرومانية والمسيحية ، قرر أن يقيم هذه العقود بدلا من هذا على عمد ضخمة من الآجر^(١٥) ، وربما كان هذا الطراز من العمدة قد أوحى هو الآخر بعنصر من عناصر الطراز القوطى . وآخر ما نذكره من خصائص هذا المسجد أن بعض نوافذه قد ملئت بالزجاج الملون ، وبعضها بالشبابيك الجصية^(*) على شكل ورود أو نجوم أو غيرها من الأشكال الهندسية ، وهذه الأشكال ترجع إلى تاريخ غير معروف على وجه التحقيق .

وفي ٩٧٠ - ٩٧٢ أنشأ الجامع الأزهر جوهر الصقلى - وهو عبد مسيحي اعتنق الإسلام وكان القائد الذى فتح مصر للفاطميين : ولا تزال بعض الأجزاء الأصلية من هذا المسجد في مكانها ، وفيه أيضا نجد العقود المستدقة قائمة على ٣٨٠ عموداً من الرخام ، والجرانيت ، والرخام السماقى . وقد شيد جامع الحاكم بأمر الله

(*) - ذات شبكة من الأصابع المصنوعة من الجص . (المترجم)

من الحجر ، ولا يزال معظمه باقيا وإن لم تكن تقام فيه الصلاة الآن ،
وفي وسعنا أن نتصور ما كان عليه من عظمة في العصور الوسطى بالنظر إلى
تقوشه العربية الطراز ، الرشيقة ، المصنوعة من الجص ، ومن الكتابات
الكوفية الجميلة التي يزدان بها إفريزه . وقد كانت هذه المساجد ، التي تبدو
الآن معاقل أشبه بالقلاع - وما من شك في أنها قد صممت لتكون قلاعاً
أيضاً - تزدان بكثير من روائع النحت ، والكتابات ، والفسيفساء ،
والمحاريب المطعمة ، والقناديل التي أضحت الآن تحمفاً نادرة في المتاحف ،
وكان بمسجد ابن طولون وحده ١٨٠٠٠ قنديل كثير منها من الزجاج
المطلي بالمينا المختلف الألوان (١٦) :

وكانت الفنون الصغرى شائعة في إفريقية الإسلامية ، يمارسها المسلمون
بحمى عرف عنهم من الصبر والدقة . فالقاشاني الوراق يشاهد في جامع القيروان ،
وقد وصف ناصري خسرو (١٠٥٠) الخزف الذي كان يصنع في القاهرة
يأثني رقيق بلغم من شفيفه أن اليد إذا وضعت في خارجه تستطيع رؤيتها من
داخله (١٧) . واحتفظ الزجاج المصري السوري بكل ما كان له من جمال
في العهود القديمة ، وتحفظ متاحف البندقية وفلورنسين والوفا بالآنية
المصنوعة من البلور الصخري في عهد الفاطميين ، وكان ناحسو الخشب
يلخلون بهجة على النفوس بتقوشهم البديعة على أبواب المساجد ، والمنابر ،
والمحاريب ، والنوافذ الشبكية . وأخذ المسلمون المصريون عن رعاياهم
الأقباط فن زخرفة الصناديق والنضد وغيرها من الأدوات بترصيعها
أو تطعيمها بالعاج ، أو الأبنوس ، أو الصدف . وكانت الجواهر كثيرة
موفورة ، وحسبنا أن نقول إنه لما أن نهب الجنود الأتراك المأجورون
حجرات قصر المستنصر حملوا معهم آلاف المصنوعات الذهبية - كالمحابر ، وقطع
الشطرنج ، والمزهريات ، والطيور ، والأشجار الاصطناعية المزينة بالأحجار
الكريمة . . . (١٨) ، وكان من بين ما انتهبوه ستائر من الحرير المطرز بخيوط
الذهب نقشت عليها صور أكابر الملوك وكتبت عليها سيرهم . كذلك تعلم المسلمون

من الأقباط فن طبع الرسوم وبصمها على المنسوجات بقطع من الخشب ؛
ويبدو أن هذه الصناعة انتقلت من مصر الإسلامية إلى أوربا على أيدي
الصلبيين ، وأنها ساعدت على نشأة فن الطباعة : وكان التجار الأوربيون
يقدمون منسوجات الدولة الفاطمية تقديراً يفوق سائر المنسوجات ،
ويتحدثون وهم مذهولون عن منسوجات القاهرة والإسكندرية ، التي تبلغ
من الرقة درجة يستطاع معها أن تمر في خاتم الإصبع^(١٩) : ويحدثنا المؤرخون
عن طنافس من عهد الفاطميين ، وعن خيام منسوجة من الخمل ، والساتان ،
والدمقس ، والحريز ، والأقشة المنسوجة من خيوط الذهب ، مزينة كلها
بالرسوم ، ومن هذه خيمة صنعت لليازوري وزير المستنصر عمل فيها مائة
ونحسون صناعاً أكثر من تسع سنوات . وبلغت نفقاتها ثلاثين ألف دينار
(١٤٢٠٠٠ دولار) ، وصور عليها ، كما يقولون ، جميع ما عرف
من أنواع الحيوان في العالم كله ، عدا « الإنسان الذئب »^(*) : غير أن
الرسوم الفاطمية كلها لم يبق منها إلا قطع من المظلمات في دار الآثار العربية
بالقاهرة ، ولم تبق نقوش دقيقة من العهد الفاطمي في مصر ؛ لكن المقرئ
الذي كتب في القرن الخامس عشر تاريخاً للتصوير - يقول إن مكتبة الخلفاء
الفاطميين تحتوي على مئات من المخطوطات المزينة بكثير من الرسوم الدقيقة
من بينها ٢٤٠٠ مصحف .

وكانت مكتبة الخلفاء بالقاهرة في عهد الحاكم بأمر الله تحتوي مائة ألف من
المجلدات ؛ وكان بها في عهد المستنصر ٢٠٠٠٠٠ . ويقول المؤرخون إن الكتب
كانت تعار لمن يطلبها من الدراسين ذوى السمعة الطيبة من غير أجر . وفي عام
٩٨٨ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز أن يعلم على حسابه خمسة
وثلاثين طالباً في الجامع الأزهر وأن يتكفل بنفقات معيشتهم ، وبهذا نشأت

(*) . يريد الإنسان نفسه . (المترجم)

أقدم جامعة في العالم كله . ولما نمت هذه المدرسة واتسعت اجتذبت إليها طلاباً من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، كما اجتذبت جامعة باريس بعد مائة عام من ذلك الوقت طلاباً من جميع أنحاء أوروبا . ومن ذلك الوقت أخذ الخلفاء ، والوزراء ، والأغنياء من الأهلين يهبون الأموال لتعليم الطلاب بالمجان في تلك الجامعة حتى بلغ طلابها في وقتنا الحاضر ١٠٠٠٠ طالب وعدد الأساتذة ثلاثمائة (٢٠) . ومن أجل المناظر التي تقع عليها عين السائح العالمي منظر الطلاب وهم مجتمعون في أروقة هذا المسجد القائم منذ ألف عام ، تجلس فيها كل طائفة في نصف دائرة إلى جانب عمود أمام أحد العلماء(*) ، وكان كبار العلماء الذائعي الصيت يقدون إلى الأزهر من كافة أرجاء العالم الإسلامي ليعلموا الطلاب علوم النحو ، والبلاغة ، والرياضة ، والعروض ، والمنطق ، والعلوم الدينية ، والحديث ، والتفسير ، والشريعة الإسلامية . ولم يكن الطلاب يؤدون أجوراً ، كما لم يكن الأساتذة يتناولون مرتبات ، وإذ كانت هذه الجامعة الشهيرة تعتمد على الأموال الحكومية ، وهبات المحسنين فقد أخذت تنزع بالتدريج إلى التشدد في أمور الدين ، وكان لعلمائها تأثير مبط للأدب الفاطمية ، والفلسفة ، والعلوم ، ولهذا لم نسمع عن وجود شعراء مجيدين في عهد تلك الأسرة .

وأنشأ الحاكم في القاهرة « دار الحكمة » ، وكانت مهمتها الرئيسية نشر المذهب الشيعي وتعاليمه ، ولكن منهجها الدراسي كان يشمل أيضاً علمي الفلك والطب . وأقام الحاكم أيضاً مرصداً فلكياً ، وأعان بالمال علي بن يونس (المتوفى سنة ١٠٩٠ م) ، وهو في رأينا أعظم علماء الفلك المسلمين . وبعد أن ظل هذا العالم يرصد السماء سبعة عشر عاماً أتم « الأزياج الحاكبية » التي توضح حركات الكواكب ، ومواقبها ، وحدد بدقة أكثر من ذي قبل ميل مستوى الفلك ،

(*) لا حاجة إلى القول بأن هذا الوصف ينطبق على الأزهر منذ نصف قرن أما في الوقت الحاضر فإن النظام في الأزهر شبيه كل الشبه بالنظام في أرق المدارس والجامعات . (المترجم)

ومبادرة الاعتدالين ، وزاوية اختلاف منظر الشمس .

وأشهر الأسماء كلها بين علماء المسلمين المصريين اسم الحسن بن الهيثم المعروف عند الأوربيين باسم « الهازن Alhazen . وقد ولد في البصرة عام ٩٦٥ واشتهر فيها بنبوغه في الهندسة والرياضة . وترامى إلى الحاكم أن ابن الهيثم قد وضع خطة لضبط فيضان النيل السنوي فدعاه إلى القاهرة ، ولكنه تبين أن الخطة غير عملية فاضطر إلى الاختفاء عن عين الخليفة ذى النزوات الشاذة ، وافتتن الرجل ، كما افتتن جميع المفكرين في العصور الوسطى ، بمحاولات أرسطو في ربط المعارف كلها بعضها ببعض ، فكتب عدة شروح وتعليقات عن مؤلفات هذا الفيلسوف ، لم يصل إلينا شيء منها . وأهم ما يشتهر به ابن الهيثم عندنا الآن كتاب المناظر في البصريات وهو في أغلب الظن أعظم مؤلف في العصور الوسطى بأجمعها جرى على الأسلوب العلمى في طريقته وتفكيره . وقد درس ابن الهيثم انكسار الضوء عند مروره في الأوساط الشفافة كالهواء ، والماء واقرب مع اختراع العدسة المكبرة قربا جعل روجر بيكن Roger Bacon ، ووينلو Wnelo وغيرهما من الأوربيين بعامة ثلثمائة عام من ذلك الوقت يعتمدون على بحوثه فيما بذلوه من الجهود لاختراع المجهر والمركب . وقد رفض ابن الهيثم نظرية إقليدس وبطليموس الفلكى القائلة بأن رؤية الجسم تنشأ من خروج شعاع ضوئى من العين يصل إلى الجسم المرئى ، وقال إن صورة الجسم المرئى تصل إلى العين ومنها تنتقل بوساطة الجسم الشفاف — أى العدسة (٢١) . ولا حظ أثر الجو في إزدياد الحجم الظاهرى للشمس والقمر إذا كانا قريبين من الأفق ، وأثبت أن انكسار الأشعة في الجو يجعل ضوء الشمس يصل إلينا حتى بعد أن يخفى قرصها تحت الأفق بتسع عشرة درجة ، وعلى هذا الأساس قدر ارتفاع الهواء الجوى بعشرة أميال (إنجليزية) . وحلل العلاقة بين ثقل الهواء الجوى وكثافته ، وبين أثر كثافة هذا الهواء في أوزان الأجسام ، واستخدم قوانين رياضية معقدة في دراسة فعل

الضوء في المرايا الكرية ، والتي في شكل القطع المكافئ* ، وعند مروره في العدسات الزجاجية الحارقة . ورصد صورة الشمس المائلة لصورة نصف القمر وقت الخسوف على جدار قائم أمام ثقب صغير في مصراع شبك . وهذا هو أول ما ذكر عن الغرفة المظلمة التي يعتمد عليها التصوير الشمسي بكافة أنواعه . وليس في وسعنا مهما قلنا عن ابن الهيثم أن نبالغ في بيان أثره في العلوم الأوربية ، وأكبر ظننا أنه لولا ابن الهيثم لما سمع الناس قط بروجر بيكن ؛ وهاهو ذا روجر بيكن نفسه لا يكاد يخطو خطوة في ذلك الجزء الذي يبحث في البصريات من Opus Maius دون أن يشير إلى ابن الهيثم أو ينقل عنه . والجزء السادس من هذا المؤلف يكاد كله يعتمد على كشوف هذا العالم الطبيعي ابن القاهرة . ولقد ظلت الدراسات الأوربية للضوء حتى ذلك العصر المتأخر عصر كبلر وليوناردو تعتمد على بحوث ابن الهيثم .

وأبرز النتائج التي أسفر عنها فتح العرب لشمالي إفريقيا هو اختفاء المسيحية من هذا الإقليم اختفاء تدريجياً ولكنه يكاد يكون تاماً . ذلك أن البربر لم يعتنقوا الإسلام فحسب ، بل أصبحوا فوق ذلك أكثر أنصاره تعصباً له ودفاعاً عنه . وما من شك في أن العوامل الاقتصادية كان لها دخل في هذه النتيجة الحاسمة : فقد كان غير المسلمين يؤدون الفرضة ، التي أعفى منها إلى وقت ما من يعتنقون الإسلام . ولما أن عرض والى مصر العربي على أهل البلاد هذا الإعفاء عام ٧٤٤ اعتنق الإسلام ٢٤٠٠٠ من المسيحيين (٢٢) . وربما كان الاضطهاد(*) الذي وقع على المسيحيين ، وهو اضطهاد لم يكن يقع إلا في بعض العهود ولكنه شديد ، قد أثر في كثيرين من المصريين فحملهم على الذخول في دين الحكام . غير أن أقلية قبطية في مصر ظلت مستمسكة بدينها بشجاعة وأقامت كنائسها شبيهة

(*) يلاحظ هنا حرص المؤلف على إثبات أن هذا الاضطهاد لم يكن يقع إلا في بعض العهود ؛ أي أنه لم يكن هو السياسة المتبعة وذلك عملاً بأوامر الدين الإسلامي نفسه وسبباً معظم الخلفاء . (المترجم)

بالحصون ، كانت تؤدي فيها مناسكها سرآ(*) ، ولا تزال باقية في تلك البلاد إلى يومنا هذا . ولكن كنائس الإسكندرية ، وقورينة ، وفرطاجنة ، وإفريقية ، التي كانت تزدهم من قبل بالمصلين أخذت تخلو منهم وتنداعى ، وانمحت من الأذهان ذكريات أثناسيوس ، وسيريل Cyril ، وأوغسطين ، وخبث نيران المنازعات بين الأريوسيين ، والدونائيين ، واليعاقبة المسيحيين ، وحل محلها النزاع بين الشيعة وأهل السنة من المسلمين . وأيد الفاطميون سلطانهم بجمع طائفة الإسماعيلية في جماعة كبرى ذات مراسم وطقوس ودرجات متفاوتة ، واستخدموا أعضائها في التجسس والدسائس السياسية . وانتقلت طقوس هذه الجماعة إلى بيت المقدس وأوربا ، وكان لها أكبر الأثر في أنظمة فرسان المعبد والشيعة المستنيرة Illuminate وغيرها من الجماعات السرية التي قامت في العالم الغربي كما كان لها أكبر الأثر أيضا في طقوسها وملابسها . وترى رجل الأعمال الأمريكي بين الفينة والفينة مسلماً متحمساً غيوراً ، يفخر بعقيدته السرية ، وطربوشه الفاسى ومسجده الإسلامى(**).

(*) لم يكن أقباط مصر في حاجة إلى أن يمارسوا شعائرهم سرآ بل كانوا يمارسونها بهراً حتى في أكثر العصور استبداداً . (المترجم)
(**) في هذا القول بعض الغموض ولعل المؤلف يقصد أن من بين رجال الأعمال الأمريكيين مسلمين يفخرون بدينهم ويتباهون بشيائهم ويؤدون الصلاة في المساجد . (المترجم)

الفصل الثالث

الإسلام في بلاد البحر المتوسط

٦٤٩ - ١٠٧١

أدرك زعماء الإسلام ، بعد فتح الشام ومصر ، أن ليس في مقدورهم أن يدافعوا عن سواحل بلادهم من غير أسطول . وسرعان ما استولت سفنهم الحربية على قبرص ورودس وهزمت العائر البيزنطية (٦٥٢ ، ٦٥٥) ، ثم احتلوا قورسقة في عام ٨٠٩ وسردينية في عام ٨١٠ وإقريطش (كريت) في ٨٢٣ ، ومالطة في ٨٧٠ ؛ وبدأ في عام ٨٢٧ النزاع القديم بين بلاد اليونان وقرطاجنة مرة أخرى من أجل الاستيلاء على صقلية ، فأرسل الأغالبة أمراء القيروان الحملة تلو الحملة وتقدموا إلى فتحها بقليل من النهب والدم المهرق ؛ فسقطت بالرم في عام ٨٣١ ، ومسينا في ٨٤١ ، وسرقوسة في ٨٧٨ ، وتارمينا في ٩٠٢ . ولما أن ورث الخلفاء الفاطميون ملك الأغالبة (٩٠٩) كان مما ورثوه من أملاكهم جزيرة صقلية ؛ ولما نقل الفاطميون عاصمة ملكهم إلى القاهرة أعلن حسين الكلبي والى صقلية من قبلهم نفسه أميراً عليها ، وكانت له عليها سيادة تكاد تكون كاملة ، وأسس فيها الأسرة الكلبية ، وفي عهدها بلغت الحضارة الإسلامية في صقلية ذروة مجدها .

وأصبح مركز المسلمين حصيناً منيعاً بعد أن صارت لهم السيادة على البحر المتوسط ، فأخذوا يتطلعون إلى المدن القائمة في جنوبي إيطاليا . وكانت القرصنة وقتئذ مما يدخل في نطاق العادات الشريفة ، وكان المسيحيون والمسلمون على السواء يشنون الغارات على سواحل البلاد الإسلامية والمسيحية ليقبضوا منها على « الكفرة » ويبيعوهم في أسواق الرقيق ، ولهذا شرعت أساطيل المسلمين ، ومعظمها

من تونس وصقلية ، تهاجم الثغور الإيطالية في القرن التاسع الميلادي . فاستولى المسلمون في عام ٨٤١ على بارى القاعدة البيزنطية الكبرى في الجنوب الشرقي من إيطاليا ، وفي العام التالي انقضوا انقضاضاً سريعاً على إيطاليا استجابة لدعوة وجهها إليهم لبارد دوق بنفشثو Benevento ليساعده على سالرنو Salerno ، ثم عادوا منها بعد أن أتلفوا الحقول وخرّبوا الأديرة . وفي عام ٨٤٦ نزل ألف ومئتان من المسلمين في أستيا Ostia ، وواصلوا الزحف حتى أشرفوا على أسوار رومة ، ونهبوا ضواحي المدينة وكنيستي القديسين بطرس وبولس ، ثم عادوا على مهل إلى سفنهم . ورأى البنا باليو Leo الرابع أن السلطة المدنية عاجزة عن تنظيم الدفاع عن إيطاليا ، فأخذ هذه المهمة على عاتقه ، وعقد حلفاً بين رومة وبين أملى Amalfi ، وناپلي ، وجيتا Gaeta ومد بسلسلة في عرض نهر التيبر لمنع العدو من اجتيازه . وبذل العرب في عام ٨٤٩ محاولة أخرى للاستيلاء على عاصمة المسيحية في الغرب ؛ فقابلهم الأسطول الإيطالي المتحد بعد أن باركه البابا ، وهزمهم ، وقد صور رفائيل منظر الواقعة في قصر الفاتيكان ، وفي عام ٨٦٦ جاء الإمبراطور لويس الثاني من ألمانيا ، وصد العرب الذين كانوا يغيرون من جنوبي إيطاليا على شبه الجزيرة وأرجعهم إلى بارى وتارنتو Taranto ؛ وما وافى عام ٨٨٤ حتى أخرجوا من جميع شبه الجزيرة ؛

ولكن غاراتهم عليها لم تنقطع ، وظلت إيطاليا الوسطى جيلاً من الزمان يغشاها جو من الخوف والفرع في كل يوم من أيام حياتها . ففي عام ٨٧٦ أغاروا على كمانيا ونهبوا ، وهددوا رومة تهديداً اضطر البابا إلى أن يؤدي لهم جزية سنوية مقدارها ٢٥٠٠٠ منقوص (حوالي ٢٥٠٠٠ دولار أمريكي) حتى يكفوا عن الإغارة عليها (٢٣) . وفي عام ٨٨٤ أحرقوا دير مونتى كاسينو العظيم ودمروه عن آخره . وشنوا غارات أخرى متقطعة نهبوا فيها وادى نهر الأنيو . ودامت الحال على هذا المنوال حتى اجتمعت قوات البابا وإمبراطورى

بزنطية وألمانيا ، ومدائن إيطاليا الوسطى والجنوبية ، وهزمت العرب على نهر كرجليانو (٩١٦) وانتهى بذلك عصر الفتوح الإسلامية في إيطاليا ، وهو العهد الذى دام مائة عام ، كادت فيها إيطاليا تصبح ملكاً للعرب . ولو أن رومة سقطت في قبضتهم لرحضوا على البندقية ، ولو أنهم استولوا عليها لأطبقت على القسطنطينية قوتان إسلاميتان عظيمتان . ترى إلى أى حد تتعلق مصائر الناس بنتائج الحروب ومصادفاتها !

وخضعت الثقافة الصقلية المتعددة الأصول في أثناء هذه الحوادث الحربية بحكم عادتها إلى الفاتحين الجدد ، واتخذت لها طابعاً إسلامياً أبهى وأقوى من طابعها القديم ، واختلط في شوارع العاصمة الإسلامية بانورمس القديمة Panormus وبالرم العربية ، وبالرمو الإيطالية ، الصقليون ، واليونان ، والليبارد ، وكلهم يكره بعضهم بعضاً من الناحية الدينية ، ولكنهم يعيشون معاً صقليين عاديين في عواطفهم ، وشعرهم ، وجراثيمهم . وفيها شاهد ابن حوقل حوالي عام ٩٧٠ نحو ثلثمائة مسجد ، وثلثمائة من معلمى المدارس ينظر إليهم الأهلون بعين الاحترام رغم ما اشتهر به هؤلاء المدرسون - كما يقول العالم الجغرافى - من قلة الذكاء وخفة الأحلام (٣٤) . هذا وإذا كانت صقلية تستمتع بقسط كبير من المطر وضوء الشمس ، فقد كانت تربتها غاية في الخصب ، فلما جاءها العرب المهرة وأحسنوا تنظيم أحوالها الاقتصادية جنوا ثمار هذا التنظيم ، وأضحت بالرم ثغراً تجارياً عظيماً بين أوروبا المسيحية وإفريقية الإسلامية ، وما لبثت أن صارت من أغنى المدن في بلاد الإسلام ؛ وكان حب المسلمين للملابس الجميلة ، والجواهر المتألثة ، وفنون الزينة ، مما جعل الحياة في الجزيرة تسير سيراً هادئاً في غير عجلة ولكن في غير إسفاف . ويصف الشاعر الصقلى ابن حمديس (١٠٥٥ - ١١٣٢) الساعات التى يقضيها الشاب البالى فى متعته ، ويحدثنا عن قصفه ومرحه حتى منتصف الليل ، وعن اختلاط الرجال والنساء فى الولائم والحفلات بعد أن طرد ملك المرح الموم ، وعن (٢٠ - ج - ٢ - مجلد ٤)

الفتيات المغنيات اللاتي يدغدنغن العود بأصابعهن اللطيفة ؛ ويرقصن كأنهن الأقمار الساطعة فوق الأغصان اللدنة (٢٥) .

وكان في الجزيرة آلاف من الشعراء لأن العرب كانوا يحبون الفكاكة الحلوة ، والشعر الموزون ، ولأن الحب الصقلي كان يمدمهم بموضوعات جمة مشيرة للخيال . وكان في الجزيرة علماء لأن بالرم كان فيها جامعة ؛ وكان فيها أطباء عظام ، لأن الطب الإسلامي الصقلي قد أثر تأثيراً إذا بال في مدرسة سالرنو الطيبة (٣٦) . ولقد كان نصف ما امتازت به صقلية النورمانية من البهاء والعظمة صدى لعهدنا العربي الزاهر ، وتراناً شريعياً من الصناعات والصنائع أورثه العرب ثقافة فنية راغبة في أن تتاقى العلم على أي جنس وأي دين . ولما أن فتح أهل الشمال (النورمان) صقلية (١٠٦٠ - ١٠٩١) أعانوا بفتحهم الزمان على نحو آثار المسلمين في صقلية ؛ وما هو ذا الكونت روجر Count Roger يفخر بأنه قد سوى بالأرض « المدائن ، والقلاع ، والقصور العربية التي بذل المسلمون في إقامتها أعظم الفنون وأعجبها » (٢٧) . ولكن الطراز المعاري الإسلامي خلف طابعه على قصر لازيزا ، وعلى سقف كاپلا پلاتينا Capella Polatina ، ففي هذا المعبد القائم في قصر الملوك النورمان زين المزار المسيحي بالنقوش العربية الإسلامية .

الفصل الرابع

الإسلام في أسبانيا

٧١١ - ١٠٨٦

١ - الخلفاء والأمراء

لم يكن العرب هم الذين فتحوا أسبانيا أولاً بل الذين فتحوها هم المغاربة ، فقد كان طارق من البربر ، وكان في جيشه سبعة آلاف من بنى جنسه ، مقابل ثلاثة آلاف من العرب ، وقد بخلد اسمه ، إذ سميت به الصخرة التي نزلت قواته عند قاعدتها ، فقد سماها البربر جبل طارق واختصره الأوربيون إلى جبرواتر Gibraltar . وكان الذي سير طارقاً إلى فتح أسبانيا هو موسى بن نصير وإلى شمال إفريقية العربي . ثم عبر موسى البحر في عام ٧١٢ ، ومعه ١٠٠٠٠ من الجنود العرب و ٨٠٠٠ من البربر وحاصر أشبيلية ومريده ، ولام طارقاً لأنه تعدى حدود الأوامر الصادرة له ، وضربه بالسوط ، وزجه في السجن ، ولكن الخليفة الوليد استدعى موسى وأطلق سراح طارق فواصل هذا القائد فتوحه . وكان موسى قد عين ولده عبد العزيز حاكماً لأشبيلية ، ولكن سليمان أخا الوليد ارتاب في نوايا عبد العزيز وظنه يعمل ليستقل ببلاد الأندلس ، فأرسل إليه من اغتاله . وجرى برأسه إلى سليمان في دمشق ، وكان قد تولى الخلافة بعد أخيه ، فبعث يستدعى موسى ، فلما جاء طلب إليه أن يعطيه رأس ولده حتى يسبل عينيه . ولم يمض على موسى عام واحد حتى مات من الحزن (٢٨) . ومن حقنا أن نعتقد أن هذه القصة ليست إلا تحرافاً من التحرافات التي تروى عن حب الملوك لسفك الدماء .

وعامل الفاتحون أهل البلاد معاملة لينة طيبة ، ولم يصادروا إلا أراضي
الذين قاوموهم بالقوة ، ولم يفرضوا على الأهليين من الضرائب أكثر
 مما كان يفرضها عليهم ملوك القوط الغربيين ، وأطلقوا لهم من الحرية
الدينية ما لم تتمتع به أسبانيا إلا في أوقات قليلة نادرة . ولما أن توطد مركز
المسلمين في أسبانيا ، عبروا جبال البرانس ودخلوا غاله يريدون أن يجعلوا
أوربا ولاية تابعة لدمشق . والتقى بهم بين تور وپواتيه على بعد ألف ميل
شمالى جبل طارق جيش متحد مؤلف من قوى يوديس Eüdes دوق أكوئين ،
وشارل دوق أستراسيا Austrasia . ودارت المعركة سبعة أيام هزم المسلمون
بعدها في واقعة من أهم الوقائع الحاسمة في التاريخ (٧٣٢) ؛ وفيها قررت
مصادقات الحرب مرة أخرى الدين الذى يتبعه الملايين التى لا يحصى عديدها
من بنى الإنسان . ومن هذا الوقت أطلق على شارل اسم شارل مارتلس
Charles Martellus أى شارل المطرقة . وأعاد المسلمون الكرة في عام
٧٣٥ واستولوا على أربليس Arles ، ثم فتنحوا أفنيون Avignon في عام
٧٣٧ . وخربوا وادى نهر الرون حتى ليون . وفي عام ٧٥٩ أخرجهم پيپين
القصير Pepin the Short نهائيا من جنوبى فرنسا ، ولكن الأربعين عاماً التى
تنقلوا خلالها في ذلك الإقليم كانت في أغلب الظن ذات أثر قوى فيما يتصف
به أهل لانجويدك Languedoc من تسامح غير عادى بين الأديان المختلفة ،
ومن مرج كثير ومن حب لأغاني الغزل غير المباح .

ولم يكن خلفاء دمشق يقدرون أسبانيا حق قدرها ، فلم تكن تعرف عندهم
حتى عام ٧٥٦ إلا باسم « الأندلس » ، وكان يحكمها وال يعين من القيروان .
لكن شخصية روائية نزلت في أسبانيا عام ٧٥٥ ، وكان سلاحها الوحيد هو
ما يجرى في عروقتها من الدم الملكى ، وأراد الله أن تؤسس فيها أسرة لاتقل في
مجدها وثراتها عن خلفاء بغداد . ذلك أنه لما أمر بنو العباس في عام ٧٥٠ أن يقتل
جميع الأمراء الأمويين ، لم ينج من هؤلاء الإمراء إلا عبد الرحمن أحد أحفاد

الخليفة هشام . وطارده أعداؤه من قرية إلى قرية ، فاضطر أن يعبر نهر الفرات الواسع سباحة ، واجتاز الصحراء إلى فلسطين ، ثم انتقل منها إلى مصر وإفريقية حتى وصل آخر الأمر إلى مراکش . وكانت أخبار الثورة العباسية قد ألهبت نيران المنافسة الحزبية القديمة بين العرب ، والسوريين ، والفرس ، والمغاربة في أسبانيا . وكان في تلك البلاد طائفة من العرب مخلصه للأمويين تخشى أن يعترض الخلفاء العباسيون على حقها في تملك الأراضي التي وهبا لهم ولاة بنى أمية ، فدعوا عبد الرحمن للانضمام إليهم وتولى قيادتهم . فجاء إليهم وعينوه أميراً على قرطبة (٧٥٦) ، وهزم جيشاً أرسله الخليفة المنصور لينزعها منه ، وبعث برأس قائد هذا الجيش ليعلق أمام أحد القصور في مكة .

ولعل هذه الحوادث هي التي منعت انتشار الدين الإسلامي في أوروبا : ذلك أن أسبانيا الإسلامية قد أضعفتها الحرب الأهلية ، وانقطعت عنها المعونة الخارجية . فلم تواصل الغزو والفتح ، بل انسحب المسلمون من شمالي أسبانيا ، وانقسمت شبه الجزيرة من القرن الحادى عشر قسمين أحدهما مسلم والآخر مسيحي ، يفصلهما خط يمتد من كوامبرا Coimbra ماراً بسرقسطة ومحاذاً لنهر الإبرة . وازدهر النصف الجنوبي الإسلامى بعد أن بسط فيه لبوء السلم عبد الرحمن الأول وخلفاؤه ، فعمه الرخاء ، وترعرع فيه الشعر والفن . واستمتع عبد الرحمن الثانى بثمار هذا الرخاء ؛ فقبه اتسع وقته ، بين حروبه مع المسيحيين على حدوده ، وقعه للثورات التي كان يقوم بها رعاياه ، وصد الغارات التي كان يشنها النورمان على سواحل بلاده ، اتسع وقته لتجميل قرطبة بالقصور والمساجد ، وإجزال العطاء للشعراء ، وكان يعفو عن المذنبين ويعاملهم معاملة لينة ربما كان لها بعض الأثر فيما حدث بعده من اضطراب اجتماعى .

وكان عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١) آخر الشخصيات البارزة من أسرة بنى أمية في أسبانيا ؛ فقد آلت إليه الخلافة وهو في الحادية والعشرين

من عمره ، ووجد الأندلس تمزقها الانقسامات العنصرية ، والأحقاد الدينية ، واضطراب حبل الأمن ، ومساعى أشيلية وطيطة للاستقلال عن قرطبة . وقبض عبد الرحمن ، رغم ما اتصف به من دمائه الخلق ورقة الحاشية ، واشتهاره بالكرم والمجاملة ، على زمام الموقف بيد من حديد وقع فتنة المدن البائرة ، وأخضع أشرف العرب الذين أرادوا أن يحدو حذو معاصريهم الفرنسيين ، فبسطوا على ضياعهم الواسعة الغنية سيادتهم الإقطاعية ، ودعا إلى بلاطه رجالات من مختلف الأديان كان يستشيرهم في شئون الحكم ، وعقد المحالفات التي يضمن بها توازن القوى بين جيرانه وأعدائه ، وأدار شئون البلاد بجد وعناية بدقائق الأمور ، لا يقلان عما كان يتصف به نابليون في هذه الناحية ، وكان هو الذي يضع الخطط الحربية لقواده ، وكثيراً ما كان ينزل إلى ميدان القتال بنفسه ؟ وصد غزوة سانكو صاحب نبره *Sancho of Navarra* ، واستولى على عاصمته ودمرها ، وأرهب بذلك المسيحيين فلم يغيروا على بلاده مرة أخرى في أثناء حكمه . ولما رأى في عام ٩٢٩ أن له من القوة ما لا يقل عن أى حاكم في زمانه ، وأدرك أن الخليفة العباسى في بغداد قد أصبح العوبة في أيدي الحرس التركى ، اتخذ لنفسه لقب خليفة — وأمير المؤمنين ، وحامى حى الدين . وقد ترك وراءه بعد وفاته نبذة كتبها بخط يده قدر فيها قيمة الحياة البشرية تقديراً غير مبالغ فيه : « مضت خمسون سنة مذ توليت الخلافة فتمتعت بما لا يزيد عايه شىء من الثراء والمجد . والنعم ، فاحترمنى الملوك وخافونى وحسدونى وجبانى الله بأقصى ما يرغب فيه إنسان ، فأحصيت أيام السرور التي صفت لى دون تكدير فى هذه المدقة الطويلة فكانت أربعة عشر يوماً ، فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفاتها وبخلها بكمال الأحوال لأولياتها » (*)(٢٩) .

(*) من كتاب نفع الطيب فى غصن الأندلس الرطيب المقربى . (المترجم)

وأفاد ابنه الحكم الثاني (٩٦١ - ٩٧٦) كما يفيد الرجل العاقل الحكيم من هذه الأعوام الخمسين التي حكمها أبوه بحزم وجدارة ، والتي لم يستمتع فيها بقسط موفور من السعادة ؛ وكان في أثناء حكمه آمناً من الخطر الخارجي ، والفتن الداخلية ، فوجه جهوده إلى تزيين قرطبة وغيرها من المدن ، وأنشأ فيها المساجد ، والمدارس الكبرى ، والبيارات ، والأسواق ، والحمامات العامة ، وملاجئ الفقراء (٣٠) ، وجعل جامعة قرطبة أعظم معاهد التعليم في زمانه ، وأجزل العطاء لمئات الشعراء والفنانين والعلماء . وفيه يقول المقرئ المؤرخ الإسلامي :

وكان (الخليفة الحكم) محبا للعلوم مكرماً لأهلها ، جماعاً للكتب بأنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله . . . إن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفي كل فهرست عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير . وأقام للعلم والعلماء سوقاً نافقة جللت بإليه بضائعه من كل قطر . . وكان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار ويرسل إليهم الأموال لشراؤها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه . وبعث في طلب كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني - وكان نسبه في بني أمية - وأرسل إليه فيه ألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه نسخة منه قبل أن يخرج به إلى العراق (*) .

وبينا كان الخليفة العالم يعنى بمسرات الحياة ونعيمها ، كان يترك تصريف شئون الحكم ، وتوجيه السياسة القومية نفسها إلى وزيره اليهودي القدير حسداى ابن شيروط ، ويترك قيادة الجيوش إلى قائد نابه مجرد من الضمير تجمعت حول اسمه مادة لكثير من المسرحيات أو القصص الخيالية المسيحية . وقد أسمته هذه الروايات والقصص باسم المنصور ، أما اسمه الحقيقي فهو محمد بن أبي عامر

(*) النص منقول عن نفع الطيب . (المترجم)

وهو ينتمى إلى أسرة عربية عريقة النسب ولكنها قليلة الثراء . وكان يكسب قوته بكتابة المعروضات لمن يريد من الناس أن يتوجه بمطالبه إلى الخليفة ، ثم أصبح كاتباً في ديوان قاضى القضاة ، ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره في عام ٩٦٧ اختير لإدارة أملاك عبد الرحمن أكبر أبناء الحكم . ثم تقرب إلى الملكة صبيح أم الغلام ، وفتنها بمجاملتها والثناء عليها ، وأثر فيها بجدته وكفايته ، وما لبث أن أصبح هو المصرف لأملاكها وأملاك ولدها ، ولم يمض عام واحد حتى عين مديراً لدار الضرب . ومن ذلك الوقت أصبح سخياً على أصدقائه سخاء جعل حاسديه يهتمونه بالارتشاء والحيانة . واستدعاه الحكم ليحاسبه على ما أوثمن عليه من المال ، وعرف ابن أبي عامر أن المال الذى فى عهده سيكون ناقصاً فطلب إلى صديق له غنى أن يقرضه قيمة العجز ، ثم توجه إلى القصر مسلحاً بهذا السلاح القوي ، وواجه به من أهموه ، وانتصر عليهم انتصاراً حمل الخليفة على أن يسند له عدة مناصب تدر عليه المال الكثير . ولما مات الحكم أفلح ابن أبي عامر فى تنصيب هشام الثانى ابن الحكم خليفة (٩٧٦-١٠٠٩) و (١٠١٠-١٠١٣) بعد أبيه وذلك بأن دبر بنفسه قتل منازعه فى الخلافة ، وبعد أسبوع واحد تولى هو الوزارة (٣٢) .

وكان هشام الثانى رجلاً ضعيفاً عاجزاً كل العجز عن سياسة الدولة ، ولذلك كان ابن أبي عامر هو الخليفة فى كل شىء ما عدا الاسم ، وأهمه أعداؤه بحق بأنه يحب الفلسفة أكثر مما يحب الدين الإسلامى ، وأراد أن يلجم ألسنتهم فدعا رجال الدين أن يخرجوا من مكتبة الحكم الكبرى كل ما يجدونه فيها من الكتب التى تخالف مذهب أهل السنة ، وأن يحرقوا هذه الكتب ، وبهذه الطريقة الهمجية الإجرامية اشتهر بين الناس بالتقى والصلاح . وضم فى الوقت نفسه أصحاب المواهب العقلية إلى جانبه بأن بسط حمايته فى السر على الفلاسفة ، وأخذ يرحب بالأدباء فى بلاطه ، وآوى فيه عدداً كبيراً من الشعراء أجرى عليهم

مرتبات من بيت المال ، وكان هؤلاء الشعراء يسرون في ركابه حين يخرج إلى الحرب ويتغنون بانتصاراته . وشاد مدينة جديدة هي مدينة الزاهرة في شرق قرطبة ضمت قصره ، ومكاتب الإدارة ؛ أما الخليفة الذي عني بتدريبه على الانهماك في الفلسفة فقد بقي مهملاً يكاد يكون سجيناً في القصر الملكي القديم ، وأراد ابن عامر أن يزيد مركزه قوة فأعاد تنظيم الجيش وجعل معظمه من مرتزقة البربر والمسيحيين الذين كانوا يكرهون العرب ، ولا يشعرون بأن للدولة عليهم حقوقاً ، ولكنهم كانوا يجزونه على سخائه ، وحسن معاملته بالولاء له شخصياً . ولما أن ساعدت ولاية ليون Leon المسيحية ثورة قامت عليه في بلاده ، فتك بالثوار ، وأوقع بأهل ليون هزيمة منكرة ، وعاد منتصراً إلى عاصمته ؛ ولقب من ذلك الحين بالمنصور . وكثرت المؤامرات عليه ، ولكنه كان يحيطها كلها بشبكة من الجاسوسية والاختيال في الوقت المناسب ؛ ولما انضم ابنه عبد الله إلى إحدى هذه المؤامرات ، وافتضح أمره قطع رأسه . وكان المنصور مثل صلا الروماني لا يترك محسناً إلا أثابه ولا مسيئاً إلا انتقم منه .

وغفر الناس له جرائمه لأنه قمع جرائم غيره ، وحقق العدالة للأغنياء والفقراء على السواء ، حتى لم تكن الحياة ولا الأموال في قرطبة أعظم أمناً في وقت من الأوقات مما كانتا في أيامه ، ولم يسع الناس إلا أن يعجبوا بشأته ، ومثابرتة ، وفطنته ، وشجاعته . وحدث في يوم من الأيام والمجلس منعقد برياسته أن شعر بألم في ساقه ؛ فأمر باستدعاء الطبيب ، ولما حضر أشار بكيها بالنار . فلم يقص المنصور المجلس ، وقبل أن يحرق جسمه دون أن يظهر عليه ما يدل على ألمه . . . ويقول المقرئ : إن المجلس لم يعرف شيئاً مما حدث إلا بعد أن فاحت رائحة اللحم وهو يحترق (٢٣٣) (٢٢٢) . وكان مما فعاه أيضاً ليجمع القلوب على محبته أن وسع مسجده

(*) هذا هو النص فنقله عن المقرئ : « إن المنصور كان به داء في رجله واحتاج إلى الكي ، فأمر الذي يكويه بذلك وهو قاعد في موضع مشرف على أهل مملكته ، فجلس يأمر

قرطبة واستخدم في توسيعه أسرى المسيحيين ، واشترك هو بنفسه في أعمال البناء بفأسه ، ومجرفه ، ومِسْجَتَه (*) ، ومنشأه . وأدرك أن الحاكم الذى ينتصر في الحروب ، عادلة كانت أو ظالمة ، يعلو شأنه بين معاصريه وبين الأجيال المستقبلية ، ولهذا شن الحرب من جديد على ليون ، واستولى على عاصمتها ودمرها وذبح أهلها . وكان في ربيع كل عام تقريباً يسير على رأس حملة جديدة لمحاربة الأقاليم الشمالية المسيحية ؛ وقد عاد من هذه الحملات جميعها بلا استثناء مكلاً بالنصر . من ذلك أنه لما استولى في عام ٩٩٧ على مدينة سنثياجوده كپستيليا Santiago de Compstela ، ودمر ضريح القديس جيمس الشهير ، أرغم الأسرى المسيحيين على أن يحملوا أبواب الكنيسة وأجراسها على أكتافهم في موكب نصره حتى دخل قرطبة (٣٤) . (وقد أعيدت هذه الأجراس فيما بعد إلى كپستيليا محمولة على ظهر أسرى الحرب المسلمين) .

ولم يقنع المنصور بما كان له في بلاد الأندلس الإسلامية من مقام ، وإن كان في الواقع سيدها بلا منازع ، بل كان يتوق إلى أن يكون سيدها اسماً وفعلاً ، وأن يؤسس فيها أسرة مالكة . ففي عام ٩٩١ تخلى عن منصبه لابنه عبد الملك ، ولم يكن يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، وأضاف إلى ألقابه الأخرى لقبى السيد والملك الكريم وحكم البلاد حكماً مطلقاً . وكان يرغب في أن يموت في ميدان القتال ، ويعد العدة بالفعل لهذه الخاتمة ، فكان إذا خرج لحرب من الحروب أخذ معه كفتنه . وقد غزا قشتالة في عام ١٠٠٢ وهو وقتئذ في الحادية والستين من عمره ، واستولى على مدنها ، ودمر أديرتها ، وخرب حقولها ، ثم مرض في طريق العودة إلى بلاده ، ولكنه لم يسمح للأطباء أن يعنوا به ، واستدعى إليه ابنه

= وينى ، ومُيقرى القرى في أموره ورجله تكوى ، والناس لا يشعرون حتى شوا رائحة الجلد واللحم ، فتمجبوا من ذلك وهو غير مكترث . (المترجم)
(*) المِسْجَتَة : خشبة يطين بها . (المترجم)

وأخبره أنه سيدركه الموت بعد يومين اثنين ، فلما بكى عبد الملك قال له إن هذا البكاء دليل على أن الدولة ستتهار يعد قليل (٣٥) . وقد صدقت النبوءة فأنهارت خلافة قرطبة بعد جيل من ذلك التاريخ .

وعمت الفوضى بلاد الأندلس الإسلامية بعد موت المنصور ، فلم يكن أمراؤها يجلسون على العرش إلا زمناً قصيراً ، وكثرت بينهم حوادث الاغتيال ، والمنازعات العنصرية ، وحروب الطبقات ؛ ورأى البربر أنهم محقرون فقراء في الدولة التي أقاموا دعائمها بسواعدهم وسيوفهم ، وأنهم قد طوح بهم إلى بطاح استرمادوره Estremadura القاحلة أو جبال ليون الباردة ؛ فذروا من حين إلى حين على العرب الحاكمين . وكان عمال المدن المستغفلون يحمقون على من يستغلونهم ، فكانوا يخرجون عليهم ويقتلونهم ويستبدلونهم غيرهم . وأجمعت سائر الطبقات على كره تلك الأسرة الحاكمة أسرة ابن أبي عامر التي كادت في عهد ولده تستأثر بجميع مناصب الدولة ومقومات السلطة . ومات عبد الملك في عام ١٠٠٨ وتولى الوزارة بعده أخوه عبد الرحمن ، وكان عبد الرحمن رجلاً مستهتراً يشرب الخمر علناً ولا يتورع عن ارتكاب الخطايا ، يفضل اللهو على النظر في شئون الحكم ، فلم يلبث أن طرد من منصبه على أثر ثورة اشتركت فيها جميع الأحزاب تقريباً . وأفلت الزمام من أيدي زعماء الثورة فهبت الجماهير قصور الزاهرة وأحرقتها عن آخرها ؛ وفي عام ١٠١٢ استولى البربر على قرطبة نفسها وأعملوا فيها السلب والنهب ، وذبحوا نصف أهلها ، وطرّدوا النصف الباقي منها ، وجعلوا هذه المدينة عاصمة بربرية . بهذه الفقرة الموجزة يقص أحد المؤرخين المسيحيين ثورة أسبانيا الإسلامية الشبيهة كل الشبه بالثورة الفرنسية .

لكن الحماسة التي تدفع صاحبها إلى الهدم والتدمير قلما تقترن بالصبر الذي يتطلبه البناء والتعمير . ففي أثناء حكم البربر اختل الأمن والنظام وعم السلب والنهب ، وزاد عدد المتعطلين ؛ وخرجت على قرطبة المدائن الخاضعة لها ومنعت

عنها الخراج ، وحتى ملاك الضياع الواسعة استأثروا بالسلطة كلها في ضياعهم .
لكن من بقي في قرطبة من العرب أخلوا ينتعشون شيئاً فشيئاً ، حتى إذا حل
عام ١٠٢٣ طردوا البربر من العاصمة وأجلسوا على العرش عبد الرحمن
الخامس ، غير أن الجماعة من أهل قرطبة رأوا أنه لا يرجى خير من العودة
إلى العهد القديم ، فاستولوا على القصر وبايعوا بالخلافة محمداً المستكني أحد
زعمائهم (١٠٢٣) . وعين محمداً أحد عمال النسيج وزيراً له ، ثم اغتيل
هذا الوزير ، ودس السم للخليفة الشعبي ، ثم اتحدت الطبقتان العليا والوسطى
وبايعت بالخلافة هشاماً الثالث (١٠٢٧) . وجاء دور الجيش بعد أربع
سنين ، فقتل وزير هشام ، وطلب إلى هشام نفسه أن ينزل عن الخلافة ؛
وعقد مجلس من أصحاب الرأي في المدينة وأيقن المجتمعون أن النزاع على
العرش قد جعل قيام الحكم الصالح غير مستطاع ، فألغى الخلافة الأندلسية ،
وأحل محلها مجلساً للدولة ، واختير ابن جمهور رئيساً لهذا المجلس فحكم
الجمهورية الجديدة بالعدل والحكمة .

لكن هنا جاء بعد قوات الأوان ، أي بعد أن اضمحلت السلطة
السياسية وقضى على الزعامة الثقافية في قرطبة ، فوصلت بذلك إلى حال
لا يرجى منها شفاء . وروع العلماء والشعراء بكثرة الحروب الأهلية ففره
من « جوهرة العالم » إلى بلاط طليطلة ، وغرناطة ، وأشبيلية . واقتسم
بلاد الأندلس الإسلامية ثلاثة وعشرون من ملوك الطوائف شغلهم الدسائس
والمنازعات فيما بينهم عن إغاثة أسبانيا المسيحية على الإمارات الإسلامية
واستيلائها عليها واحدة بعد واحدة . وازدهرت غرناطة بعض الوقت في
حكم الحاكم صمويل هليبي Samuel Halevi المعروف عند العرب باسم
إسماعيل بن نغرة . واستقلت طليطلة عن قرطبة في عام ١٠٣٥ . ثم خضعت
لحكم المسيحيين بعد خمسين عاماً من استقلالها .

ورثت أشبيلية مجد قرطبة ، وكان بعضهم يظنها خيراً من العاصمة القديمة
وأجمل منها ؛ وكان الناس يحبونها لجمال حدائقها ، ونخيلها ، وورودها ، وما فيها

من مرح دائم ، وموسيقى ، ورقص ، وغناء . وكانت تتوقع سقوط قرطبة فتعجلت هي وأعلنت استقلالها في عام ١٠٢٣ ، وعثر أبو القاسم محمد قاضي قضاتها على صانع حصر شبيه بهشام الثاني فنادى به خليفة ، وآواه وأمسك هو بزمامه ، وأقنع بالنسبة ، وطرطوشة وقرطبة نفسها بمبايعته . وبهذه الطريقة السهلة أقام قاضي القضاة الداهية أسرة بني عباد القصيرة الأجل . ولما مات في عام ١٠٤٢ خلفه ابنه عباد المعتضد وحكم أشييلية بمهارة وقسوة مدة سبع وعشرين سنة ، وأخذ يمد سلطانه حتى كان نصف أسبانيا الإسلامية يؤدي له الجزية . وورث الملك من بعد ابنه المعتمد (١٠٦٨ - ١٠٩١) وهو في السادسة عشرة من عمره ، ولكنه لم يرث عنه مظالمه ولا قسوته . وكان المعتمد أعظم شعراء الأندلس ، يفضل مجالس الشعراء والموسيقين على مجالس الساسة وقواد الجنود ، ويجزل العطاء لمنافسيه من الشعراء ، ولا يحسد على تفوقهم ، فلم يكن يرى من الإسراف أن يجيز إحدى الملح الشعرية بألف دينار^(٣٦) . وكان يحب شعر ابن عمار ، ولذلك اتخذ وزيراً له ، وسمع جارية تدعى الرميكية ترتجل جيد الشعر ، فابتاعها ، وتزوجها ، وظل حتى وفاته يحبها حباً شديداً ، وإن لم يهمل غيرها من الغانيات في قصره . وكانت الرميكية تملأ القصر بضحكها ، وأحاطت سيدها بجو من المرح ، جعل رجال الدين يلومونها على عدم أكثرات زوجها بشئون الدين ، وما آلت إليه مساجد المدينة التي أوشكت أن تخلو من المصلين . لكن المعتمد مع هذا كان قادراً على أن يحكم ، وأن يحب ، ويغنى ، فلما أن هاجمت طليطلة مدينة قرطبة ، واستغاثت قرطبة به ، سير إليها حملة أنقذت المدينة من طليطلة ، وأخضعها لأشيينية . وحمل الملك - الشاعر مندى جيل كامل مليء بالقلقل لواء حضارة لا تقل ازدهارا عن حضارة بغداد في أيام هرون الرشيد ، وحضارة قرطبة في عهد المنصور .

٢ - الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

لم تنعم الأندلس طول تاريخها بحكم رحيم ، عادل ، كما نعمت به في أيام الفاتحين العرب « (٣٧) . ذلك حكم يصدره مستشرق مسيحي عظيم (*) قد يتطلب تحمسه شيئاً من التقليل من ثنائه ، لكن هذا الحكم بعد أن ننقص منه ما عساه أن يكون فيه من التحمس يظل مع ذلك قائماً صحيحاً .

لسنا ننكر أن الأمراء والخلفاء الأندلسيين قد اتصفوا بالقسوة التي يرى ميكفلى أنها لازمة لاستقرار الحكومات وثباتها ، ولسنا ننكر أن قسوتهم وصلت في بعض الأحيان إلى حد الهمجية وغلظة القلب ، يدل على ذلك ما فعله المعتمد حين زرع الأزهار في جماجم الموتى من أعدائه ؛ وما فعله المعتضد حين قطع أوصال رجل ظل صديقاً له معظم حياته ثم غدر به هذا الصديق وأهانته آخر الأمر (٣٨) . ولكن المقرئ يورد في مقابل هذه الأمثلة النادرة مئات من الشواهد الدالة على عدل حكام الأندلس الأمويين وجودهم ودمائة أخلاقهم (٣٩) . وهم لا يقلون في هذه الصفات عن أباطرة الروم في زمانهم ، وما من شك في أن حكمهم كان أفضل من حكم من سبقوهم من القوط الغربيين ؛ ولقد كانوا أقدر أهل زمانهم على تصريف الشئون العامة في العالم الغربي ؛ فكانت قوانينهم قائمة على العقل والرحمة ، تشرف على تنفيذها هيئة قضائية حسنة النظام . وكان أهل البلاد المغلوبون يحكمون في معظم الأحوال حسب قوانينهم وعلى أيدي موظفين منهم (٤٠) . وكان في المدن شرطة تسهر على الأمن فيها ، وقد فرضت على الأسواق ، والمكايل ، والموازين ، رقابة محكمة ؛ وكانت الحكومة تقوم بإحصاء عام للسكان والأملاك في فترات منتظمة ؛ وكانت الضرائب معقولة إذا قورنت بما كانت تفرضه منها رومة أو بيزنطية . وبلغت

(*) هو استاذ لين پول ، وذلك القول منقول عن كتابه « حكم المسلمين في أسبانيا »
(المترجم)

الإيرادات في أيام عبد الرحمن الثالث ١٢٠٤٥٠٠٠ دينار ذهبي (أى ما يعادل ٥٧٢١٣٧٥٠ دولار أمريكي) - وأكبر الظن أن هذا كان يفوق إيرادات حكومات البلاد المسيحية اللاتينية مجتمعة^(٤١) . ولم يكن مصدر هذه الإيرادات هو الضرائب العالية بقدر ما كان أثرًا من آثار الحكم الصالح ، وتقدم الزراعة والصناعة ، ورواج التجارة^(٤٢) .

وكان حكم العرب نعمة وبركة قصيرة الأجل على الزراع من أهل البلاد . ذلك أن الفاتحين لم يبقوا على الضياع التي كبرت فوق ما يجب ، والتي كان يمتلكها القوط الغربيون ، وحرروا رقيق الأرض من عبودية الإقطاع^(٤٣) . ولكن القوى التي كانت في هذه القرون تعمل لتثبيت دعائم الإقطاع ظلت تعمل عملها في أسبانيا أيضاً ، وإن لقبت فيها من المقاومة أشد مما لقبته في فرنسا ، فقد امتلك العرب بدورهم مساحات واسعة من الأراضي ، وكان يقوم بزرعها مستأجرون قريبو الشبه برقيق الأرض . وكان العبيد يلقون على أيدي المسلمين معاملة أحسن قليلا من التي كانوا يلقونها على أيدي سادتهم الأولين^(٤٤) . وكان في مقدور عبيد غير المسلمين أن يتحرروا من الرق بمجرد اعتناقهم الإسلام ، وكان العرب في معظم الأحوال يتركون أعمال الزراعة إلى أهل البلاد ، ولكنهم كانوا يستعينون بأحدث ما ألف من الكتب في علومها ، وبفضل توجيههم بلغت هذه العلوم في أسبانيا من التقدم أكثر مما بلغت في أوروبا المسيحية^(٤٥) . واستبدل بالثيران البطيئة الحركة ، التي كانت تستخدم حتى ذلك الوقت في جميع أنحاء أسبانيا للحرث والجر ، البغال ، والحمير ، والخيول . وأدى تهجين السلالات الأسبانية والعربية من الخيل إلى وجود الجياد الأصيلة التي كان يمتطيها فرسان العرب وكبليرو Caballero (فرسان) الأسبان ، ونقلت بلاد الأندلس الإسلامية

من آسية زراعة الأرز ، والحنطة السوداء(*) ، وقصب السكر ، والزمان ،
والقطن ، والسبانخ ، والأسفرج(**) ، والموز ، والكراز ، والبرتقال ،
والليمون ، والسفرجل ، والليمون الهندي ، والحوخ ، ونخيل البلح ،
والتين ، والشليك ، والزنجبيل ، والمر وصناعة الحرير(٤٦) . وكانت زراعة
الكروم من الأعمال الكبرى في بلاد الأندلس ، وإن كان الدين الإسلامي
يحرم الخمر . وأحالت حدائق الخضر ، وغياض الزيتون ، وبساتين الفاكهة
مساحات من الأندلس . وخاصة حول قرطبة وغرناطة ، وبلنسية - جنات
على الأرض . كما استحالت جزيرة ميورقة Majorca ، التي فتحها العرب
في القرن الثامن بفضل علمهم بالزراعة وعنايتهم بها فردوساً مليئاً بالفاكهة
والأزهار ، تشرف عليها أشجار النخيل التي سميت الجزيرة باسمها فيما بعد .

وأغنت مناجم أسبانيا المسلمين بالذهب ، والفضة ، والقصدير ، والنحاس ،
والحديد ، والرصاص ، والشب ، والكبريت ، والزئبق . وكان المرجان
يستخرج من البحر على طول سواحل أسبانيا ، كما كان اللؤلؤ يصطاد
قرب سواحل قطلونية ، وكان الياقوت يستخرج من مناجم حول باجة
ومالقة . وتقدمت الصناعات المعدنية في البلاد تقدماً عظيماً ، فاشتهرت
مرسية بمصنوعاتها من الحديد والشهان ، كما اشتهرت طليطلة بالسيوف ،
وقرطبة بالدروع . وازدهرت كذلك الصناعات اليدوية ، فكانت
قرطبة تصنع الجلد القرطبي الذي يستخدمه الحذاءون في أوروبا المعروفون
باسم Cordwainer نسبة إلى «الجلد القرطبي Cordovan» . وكان في
قرطبة وحدها ١٣٠٠٠ نساج ، وكان المشترون في كل مكان يقبلون

(*) نبات ينمو في ألمانيا وبريطانيا وتتخذ حبوبه طعاماً للنخيل ، والماشية ، والدجاج ،
والكعك المصنوع من دقيقه طعام شهي على موائد الفطور الأمريكية . (ويسمى بالإنجليزية
buckwheat) (المترجم)

(**) نبات تتخذ براعيه الصغيرة طعاماً شهيماً ويسميه ابن سينا اسفرس وهو بالإنجليزية
Asparagus (المترجم)

على شراء السجاجيد ، والوسائد ، والسجف الحريرية ، والشيلان ، والأرائك الأندلسية . ويقول المقرئ^(٤٨) إن ابن فرناس القرطبي اخترع في القرن التاسع الميلادي النظارات ، والساعات الدقاقة المعقدة التركيب ، كما اخترع آلة طائرة . وكان أسطول مجارى يزيد على ألف سفينة يحمل غلات الأندلس ومصنوعاتها إلى إفريقية وآسية ، وكانت السفائن القادمة من مائة ثغر و ثغر تزدهم بها مرافئ برشلونة ، والمرية ، وقرطاجنة ، وبلنسية ، ومالقة ، وقادس ، وأشبيلية . وأنشأت الحكومة نظاماً للبريد ينقل رسائلها بانتظام . واحتفظت العملة الرسمية بأجزائها - الدينار الذهبي ، والدرهم الفضي ، والفلس النحاسي ، - بثباتها واستقرارها النسبي ، إذا قارناها بعملة العالم المسيحي اللاتيني في أيامها ، ولكن هذه النقود الأندلسية أخذت هي الأخرى ينقص وزنها ، ونقاؤها ، وقوتها الشرائية .

وسار الاستغلال الاقتصادي في هذه البلاد سيرته في البلاد الأخرى ، فاستحوذ الغرب أصحاب الضياع الواسعة ، والتجار الذين كانوا يقتصرون المنتج والمستهلك على السواء ، على خيرات الأرض . وكان معظم الأغنياء يعيشون في الريف في بيوت ذات حدائق ، ويتركون المدن الكبرى للبربر ، والذين أسلموا من المسيحيين ، والمستعربين (غير المسلمين من الأندلسيين الذين أخذوا عن العرب أساليب العيش ولغة الحديث) ، وإلى طائفة قليلة العدد من الحصيان ، والضباط والحراس الصقالية ، والعميد خدم البيوت . وأحس الخلفاء في قرطبة بعجزهم عن القضاء على الاستغلال الاقتصادي من غير أن يضعفوا روح المغامرة فوقفوا بين هذا وذاك بتخصيص ريع غلات أرضهم لمعونة الفقراء^(٤٩) .

وكان استمساك الطبقات المتمدنة بدينها وتشدها في عقائدها سبباً في زيادة سلطان الفقهاء أى علماء الشريعة الإسلامية ، وكان العامة ينفرون من كل جديد (٢١١ - ج ٢ - ع ٤)

في العقائد أو الأخلاق نفوراً جعل الخارجين على الدين ، والمفكرين (*) يخفون رؤوسهم في معظم الأحوال ، ويتزؤون في البيوت أو يلجأون إلى الغموض في الأقوال . وكنت أفواه الفلاسفة ، أو اضطروا إلى الجهر بآراء تقبلها جمهرة الناس وتحترمها . وكان الموت جزاء من يرتد عن دين الإسلام . نعم إن خلفاء قرطبة أنفسهم كانوا رجالاً ذوي آراء حرة ، ولكنهم كانوا يظنون أن الخلفاء الفاطميين في مصر يتخذون العلماء المتنقلين عيوناً عليهم ، ولهذا كانوا ينضمون في بعض الأحيان إلى الفقهاء في التضييق على التفكير الحر المستقل . لكن الحكام الأندلسيين قد أطلقوا لغير المسلمين جميعهم على اختلاف أديانهم حرية العبادة . وإذا كان اليهود الذين اضطهدهم القوط الغربيون أشد الاضطهاد قد ساعدوا المسلمين في فتوحهم ، فقد ظلوا يعيشون من ذلك الوقت إلى القرن الثاني عشر مع المسلمين الفاتحين في أمن ووثام ، وأثروا ، وبرعوا في العلوم والمعارف ، وارتقوا في بعض الأحيان إلى مناصب عالية في الحكومة . أما المسيحيون فكانت تعترضهم في سبيل الرقي في مناصب الدولة عقبات أكثر مما يعترض اليهود ، ولكنهم رغم هذه العقبات ظفروا بنجاح عظيم . وكان المسيحيون الذكور ، كالذكور من سائر الأديان ، يرغمون على الختان بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية الصحية القومية ، لكنهم فيما عدا هذا كانوا يحكمون بمقتضى شريعتهم القوطية الرومانية ينفذها فيهم قضاة يختارونهم هم أنفسهم (٥٠) . وكان الذكور الأحرار القادرون من المسيحيين يؤدون ضريبة الفرضة (***) نظير إعفائهم من الخدمة العسكرية ؛ وكان مقدارها في العادة ثمانية وأربعين درهماً (٢٤ ريالاً أمريكياً) للغنى ، وأربعة وعشرين للمتوسط الثراء ، واثني عشر درهماً لمن يعمل بيده (٥١) . وكان المسلمون

(*) لا ندرى كيف يتفق هذا القول مع ظهور كبار الفلاسفة أمثال ابن رشد في بلاد الأندلس نفسها . ولستنا نملك في أن المؤلف قد خافه التوفيق في هذا الحكم : (المترجم)
(**) في الأصل الإنجليزي ضريبة الأراضي الزراعية وهو بلا شك سهو من المؤلف . (المترجم)

والمسيحيون يتزوجون فيما بينهم بكامل حريتهم ، ويشته كون من حين إلى حين في الاحتفال بأحد الأعياد المسيحية أو الإسلامية المقدسة ، ويستخدمون المبنى الواحد كنيسة ومسجداً (٥٢) ؛ وجرى بعض المسيحيين على عادة أهل البلاد فاصطفوا « الحريم » أو مارسوا اللواط (٥٣) ؛ وكان المسيحيون من رجال الدين وغير رجال الدين يفلدون بكامل حريتهم وهم آمنون من جميع أنحاء أوروبا المسيحية إلى قرطبة ، أو طليطلة ، أو إشبيلية طلاباً للعلم ، أو زائرين ، أو مسافرين . وقد شكوا أحد المسيحيين من نتيجة هذا التسامح .
بعبارات تذكرنا بشكاية العبرانيين القدماء من اصطباغ اليهود بالصبغة اليونانية فيقول :

« إن إخواني المسيحيين يعجبون بقصائد العرب وقصصهم ، وهم لا يدرسون مؤلفات فقهاء المسلمين وفلاسفتهم ليردوا عليها ويكذبوها ، بل ليتعلموا الأساليب العربية الصحيحة الأنيقة . . . واحسرتاه ! إن الشبان المسيحيين الذين اشتهروا بمواهبهم العقلية لا يعرفون علماً ولا أدباً ولا لغة غير علوم العرب وآدابهم ولغتهم ؛ فهم يقبلون في نهم على دراسة كتب العرب ، ويملأون بها مكاتبهم ، وينفقون في سبيل جمعها أموالاً طائلة ، وهم أيتام كانوا يتغنون بمدح علوم العرب (٥٤) » . وفي وسعنا أن نحكم على ما كان للدين الإسلامي من جاذبية للمسيحيين من رسالة كتبت في عام ١٣١١ م تقدر عدد سكان غرناطة المسلمين في ذلك الوقت بمائتي ألف ، كلهم ماعداً ٥٠٠ منهم من أبناء المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام (٥٥) . وكثيراً ما كان المسيحيون يفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين (٥٦) .

لكن هذه الصورة الجميلة كان لها وجه آخر أخذ نزداد وقتاً ما على مر الأيام . ذلك أن الكنيسة المسيحية لم تكن حرة ، وإن كان المسيحيون أنفسهم أحراراً . فقد صودر معظم أملاكها العقارية بمقتضى مرسوم يشمل جميع من يقومون بعمل إيجابي في مقاومة الفاتحين ؛ كذلك دمرت معظم الكنائس وحرم بناء كنائس جديدة . وورث الأمراء المسلمون من ملوك القوط حق تنصيب

الأساقفة وعزلهم ، وحق دعوة المجالس الكنيسة نفسها إلى الانعقاد : وكان الأمراء يبيعون مناصب الأساقفة لمن يودون فيها أغلى الأثمان ، ولو كان من يسند إليه المنصب من الفجرة أو المتشككين في الدين ، وكان التساوية المسيحيون يتعرضون أحيانا للشتم من المسلمين في الشوارع ، وكان فقهاء المسلمين يعلقون بكامل حريتهم على ما يبدو لهم أنه سخافات وأباطيل في الدين المسيحي ، ولكن المسيحيين الذين يردون عليهم بمثل أقوالهم كانوا يتعرضون للخطر :

وفي هذه العلاقات المتوترة قد تؤدي أية حادثة صغيرة إلى مأساة شديدة . مثال ذلك أن فتاة حسناء من فتيات قرطبة ، معروفة لدينا باسم فلورا Flora فحسب ، ولدت لأبوين من دينين مختلفين ، فلما توفي أبوها المسلم احترمت أن تعتق الدين المسيحي ، وفرت من بيت أخيها إلى بيت أحد المسيحيين ، ولكن أخاها قبض عليها وضربها ، وأصررت الفتاة على الارتداد عن دين أبيها ، وسيقت إلى إحدى المحاكم الإسلامية . وأمر القاضي بضربها وإن كان في مقدوره أن يحكم بإعدامها . ومع هذا فقد فرت مرة أخرى إلى بيت مسيحي حيث التقت بقس شاب يدعى أولوجيوس Eulogius أخيها حباً روحياً عارماً . وبينما كانت الفتاة محتببة في أحد الأديرة ، إذ قتل قس آخر يدعى پرفكتوس Perfectos ، لأنه تكلم في حق النبي محمد أمام بعض المسلمين ، وقد وعدوه بالألأ يشوا به ، ولكن أقواله بلغت من العنف درجة روع لها مستمعوه فأبلغوا عنه ولاة الأمور . وكان في وسع پرفكتوس أن ينجو من العقاب إذا أنكر ما قال ، ولكنه بدل أن يفعل هذا كرر أمام القاضي قوله إن محمداً كان «خادماً للشيطان» ، فما كان من القاضي إلا أن حكم عليه بالسجن بضعة أشهر لعل هذا يصلح حاله ، ولكنه لم ينصلح ، وتماذى في أقواله فحكم عليه بالإعدام . وظل وهو يساق إلى المشقة

يسب النبي ، ويقول : إنه « مدح ، زان ، ولدته جهنم » (*) ، وابتهج المسلمون بمقتله ، واحتفل المسيحيون بدفنه احتفالا مهيباً ، وعدوه من القديسين (٨٥٠) (**)(٥٨) .

وأشعل مقتله نيران الحقد في قلوب الطائفتين . فتألفت جماعة من المتعصبين المسيحيين بزعامة يولجيوس وجعلت هدفها سب النبي علناً ، والترحيب بالقتل اعتقاداً منها بأن مصير من يقتل من أفرادها هو الجنة . وذهب راهب قرطبي يدعى إسحق إلى القاضى وعرض عليه رغبته في اعتناق الإسلام ؛ وسر القاضى من هذا وبدأ يشرح له مبادئ الدين الإسلامى ، ولكن الراهب قطع عليه شرحه وقال « إن نبيكم قد كذب عليكم وخذعكم ؛ ألا لعنة الله عليه لأنه قد جر معه هذا العدد العظيم من البائسين إلى الجحيم ! فزجره القاضى وسأله هل هو ثمل ؟ فرد عليه الراهب بقوله : « إني مالك لقواى فاحكم علىّ بالإعدام » فأمر القاضى بسجنه ولكنه استأذن عبد الرحمن الثانى بأن يخرج به على أن يعقله خبالاً ، غير أن موكب جنازة پرفكتوس وما أحاط به من روعة وفخامة كان قد أثار حفيظة الخليفة فأمر بإعدام الراهب . وبعد يومين من هذا الحادث جرؤ جندى من الفرنجة في حرس القصر على سب النبي علناً ؛ فكان جزاؤه الإعدام . وفي يوم الأحد التالى وقف ستة من الرهبان أمام القاضى وسبوا النبي ولم يطلبوا لأنفسهم الإعدام ؛ فحسب بل طلبوا فوق ذلك أن يعذبوا أشد التعذيب ، فحكم عليهم بالإعدام ؛ وحذا حذوهم قس ، وشماس ، وراهب . وابتهج لذلك أفراد الجماعة

(*) لقد أثبتنا هذه الألفاظ وما قبلها كما هي رغم ما فيها من تطاول على مقام اشرف الأنبياء لكى يقدر القارئ شناعة الجرم الذى ارتكبه قاتلها . (المترجم)

(**) وليس أدل على روح التسامح التى كانت تسود ذلك العصر من سماح المسلمين لمواطنيهم المسيحيين بالاحتفال بدفن هذا القس الذى سب نبيهم بأقبح الألفاظ احتفالا فخماً مهيباً كما يقول مؤلف الكتاب . (المترجم)

ولكن كثيرين من المسيحيين - من رجال الدين وغير رجال الدين - لم يرضوا عن هذا التسابق للموت ، وقالوا لتلك الفئة المتحمسة « إن السلطان يسمح لنا بأن نمارس شعائر ديننا ، ولا يضطهدنا ، فما الداعي إذن إلى هذا التعصب الشديد ؟ » (٥٩) ودعا عبد الرحمن إلى عقد مجلس من الأساقفة المسيحيين فأصدر قراراً بلوم طائفة المتحمسين المتعصبين ، وهددهم بأن يتخذ ضدهم إجراءات عنيفة إذا لم ينقطعوا عن إثارة الفتن ، فما كان من يولجوس إلا أن أخذ يندد بأعضاء المجلس ويصفهم بالخبين .

وزادت هذه الحركة من تهمس فلورا ، فغادرت الدير الذي كانت تقيم فيه وجاءت هي وفتاة أخرى تدعى مارية إلى القاضي وأخذتا تطعنان على النبي وتقولان : إن الإسلام من « اختراع الشيطان » فأمر القاضي بسجنهما . وحملهما بعض أصدقائهما على أن يرجعا عن أقوالهما ، ولكن يولجوس تغلب عليهما وأقنعهما بأن يرضيا بالقتل ، فقتلا . وشجع هذا يولجوس فأخذ يطالب بضحايا جدد ، فأقبل على المحكمة قساوسة ، ورهبان ، ونساء يسبون النبي ويطلبون أن يعذبوا (*) (٨٥٢) ، وأعدم يولجوس نفسه بعد سبع سنين من ذلك الوقت ، وخمدت الفتنة بعد سبع سنين من موته فلم نسمع بين عامي ٨٥٩ ، ٩٨٣ إلا عن حادثين من حوادث السب والقتل ، ولم نسمع عن حوادث أخرى من هذا النوع في أثناء الحكم الإسلامي في أسبانيا (٦٠) .

(*) ليس أدل على تسامح الحكام المسلمين من سلوكهم في أثناء هذه الحركة ، وعدم النتائج لهم إلى قمعها دفعة واحدة ، واكتفائهم بالحكم على من يتقدمون إلى القضاة ليطعنوا في الدين ويسبوا الرسول . ترى ماذا يكون موقف أية حكومة من الحكومات الغربية في هذه الأيام لو تألفت مثل هذه الجماعة لهذا الغرض ؟ إن أقل ما كانت تفعله بلا ريب هو أن تقيض على جميع أفراد الجمعية وتزجهم في السجن وتستأصل الفتنة من جذورها . وخلق بنا أن نشير إلى ما اتبته الأسبانيون أنفسهم مع المسلمين بعد أن طرد العرب من أسبانيا وإلى ما لقيه المسلمون من قسوة وتعليب همجي وعمل متواصل نحو جميع الآثار الإسلامية في العلوم والفنون والآداب .
(المترجم)

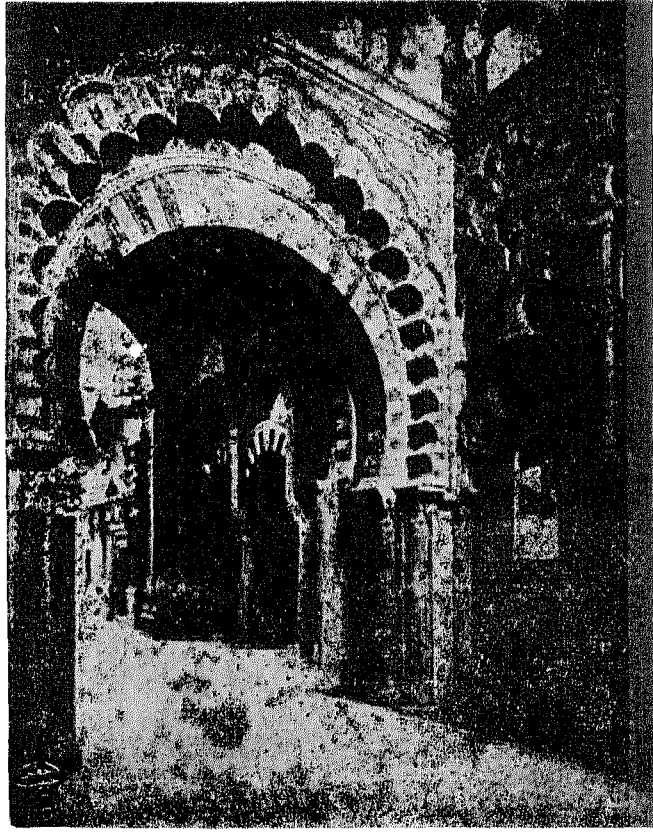
أما بين المسلمين أنفسهم فقد ضعفت الحجاسة الدينية بإزدياد التراث ، وظهرت في القرن الحادى عشر الميلادى موجة من التشكك رغم ما فى الشريعة الإسلامية من شدة على المشككين ؛ ولم يقتصر الأمر على دخول مبادئ المعتزلة التى لا تناقض عقائد أهل السنة مناقضة شديدة ؛ بل قامت طائفة أخرى تنادى بأن الأديان كلها باطلة ، وتسخر بالأحكام الدينية ، والصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة . ونشأت طائفة أخرى غير هذه وتلك سمى نفسها أتباع الدين العالمى ، وأخذت تندد بكل العقائد ، وتنادى بدين يقوم على المبادئ الأخلاقية دون غيرها . وكان من بين هؤلاء جماعة من اللادريين يقولون إن العقائد الدينية قد تكون صحيحة وقد لا تكون ، فلسنا نؤكددها أو ننكرها ، وكل ما فى الأمر أننا لا نعرف حقيقتها ، ولكننا لا نسمح لنا ضمائرنا بأن نقبل عقائد لا نستطيع إثبات صحتها (١٦) . وأخذ رجال الدين يقاومون هذه العقائد مقاومة قوية ؛ ولما أن حلت المصائب بالمسلمين فى أسبانيا فى القرن الحادى عشر أخذوا يقولون إن سببها هو هذا الضلال ، ولما انتعش المسلمون بعض الوقت فى الأندلس مرة أخرى ، كان انتعاشهم فى عهد حكام أقاموا سلطانهم كما كان من قبل على قواعد الدين ، وقصروا الجدل القائم بين الدين والفلسفة على ما كان منه فى بلاطهم وما يبتغون به تسليتهم .

ولكن القباب المتألثة والمآذن المدهبة كانت على الرغم من الفلاسفة زينة المدائن الكبيرة والصغيرة التى جعلت بلاد الأندلس فى القرن العاشر الميلادى أعظم البلاد المتحضرة فى أوروبا ، بل إنها كانت فى أغلب الظن أعظم البلاد المتحضرة فى العالم كله فى ذلك الوقت . لقد كانت قرطبة فى أيام المنصور من أعظم مدن العالم حضارة ، ولا يفضلها فى هذا إلا بغداد والقسطنطينية . وكان فيها كما يقول المقرئ ٧٧ ر ٢٠٠ منزلاً ، و ٣٠٠ قصر ، و ٦٠٠ مسجد ، و ٧٠٠ حمام (١٧) عام ، وإن كانت هذه الإحصاءات لا تخلو من قليل من المغالاة الشرقية . وكان زائرو

المدينة يدهشون من ثراء الطبقات العليا ، ومما كان يبدو لهم أنه رخاء عام ؛ فقد كان في وسع كل أسرة أن يكون لها حمار ؛ ولم يكن يعجز عن الركوب إلا المتسولون . وكانت الشوارع مرصوفة ، لكل منها طواران على الجانبين ، تضاء أثناء الليل ، ويستطيع الإنسان أن يسافر في الليل عشرة أميال على ضوء مصابيح الشوارع وبين صفيين لا يتقطعان من المباني^(١٣) . وقد أقام المهندسون العرب على نهر الوادي الكبير الهادئ الجريان جسراً من الحجارة ذا سبعة عشر عقداً عرض كل واحد منها خمسون شبراً . وكان من أولى منشآت عبد الرحمن الأول قناة تحمل إلى مدينة قرطبة كفايتها من ماء الشرب تنقله إلى المنازل والحدايق ، والفساقي والحمامات ، واشتهرت المدينة بكثرة ما كان فيها من الحدايق والمنزهات .

وكان عبد الرحمن الأول شديد الحنين إلى مسارح صباه ، فأنشأ في قرطبة بستاناً عظيماً شبيهاً بالقصر الريفي الذي قضى فيه أيام صباه بالقرب من دمشق ، وشاد في هذا البستان قصره المعروف « بقصر الرصافة » ، وأضاف إليه من جاء بعده من الخلفاء أجنحة أخرى خلع عليها خيال المسلمين أسماء زاهية كقصر الروضة . . . وقصر المعشوق . . . وقصر السرور . . . وقصر التاج^(*) . وكان لقرطبة كما كان لإشبيلية قصرها الذي يجمع بين بيت السكن العظيم والحصن المنيع . ويصف مؤرخو العرب هذه القصور وصفاً يجعلها تضارع في جمالها وترفيها قصور نيرون في رومة : يصفون أبوابها الفخمة ، وعمدها الرخامية ، وأرضها المرصوفة بالفسيفساء ، وسقفها المذهبة ، وما فيها من النقوش الجميلة التي لا يقدر عليها إلا الفن الإسلامي وحده . وكانت قصور الأسرة المالكة ، وكبار الملاك والتجار تمتد على شاطئ النهر العظيم ؛ وقد ورث عبد الرحمن الثالث من إحدى جواريه ثروة طائلة ، وأراد أن ينفقها في اقتناء من عساهم يكونون في الأسر من

(*) والكامل ، والمجدد ، والحائر ، والزاهر ، والمبارك ، والرسوق ، والبديع .
(المترجم)



(شكل ٦) داخل مسجد قرطبة



(شكل ٧) بهر السباع في قصر الحمراء نغرياطه

جنوده ، ولما قال الباحثون الفخورون إنهم لم يجدوا أحداً من جنوده في الأسر عرضت عليه الزهراء زوجته المحبوبة أن ينفق المال في بناء ضاحية وقصر يخلد بهما اسمها . وظل عشرة آلاف من العمال وألف وخمسمائة من الدواب يكلدحون خمسة وعشرين عاما (٩٣٦ - ٩٦١) لتحقيق حلمها ، فكان قصر الزهراء الملكي الذي يقع على بعد ثلاثة أميال من قرطبة وإلى جنوبها الغربي . وقد زين أفخم زينة وأثث بأفخم أثاث . وكان القصر يقوم على ألف ومائتي عمود من الرخام ، وكان جناح الحريم به يتسع لستة آلاف امرأة ، وكان يحتوى على مجلس الخليفة سقفه وجدرانها من الرخام والذهب ، له ثمانية أبواب مطعمة بالأبنوس والعاج والحجارة الكريمة ، وكان به فسقية مملوءة بالزئبق تنعكس على سطحها أشعة الشمس المتأوجة . واجتمعت حول الزهراء قصور طبقة من الأشراف طبقت العالم شهرتها بالظرف والرقّة ، وحسن الذوق ، وتعدد متعتها العقلية . وأقام المنصور في الطرف المقابل لهذا القصر من المدينة قصرأ آخر يضارعه (٩٧٨) سمي بالزاهرة أحاطت به هو الآخر على مر الزمن ضاحية من قصور العطاء ، ونيوت الخدم ، والمغنين والعازفين ، والشعراء ، والخليلات . وقد حرق القصران في أثناء الثورة التي تأجج لهبها في عام ١٠١٠ .

وكان الناس في العادة يتفاضون عن ترف الأمراء إذا ما أقام هؤلاء بيوتاً لله تفوق قصورهم في الفخامة والسعة . وكان الرومان قد شادوا في قرطبة هيكل إيانوس Janus ، أنشأ المسيحيون بدلا منه كنيسة كبرى ؛ فلما تولى الخلافة عبد الرحمن الأول ابتاع من المسيحيين أرض الكنيسة ، وهدمها وشاد في مكانها المسجد الأزرق ، ولما عادت أسبانيا إلى حكم المسيحيين حولوا المسجد إلى كنيسة في عام ١٢٣٨ ؛ وهكذا تتغير مقاييس التقى ، والصدق ، والجمال تبعاً لتقلبات الحظوظ الحروب . وجعل عبد الرحمن هذا المشروع سلوته في سنيه الكلدرة ، فغادر بيتا الربيع إلى قصره في المدينة ليشرّف على العمل بنفسه ، وكان يأمل أن يطول عمره .

حتى يوم المصلين في المسجد الفخم الجديد شكراً لله على توفيقه . لكنه توفي في عام ٧٨٨ ، بعد عامين من وضع الأساس ، وواصل ابنه هشام عمل أبيه ، وظل الخلفاء مدى قرنين كاملين يضيف كل منهم جزءاً جديداً للمسجد حتى كانت سعته في أيام المنصور (٧٤٢) قدما في ٤٧٢ . وكان يحيط به سور منبع من الآجر والحجر ذو أبراج على أبعاد غير منتظمة ، وكانت له مأذنة ضخمة تفوق في حجمها وجمالها كل ماأذن تلك الأيام ، حتى عدت هي الأخرى من «عجائب الدنيا» التي لا يحصى لها عدد (٦٤) . وكان للمسجد تسعة عشر بابا تحيط بها عقود على شكل حذاء الفرس ، نقشت عليها في الحجر ببراعة فائقة زخارف مكونة من أزهار وأشكال هندسية . وكانت هذه الأبواب تؤدي إلى مكان الضوء الفسيح الذي يسمى الآن هو البرتقال (Patio de los Naranjos) . وفي هذا البهو الرباعي الشكل ، المرصوفة أرضه بالقرميد الملون كانت أربع فساق نحتت كل منها من كتلة واحدة من المرمر الأصم بلغ من ضخامتها أن تطلب نقلها من المقلع إلى مكانها في المسجد سبعين ثوراً . وكان المسجد نفسه يحتوي على أجمة من ١٢٩٠ عموداً تقسم داخله إلى أحد عشر إيواناً وواحد وعشرين دهليزاً . وكانت تخرج من تيجان الأعمدة عقود مختلفة الأنواع - بعضها نصف دائري ، وبعضها مستدق ، وبعضها على شكل حذاء الفرس ، ولعظمها أوتاد من الحجر حمراء أو بيضاء بالتناوب . وكانت العمود من حجر اليشب ، والحجر السماقي ، والمرمر ، والرخام ، انتزعت من خرائب الرومان والقوط الغربيين في أسبانيا ، وكانت لكثرة عددها تحير الناظر وتوحى إليه بأن المسجد لا ينتهي عند حد . وقد نقشت على السقف الخشبي آيات من القرآن (الكريم) وزخارف أخرى داخل إطارات ، وعلق فيه مائتا ثريا تحمل سبعة آلاف قنديل من الزيت المعطر تستمده من نخزانات مصنوعة من نواقيس مسيحية مقلوبة معلقة هي الأخرى من السقف ، أما الأوض والجدران فقد زينت بالفسيفساء ، بعضها من الزجاج المطلي بالمينا ،

الملون عند صنعه بكثير من الألوان الزاهية ، وكثيراً ما كانت تحتوي على قطع من الفضة والذهب . ولا تزال هذه الزينات بعد ألف عام من وضعها تتلألأ كالجواهر في جدران الكنيسة . وقد جعل قسم من المسجد مزاراً مقدساً ، ورصفت أرضه بالفضة وقطع القاشاني المطلية بالمينا ، تحرسه أبواب مزدانة ومطعمة بالفسيفساء ؛ وقامت عليه ثلاث قباب ، وأحيط بساتر من الخشب محلاة بأبدع النقوش . وفي داخل هذا الموضع المنفصل أقيم المحراب والمنبر اللذان أفرغ عليهما الفنان كل ما وهب من خلدق وإبداع . وكان المحراب نفسه تجويفاً سباعى الأضلاع محاطاً بالذهب ومزداناً بالفسيفساء المطلية بالمينا ، ومزخرفاً بقطع صغيرة من الرخام وبنقوش من الذهب على أرضية قرمزية وزرقاء ، يعلوه رباط من الأعمدة الرفيعة الرشيقة ، والعقود المزدانة بأزها الكُرَّة (*) لا يفوقها في الجمال شيء مما أبدع الفن القوطى . وكان المنبر بعد أجل مناير العالم طُراً ؛ وكان يؤلف من ٣٧,٠٠٠ قطعة صغيرة من العاج والأخشاب الثمينة - كالأبنوس ، والأترج ، وعود الند ، والصندل الأحمر والأصفر ، مثبتة كلها بمسامير من الذهب والفضة ، ومطعمة بالجواهر . وكان على هذا المنبر صندوق مطعم بالجواهر عليه غطاء من الحرير القرمزى المطرز بخيوط من الذهب يحمل مصحفاً بخط الخليفة عثمان بن عفان ، ومخضبا بدمه الذى جرى عليه عند مقتله . ويبدو لنا نحن الذين نفضل أن نزين دور تمثيلنا بالمعادن المذهبة وبالنحاس يدل أن نحلى كنائسنا بالجواهر والذهب ، يبدو لنا أن فى زخرفة المسجد الأزرق إسرافاً كبيراً ، وأن جدرانه قد غطيت بطبقة من دماء الأجيال المستغلة ؛ وأن الأعمدة فيه كثيرة مربكة ، وأن العقد الذى على صورة حذاء الفرس ضعيف من الناحية المعمارية تنفر منه حاسة الجمال كما تنفر من منظر الرجل البدين ذى الساقين الفحجاوين (**). ذلك حكمتنا أما غيرنا فكان

(*) حلية معمارية . (المترجم)

(**) الساق الفحجاء هى التى انحنت من وسطها فتباعد وسطها عن توسط صاحبها

(المترجم)

حكيمه يتناقض هذا الحكم ؛ فالقري (١٥٩١ - ١٦٣٢) يرى أن هذا المسجد لا يدانيه مسجد آخر في سعته ، أو جمال تخطيطه ، أو نظام زخرفه الذى يشهد للقائمين به بحسن الذوق وبما يدل عليه من قوة وعظمة (٦٥) ، ولا يزال البناء حتى في شكله المسيحى المصغر يعد « بالإجماع أجمل المساجد الإسلامية في العالم كله » (٦٦) .

وكان من الأقوال المتداولة في بلاد الأندلس الإسلامية أنه « إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية » (٦٧) (*) - ذلك أن قرطبة كانت في القرن العاشر مركز الحياة الذهنية الأسبانية وذروتها ، وإن اشتركت معها طليطلة ، وغرناطة ، وإشبيلية فيما وصل إليه ذلك العصر من رقى عقلى عظيم . . ويصور المؤرخون المسلمون المدن الأندلسية تموج بالشعراء وجهابذة العلماء في العلوم الطبيعية ، والأدبية ، وكبار المشتريين ، والأطباء ، وبمأى القري بأسمائهم ستين صحيفة (٦٨) . وكانت المدارس الابتدائية كثيرة العدد ، ولكنها كانت تتقاضى أجوراً نظير التعليم ، ثم أضاف الحكم إليها سبعا وعشرين مدرسة لتعليم أبناء الفقراء بالبخان . وكانت البنات يذهبن إلى المدارس كالأولاد سواء بسواء ، وتبلغ عدد من النساء المسلمات في الأدب والفن (٦٩) ، وكان التعليم العالى يقوم به أساتذة مستقلون يلقون محاضراتهم في المساجد ، وكانت المناهج التى يدرسونها هى التى كونت جامعة قرطبة ذات النظام المفكك ، والتي لم يكن يفوقها في القرنين العاشر والحادى عشر إلا جامعتا القاهرة وبغداد الشيبهتان بها . وأنشئت الكليات أيضاً في غرناطة ، وطليطلة ، وإشبيلية ، ومرسية ، والمرية ، وبلنسية ، وقادس (٧٠)

(*) قيل هذا في مناظرة جرت بين منصور بن عبد المؤمن وبين الفقيه العالم ابن رشد والرئيس أبى بكر بن زهر وقائله هو ابن رشد نفسه وقد قدم المؤلف حيز العبارة على صدرها .
(المترجم)

وأدخلت صناعة الورق من بغداد فازداد حجم الكتب وتضاعف عددها ، حتى كان في الأندلس الإسلامية سبعون مكتبة عامة ، وكان الأغنياء يتباهون بكتبهم المجلدة بالجلد القرطبي ، ومحبو الكتب يجمعون النادر المزخرف منها . من ذلك أن الحضرمي أحد العلماء رأى في مزاد بقرطبة رجلاً آخر لا يفتأ ينافسه فيزيد من ثمن كتاب يرغب فيه حتى فاق الثمن كثيراً قيمة الكتاب ، ولما سئل المزايد الذي اقتناه في ذلك قال إن في مكتبته الخاصة موضعاً خالياً يسع هذا الكتاب بالدقة . ويضيف فاغتنظ العالم من هذا القول أشد الاغتيال ولم يسعه إلا أن يقول : « نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك ، يعطى الجوز من لا أسنان له » (٧١) (*) .

وكانت للعلماء في الأندلس منزلة رفيعة وشهرة واسعة ، يعظمهم الناس ويهابونهم ، ويستشيرونهم في شئونهم ، ويعتقدون أن لا فرق مطلقاً بين العلم والحكمة . وكان علماء الدين والنحاة يعدون بالآلاف ، أما الخطباء ، وفقهاء اللغة ، وأصحاب المعاجم ، والموسوعات ، ودواوين الشعر ، والمؤرخون ، وكتاب السير فلم يكن يحصى لهم عدد ؛ وكان أبو محمد علي بن حزم (٩٩٤ - ١٠٦٤) من جهاذة علماء الدين والمؤرخين ، كما كان وزيراً لآخر الخلفاء الأمويين . ويعد كتابه المعروف بـ « كتاب الملل والنحل » (***) الذي يتكلم فيه على اليهودية ،

(*) ثم أضاف : وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه . (المترجم)

(**) اسم الكتاب كاملاً هو « السيفصل في الملل والأهواء والنحل » للإمام أبي محمد علي ابن أحمد ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ . وأما كتاب « الملل والنحل » فلإمام أبي الفتح محمد ابن عبد الكريم الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨ هـ . والفصل الواردة في يده اسم الكتاب الأول جمع لفظة بالكسر كقصبة وقصب وهي النخلة المنقولة من محلها إلى آخر لتشر ، هذا ولم نعث على الفقرة الواردة هنا بنصها في كتاب ابن حزم ويبدو لنا أن دوزي الذي نقل عنه المؤلف قد أخذ معناها من مواضع متفرقة من الكتاب ولهذا لم نر بداً من ترجمتها واستعملنا ما عثرنا عليه من ألفاظ ابن حزم في الفصل الذي تكلم فيه على التصاري . (المترجم)

(٢٢ - ج - ٢ - مجلد ٤)

والزرادشتية ، والمسيحية ، والفرق الإسلامية المختلفة من أقدم ما كتبه الأقدمون في علم الأديان المقارن . وإذا شئنا أن نعرف رأى العالم المسلم فيما كانت عليه المسيحية في العصور الوسطى فحسبنا أن نقرأ الفقرة الآتية من هذا الكتاب :

يجب ألا تثير أوهام بنى الإنسان عجيبنا ، فإن أكثر الأمم عدداً ، وأعظمها حضارة تستحوذ على عقول أبنائها هذه الأوهام . . . فالمسيحيون من الكثرة بحيث لا يحصى عددهم إلا الله وحده . وفي وسعهم أن يباهوا بمن فيهم من ملوك حكماء وفلاسفة نابهن ، ولكنهم مع هذا يقولون : إن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ، وإن أحد هؤلاء الثلاثة الأب والثاني الابن ، وإن الإنسان إله وليس لها ، وإن المسيح قديم موجود من الأزل ، ومع ذلك فهو مخلوق ، ومنهم فرقة تسمى اليعاقبة ، تبلغ عدتها مئات الآلاف تعتقد أن الخالق مات وصلب وقتل ، وأن العالم بقى ثلاثة أيام بلا مدبر ، والفلك بلا مدبر (٧٢) .

وكان ابن حزم يؤمن بأن كل كلمة وردت في القرآن حق بنصها ومعناها (٧٣) . وكان من أشد العوائق في سبيل تقدم العلم والفلسفة في بلاد الأندلس الخوف من أن يؤثر في إيمان العامة ، لكن الأندلس تستطيع أن تفخر بكثير من الفلاسفة والعلماء . فن هؤلاء مسلمة بن أحمد (المتوفى في عام ١٠٠٧) والذي عدل أزياج الخوارزمي الفلكية لتلائم أسبانيا . ومن الكتب التي تعزى إليه ، وإن لم يثبت أنه له بصورة قاطعة ، كتاب يصف إحدى التجارب الكثيرة التي حولت الكيمياء الكاذبة إلى كيمياء صحيحة - وهي التجربة التي استخرجت أكسيد الزئبق من الزئبق . وأصبح اسم إبراهيم الزرقالي (١٠٢٩ - ١٠٨٧) أحد علماء طليطلة من الأسماء العالمية ، لأنه حسن الآلات الفلكية ؛ وينقل كوبرنيك فقرات من رسالته عن الاسطرلاب ؛ وكانت أزياجه الفلكية خير الأزياج كلها في زمانه ، وقد استطاع بها أن يثبت لأول مرة في التاريخ حركة الأوج الشمسي بالنسبة للنجوم . وكانت « أزياج طليطلة » المحددة لحركات الكواكب

تستخدم في كافة أنحاء أوروبا ، وكان لأبي القاسم الزهراوى (٩٣٦ - ١٠١٣) طبيب عبد الرحمن الثالث منزلة رفيعة في العالم المسيحى ، ويعرف فيه بانهم أبو الكاسس *Abulcasis* ؛ وكان هو حامل لواء الجراحين المسلمين ، وتحتوى موسوعته الطبية المسماة « التصريف » ثلاثة كتب في الجراحة أصبحت بعد أن ترجمت إلى اللغة اللاتينية المرجع الأعلى في الجراحة قروناً كثيرة . وكانت قرطبة في ذلك الوقت المدينة التي يلجأ إليها الأوربيون لتجرى لهم الجراحات . وكانت تحتوى ، كما تحتوى كل مدينة متمدينة ، على بعض المتطبين الدجالين ، والأطباء الذين ابتلوا بجنون الثروة ؛ ومن هؤلاء رجل يسمى الحرانى أعلن عن دواء يشفى الاضطرابات المعوية ، وكان يبيع الزجاجة منه للسذج من ذوى المال بنخمسين ديناراً (٢٣٧٥ ريال أمريكى) .

ويقول المقرئ : « وسنمك عن ذكر الشعراء الذين ظهوروا في أيام هشام الثانى والمنصور لأن عددهم كان أكثر من رمال البحر » (٧٥) . وكان من بينهم الأميرة الولادة (المتوفاة في عام ١٠٨٧) ؛ والتي كان بيتها في قرطبة ندوة حقة شبيهة باندوات عهد الاستنارة في فرنسا : فكان يلتف حولها الظرفاء ، والعلماء ، والشعراء ؛ وقد أحببت عدداً كبيراً منهم ، وكتبت عن عشاقها بحرية لو سمعت بها السيدة ريكاميه *Mme Récamier* لارتاعت لها . ولقد بزتها صديقتها بهجة القرطبية في جمال الجسم وخلاعة الشعر (*) . وكاد كل إنسان في الأندلس وقتئذ أن يكون شاعراً ، يتطرح الشعر المرثجى مع غيره لأى سبب . وكان الخليفة نفسه يشترك في هذه المطارحات الشعرية ، وقلما كان يوجد في البلاد أمير مسلم ليس في بلاطه شاعر يكرم ويخصص له راتب . وقد أدت هذه الرعاية الملكية إلى الشركما أدت إلى الخير . ذلك أن ما وصلنا من شعر ذلك العصر كثيراً ما يبدو فيه

(*) يصفها المقرئ بقوله إنها من أجل نساء زمانها ولازمت ناديا وكانت من أخف النساء روحاً . (المترجم)

التكلف والصناعة اللفظية ، والمحسنات ، وهو مثقل بالتشبيهات والاستعارات
مفعم بالعبارات الدالة على الكبرياء والغرور . أما موضوعه فهو الحب الشهواني
والعذري ؛ وقد استبق الشعراء في أسبانيا وفي الشرق الإسلامي أساليب شعراء
الغزل في عهد الفروسية Troubadors ، وطرقهم وفلسفتهم (٧٦) .

وسنختار من هذا العدد الجم نجما واحداً لامعاً هو سعيد بن جودي
ابن صاحب الشرطة بقرطبة(*) . كان سعيد جندياً مقداماً كثير العشق ،
يتصف بجميع الصفات التي تجعله في نظر المسلمين سميحاً أى سيداً كاملاً
بحق : فقد كان سخياً ، شجاعاً ، فارساً بارعاً ، بهي الطلعة ، فصيح
اللسان ، شاعراً ممتازاً ، قوى الجسم ، يجيد فنون المصارعة والمثاقفة
بالسيف ، والرمح ، والرمي بالقوس (٧٧) . ولم يكن يدري في أى وقت من
الأوقات أيهما أحب إليه - الحب أو الحرب . وكان يتأثر بلمس المرأة مهما
ضعف ، ولذلك افتنن بكثيرات من النساء كان حب كل واحدة منهن يبشر
بحب دائم لا ينقطع . وكان حبه كحب شعراء عهد الفروسية الشعراء الجوالين
الغزلين أشد ما يكون حين تندو رؤية الحبيب . وكانت أعظم قصائده الغزلية
قصيدة وجهها إلى جيجان التي لم ير منها إلا يدها الصغيرة الناصعة البياض . وكان
أبيقوريا صريحاً يشعر بأن على رجال الأخلاق يقع عبء البرهنة على أن السعادة
ليست هي اللذة . ومن أقواله في هذا المعنى :

(*) اسمه الكامل سعيد بن سليمان بن جودي ، وترجمته في كتاب الحلة السيرة لابن الأبار
طبعة دوزى ص ٨٣ وما بعدها .

ومن قوله في جيجان :

ضمي أبي أن يكون الروح في بدني	فاعتاض قلبي منه لوعة الحزن
أعطيت جيجان روحى عن تذكرها	هذا ولم أرها يوماً ولم ترفني
كأنسى واسمها والدمع منسكب	من مقلتي راهب صلى إلى وثني
ويقال إنه نظر إلى جارية فاعتراها الحجل وأطرقت بعينها فقال :	
أمائلة الألفاظ صنى إلى الأرض	أهدا الذى تبدين ويحك عن بغض
فإن كان بغضاً لست والله أهله	ووجهي بذاك اللحظ أولى من الأرض

(المترجم)

لا شيء أملح ومن مناقلة كأساً على طبق
ومن مواصلة من بعد معتبة ومن مراسلة الأحباب بالحدق
جريت جرى جَموح في الصباطلقا وماخرجت لصراف الدهر عن طلتي
ولا انثيت لذاعي الموت يوم دعا ولا انثيت وحبل الحب في عنقي (٧٨)
وكان زملاؤه في الجندية يفضون منه أحياناً لأنه يغوى أزواجهم ،
وقد قبض عليه في يوم ما أحد الضباط في بيته وقتله (٨٩٧) .

وقد لقي شاعر آخر أعظم منه وأبل خاتمة خيراً من هذه وأعظم منها
بطولة ، ذلك هو المعتمد أمير إشبيلية . وكان كغيره من الملوك الصغار في
بلاد الأندلس بعد تفرقها قد ظل عدة سنين يؤدي الجزية إلى الفنسو السادس
(الأذفنش) ملك قشتالة يشتري بها عدم اعتداء المسيحية على الإسلام .
ولكن الرشا ترك على الدوام بقية منها يؤديها الراشي متى طلب إليه الأداء .
واستخدم ألفنسو المال الذي يأتيه من ضحيته في الانقضاض على طليطلة في
عام ١٠٨٥ ؛ وأيقن المعتمد أن إشبيلية ستكون الفريسة الثانية . وكانت
دويلات الأندلس وقتئذ قد أنهكتها حروب الطبقات وحروبها فيما بينها إلى
حد عجزت معه عن مقاومة عدوها المشترك مقاومة مجدية ؛ ولكن أسرة
إسلامية جديدة قامت وقتئذ على الجانب الآخر من البحر المتوسط هي أسرة
المرابطين وقد (اشتق اسمها من اسم أحد الأولياء الصالحين في الشمال الغربي
من إفريقيا) . وكان الأساس الذي قامت عليه دولة المرابطين هو الاستمساك
الشديد بالدين ، ولم يكذب فيها رجل غير جندي من جنود الله ؛ ولم تجرد
جيوشها صعوبة في الاستيلاء على مراكش بأجمعها . وتلقى في ذلك الوقت
مليكتها يوسف بن تاشفين - وهو رجل يتصف بالشجاعة والدهاء - دعوة
من أمراء الأندلس يستنجدون به من وحش قشتالة المسيحي الضار ؛ فعبّر
يوسف بجيشه مضيق جبل طارق ، وتلقى المدد من مالقة ، وغرناطة ، وإشبيلية ؛

والتقى بجيش ألفنسو عند الزلاقة القريبة من بطليوس (١٠٨٦) . (بدجوز Badajoz) : وبعث ألفنسو برسالة رقيقة إلى يوسف يقول فيها : « إن غداً (الجمعة) يوم عيد عندكم ، ويوم الأحد عندنا ، ولهذا فإني أقترح أن تدور المعركة في يوم السبت » . ووافق يوسف على هذا الاقتراح ولكن ألفنسو هجم على المسلمين في يوم الجمعة : وأظهر يوسف والمعتمد في الحرب كثيراً من ضروب البسالة ، واحتفل المسلمون بعيدهم بقتل عدد كبير من المسيحيين ، ولم ينج ألفنسو وخمسمائة من رجاله من الموت إلا بشق الأنفس . ودهشت أسبانيا حين عاد يوسف إلى إفريقية دون أن يغم شيئاً .

ولكنه عاد بعد أربع سنين . وكان سبب رجوعه أن المعتمد ألح عليه بأن يقضى على قوة ألفنسو الذي كان يحشد الجيوش ليهاجم المسلمين من جديد . والتقى يوسف بالمسيحيين في مواقع غير حاسمة ، وبسط سلطانه على بلاد الأندلس الإسلامية . وزحج به الفقهاء لأن من طبعهم على الدوام أن يفضلوا السيد الجديدي على القديم ، وعارضته الطبقات المتعلمة لأنه في نظرهم يمثل الرجعية الدينية ، وابتهج رجال الدين بمقدمته . واستولى يوسف على غرناطة من غير مقاومة ، واكتسب محبة أهلها بإلغاء جميع الضرائب التي لا ينص عليها القرآن (١٠٩٠) . وعقد المعتمد وغيره من الأمراء فيما بينهم حلفاً لمقاومته ، كما عقدوا حلفاً مقدساً ! مع ألفنسو . وحاصر يوسف قرطبة ، وأسلمها إليه أهلها ، ثم حاصر إشبيلية ودافع عنها المتعمد دفاع الأبطال ، ورأى بعينه ولده يقتل في الدفاع عنها ، فحزن لموته حزناً هدرته واستسلم للمحاصرين (*) ، ولم يحل عام ١٠٩١ حتى سقطت جميع الأندلس ما عدا سرقة في يد يوسف بن تاشفين ، وأصبحت أسبانيا الإسلامية ولاية تابعة لإفريقية :

(*) المعروف أنه كان للمعتمد ولدان هما المعتد بالله والراضي بالله وأنها قتلا غيلة وله في رثائهما شعر كثير . انظر الجزء الثالث من ضحى الإسلام للرحوم الدكتور أحمد أمين . (المترجم)

وسيق المعتمد أسير حرب إلى طنجة ، وتلقى وهو فيها رسالة من أحد شعرائها وهو الحصرى حوت أبياناً من الشعر يثنى فيها عليه ويسأله العطاء ، ولم يكن الأمير المغلوب على أمره يملك من متاع الدنيا في ذلك الوقت أكثر من خمسة وثلاثين ديناراً بعث بها إلى الحصرى واعتذر له عن قتلها(*) . ثم نقل المعتمد إلى أعجمت القرية من مدينة مراكش وعاش فيها بعض الوقت مكبلاً بالأغلال ، فقيراً معدماً ، ولم ينقطع عن قول الشعر حتى مماته (١٠٩٥) . ومن قصائده قصيدة خليقة بأن تنقش على قبره :

أرى الدنيا الدنية لا تواتى فأجل في التصرف والطلاب
ولا يغرك منها حسن برد له علمان من ذهب الذهب
فأولها رجاء من سراب وآخرها رداء من تراب(*)

(*) الحصرى هو صاحب « زهر الآداب » وهو الذى استجدى ابن عباد في منفاه ، وكان فقيراً ، فأخذت ابن عباد أريحته وبعث إليه بكل ما معه ، وبعث مع ذلك بقطعة يعتذر فيها عن قلة ما منحه واستبشع مؤرخو الأدب فعلة الحصرى وقالوا : « إنه جرى مع المعتمد على سوء عادته من قبيح الكدية وإفراط الإلحاف » وقد قال المعتمد نفسه في هذا المعنى .

سألوا اليسير من الأسير وإنه بسؤالهم لأحسق منهم فاعجب
لولا الحياء وغزة الخيبة طى الحشا لحسكاهم في المطلب

(من الجزء الثالث من ظهر الإسلام للمرحوم الدكتور أحمد أمين^{٣٥} .) (المترجم)

(*) هذه هي أقرب أبيات وجدناها في أشعار المعتمد إلى الأصل الإنجليزي وقد يكون في الترجمة الإنجليزية بعض التصرف الذى تحتمه ترجمة الشعر العربى إلى شعر إنجليزى .
(المترجم)

الباب الرابع عشر

عظمة المسلمين واضمحلالهم

١٢٥٨ - ١٠٥٨

الفصل الأول

الشرق الإسلامي

١٢٥٠ - ١٠٥٨

لما توفى طغرل بك في عام ١٠٦٣ خلفه ابن أخيه ألب أرسلان سلطاناً على السلاجقة ، ولم يكن ألب أرسلان وقتئذ قد تجاوز السادسة والعشرين من عمره ويصفه أحد المؤرخين المسلمين بأنه رجل طويل القامة له شاربان يبلغ من طولها أن كان يضطر إلى ربطهما حين يريد الصيد ، وأن سهامه لم تخطئ مرماها قط . وكان يضع على رأسه عمامة عالية يقول الناس إن المسافة من أعلاها إلى طرف شاربه لا تقل عن ذراعين . وكان حاكماً قوياً ، عادلاً ، كريماً بوجه عام ، لا يتوانى عن مجازاة من يظلم الناس أو يعتصب ماله من عماله ، كثير البذل للفقراء . وكان يقضى جزءاً كبيراً من وقته في دراسة التاريخ ، كما كان مولعاً بالاستماع إلى أخبار السابقين وإلى الأعمال التي تكشف عن أخلاقهم ، وأنظمة حكمهم وإدارتهم (١) .

ولكن ألب أرسلان قد أثبت رغم هذه الميول العلمية أنه خليق باسمه - « البطل قلب الأسد » فقد فتح هراة ، وأرمينية ، وبلاد الكرج ، والشام . وحشد إمبراطور الروم جيشاً مؤلفاً من مائة ألف جندي من مختلف الأجناس ،

مختل النظام ليلاتي به جنود ألب أرسلان المضرسين البالغ عددهم ١٥٠٠٠ مقاتل ، فلما التقيا عرض القائد السلجوقي على عدوه صلحا معقولا ، رفضه رومانوس Romanus بازدراء ، واشتبك معه في معركة عند منزيركرت (ملازكرت أو ملاسجرد) بأرمينية (١٠٧١) ، وحارب ببسالة بن جنده الجبناء ، فهزم ووقع في الأسر ، وجيء به إلى السلطان فسأله ماذا كان يفعل لو ابتسم الحظ لجنده ؟ فأجاب رومانوس بأنه في هذه الحال كان يمزق جسمه بالسياط . ولكن ألب أرسلان عامله أحسن معاملة ، وأطلق سراحه بعد أن وعده بأن يفتدى نفسه بقدية كبيرة ، وسمح له بالرجوع إلى بلاده ، ومنحه كثيراً من الهدايا القيمة^(٢) ، وبعد عام من ذلك الوقت اغتيل ألب أرسلان .

وكان ابنه ملك شاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢) أعظم سلاطين السلاجقة على الإطلاق . وبينما كان قائده سليمان يتم فتح آسية الصغرى ، كان هو نفسه يستولى على ما وراء نهر جيحون ويمد فتوحه إلى بخارى وكاشغر . وأسبغ وزيره القدير الوفي نظام الملك على البلاد في عهده وعهد أبيه ألب أرسلان كثيراً من الرخاء والبهاء كالذي أسبغته البرامكة على بغداد في أيام هرون الرشيد . فقد ظل نظام الملك ثلاثين عاماً ينظم شئون البلاد ، ويشرف على أحوالها الإدارية ، والسياسية ، والمالية ، ويشجع الصناعة والتجارة ، ويصلح الطرق ، والجسور ، والنزل ، ويجعلها آمنة لجميع المسافرين . وكان صديقاً كريماً للفنانين ، والشعراء ، والعلماء ، شاد المباني الفخمة في بغداد ، وأسس فيها مدرسة كبرى ذاع صيتها في الآفاق ، وأمر بإنشاء إيوان القبة العظيم في المسجد الجامع بإصفهان ، ورصد له ما يلزمه من المال . ويبدو أنه هو الذي أشار على ملك شاه بأن يستقدم إلى بلاطه عمر الخيام وغيره من الفلكيين لإصلاح التقويم الفارسي . وتقول قصة قديمة إن نظام الملك ، وعمر الخيام ، وحسن بن الصباح أقسموا وهم صغار يطلبون العلم أن يقتسموا جميعاً ما عسى أن يوافق أي واحد منهم من حظ طيب . وأكبر الظن أن هذه القصة :

كغيرها من القصص الطيبة ، من نسج الخيال ، لأن نظام الملك ولد في عام ١٠١٧ ، على حين أن عمر الخيام ، وحسن بن الصباح توفيا . فيما بين عامي ١١٢٣ ، ١١٢٤ ؛ وليس لدينا ما يشير إلى أن أحدهما كان من المعمرين .

وكتب نظام الملك وهو في سن الخامسة والسبعين فلسفته في الحكم في كتاب من أكبر الكتب في النثر الفارسي وهو كتاب - سياسة - ناما أى كتاب فن الحكم . وهو يوصى فيه بقوة أن يتمسك الملك والشعب بأصول الدين ، ويرى أن الحكومة لا يمكن أن تستقر إلا إذا قامت على هذا الأساس ، واستمدت من الدين حق الحاكم المقدس وسلطانه . ولم يبخل على مليكه في الوقت عينه ببعض النصائح الإنسانية يبصره فيها بما على الحاكم من واجبات ، فقال إن الحاكم يجب ألا يفرط في الشراب أو اللهو ، وإن عليه أن يبين كل ما يرتكبه الموظفون من فساد أو ظلم ، ويعاقبهم عليه ؛ وأن يعقد مجلساً عاماً مرتين في كل أسبوع يستطيع أن يتقدم فيه أحقر رعاياه بما لديهم من الشكاوى والمظالم . وكان نظام الملك رحيمًا في حكمه ولكنه لم يكن متسامحاً في أمور الدين ؛ وهو يأسف لأن الدولة تستخدم في أعمالها المسيحيين واليهود والشيعية ، ويندد أشد التنديد بطائفة الإسماعيلية ، ويقول إنها تهدد وحدة الدولة . وفي عام ١٠٩٢ اقترب منه أحد أتباع الطائفة المتعصبين لها مدعياً أنه يريد أن يتقدم إليه بمعروض ، وطعنه طعنة قضت عليه .

وكان هذا القاتل عضواً في طائفة من أعجب الطوائف في التاريخ . وكان منشؤها أن أحد زعماء الإسماعيلية - وهو الحسن بن الصباح الذي تجمع إحدى القصص المشكوك في صدقها بينه وبين عمر الخيام ، ونظام الملك - استولى على حصن الموت (عش النسر) في الجزء الشمالي من إيران ، ومن هذا الحصن المنيع الذي يعلو عن سطح البحر بعشرة آلاف قدم شن حرباً هواناً من التقتيل.

والإرهاب على أعداء الشيعة ، وعلى الذين يضطهدون معتقبيها . وكان نظام الملك قد أتتهم هذه الطائفة في كتابه بأن زعماءها من نسل المزدكية الشيعيين أهل فارس الساسانية . وكانت في الواقع جمعية سرية ذات درجات متفاوتة يمر بها أتباعها ، ولها رئيس أعلى أطلق عليه الصليبيون اسم « شيخ الجبل » ، وكانت أدنى طبقاتها تشمل الفدائيين الذين يطلب إليهم أن ينفذوا من غير ما تردد أو تفكير كل ما يصدره لهم رؤسائهم من الأوامر ، ويقول ماركو بولو Marco Polo الذي مر بالموت نفسها في عام ١٢٧١ إن زعيم للطائفة الأكبر أعد خلف الحصن حديقه جمع فيها كل ما في الجنة - على حسب ما يعتقدوه عامة المسلمين - من سيدات وفتيات يستطيع الرجال أن يشبعوا معهن شهواتهن ، وإن الذين يريدون أن ينضموا إلى الطائفة كانوا يسقون الحشيش ، حتى إذا غابوا عن وعيهم جرى بهم إلى الحديقة ، فإذا عادوا إلى صوابهم قيل لهم إنهم في الجنة . وبعد أن يقضوا أربعة أيام أو خمسة يستمتعون فيها بالخمير والنساء ولذيذ الطعام ، يخدزون مرة أخرى بالحشيش ثم ينقلون من الحديقة ، فإذا استيقظوا وسألوا عن الجنة التي كانوا فيها ، قيل لهم إنهم سيعادون إليها ويبقون فيها إلى أبد الدهر إذا أطاعوا الشيخ وأخلصوا له أو استشهدوا في خدمته^(٤). وكان الشبان الذين يرضون بهذا الوضع يسمون « الحشاشين » أى الذين يشربون الحشيش - ومن هذه الكلمة اشتق لفظ Assassin الإفرنجي الذي يطلق على المقتال . وظل حسن يحكم الموت نحسا وثلاثين سنة ، وأحاطها مركز الاغتيال والتعليم والفن . وظلت هذه الطائفة باقية بعد وفاته بزمن طويل ، واستولت على عدة حصون أخرى منيعة ، وحاربت الصليبيين ، ويقال إنها هي التي قتلت كراد المنتفرائي Conrad of Monteferrat بتحريض رتشد قلب الأسد^(٥). وفي عام ١٢٥٦ استولى المغول بقيادة هولاكو على حصن ألموت وغيره من معاقل الحشاشين ، وأخذت الدول والإمارات الإسلامية من ذلك الوقت تطاردهم وتقتلهم لأنها ترى فيهم أعداء للمجتمع

يعملون على خرابه وتدمير ه : ولكنهم مع ذلك ظلوا بوصفهم طائفة دينية ، وأضحوا على مر الأيام مسلمين خليقين بالاحترام ؛ وفي الهند ، وفارس ، والشام ، وإفريقية كثيرون من أتباع هذه الطائفة يعترفون بزعامه أغا خان ويؤدون إليه عشر دخلهم^(١) .

وتوفى ملك شاه بعد شهر من وفاة وزيره ، وتنازع أبناؤه على وراثة العرش واقتتلوا ، وتفرق المسلمون في أثناء هذا النزاع فلم يواجهوا الصليبيين بقوة متحدة . وأعاد السلطان سنجر إلى بغداد أبهة السلاجقة في أثناء حكمه الذى دام من ١١١٧ حتى ١١٥٧ ، وازدهرت في أيامه الآداب بفضل تعضيدته ومناصرتة ؛ ولكن الدولة السلجوقية تفككت بعد وفاته وانقسمت إلى إمارات مستقلة تحكمها أسر قليلة الشأن وملوك متنازعون متقاتلون ، وقام في الموصل أحد ممالك ملك شاه الأكراد وهو عماد الدين زنكى وأسس أسرة الأتابكة (آباء الأمراء) في عام ١١٢٧ ، وهى الأسرة التى حاربت الصليبيين حرباً عواناً وبسطت سلطانها على بلاد النهرين . وفتح ابنه نور الدين محمود (١١٤٦ - ١١٧٣) بلاد الشام ، واتخذ دمشق عاصمة له ، وحكم أملاكه حكماً عادلاً حازماً ، وانتزع مصر من الأسرة الفاطمية المحتضرة .

وكانت عوامل الانحلال ، التى أدت إلى خضوع الخلفاء العباسيين إلى سلطان بنى بويه والسلاجقة ، قد أدت بعد قرنين من تضعف الخلافة العباسية إلى اضمحلال شأن الخلفاء الفاطميين حتى غدوا رؤساء دينيين لا أكثر في دولة يحكمها وزراء وهم قادة الجنود . وانغمس هؤلاء الخلفاء في اللهو والشهوات بين نساءهم اللاتي لا يحصى عددهن ، وأحاطوا أنفسهم بالخصيان والعبيد ، وأفقدتهم الترف والانغماس في الشهوات الجنسية صفات الرجولة ، فتركوا وزراءهم يلقبون أنفسهم بالملوك ويوزعون مناصب الدولة ومزايا الحكم كما يشتهون . وحدث في

عام ١١٦٤ أن قام النزاع على الوزارة بين اثنين (*) من القواد . واستعان أحدهما . وهو شاور على منافسه بنور الدين ، فبعث إليه بقوة صغيرة يقودها أسد الدين شيركوه . وانتهى الأمر بأن قتل شيركوه شاور ونصب نفسه وزيراً . ولما مات شيركوه خلفه في الوزارة ابن أخيه الذي صار فيما بعد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب والمعروف عند الغربيين باسم Saladin ه

وقد ولد صلاح الدين في تكريت الواقعة في أعالي نهر دجلة عام ١١٣٨ من أسرة كردية - غير سامية . وكان أبوه أيوب قد ارتقى في مناصب الدولة حتى صار والياً على بعلبك في أيام عماد الدين زنكي ، ثم والياً على دمشق في أيام نور الدين محمود . ونشأ صلاح الدين في هاتين المدينتين في بيت من بيوت الإمارة ، وتعلم فنون السياسة والحرب ، ولكنه جمع إليها صلاحاً وتمسكاً بالدين ، وتحمساً له ، وإتقاناً لأصوله ، وبساطة في المعيشة لانكاد تفترق عن بساطة الزهاد . ويعده المسلمون من أعظم رجالهم الصالحين ه وكان خير أثوابه ثوباً من الصوف الخشن الغليظ ، ولم يكن يشرب غير الماء ، وكان مضرب المثل في اعتداله في العلاقات الجنسية ، وبلغ في ذلك درجة لا يدانيه فيها معاصروه . قدم إلى مصر مع شيركوه ، واشترك فيما نشب فيها من قتال ، واستلفت الأنظار ببسالته وحسن تدبيره ، فعين حاكماً على الإسكندرية وصد عنها غارة الفرنجة في عام ١١٦٧ . ثم تولى الوزارة وهو في سن الثلاثين ، فبذل جهده في إعادة المذهب السني إلى مصر ، حتى إذ كان عام ١١٧٠ استبدل باسم الخليفة الفاطمي الشيعي اسم الخليفة العباسي السني في خطبة الجمعة . ولم يكن للخليفة العباسي في ذلك الوقت أكثر من الزعامة الدينية الاسمية في بغداد . وكان الخليفة العاصد ، آخر الخلفاء الفاطميين في ذلك الوقت ، مريضاً في قصره ، وظل على غير علم بهذا الانقلاب .

(ه) هما شاور وضرغام . (المترجم)

الدينى ، لأن صلاح الدين حرص على ألا تصله أنبأؤه حتى يقضى هذا السجين العديم الشأن نجبه فى هدوء وسلام . وقد حدث هذا بالفعل بعد قليل ، فمات ولم يبايع من يخلفه على العرش ، وانقضى بذلك حكم الأسرة الفاطمية دون أن يحدث فى البلاد شىء من الاضطراب . وجعل صلاح الدين نفسه والياً على البلاد لا وزيراً ، وأقر لنور الدين بالسيادة . ولما دخل صلاح الدين قصر الخليفة بالقاهرة وجد فيه اثنى عشر ألف شخص كلهم نساء عدا أقارب الخليفة نفسه ، كما وجد فيه من الحلى ، والأثاث ، والعاج ، والخزف الثمين ما لا يوجد فى قصر أعظم عطاء ذلك الوقت . ولم يحتفظ صلاح الدين بشىء من هذا كله لنفسه ، ووهب القصر لقواد جنده . وظل هو يسكن حجرات الوزير ويعيش فيها عيشة البساطة التى هى من خير النعم على صاحبها .

ولما مات نور الدين فى عام ١١٧٣ أبى ولاية الأقاليم أن يبايعوا ابنه البالغ من العمر أحد عشر عاماً ملكاً عليهم ، وأوشكت بلاد الشام أن تقع مرة أخرى فى براثن الفوضى . وقال صلاح الدين إنه يخشى أن يستولى الصليبيون على تلك البلاد فسار من مصر ومعه سبعمائة من الفرسان ، واستطاع بحملة سريعة موقفة أن يستولى على جميع بلاد الشام . ولما عاد إلى مصر لقب نفسه ملكاً وأسس الأسرة الأيوبية (١١٧٥) ، وخرج من مصر مرة أخرى بعد ست سنين من ذلك الوقت ، واتخذ دمشق مقراً له ، واستولى على بلاد النهرين ، وكان فيها ، كما كان فى القاهرة ، الرجل الحرص على دينه ، المستمسك بأصوله . وأنشأ عدة مساجد ، وبهارستانات ، وأديرة ، ومدارس لتعليم قواعد الدين ، وشجع العمارة ، وإن لم يشجع العلوم الزمنية ، وكان يشارك أفلاطون فى احتقاره الشعر . ولم يكن يتوانى عن إصلاح كل خطأ ورد كل ظلم يصل إلى علمه ، وخفف الضرائب فى الوقت الذى أكثر فيه من المنشآت العامة ، وأدار دولاب الحكومة بحزم وكفاية وحرص شديد على المصلحة العامة . وكانت البلاد الإسلامية تفخر بعدله وصلاح

حكاه ، بينما كانت المسيحية تعترف بشهامته وإن لم يكن من دينها(*) .

وسنمسك القلم عن التبسط في أحوال الأسر المحلية التي اقتسمت بلاد الشرق الإسلامية بعد موت صلاح الدين (١١٩٣) . وحسبنا أن نقول إن ابنه كانت تنقصه مواهب أبيه ، وإن حكم الدولة الأيوبية في بلاد الشام انقضى بعد ثلاثة أجيال (١٢٦٠) . أما في مصر فقد ظل مزدهر أحتى عام ١٢٥٠ ، ووصل إلى ذروة مجده في عهد الملك المستنير الملك الكامل (١٢١٨ - ١٢٣٨) صديق فردريك الثاني . وفي آسية الصغرى أقام للسلاجقة سلطنة بلاد « الروم » ، وجعلوا قونية (إيقونيوم Iconium الوارد ذكرها في أقوال القديس بولس) مركزا لحضارة ذات آداب رفيعة . وانمحت من آسية الصغرى أسس الحضارة اليونانية التي كانت قائمة فيها منذ أيام هومر ، وأصبحت بلاداً تركية لا تقبل في صبغتها هذه عن التركستان نفسها ، وتقوم فيها الآن الدولة التركية متخذة عاصمتها مدينة كانت في الزمن القديم عاصمة الحثيين . وكانت قبيلة أخرى من الأتراك تحكم خوارزم (١٠٧٧ - ١٢٣١) ، وقد بسطت هذه القبيلة سلطانها من جبال أورال حتى الخليج الفارسي . وفي هذه الأحوال بهذا الانقسام السياسي أسس چنكيز خان الدولة الإسلامية الآسيوية .

وكانت بلاد الإسلام حتى في هذه الفترة من عهود الاضمحلال تزعم العالم كله في الشعر ، والعلم ، والفلسفة ؛ وتنافس آل هوهنستوفن Hohēnstaufen في الحكم . فقد كان سلاطين السلاجقة - طغرل بك ، وألب أرسلان ، وملك شاه ، وسنجر - من أقدر الحكام في العصور للوسطى ، ويعد نظام الملك من أعظم رجال الحكم والسياسة ؛ ولم يكن نور الدين ، وصلاح الدين ، والكامل

(*) قد يدهش القارئ لأن المؤلف أغفل جهود صلاح الدين في رد الصليبيين . ولكن

هذه الجهود ستأتي في موضعها من الأجزاء الأخرى (المتاحم) .

أقل شأنًا من رتشرد الأول ، ولويس التاسع ، وفرديك الثاني . وجرى هؤلاء الحكام المسلمون جميعهم ، بل وصغار الملوك أنفسهم ، على سنة الخلفاء العباسيين في مناصرة الآداب والفنون ، حتى لنجد في بلاطهم شعراء أمثال عمر الخيام ، والنظامي ، والسعدي ، وجلال الدين الرومي ؛ وبلغت العمارة في أيامهم درجة من الازدهار لم تبلغها قط من قبل ، وإن كانت الفلسفة قد اضمحلت لتشددهم في الدين(*) ، فقد طارد السلاجقة وصلاح الدين كل خارج على السنة من المسلمين ، ولكنهم كانوا يعاملون اليهود والمسيحيين معاملة بلغ من تسامحها ولينها أن المؤرخين البيزنطيين يحدثوننا عن جماعات مسيحية تطلب إلى الحكام السلاجقة أن يأتوا إليها ليطردوا حكامها البيزنطيين الظالمين(٧) . وازدهر غرب آسية مرة أخرى مادياً ، وأدبياً في عهد السلاجقة والأيوبيين حتى كانت دمشق ، وحلب ، والموصل ، وبغداد ، وإصفهان ، والري ، وهرارة ، وأميدا ، ونيسابور ، ومرو وقتشذ من أكثر مدن العالم ثقافة وجمالاً . وقصارى القول أن هذا العصر كان عصر اضمحلال متألىء ساطع .

(*) لسنا نعتقد أن التشدد في الدين يحول دون تقدم الفلسفة ولكن عدم فهم الدين على الوجه الصحيح هو الذى يحول دون تقدمها . (المترجم)

الفصل الثاني

المسلمون في الغرب

١٠٨٦ - ١٣٠٠

توفي الملك الصالح آخر سلاطين الأيوبيين في عام ١٢٤٩ ، وتغاضت أرملته وجاريته السابقة شجرة الدر عن مقتل ابن زوجها ونادت بنفسها ملكة . وأراد الزعماء المسلمون في القاهرة أن يوقفوا بين هذا وبين مقتضيات الشرف والرجولة فاختاروا مملوكاً آخر يدعى أيك ليكون شريكاً لها في الملك ، وتزوجت به شجرة الدر ، ولكنها ظلت هي الحاكمة ، ولما حاول أن يستقل بالملك دونها عملت على قتله في الحمام (١٢٥٧) ، ولم تلبث أن قتلها جوارى أيك ضرباً بالقباقيب . وكان أيك قد عاش من العمر ما يكفي لإنشاء أسرة المماليك . وكان لفظ مملوك يطلق على الأرقاء البيض ، وهم في العادة من الأتراك أو المغول الأشداء البواسل ، الذين كان سلاطين بني أبوب يستخدمونهم في حرسهم الخاص ؛ وأصبح هؤلاء فيما بعد ملوك مصر ، كما أصبح أمثالهم ملوكاً في رومة وبغداد ؛ وظل المماليك يحكمون مصر ، وبلاد الشام. أحياناً ، ٢٦٧ عاماً (١٢٥٠ - ١٥١٧) أريقت فيها كثير من دماء الاغتيال في عاصمة ملكهم ، ولكنهم جعلوها بآثار الفن . وقد أنجوا بشجاعتهم بلاد الشام وأوروبا نفسها من المغول حين بددوا شملهم في واقعة عين جالوت (١٢٦٠) ؛ وكانوا هم الذين أنجوا فلسطين من الفرنجة ، وطردها آخر محارب مسيحي من بلاد آسية ، وإن لم ينالوا من وراء ذلك من الحمد ما نالوه بهزيمة المغول .

• وكان أعظم سلاطين المماليك وأشدهم قسوة الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٣٧٧) .

(٢٣ - ج - ٢ - مجلد ٤)

كان الظاهر مملوكاً تركياً ، رفعه دهاوؤه وبسالته إلى منصب القيادة في الجيش المصرى ؛ وكان هو الذى هزم لويس التاسع فى عام ١٢٥٠ ؛ والذى حارب بعد عشرينين من ذلك الوقت ببسالة ومهارة منقطعتى النظر تحت قيادة قطز فى معركة عين جالوت . ثم قتل قطز وهو عائد إلى القاهرة وناذى بنفسه سلطاناً على مصر ، وكان من الطريف أن يتقبل لنفسه الاحتفال الذى أعدته المدينة للصحية المنتصر . واشتبك الظاهر فى عدة حروب مع الصليبيين كللت كلها بالنصر ، ومن أجلها تضعه الرواية الإسلامية فى المرتبة الثانية بعد هرون الرشيد وصلاح الدين ، ويصفه مؤرخ مسيحي معاصر له بقوله : « إنه كان فى السلم معتدلاً ، عفيفاً ، عادلاً بين شعبه ، رحياً برعاياه المسيحيين أنفسهم » . وقد أحسن تنظيم حكومة مصر إلى درجة ثبتت دعائم حكم خلفائه رغم ما اتصف به بعضهم من عجز ، فاحتفظوا بهذا الملك حتى غلبهم الأتراك العثمانيون فى عام ١٥١٧ . وقد أنشأ لمصر جيشاً وأسطولاً قويين ، وطهر مرافئها ، وأصلح طرقها ، وقنوات ريفها ، وشاد المسجد المسمى باسمه فى القاهرة .

وخلع مملوك تركى آخر ابن الظاهر بيبرس وأصبح هذا المملوك السلطان للنصور سيف الدين قلاون (١٢٧٩ - ١٢٩٠) ، وأهم ما يشتهر به فى التاريخ هو البيمارستان الذى أنشأه فى القاهرة ، والذى خصص له مليوناً من الدراهم (ما يعادل ٥٠٠.٠٠٠ ريال أمريكى) فى العام ، ورُفِع ابنه الناصر إلى العرش ثلاث مرات ، ولكنه لم يخلع إلا مرتين ؛ وبني قنوات لجر ماء الشرب إلى العاصمة ، وأنشأ حمامات عامة ، ومدارس ، وأديرة ، وثلاثين مسجداً ؛ واحترف قناة تصل الإسكندرية بالنيل سخر فى حفرها مائة ألف عامل ، وضرب المثل فى بذخ المالك ، إذ نحر عشرين ألفاً من الذبائح فى الاحتفال بزواج ولده . ولما سافر الناصر فى رحلة خلال الصحراء حمل على ظهره أربعين بعبراً حديقة من الخضر يطينها الخصب لىستمد منها حاجته كل يوم^(٩) . وأقفرت خزانة

الدولة الرومانية في أيامه ، وكان سببا في ضعف خلفائه ضعفاً خارت له
فيما بعد قوة الممالك .

وبعد فإن سلاطين الممالك لا يقعون في نفوسنا موقع سلاطين السلاجقة ؛
أو الأيوبيين . نعم لأنهم خلفوا منشآت عامة عظيمة ، ولكن معظم هذه
الأعمال كان يقوم بها فلاحون أو عمال فقراء يستغلون إلى أقصى ما تختمله
الطاقة البشرية ، وتستطيعه حكومة لا تسأل قط عن أعمالها أمام الأمة أو أمام
طبقة الأعيان ، وكان الاغتياب هو الطريقة الوحيدة للتخلص من السلاطين ؛
ولكن هؤلاء الحكام الغلاظ الأكباد كانوا أصحاب ذوق سليم ، أسخياء
في مناصرة الآداب والفنون ، وكان عصر الممالك ألمع العصور الإسلامية
في تاريخ العمارة الإسلامية في العصور الوسطى بأجمعها ؛ وكانت القاهرة في
عهدهم (١٢٥٠ - ١٣٠٠) أغنى مدن العالم المتمدنة في غرب نهر السند^(١٠) ،
فكانت أسواقها غاصة بجميع لوازم الحياة وبكثير من كمالياتها ، وكان فيها
سوق للنخاسة يستطيع الإنسان أن يبتاع منها الرجال والفتيات ، وحوانيت
صغيرة في جدرانها مزدحمة بالسلع المتفاوتة الأثمان ، وأزقة غاصة بالناس
والدواب ، تعلو فيها أصوات البائعين الجائدين وعربات النقل ، وقد أنشئت
ضيقة عن عمد ليستظل بها المارة ، ومتعرجة عن عمد ليسهل الدفاع عنها ، تخفى
بيوتها وراء واجهات قوية ، وحجراتها مظلمة رطبة وسط وهج الشمس
وحرارتها في الشوارع الكثيرة الحركة والجلبة ، يتنفس سكانها الهواء من بهو
داخلي أو حديقة قريبة ؛ وقد فرشت حجراتها بالأثاث الوثير ، والسجف ،
والطنافس ، والتحف الفنية ، والمفارش والوسائد المطرزة المزركشة . وكان فيها
رجال يمضغون الحشيش ليخدروا حواسهم^(*) ، ويستجلبوا الأحلام اللذيذة ؛

(*) لا نعتقد أن « مضغ الحشيش » كان ظاهرة بارزة في القاهرة جديدة بالتسجيل
كما قد يتبادر إلى الذهن من قول المؤلف وإن وجهه في القاهرة كما في سائر بلاد العالم من
يتعاطون الحشيش وغيره من المخدرات وحسب القارئ أن يطلع على كتاب « اعترافات آكل
أفيون إنجليزي » لذكورسي . (المترجم)

وفيها نساء يثرثن في بيوت الحريم ، أو يغازلان خلسة من وراء النوافذ ،
والموسيقى تنبعث من آلاف الآلات ، والحفلات العجيبة تقام في القلعة ،
والحدائق العامة يفوح منها شذى الأزهار وتموج بالمتزهين ، والنهر العظيم
والقنوات تسبح فيها سفائن النقل والركاب ، وقوارب الزهمة . هذه هي
القاهرة المسلمة في العصور الوسطى (*) .

لله بسـتان وما قضيت فيه من المآرب
لهفى على زمنى به والعيش مخضر الجوانب
فيروقي والجو منه ساكن والقطر ساكب
ولكم بكرت له وقد بكرت له غر السحاب
والطل . أغصانه يحكى عقوداً في ترائب
وتفتحت أزهاره فتأرجحت من كل جانب
وبدا على جنباته ثمر كأذنان الثعالب
وكأ نما أصله ذهب على الأوراق ذائب
فهناك كم ذهبيـة لى في الولوع بها مذاهب

وتعاقبت على شمال إفريقية في ذلك الوقت أسر كان لها هي الأخرى شأن
عظيم ، منها الزيرية (٩٧٢ - ١٠٤٨) وبنو حفص (١٢٢٨ - ١٥٣٤) حكام
تونس ، والحموديون (١١٣٠ - ١٢٦٩) في بلاد الجزائر ، والمرابطون
(١٠٥٦ - ١١٤٧) والموحدون (١١٣٠ - ١٢٦٩) أمراء مراکش . وفي

(*) نقل المؤلف الترجمة الإنجليزية لهذه الأبيات عن كتاب القاهرة Cairo تأليف
استانلى لين پول Stanley Lane Poole ونقلها لين پول عن پالر . وقد رجعنا إلى كتاب پالر
بدار الكتب وهو ديوان البهاء زهير وترجمته العربية لهذا المستشرق والترجمة الإنجليزية غير دقيقة
كل الدقة وهي في صفحتى ٨٢٧ من كتاب پالر . (المترجم)

الأندلس سرعان ما تأثر المرابطون المنتصرون ، جنود إفريقية المتقشفون الأولون ، بحياة الترف التي كان يحياها أمراء قرطبة وإشبيلية الذين ثلوا هم وشهم ، وحل لين السلم محل التربية العسكرية الصارمة ، وتخلت الشجاعة عن مكانها للمال حتى أصبح هولا الشجاعة مقياس السمو والعظمة والهدف المبتغى ، واكتسبت النساء برقتهن ومفانتهن سلطانا لا يدانيه إلا سلطان رجال الدين الذين يمتنون الناس بمثل هذه المتع في الجنة . وفسد الموظفون ، ولم يلبث دولاب الإدارة ، الذي بلغ درجة عالية من الكفاية في أيام يوسف بن تاشفين (١٠٩٠ - ١١٠٦) ، أن اختل في أيام ابنه علي (١١٠٦ - ١١٤٣) . واضطرب حبل الأمن ، وكثرت السرقات كلما ازداد إهمال الحكومة لواجباتها ، فأصبحت الطرق غير آمنة ، وكسدت التجارة ، ونقصت الثروة . واغتم ملوك أسبانيا الكاثوليكية هذه الفرصة فأغاروا على قرطبة ، وإشبيلية وغيرهما من مدائن الأندلس الإسلامية ، وولى المسلمون وجههم مرة أخرى نحو إفريقية يستغيثون بها لتنجيهم من محنتهم .

وكانت ثورة دينية قد شبت في تلك البلاد في عام ١١٢١ ، ورفعت إلى العرش طائفة أخرى ذات قوة وبأس شديد . فقد قام عبد الله بن تومرت يندد بعقائد السنيين الذين يعزون إلى الله صفات الآدميين ، وبآراء الفلاسفة الذين يدعون إلى إرجاع كل شيء إلى العقل ، وأخذ يطالب بالعودة إلى البساطة في العيش وفي العقيدة الدينية ؛ ثم أعلن في آخر الأمر أنه هو المهدي المنتظر والمقلد الذي يقول به الشيعة . والتفت حوله قبائل البربر الهمج سكان جبال أطلس ، ونظموا أنفسهم تنظيما قويا وسموا بالموحدين ، وهزموا حكام مراكش المرابطين ، ولم يجدوا صعوبة في أن يفعلوا مثل هذا الفعل في الأندلس . وعاد النظام والرخاء إلى الأندلس ومراكش في عهد عبد المؤمن (١١٤٥ - ١١٦٣) وأبي يعقوب يوسف (١١٦٣ - ١١٨٤) من أمراء الموحدين ، وانتعشت الآداب والعلوم مرة أخرى ، وبسط الأميران حمايتهما على الفلاسفة على أن يكون مفهوما لديهم أن يجعلوا

كتبهم غير مفهومة ؛ لكن أبا يوسف يعقوب (١١٨٤ - ١١٩٩) استسلم إلى فقهاء الدين ، وتخلّى عن الفلاسفة ، وأمر بحرق جميع كتبهم . ولم يكن ابنه محمد الناصر (١١٩٩ - ١٢١٤) يعنى بالفلسفة ولا بالدين ؛ وأهمل شئون الحكم ، وانغمس في الملذات ، وهزم هزيمة منكرة على أيدي قوات المسيحيين المتحدة في واقعة العقاب (Las Navas de Tolosa) عام ١٢١٢ وانقسمت أسبانيا الخاضعة للموحدين على أثر هذه الهزيمة إلى دويلات مستقلة افتتحها المسيحيون واحدة بعد واحدة - قرطبة في عام ١٢٣٦ ، وبلنسية في ١٢٣٨ ، وإشبيلية في ١٢٤٨ . وارتد المسلمون المغلوبون إلى غرناطة ، حيث وقهم جبال سيارا نفادا أو الحاجز الثلجي بعض الوقاية ؛ وحيث ازدهرت حقول الكروم ، وحدائق الزيتون ، وغياض أشجار البرتقال بفضل ما يجرى فيها من مياه الأنهار . وتعاقب على عرش غرناطة طائفة من الحكام الحازمين حافظوا على استقلالها هي والبلدان التابعة لها - شريش ، وجيان ، والمرية ، ومالقة - وصدوا عنها غارات المسيحيين المتكررة ، وراجت فيها التجارة ، وانتعشت الصناعة ، وازدهرت الفنون ؛ واشتهر السكان بشيائهم الزاهية وحفلاتهم المرحية ، وظلت هذه المملكة الصغيرة قائمة حتى عام ١٤٩٢ ، وكانت هي البقية الباقية في أوروبا من تلك الثقافة التي جعلت بلاد الأندلس قروناً طوالاً من مفاخر بني الإنسان .

بفصل ثالث

نظرات خاطفة في الفن الإسلامي

١٠٥٨ - ١٢٥٠

في هذا العصر عصر سيادة البربر على الأندلس الإسلامية أقام المسلمون قصر الحمراء في غرناطة والقصر والخرلدة في إشبيلية . وكثيراً ما يسمى الطراز المعاري بالحديد بالطراز المراكشي morisco ظناً أنه جاء من مراكش ، ولكن الحقيقة أن عناصره الأولى جاءت من بلاد الشام والفرس ، وهي أيضاً من مميزات التاج محال في الهند ؛ ألا ما أوسع ميادين الفن الإسلامي وما أكثر غناه ! وقد كان الفن في ذلك العهد فناً رقيقاً ، ولم يعد يهدف إلى القوة والفخامة اللتين نشاهدهما في مساجد دمشق ، وقرطبة ، والقاهرة ، بل يهدف إلى الرقة والجمال ، ويبدو فيه أن كل مهارة فنية قد وجهت إلى الزينة ، وأن المثال قد طغى فيه على مهندس المعمار .

وكان الموحدون من أكثر الحكام نشاطاً في العمارة ؛ وقد شادوا أولاً بقصد الدفاع عن أملاكهم ، فكانوا يحيطون مدنهم الكبرى بأسوار ضخمة قوية وأبراج أمثال برج الذهب Torre del Oro الذي كان يحرس الوادي الكبير عند إشبيلية . وكان « القصر » Alcazar المقام هناك حصناً وقصراً معاً ، وكان يطل على العالم بواجهة بسيطة خالية من الجمال . وكان الذي وضع تصميمه لأبي يعقوب يوسف (١١٨١) هو الجالوني المهندس القرطبي ؛ وأصبح هذا القصر بعد عام ١٢٤٨ المسكن المحبب للملك أسبانيا المسيحيين ؛ وأدخل عليه بيدرو الأول (١٣٥٣) ، وشارل الخامس (١٥٢٦) . . . وإزبلا (١٨٣٣) تعديلاً في بنائه ، أو رموه ، أو أعادوا ما تهدم منه ، أو أضافوا إليه أبنية جديدة ، حتى أصبح معظمه

الآن مسيحياً في بنائه ، ولكنه يغلب عليه في نمطه وصنعه الطراز الإسلامى
أو الإسلامى - المسيحى .

وأبو يعقوب يوسف الذى بدأ « القصر » هو نفسه الذى شاد في عام
١١٧١ مسجد إشبيلية العظيم الذى لم يبق منه شيء في هذه الأيام . وقد أقام
جابر المهندس في عام ١١٩٦ مأذنة هذا المسجد الفخمة المعروفة عند
الغريبين باسم الخرلدة ، ثم حول المسيحيون الفاتحون هذا المسجد إلى كنيسة
(١٢٣٥) ، ثم هدمت هذه الكنيسة في عام ١٤٠١ ، وأقيمت في مكانها
كنيسة إشبيلية الكبرى ، وكان مما استخدم في بنائها مواد المسجد نفسه .
والجزء الأدنى من الخرلدة إلى ارتفاع ٢٣٠ قدما هو نفس بناء المأذنة
الأصلية ، أما الاثنتان والثمانون قدما الباقية فقد أضافها إليها المسيحيون
(١٥٦٨) ، وحرصوا على أن تكون متناسقة كل التناسق مع قاعدة المأذنة
الإسلامية . والثلاثان الأعلى من البناء كثيرا الزخارف ، وفيهما شرفات
مقنطرة ذات واجهات متشابكة من الجص والحجر ، وفي أعلاها تمثال من
البرنز للإيمان (١٥٦٨) ، ولكنه لا يكاد يمثل مزاج أسبانيا الدينى غير
المتقلب لأنه يدور مع الريح ، ومن هنا اشتق لفظ خيرلدا - أى الذى
يدور - الأسباني من خيرا Gira . وقد أقام المسلمون في مدينتى مراكش
(١٥٦٩) ورباط (١١٩٧) أبراجا لا تكاد تقل جمالا عن هذا البرج .

وفي غرناطة أمر محمد بن الأحمر (١٢٣٢ - ١٢٧٣) في عام ١٢٤٨
بتشييد أعظم صرح في الأندلس الإسلامية على بكرة أبيها ، ونعنى به
قصر الحمراء الشهير . وكان الموضع الذى اختير لتشييده عليه قلة جبلية
شامخة تحيط بها أخاديد عميقة وتشرف على نهري الدارو Darro والجنيل
Genil . وقد وجد الأمير في هذا الموضع حصنا يعرف بحصن الكذابة
Acazabs يرجع تاريخه إلى القرن التاسع الميلادى ، فأضاف إليه أبنية
جديدة وأقام الأسوار الخارجية للحمراء وأقدم قصورها ونقش على كل
جزء من أجزائها شعاره المتواضع « لا غالب إلا الله » . وقد أضيفت إلى

هذا البناء الأصلي أجزاء أخرى في فترات مختلفة وأصلح ما تلف منه على أيدي المسيحيين والمسلمين على السواء . من ذلك أن شارل الخامس أضاف إليه قصره المبنى على الطراز المربع طراز عهد النهضة ، وهو بناء ناقص كتيب مهيب غير متناسق . وخطط المهندس الذي لم يصل إلينا اسمه الفضاء الذي في داخل السور ليكون أولاً حصناً يتسع لأربعين ألف رجل متبعاً في هذا مبدأ العمارة الحربية التي نمت وتطورت في بلاد الإسلام الشرقية (١٢) ، لكن فوق القرنين التاليين الأكثر ميلاً إلى الترف حول هذا الحصن على مر الأيام إلى مجموعة كبيرة من الأبنية والقصور ، تكاد تتمازج كلها بمجال الزخارف المكونة من الأزهار ، وأوراق الأشجار ، والأشكال الهندسية المحفورة أو المطبوعة في الجص أو الآجر أو الحجارة الملونة ، والتي تبلغ من الجمال ورقة الذوق درجة منقطعة النظير . وأنشئت في بهو الآس بركة تنعكس على مياهها أغصان الأشجار وكلمات الأبواب المزخرفة ، ومن ورائها يقوم برج ذو أسوار حصينة كان المحاصرون يظنون أنهم واجدون فيه آخر ملجأ منيع . وفي داخل هذا البرج بهو السفراء ، حيث كان يجلس أمراء غرناطة على عروشهم بينما كان المبعوثون الأجانب يعجبون بما حوته المملكة الصغيرة من فن وثراء ، ولقد أطل شارل الخامس من شرفة لإحدى نوافذ هذا البهو فرأى الحدائق ، والغياض ، والنهر يجري من تحتها ، فقال بعد تفكير عميق : « ما أتجس نحظ من من خسر هذا كله ! » (١٣) وفي الفناء الرئيسي للقصر المعروف بهو الآساد أقيم اثنا عشر أسداً من الرخام رهيبه المنظر تحرس فسقية من المرمر . وإن ما في البواكى المحيطة بهذا الفناء من عمد رشيقة رفيعة ذات تيجان في صورة أزهار ، وتيجان ذات عمد صغيرة مدلاة ، وكتابات كوفية ، ونقوش عربية ذات ألوان أظفأ بريقها كمر الغداة ومر العشى ، كل هذا يجعل القصر أروع آية فنية في الطراز الإسلامى الأندلسى . ولعل الأندلسيين المسلمين قد دفعهم ترفهم وتحمسهم إلى أن يتجاوزوا في فهم حدود الرشاقة إلى

الإسراف ، ذلك أنه حيث لا تشاهد العين إلا الزخرف والزينة فإنها هي والروح تملآن حتى الجمال والحلق . وهذه الدقة في الزخرف تبعث في النفس إحساساً بالوهن وتضحى بطابع القوة والأمان اللذين يجب أن نشعرنا بهما هندسة البناء . ومع هذا فإن ذلك الكساء الزخرفي كله تقريباً قد عاشر بعد اثني عشر زلزالاً . نعم إن سقف قاعة السفراء قد نخر ، ولكن ما عداه من القاعة لا يزال قائماً . وملاك القول أن هذه المجموعة الجميلة من الحدائق والقصور ، والفساقى ، والشرفات توحى إلى الناظر بأقصى ما وصل إليه الفن الإسلامى الأندلسى من العظمة ، كما توحى في نفس الوقت بضعف هذا الفن : توحى بالإسراف في الثراء ، وبجهود الفاتحين تتوسد مهاد الراحة وتخلد إلى الدعة ؛ وبجاسة الجمال المرهقة تستبدل بالقوة والعظمة والرشاقة والأناقة .

وعاد الفن الأندلسى الإسلامى في القرن الثاني عشر من أسبانيا إلى شمالي إفريقيا ، وبلغت مدائن مراكش ، وفاس ، وتلمسان ، وتونس ، وصفاقس ، وطرابلس أوج عظمتها بما شيد فيها من القصور والمساجد التي تبهر العين ، وبالأحياء الفقيرة المتعرجة . أما في مصر وبلاد الشرق فقد طعم السلاجقة والأيوبيون والمماليك الفن الإسلامى بقوة جديدة ؛ فقد أقام صلاح الدين وخلفاؤه في الجنوب الشرقى من القاهرة قلعتها الضخمة ، واستخدموا في بنائها الأسرى الصليبيين ، ولعلمهم حذوا في طرازها حذو القلاع التي شادها الفرنجة في بلاد الشام ؛ وشاد الأيوبيون في حلب المسجد العظيم والقلعة ، وبنوا في دمشق ضريح صلاح الدين . وحدث في هذه الأثناء انقلاب في فن العمارة حول في جميع بلاد الشرق الإسلامى الطراز القديم في عمارة المساجد ، وهو طراز الصحن الواسع ، إلى طراز المدرسة أو الجامع ذي المدرسة . وكان منشأ هذا الطراز بالحديد أن المساجد زاد عددها فلم تعد ثمة حاجة إلى أن يكون في وسطها صحن كبير يتسع لجمهور كبير من المصلين ؛ وأن ازدياد الحاجة إلى المدارس كان يتطلب تسهيلات جديدة في التعليم . ولهذا

امتدت من المسجد الحقيقي أى من مكان الصلاة - الذى كان يعلوه فى ذلك الوقت على الدوام تقريباً قبة كبيرة - امتدت منه أربعة أجنحة لكل منها مآذنه الخاصة ومدخله الكثير الزخارف ، وقاعته الرحبة للمحاضرات . وقد جرت العادة فى أغلب الأحيان أن يكون لكل مذهب من المذاهب الأربعة جناحه الخاص ؛ ويقول أحد سلاطين ذلك الوقت فى صراحة : إن ذلك يتيح الفرصة لوجود مذهب منها فى القليل يؤيد أعمال الحكومة القائمة . وقد استمر هذا الانقلاب فى العارة فى عهد الماليك فأنشئت المساجد والمقابر الضخمة المتينة من الحجارة ، تحرسها أبواب قوية كبيرة من البرنز المشغول ، وتضيوها نوافذ ذات زجاج ملون ، وتتلأأ فيها الفسيفساء ، والنقوش المحفورة فى الجص الملون ، وقطع الترميد التى قاومت حتى الآن عواذى الزمان والتى لم يعرف طريقة صنعها غير المسلمين .

وقد درست الآثار المعمارية السلجوقية فلم يبق منها إلا أقل من واحد فى المائة ، نذكر من هذه البقية القليلة مسجد آنى فى أرمينية ، والمبخل الضخم لمسجد قونية ، ومسجد علاء الدين الفخم ، والمبخل الكهنى ، والواجهة ذات النقوش الشبيهة بالتطريز فى جامع سرتجيبلى ؛ ونذكر منها فى بلاد النهرين مسجد الموصل الكبير ، ومسجد المستنصر فى بغداد ؛ وفى فارس برج طغرل بك فى الرى وقبر سنجر فى مرو ، والحراب المتلأأ فى مسجد همذان ، والقبّة المضلعة والعقود الصغيرة الفلذة فى المسجد الجامع بقزوين ، والعقود الكبرى والحراب فى جامع الحيدرية ؛ وليست هذه إلا قلة من الصروح التى بقيت حتى الآن شاهدة على ما بلغه السلاجقة من حذق فى العمارة وما بلغه ملوكهم من سمو الذوق . وأجمل من هذه كلها المسجد الجامع فى إصفهان الذى لا يدانيه فى بلاد الفرس كلها إلا مسجد الإمام الرضا فى مشهد والذى أقيم بعد ذلك الوقت . ومسجد إصفهان هذا أنواع الآيات الفنية كلها فى عصر السلاجقة . وقد أقيمت أجزاء من هذا

المسجد في قرون عدة ، ويبدو عليها طابع تلك القرون ، فهو من هذه الناحية شبيه بكنيسة نتردام Notre Dam . وقد بدئ بتشييده في عام ١٠٨٨ ووسع مراراً عدة ، ولم يتخذ شكله الحاضر إلا في عام ١٦١٢ ؛ غير أن كبرى قبابه المشيدة من الآجر تحمل نقوش خاتم نظام الملك وعام ١٠٨٨ . ومدخل المسجد وأبواب المحراب - ومنها واحد يبلغ ارتفاعه ثمانين قدماً - مزينة بالقاشاني والفسيفساء الذي لا يكاد يوجد له نظير في تاريخ ذلك الفن بأكمله . وأبوابه الداخلية ذات قباب مضلعة وعقود صغيرة متتالية معقدة ، وأقواس مستدقة تخرج من دعائم ضخمة : وعلى المحراب (١٣١٠) نقوش على الجص من أوراق الكرم والبشني ، وكتابات كوفية لا يعلو عليها شيء من نوعها في بلاد الإسلام جميعها .

وهذه الآثار تسخر من القائلين بأن الأتراك كانوا قومياً همجياً ؛ فكما أن الحكام والوزراء السلاجقة كانوا من أقدر الساسة والحكام في التاريخ ، كذلك كان المهندسون السلاجقة من أقدر البنائين وأشجعهم في عصر الإيمان الذي يمتاز بضخامة مبانيه وأعظمها قوة ؛ ولقد وقف طراز المباني السلجوقية الضخمة الجريئة في وجه النزعة الفارسية إلى الزينة ، ونشأ من اجتماع النزعتين السلجوقية والفارسية طراز معماري جديد عم آسية الصغرى والعراق وإيران ، ومن العجيب أن يتفق هذا الطراز في الزمن مع ازدهار فن العمارة القوطي في فرنسا . ولم يجر السلاجقة على السنة التي جرى عليها العرب قبلهم فيخفوا مكان الصلاة في ركن من أركان الصحن ، بل جعلوا للمسجد واجهة قوية متألثة ، ورفعوا بناءه ، وأقاموا عليه قبة مستديرة أو مخروطية جمعت كل الصبرح ، وضمت أجزاءه جميعها في وحدة ؛ وفي هذا الوقت بالذات اجتمع في البناء العقد المستدق ، والقبة ، والقبة أحسن اجتماع (١٤) .

وبلغت الفنون كلها ذروة مجدها في هذا العصر العجيب عصر العظمة.

والاضمحلال : فقد كان الشعر يبدو للفرس من مسرات الحياة التي لاغنى عنها ، ولم يبلغ فن الخزف على اختلاف أشكاله ما بلغه في ذلك الوقت من تنوع في الشكل وجمال (١٥) . ذلك أن الفرس أتقنوا ما ورثوه عن المصريين ، وأهل الجزيرة ، والساسانيين ، وأهل الشام من فنون الزخارف البراقة ، والتلوين المفرد أو المتعدد الألوان فوق السطح المزجج أو تحتها ، وأعمال الميناء ، والقرميد ، والقاشاني ، والزجاج ، حتى بلغوا بذلك كله درجة الكمال . وتأثرت هذه الأعمال كلها بالفن الصيني ، وخاصة ما كان منها متصلاً بتلوين الصور ، ولكن ذلك لم يفرض سلطانه على الطراز الفارسي . وقد استورد الخزف وقتئذ من بلاد الصين ، ولكن ندرة الكاولين في الشرقين الأدنى والأوسط لم تشجع المسلمين على صنع هذه الآنية النصف الشفافة . إلا أن الفخار الفارسي مع هذا بقي طوال القرون الثاني عشر ، والثالث عشر ، والرابع عشر ، لا يفوقه فخار آخر في العالم كله - فقد كان في تنوع أشكاله ، ودقة تناسبه ، وبريق زخارفه ، ودقة حزونه ، ورشاقته يسمو على كل ما عداه في العالم كله (١٦) .

ولم تكن الفنون الصغرى في بلاد الإسلام مما تنطبق عليها هذه التسمية التي تبخسها حقها . فقد كانت حلب ودمشق في هذا العصر تصنعان العجائب من الآنية الزجاجية المشية ، المزخرفة بالميناء ، وصنعت القاهرة للمساجد والقصور قناديل من الزجاج المزخرف بالميناء أيضاً بيئذ . هواة التحف الفنية في هذه الأيام أقصى جهودهم للحصول عليها (*) : وكانت كنوز الفاطميين التي فرقها صلاح الدين محتوى على آلاف من المزهريات المصنوعة من البلور والجزع البقرواني ، بلغ صانعوها من المهارة الفنية ما يعجز عنه الفنانون في هذه الأيام ، وبلغ فن الزخارف المعدنية الأشورى القديم في مصر والشام درجة من الإتقان لم يسبق لها مثيل ،

(*) وحسبنا أن نذكر أن آل رنثشيلد ابتاعوا إبريقاً عربياً صغيراً من الزجاج المزخرف بالميناء بمبلغ ١٣,٦٥٠ ريالاً أمريكياً .

ومن هذين القطرين انتقل ذلك الفن إلى البندقية في القرن الخامس عشر (١٨). وكان النحاس ، والبرنز ، والشبّة ، والفضة ، والذهب ، تصبّ أو تطرق ، وتصنع منها آنية للطبخ ، وأسلحة ، ودروع ، وقناديل ، وأباريق ، وأحواض ، وجفان ، وصّوانٍ ، ومرايا ، وآلات فلكية ، ومزهريات ، وثيريات ، ومقالم ، ومحابر ، ومدافئ ، ومباخر ، وتمائيل للحيوانات ، وصناديق للمصاحف ، ومساند للمواقف ، ومفاتيح ، وأقفال ، ومقصات . . . مزينة بنقوش محفورة ، ومرصعة في كثير من الأحيان بالمعادن أو الحجارة الكريمة . وكانت الأوجه العليا للموائد النحاسية تحفر عليها كثير من النقوش ، وكانت الشبايك الفخمة تصنع من المعدن المشغول للمحاريب ، والأبواب ، أو القبور . وفي متحف الفنون الجميلة ببسطن صينية فضية نقشت عليها صور وعول ، وإوز ، واسم ألب أرسلان ، ويرجع عهدا إلى عام ١٠٦٦ ، وقد وصفها بعض العلماء بأنها أشهر ما أخرجته الفنون الفارسية في العهود الإسلامية من تحف فضية ، وأنها أهم تحفة فضية مفردة باقية من أيام السلاجقة (١٩) .

وظل النحت فناً تابعاً لغيره من الفنون ، ومقصوراً على عمل النقوش البارزة ، والحفر على الحجارة أو الجص ، وعلى الزخرفة العربية والكتابية ؛ وقد يحدث أحياناً أن يأمر حاكم مستهتر بعمل تمثال له أو لزوجه أو لإحدى مغنياته ، ولكن هذا العمل كان خطيئة سرية قلما تعرض على أعين الجماهير . غير أن النقش على الخشب ترعرع وازدهر ؛ فكانت الأبواب ، والمنابر ، والمحاريب ، وكراسي المصاحف ، والسجف ، والسقف ، والمناضد ، والشبايك المعمّرة ، والأصونة ، والصناديق ، والأمشاط ، كانت هذه كلها تقطع على رسوم شعّرية أو يكده في عملها صنّاع قاعدون القرفصاء يدبرون المخارط بأقواس . وكان ثمة عمال آخرون أشد من هؤلاء كدحاً وأكثر منهم صبراً ينسجون الحرير ، والأطلس ، والحرير المشجر ، والأقشة المطرزة ، والحمل المشغول بخيوط الذهب ، والستائر ، والخيام ،

والطنافس ذات النسيج الرقيق البديع والرسوم الفتانة التي كانت موضع دهشة العالم وحسده . وقد شاهد ماركو بولو في آسية الصغرى حين زارها في عام ١٢٧٠ « أجمل الطنافس في العالم كله »^(٢٠) . ويقول جون سنجر سارجنت John Singer Sargent إن السجادة العجمية « تساوى في قيمتها كل ما رسم من الصور حتى ذلك الوقت »^(٢١) ؛ مع أن الخبراء المختصين يحكمون بأن للسجاجيد العجمية الحالية ليست إلا أمثلة ناقصة من الفن الذي بزت فيه بلاد الفرس العالم كله ؛ ولم يبق من السجاجيد العجمية التي نسجت في عصر السلاجقة إلا قطع ممزقة ، ولكن في وسعنا أن نتصور ما بلغته من إتقان وجمال منتقلى النظير مما نسج على منوالها بصورة مصغرة في العصر المغولى .

وكان التصوير في الإسلام من الفنون الكبرى في الرسوم الدقيقة الصغيرة ، كما كان طوال عهده من الفنون الصغرى في الرسم على الجدران ، وفي الرسوم الملونة للكائنات الحية . وقد استخدم الخليفة الفاطمى الأمر (١١٠٤ - ١١٣٠) عدداً من رجال الفن ليرسموا له في حجرته بالقاهرة صور شعراء ذلك الوقت^(٢٢) ، ويبدو من ذلك أن تحريم الصور المنقوشة لم يعد له من القوة ما كان له في سالف الأيام . وقد بلغ التصوير في عهد السلاجقة ذروته في بلاد التركستان حيث أضعف بُعد المسافة كراهية أهل السنة لهذا الفن ، ومن أجل هذا نرى في المخطوطات التركية صوراً كثيرة لأبطال الأتراك . ولم تصل إلينا رسوم دقيقة صغيرة يمكن الجزم بأنها من عصر السلاجقة ، ولكن بلوغ هذا الفن أوجه في عصر المغول الذى تلا ذلك العصر في بلاد الإسلام الشرقية لا يكاد يترك مجالاً للشك في ازدهاره في ذلك العصر السابق . فقد كانت العقول الأريية والأيدى الصناعات تخرج مصاحف تزداد جمالا فوق جمالها على مر الأيام لمساجد السلاجقة والأيوبيين والماليك ، ومحال عبادتهم ، ولكبرائهم ، ومدارسهم ؛ وكانوا ينقشون على جلود المصاحف المصنوعة من الجلد أو المطلية باللك نقوشاً تبلغ في

دقتها بيوت العنكبوت ، وكان الأغنياء ينفقون بعض ما لهم في استئجار الفنانين لإخراج أجمل ما عرف من الكتب ؛ وكانت طائفة كبيرة من الوراقين ، والخطاطين ، والمصورين ، والمجلدين ، تعمل في بعض الأحيان سبعة عشر عاماً كاملاً لإخراج مجلد واحد . ولم يكن بد من أن يكون الورق من أحسن الأنواع ، ويقال إن فرش الرسم كانت تصنع من شعرات بيضاء من رقاب القطط التي لا يزيد عمرها على سنتين ، وكان المداد الأزرق يصنع من مسحوق حجر اللازورد الأزرق ، وكان يساوى وزنه ذهباً ؛ ولم يكن الذهب السائل يعدّ آثماً من أن ترسم به بعض الخطوط أو تكتب به بعض الحروف في رسم أو نص . وفي ذلك يقول أحد شعراء الفرس : « إن الخيال لا يمكن أن يتصور مقدار السرور الذي يتيحه للعقل منظر خط متقن الرسم » (٢٣) .

الفصل الرابع

عصر عمر الجيام ١٠٣٨ - ١١٢٢

يبدو أن عدد الشعراء والعلماء في ذلك العصر لم يكن يقل عن عدد الفنانين . فقد كانت القاهرة ، والإسكندرية ، وبيت المقدس ، وبلبيك ، وحلب ، ودمشق ، والموصل ، وحمص ، وطوس ، ونيسابور ، وكثير غيرها من المدن تفخر بما فيها من مدارس كبرى ؛ وكان في بغداد وحدها سنة ١٠٦٤ ثلاثون مدرسة من هذا النوع ، أضاف إليها نظام الملك بعد عام من ذلك الوقت مدرسة أخرى تفوقها كلها في سعتها ، وفخامة بنائها ، وأجهزتها ، ويصفها أحد الرحالة بأنها أجمل بناء في المدينة كلها . وكانت هذه المدرسة الأخيرة تحتوى أربع مدارس للشريعة الإسلامية منفصلة كل منها عن الأخرى ، يمد فيها الطلاب التعليم ، والطعام ، والعناية الطبية بالهجان ، ويعطى كل منهم فوق ذلك ديناراً ذهبياً لما يحتاجه من النفقات الأخرى . وكان في المدرسة مستشفى ، وحمام ، ومكتبة مفتحة الأبواب بالهجان للطلبة وهيئة التدريس . ويغلب على الظن أن النساء كان يسمح لهن في بعض الأحوال بالالتحاق بهذه المدارس لأننا نسمع عن وجود شيخة - أي أستاذة - يهرع الطلاب إلى سماع محاضراتها كما كانوا يهرعون إلى سماع محاضرات أسپازيا Aspasia وهيأشيا Hypatia . (١١٧٨) (٢٤) .

وكانت دور الكتب العامة أغنى وأكثر مما كانت في أي عهد آخر من عهود الإسلام ؛ وقد كان في الأندلس الإسلامية وحدها سبعون مكتبة عامة ، وظل النحاة ، وعلماء اللغة ، وأصحاب الموسوعات ، والمؤرخون موفوري العدد والثناء ؛ وكانت كتب السير التي يضم كل منها عدداً من التراجم من الهويات الشائعة المتقنة عند المسلمين . من ذلك أن القفطى (المتوفى في عام ١٢٤٨) ترجم لأربعمئة

وأربعة عشر فيلسوفا وعالما ، وأن ابن أنى أصيبعة (١٢٠٣ - ١٢٧٠) ترجم لأربعمائة طبيب ، وأن محمد العوفى (١٢٢٨) ، ألف موسوعة تشمل ترجمة لثلاثمائة من شعراء الفرس لم يذكر فيها اسم عمر الخيام ، ويز محمد بن خلكان (١٢١١ - ١٢٨٢) بمفرده هؤلاء جميعاً وغيرهم بكتابه وفيات الأهباش الذى يحتوى على تراجم فى صورة قصص لثلاثمائة وخمسة وستين من ذوى المكانة من المسلمين . والكتاب على اتساع مجاله عجيب الدقة ، وإن كان ابن خلكان نفسه يعتبر عما فيه من نقص ويحتتمه بقوله « أبى الله أن يصح إلا كتابه » (*) وحلل محمد الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل (١١٢٨) المشهور من أديان العالم وفلسفاته ، وخلص تواريفها ؛ ولم يكن فى مقلود أحد من المسيحيين فى ذلك العصر أن يكتب كتابا يمثله فى غزارة مادته ونزاهته .

أما أدب القصة عند المسلمين فلم يتجاوز حكايات كثيرة عن حوادث اللصوص ، متعلقة لا يربطها بعضها ببعض إلا أنها تروى عن شخصية واحدة . وكان أوسع الكتب انتشاراً عند المسلمين بعد القرآن ، وكتاب ألف ليلة وليلة ؛ وكتاب كليلة ودمنة ليديبا هو مقامات أبى محمد الحريرى (١٠٥٤ - ١١٢٢) البصرى . وتروى هذه المقامات فى نثر مسجع مغامرات اللوغد السافل أبى زيد صاحب الشخصية الممتعة ، وهو الذى يضطر القارئ إلى العفو عن مجونه ، وجرائمه ، وتهمديه بسبب فكاهته الظريفة ، وحذقه ودهائه ، وفلسفته الجذابة المغرية : انظر إلى قوله فى إحدى المقامات :

(*) يقول ابن خلكان : « فن وقف على هذا الكتاب من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل فلا يعمل بالمؤاخذه فيه ، فإنى توغيب فيه الصحة حسينا ظهر لى ، مع أنه كما يقال ، أبى الله أن يصح إلا كتابه . لكن هذا جهد المقل وبدل الاستطاعة ، وما يكلف الإنسان إلا ما تصل قدرته إليه وفوق كل ذى علم عليم . . . والله يستر عيوبنا بكرمه الضافي ، ولا يكدر علينا ما منحنا من مشرع عظاته الخير الصافي إن شاء الله تعالى بمته وكرمه » . انتهى قول ابن خلكان . تالله ما أجهل هذا التواضع ! (المترجم) .

وعاص النصيح الذى لا يبيع وصال المبيع
 إذا ما سمح
وجل فى المجال ولو بالحمال ودع ما يقال
 وخذ ما صلح (*)

ويكاد كل من يعرف الكتابة والقراءة من المسلمين فى ذلك الوقت أن يقرض الشعر ، ولا يكاد يوجد حاكم لا يشجعه ؛ وإذا صدقنا قول ابن خلدون فإن مئات من الشعراء كانوا يقيمون فى بلاط المرابطين والموحدين فى إفريقية وأسبانيا (٢٦) . وحدث فى اجتماع للشعراء المتنافسين فى إشبيلية أن نال الأعمى التليلي (***) جائزة لأنه جمع فى بيتين نصف شعر العالم كله إذ قال :

ضاحك عن جمان سافر عن در
ضاق عنه الزمان وحواه صبرى (٢٧)

وتقول الرواية إن سائر الشعراء مزقوا قصائدهم دون أن يقرعوها ، وفى القاهرة ظل بها زهير يفتنى عن الحب بعد أن ابيض شعره بزمن طويل . وفى بلاد الشرق الإسلامى كان انقسام الدولة إلى ممالك صغيرة سبباً فى ازدياد عدد الأمراء والكبراء الذين يناصرون الأداب ، وإلى تنافسهم فى هذا الميدان كما حدث فى ألمانيا فى القرن التاسع عشر . وكان الفرس أغنى الأمم الإسلامية بالشعراء ، فقد ظل الأنورى شاعر خراسان زمناً ما يفتنى بقصائده فى بلاط سنجر ، ومدحه بما لم يمدح به إلا نفسه . ومن مديحه لنفسه قوله بالفارسية ما معناه :

(*) من المقامة الثانية عشرة الدمشقية . (المترجم)

(**) أبو العباس التليل . ويروى سائر عن بدر وهذه القافية تتفق مع الترجمة الإنجليزية . وقصته كما يروىها ابن خلدون فى حديثه عن الموشحات الأندلسية : « أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا فى مجلس بإشبيلية وكل واحد منهم اصطنع موشحة ، وتأتى فيها فتقدم الأعمى التليل للإنشاد ، فلما افتتح موشحته المشهورة بالبيتين السابقين صرف ابن بى موشحته وتبعه الباقون » . (المترجم)

لى روح ملتهبة كالنار ، ولسان فياض كالماء ،
وعقل قواه الذكاء وشعر مبرأ من العيوب ،
ولكن ما أشد أسنى إذلا أجد نصيراً خليقاً بمدىحي
وما أشد أسنى إذلا أجد حبيباً جديراً بغزلى ! (٢٨)

ولا يقل عنه ثقة بنفسه معاصره الخاقانى (١١٠٦ - ١١٨٥) ، وقد أثار
بخطرسته معلمه فقال فيه شعراً يطعن فى نسبه يقول فيه بالفارسية ما معناه :
أى خاقانى ! مهما تكن مكانتك فى الشعر فإنى أسدى إليك نصيحة
لاأقتضيك عليها أجراً :

لاتهجون أسن منك فربما تهجو أباك وأنت لا تدرى (*)

وأكثر ما يعرف الأوربيون من الشعر الفارسى هو شعر عمر الخيام ،
وتضعه بلاد فارس بين علماء الأعلام ، ولا ترى فى رباعياته إلا لهواً عارضاً .
كان يلهو به « رجل من أعظم علماء الرياضة فى العصور الوسطى » (٣٠) .
وقد ولد أبو الفتح عمر الخيام ابن إبراهيم فى نيسابور عام ١٠٣٨ ، ومنغى
لقبه صانع الخيام ، ولكن هذا اللقب لا يدل على صناعته أو صناعة
أبيه إبراهيم ، لأن الألقاب المهنية كانت قد فقدت فى أيامه معانيتها
الحرفية ، كما فقدت ألقاب الحداد Smith ، والخياط Taylor والخباز
Baker ، والفخرانى Potter ، معانيتها عند الإنجليز والأمريكيين (***) فى
الوقت الحاضر . ولا يكاد التاريخ يذكر شيئاً عن حياته ، وإن كان يسجل
أسماء الكثير من مؤلفاته ؛ منها كتابه فى الجبر الذى ترجم إلى الفرنسية
فى عام ١٨٥٧ ، وهو يدل على تقدم كبير عما وصل إليه هذا العلم على أيدي
الحوارزى والعلماء اليونان . فقد وصل فيه إلى حل جزئى لمعادلات الدرجة

(*) ليس هذا البيت من ترجمتنا بل إنه من شعر يهجو فيه بعضهم أباً العلاء صاعداً
الأندلسى وهو ترجمة صادقة لقول أبى العلاء الآخر معلم الخاقانى .
(**) وعندنا أيضاً . (المترجم)

الثالثة قيل إنه « ربما كان أعظم ما وصلت إليه العلوم الرياضية في العصور الوسطى » (٣١) ومنها كتاب آخر في الجبر (وهو كتاب مخطوط في مكتبة ليدن) يعد دراسة نقدية لنظريات إقليدس وتعريفه . وقد كلفه السلطان ملك شاه مع جماعة من العلماء في عام ١٠٧٤ إصلاح التقويم الفارسي ، وكانت نتيجة عملهم تقويماً لا يخطئ إلا في يوم واحد كل ٣٧٧٠ عاماً - أى أنه أذق قليلاً من تقويمنا الحاضر الذي يخطئ بمقدار يوم كل ٣٣٣٠ عاماً (٣٢) . ولنا لترك اختيار أحد التقويمين للحضارة التي تتلو حضارتنا هذه . غير أن الدين الإسلامي كان أعظم سلطاناً على النفوس من العلوم الإسلامية ، ولهذا عجز تقويم الخيام عن أن يحل عند المسلمين محل التقويم الهجري . وبما يدل على ما بلغه ذلك العالم الفلكي من شهرة واسعة تلك القصة التي يرويها عنه نظامي عروضي الذي عرفه في نيسابور :

في شتاء سنة ٥٠٨* في مدينة مرو أرسل السلطان ملكشاه في طلب صدر الدين محمد بن المظفر رحمه الله ، وكلفه أن يخبر الخيام - وكان ينزل ناره - أن السلطان يريد الخروج للصيد ، وأنه يطلب إلى عمر أن يختار له خمسة أيام لا ينزل فيها مطر ولا ثلج . وفعل عمر ما كلف به ثم أرسل ابن المظفر إلى السلطان يخبره بما اختاره . ولما أعد السلطان عدته للرحيل هبط المطر ، وهبت الرياح عواصف ، ونزل الثلج والبرد ، وأراد السلطان أن يعود ، ولكن الخيام قال : لا تشغل بالك فإن المطر سينقطع في هذه الساعة ثم لا يهطل مدة الخمسة الأيام اللاحقة . وسار السلطان وانقطع المطر مدة الأيام الخمسة (٣٣) .

والرباعيات في أصلها الفارسي قصيدة تألف كل مقطوعة فيها من أربعة أبيات قافيتها آبا . وتعبّر كل منها عن فكرة كاملة في شعر جامع مخكم . ولسنا

نعرف منشأ هذا البحر ، ولكنه يرجع إلى ما قبل زمن عمر الخيام ، وقت طويل . ولم يكن هذا الشعر في الأدب الفارسي جزءاً من القصائد الطوال ولكن كل مقطوعة من مقطوعاته تكون وحدة مستقلة بذاتها ، ومن ثم فإن الفرس الذين جمعوا الرباعيات لا يرتبونها حسب تتابع أفكارها ، بل يرتبونها حسب قوافيها^(٣٤) . وتوجد الآن آلاف من الرباعيات الفارسية ، معظمها لا يعرف قائله ، ومنها ١٢٠٠ تعزى إلى عمر الخيام نفسه ، ولكن كثيراً منها يشك في أنها من قوله . ويرجع تاريخ أقدم مخطوط فارسي لرباعيات الخيام (وهو المخطوط المحفوظ في المكتبة البدلية Bodleian بأكسفورد) إلى عام ١٤٦٠ لا قبل . ويحتوي على ١٥٨ من هذه الرباعيات مرتبة ترتيباً أبجدياً^(٣٥) . وقد أمكن إثبات بعض هذه المقطوعات إلى شعراء قبل الخيام - بعضها إلى أبي سعيد ، وواحدة منها إلى ابن سينا^(٣٦) . وإن من الصعب ، إلا في حالات ، أن نجزم بأن مقطوعة من المقطوعات التي تعزى إلى الخيام من أقواله حقاً^(٣٨) .

ولقد كان المستشرق الألماني ثون هر Von Hammar أول من لفت نظر العالم الغربي إلى رباعيات الخيام في عام ١٨١٨ ، ثم ترجم إداورد فيتزجرلد Edward Fitzgerald في عام ١٨٥٩ خمساً وسبعين منها شعراً إنجليزياً رصيناً ممتازاً ، فريداً في نوعه . ومع أن ثمن النسخة من الطبعة الأولى من هذه الترجمة لم يكن يزيد على بنس واحد فإنها لم يقبل عليها إلا عدد قليل ، لكن طبعات أخرى متتالية أكبر من الأولى عدداً صدرت بعدئذ ، وأفلحت في تعديل الصورة التي كانت في عقول الناس عن العالم الرياضي الفارسي حتى جعلته من أكثر الشعراء شهرة ، وجعلت شعره من أكثر ما يقرأ من الشعر في العالم . ويرى العارفون بالأصل الذي ترجمه فيتزجرلد أن من بين المائة والعشر من المقطوعات التي ترجمها تسعاً وأربعين تعبر كل منها عن رباعية واحدة من الأصل الفارسي تعبيراً صادقاً أميناً ، وأن أربعاً وأربعين مأخوذة كل منها من رباعيتين أو أكثر

وأن اثنتين « تنعكس فيهما روح القصيدة الأصلية بأجمعها » ، وأن ستاً مأخوذة من رباعيات توجد أصولها أحياناً ضمن رباعيات الخيام ، ولكنها في أغلب الظن ليست له ، وأن اثنتين ينطبع عليهما تأثير فترجرلد بما قرأه لحافظ ، وأن ثلاثة لا نجد لها أصلاً في أى نص فيما لدينا من نصوص رباعيات الخيام ، ويبدو أنها من وضع فترجرلد نفسه ، وقد استعملها هو في الطبعة الثانية (٣٩) . ولسنا نجد في رباعيات الخيام ما يقابل المقطوعة الحادية والثمانين من ترجمة فترجرلد (٤٠) وهى التى تقول :

إننى أدعوك يا من أنجما من خبيث الترب إنساناً نما
وبفردوس أدب الأرقما كيفها زل امرؤ أو أجرما
فاحبه وأسأله غفران الأنام (*)

أما فيما عدا هذه المقطوعة فإن الموازنة بين ترجمة فترجرلد وبين الترجمة الحرفية للنص الفارسي تتجلى فيها على الدوام روح عمر . وهى أمينة على الأصل إلى الحد الذى يحق للإنسان أن يتوقعه من هذه الترجمة الشعرية . وقد كانت نزعة فترجرلد الدروينية السائدة فى أيامه مما حمله على إغفال فكاهة الخيام الحلوة ، وعلى توكيد ما فى أقواله من نزعة مضادة للدين . ولكن المؤلفين الفرس الذين جاءوا بعد عمر الخيام يقرن واحد لآخر يخلعون عليه من الأوصاف ما يتفق كل الاتفاق مع أقوال فترجرلد ، فرصد العباد (١٢٢٣) يصفه بأنه فيلسوف ملحد ، مادمى تعمس . ويقول عنه القفطى فى تاريخ الحكماء (١٢٤٠) إنه لا نظير له فى الفلك والفلسفة ، ولكنه يصفه بأنه ملحد شديد الإلحاد ، يضطره الحذر إلى أن يمسك لسانه ، ويصفه أحد كتاب القرن الثالث عشر الميلادى بأنه رجل سبى الخلق من أتباع ابن سينا ، ويذكر كتابين للخيام فى الفلسفة لا وجود لها الآن . ويفسر بعض المتصوفة رباعيات عمر تفسيراً مبنياً على الاستعارات الصوفية

(*) من ترجمة المرحوم محمد السامى .

الخفية ، ولكن الصوفي نجم الدين الرازي يطعن عليه ويقول إنه أكبر الملحدين في أيامه (٤١) .

وكا عمر الخيام يرفض أقوال فقهاء الدين ويسخر منها على الدوام ، ويفخر بأنه سرق أبسطة الصلاة من المساجد ، ولعله قد تأثر في هذه النزعة بدراسته للعلوم الطبيعية ، أو لعله كان فيها متأثراً بأقوال أبي العلاء المعري (٤٢) .
وقد قبل النزعة الجبرية السائدة عند المسلمين ؛ وإذ كان لا يأمل في حياة غير الحياة الدنيا ، فقد استولت عليه فلسفة متشائمة حاول أن يجد لنفسه منها سلوى في الدرس والخمر ؛ فترى المقطوعتين السابعة بعد المائة والتي بعدها من المخطوط المحفوظ في المكتبة البلدية تسموان بالسكر إلى مرتبة الفلسفة العالمية :

وحانة كنستها بشاربي	وعالمين وليا عن غاربي
ما عادلى بالشر إما حاق بي	شأن ولا خيرهما إن ضاق بي
ودعها يا قلب عند ضارب	بأكرة يرسلها لضارب
تجد أذاك نائماً كشارب	سكران من هذى وتلك غائب

أشفقت إلا من كئوس الطلى لله ما أحلى وما أجلا
أن تشرب العقل فلا يعقلا وأن يجوب المرء هذا الفلا
واعقله من كل شيء سلا بين سماك نافر وهلا (*)
(يريد من برج الحوت إلى الهلال أى من أحد طرفي السماء إلى الطرف الآخر) وإذا عرفنا كم من شعراء الفرس يقولون في مدح الغيبوبة أقوالاً شبيهة بهذا القول ، حق لنا أن نتساءل أليست هذه الأقوال الخمرية مجرد صورة من صور الأدب ، ووقفه من مواقفه مثلها كمثل عشق هوراس للجنسين ؟

(*) لم نجد هاتين المقطوعتين فيما هو مترجم من رباعيات الخيام ، وقد تفضل صديقنا الأستاذ دروي خشبة مشكوراً فترجمهما شعراً . (المترجم)

وأكبر الظن أن هذه الرباعيات القليلة تطبع في عقل القارئ صورة
مخاطبة لحياة الخيام ؛ وما من شك في أنها لم يكن لها إلا شأن قليل في
الخمسة والثمانين عاما التي امتدت إليها حياته . ومن واجبنا أن نصوره ،
لا في صورة السكير الذي يستلقي خمورا في الطرقات ، بل في صورة العالم
المسن العاكف في هدوء على معادلاته التكميلية ، وعلى طائفة قليلة من
أبراج النجوم والخرائط الفلكية ، وعلى كأس من الخمر بين الفينة والفينة
مع زملائه العلماء ، وهم منتشرون على الكلا كالنجوم . ويبدو أنه كان
يحب الأزهار كحب المحصورين في أرض جدياء ، وإذا أخذنا بقول
النظامي العروضي فإنه قد نال بغيته في أن يدفن حيث يتفتح الزهر النضير .
قال النظامي :

هبط عمر الخيام سنة ٥٠٦ هـ (١١١٢ - ١١٣ م) مدينة بلخ ونزل في
قصر الأمير أبي سعد ، وكنت في خدمة الأمير فسمعت حجة الحق عمر
يقول : سيكون قبري في موضع تنتثر الأزهار عليه في كل ربيع . وظننته
يقول مستحيلا ولكنني كنت أعلم أنه لا يلقى القول جزافا .

ثم هبطت نيسابور سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) فقيل لي بأن ذلك الرجل
العظيم قد مات ؛ وكان له على حق الأستاذ فرأيت من واجبي أن أزور قبره
وصحبت من يدلي علي فأخرجني إلى مقبرة الخيرة ، وهناك رأيت على يسار
الزائر في سفح سور حديقة موضع دفنه ، ورأيت أشجار الكشمري والبرقوق
وقد تدلت أغصانها من داخل الحديقة ونثرت على قبره النوار حتى كادت
تخفيه عن الأبصار ؛ فعدت بالذاكرة إلى تلك القصة التي سمعتها منه في
بلخ ، وغشيني الحزن ، وغلبني البكاء لأنني لم أكن أعرف له نداً بين
للرجال ، وفهمت أن الله تعالى أسكنه فسيح جناته فضلا منه وكرما .

الفصل الخامس

عصر السعدي (*) ١١٥٠ - ١٢٩١

ولد بعد خمس سنين من وفاة عمر الخيام شاعر يجله الفرس أعظم من إجلالهم لعمر ، وكان مولده في المدينة المعروفة الآن بفيروزآباد بالقرب من تفليس . وكان الأقدار قد شاعت أن تتخذ من إلياس أبي محمد الذي عرف بعدئذ باسم نظامي وسيلة لإظهار نزعة الخيام الأخلاقية في أبشع صورها فجعلته يستمسك في حياته بأسباب الصلاح الحق ، فيمتنع كل الامتناع عن شرب الخمر ، ويهب حياته لواجبات الأبوة وللشعر . وقصته ليلي والمجنون (١١٨٨) أشهر القصص (***) الغرامية في الشعر الفارسي . وخلصتها أن قيس المجنون افتتن بليلى ، ولكن أباهما أرغمها على أن تزوج برجل غيره ، فأثرت تلك الخيبة في قيس وأفقده عقله ، فاعتزل المدينة إلى البادية ، ولم يكن يعود إلى صوابه لحظة وجيزة إلا إذا ذكر اسم ليلي أمامه . ولما ترملت ليلي جاءت إليه ولكنها توفيت بعد قليل ، ولم يسع قيس إلا أن يقتل نفسه عند قبرها كما قتل رمبو نفسه عند قبر جوليت . وليس في مقدور أية ترجمة أن تظهر ما يمتاز به الأصل الفارسي من قوة في التعبير وجمال في النغم .

لقد كان الصوفيون أنفسهم يتغنون بالحب ، ولكنهم يؤكدون لنا أشد التأكيد أن العاطفة التي يعبرون عنها ليست إلا رمزاً لمحبة الله . وقد ولد محمد بن إبراهيم المعروف في عالم الأدب باسم فريد الدين العطار بالقرب من نيسابور (١١١٩) ، ولقب بالعطار لأنه كان يبيع العطر . ولما اشتدت لديه العاطفة الدينية

(*) يعرف باسم سعدي الشيرازي . (المترجم)

(**) نظم المرحوم أحمد شوقي هذه الرواية شعراً .

غادر حانوته والتحق بخلوة للصوفية . وتشتمل كتبه الأربعون على مائتي ألف بيت من الشعر أشهرها كلها منظر الطير . وخلاصته أن ثلاثين طائراً (أى صوفياً) يعززون البحث مجتمعين عن ملك الطيور كلها المسمى سيمرغ (الحق) . ويمتازون ستة وديان : الطلب ، والعشق ، والمعرفة ، والتجرد (عن جميع الشهوات) ، والتوحيد (حيث يدركون أن الأشياء جميعها واحدة) ، والحيرة (من فقدان الإحساس بالوجود الفردي) . وتتصل ثلاثة من الطيور الولدى السابع وادى الفناء (فناء النفس) ، ويطرقون باب الملك المختفي . ويعرض الحاجب على كل منهم سجل أعماله ، فيغلبهم الحياء ، ويستحيلون تراباً ؛ ولكنهم يبعثون من هذا التراب في صورة ضياء ، ويدركون بعدئذ أنهم هم وسيمورغ (وهو لفظ معناه ثلاثون طيراً) شيء واحد . ويفنون من هذا الوقت في سيمرغ كما تفتى الظلال في ضوء الشمس . ويعبر العطار في كتبه الأخرى عن عقيدته في وحدة الوجود تعبيراً أكثر من هذا صراحة : فيقول إن العقل لا يستطيع معرفة الله لأنه لا يستطيع معرفة نفسه ، ولكن الهيام والوجد يستطيعان الوصول إلى الله ، لأنه هو الحقيقة الجوهرية والقوة الكامنة في كل شيء والمصدر الوحيد لكل عمل وكل حركة ، وهو روح العالم وحياته . وليس في مقثور أية نفس أن تستمتع بالسعادة حتى تفتى وتصبح جزءاً من هذه الروح الجامعة ، والشوق إلى هذا الاتحاد هو وحده الدين الحق ، وإفناء النفس فيه هو وحدة الخلود الصحيح^(٤٥) . ويرفض أهل السنة هذا كله ويعلمونه بدعة وضلالاً ؛ وقد هاجم جماعة من الغوغاء بيت العطار وأحرقوه عن آخره ، ولكنه مع هذا لم يقض عليه القضاء كله ، إذ تقول الرواية المتواترة إنه عاش مائة عام وعشرة أعوام ، وإنه بارك بيده الطفل الذي نادى به فيما بعد معلماً له ، والذي فاقت شهرته شهرة معلمه .

كان جلال الدين الرومي (١٢٠١ - ١٢٧٣) من أهل بلخ ، ولكنه عاش معظم حياته في قونية . وجاء إلى هذه المدينة صوفياً عجيباً هو شمس تبريزي

ليخطب في أهلها ، وبلغ من تأثر جلال الدين بخطبه أن عمد إلى تأسيس طائفة المولوية الذين لا يزالون يتخلدون قونية عاصمة لهم ، وأنشأ جلال الدين في حياته القصيرة نسبياً بضع مئات من القصائد . وقد جُمعت القصائد منها في ديوانه ؛ وتمتاز بعمق الشعور ، والإخلاص وقوة الخيال وإن لم تخرجها هذه القوة عن مقتضيات الطبيعة ، وبهذه الصفات كلها أصبحت تلك القصائد أسمى ما قيل من الشعر الديني من عهد المزمير . وكتابه المثنوى المأنوى غرض ضاف للتصوف ، وهو ملحمة دينية تفوق في حجمها كل ما خلفه هوميروس ؛ وفيها فقرات بارعة الجمال ، ولكن الجمال إذا أثقل بعبء الألفاظ لا يبقى متعة إلى أبد الدهر . وموضوعه ، كموضوع كتاب معلمه ، هو وحدة الكون :

دق إنسان باب الحبيب ، فناداه صوت من الداخل :

مَن الطارق ؟ فأجابه « أنا » : فناداه الصوت : « إن هذه الدار لا تتسع لي ولك » ، وظل الباب مغلقاً . فسار المحب إلى الصحراء ، وداوم في عزلته على الصوم والصلاة ، ثم عاد بعد عام ودق الباب مرة أخرى ، وسأله الصوت كما سأله من قبل : « مَن الطارق ؟ » فأجاب المحب : « إنه أنت نفسك » ، ففتح له الباب^(٤٦) .

• • •

ونظرت حولي أبحث عنه ، فلم أجده على الصليب ، وذهبت إلى هيكل الأوثان ، وإلى المعبد القديم ، فلم أشاهد فيهما أثراً . . . ثم وجهت بحثي نحو الكعبة ، ولكنني لم أجده في هذا المكان الذي يلجأ إليه الشيان والشيب ، وسألت ابن سينا عن مقامه ، ولكن ابن سينا لم يحط به . ثم تفقدت قلبي ، وفيه وجدته ، ولم يوجد في مكان سواه^(٤٧) .

إن كل صورة تراها لها أصل مثلها في العالم اللامكاني ، فإذا انعدمت الصورة

فليس ذلك بنى خطر لأن أصلها باق مخلد . وما من شكل جميل رأيت ، او قول حكيم سمعته - فلا يحزنك أنه قد فنى لأنه فى واقع الأمر لم يفن ... فما دام النبع فياضاً فإن الأنهار تجري منه . فاطرد الغم من قلبك ، وعب من هذا النهر ، ولا تظن أن الماء سيفرغ فعينه لا ينضب .

ولقد وضع أمامك من ساعة يجيئك إلى عالم الخلق سلم لتفر عليه منه . ولقد كنت فى أول الأمر مجادا ، ثم استحلقت بعدئذ نباتا ؛ ثم صرت حيواناً ، فكيف يتخوف عليك هذا ؟ ثم جعلت بعدئذ إنساناً ذا علم ، وعقل ، ودين ... فإذا ما واصلت رحلتك بعد الآن ، أصبحت بلا ريب ملاكاً .

وانتقل مرة أخرى من طبقة الملائكة ؛ وادخل ذلك البحر الخضم حتى تصبح نقطتك بجزراً . . . دع عنك هذا « الابن » وقل : « الواحد » على الدوام بكل قلبك (٤٨) .

ونذكر أخيراً السعدى ، ولا حاجة إلى القول بأن اسمه الحقيقي أطول من هذا - فهو مشرف الدين بن مصلح الدين عبد الله . وكان أبوه يشغل منصباً فى بلاط سعد بن زنجى أتاك شيراز ، ولما مات أبوه تبنى الأتابك الغلام ، الذى جرى على سنة المسلمين فأضاف اسم وليه إلى اسمه . ويختلف العلماء فى تاريخ مولده ووفاته ، فمنهم من يقول إنهما ١١٨٤ ، ١٢٨٣ (٤٩) ، ومنهم من يقول إنهما ١١٨٤ ، ١٢٩١ (٥٠) ، ومنهم من يحدداهما بعامى ١١٩٣ ، ١٢٩١ (٥١) . ومهما يكن هذان التاريخان فإنه عاش ما يقرب من مائة عام . ويقول هو نفسه إنه كان فى صباه متمسكاً أشد التمسك بأهداب الدين . . . تقياً إلى أبعد حدود التقوى ، عفيفاً أشد العفة (٥٢) . وبعد أن أتم علومه فى المدرسة النظامية ببغداد (١٢٢٦) ، بدأ رحلته العجيبة التى قضى فيها ثلاثين عاماً طاف فيها بجميع بلاد الشرقين الأدنى والأوسط - الهند ، وبلاد الحبشة ، ومصر ، وشمال إفريقيا . وقاسى فيها كل أنواع الصعاب ، وذاق مرارة الفقر والحرم ، وقد قال عن نفسه

إنه كان يشكو الحفاء حتى التقى برجل مقطوع القدمين فشكر الله على ما أنعم به عليه (٥٣) . وكشف وهو في الهند عن جهاز في صنم قيل عنه إنه يأتي بالمعجزات ، وقتل الدعي البرهمي المحتفى فيه والذي كان هو إله ذلك الجهاز ، وهو يوصى في شعره المتأخر المرح بأن تتبع هذه الطريقة العاجلة مع جميع الدجالين :

« فإذا اتفق لك أنت أيضاً أن كشفت عن مثل هذه الحيلة ، فاقض من فورك على الخيال ، ولا تدعه يفلت منك ، بل عجل به ! لأنك إذا أبقيت على حياة هذا الوغد ، فلا تشك قط في أنه لن يرحمك . . . ومن أجل ذلك قضيت على هذا الخبيث رجماً بالحجارة ، ولم ألتفت إلى نحيبه وعويله ، لأن الموتى كما تعلم لا ينطقون (٥٤) » .

وحارب الصليبيين وأسره « الكفار » ، ثم افتدى ، فتزوج ابنة من افتداء ليبر بذلك عن شكره لأبيها ، ولكنه تبين بعدئذ أنها سليطة لا تطاق ، وكتب عنها يقول « إن غدائر ذوات الجمال قيد في قديمي صاحب العقل » (٥٥) . ثم طلقها ولكنه التقى بغيرها من ذوات الغدائر ، وسلك نفسه في سلسلة أخرى ، ولما ماتت زوجته الثانية ، آوى إلى صومعة في حديقة . بشيراز وأقام فيها طوال الأعوام الخمسين الباقية من حياته .

وعرف معنى الحياة فشرع يكتب ، ويقول المؤرخون إنه ألف كتبه الكبرى بعد أن اعتزل العالم ؛ ومن هذه الكتب البير ناما وهو كتاب في الحكمة ، وديوان وهو مجموعة من القصائد القصار ، معظمهما باللغة الفارسية وبعضها بالعربية ؛ بعضها يفيض بالتقى ، وبعضها بالفحش ؛ ويشرح السعدي في كتابه البستان فلسفته العامة بالشعر التعليمي الفلسفي ، تتخلله في بعض الأحيان مقطوعات من الغزل الرقيق .

لم أعرف في حياتي أحلى من هذه اللحظات . وقلت لحبيبي لما أن ضممتها إلى

صدرى في تلك الليلة. ونظرت إلى عينيها بكاد يغلبهما النعاس : « أى حبيبتى يا غصن بان لقد آن أوان النوم . غن يا بلبلى ! وافتحى فاك كما تفتح الوردة . اطردى النوم ، يا ملهبة قلبى ، ولتقدم لى شفتاك رحيق حبك » .. ونظرت إلى حبيبتى وهمست بصوت خافت : « أملهبة قلبك ؟ ومع هذا توقظنى من نومي ؟ » .

... وظلت حبيبتك طوال هذا الوقت تكرر قولها إنها لم تحب قط سواك ... وكنت أنت تبتم لأنك تعرف أنها كاذبة ، ولكن ماذا يهمك من هذا ؟ فهل شفتاها من أجله أقل حرارة وهما تحت شفتيك ؟ وهل كتبها أقل نعومة وأنت تداعبهما بيديك ؟ ... يقولون إن نسيم الريح حلو جميل شبيه بشذى الورد وتغريد العندليب ، والمرج الأخضر ، والسماء الزرقاء . ويحك يا جاهل ! إن هذه كلها لا تحلو إلا إذا كانت معها حبيبتك (٥٦) .

والجستاه وهديفة الورد (١٢٥٨) مجموعة من القصص التعليمية تتخللها قصائد من الشعر المطرب الجميل :

سهل ملك ظالم أحد الأولياء الصالحين : « أى شيء أفضل من الصلاة ؟ فأجابه الولي بقوله : « أفضل منها لك أن تظل نائماً إلى منتصف النهار . فلا تؤذى أحداً من خلق الله حتى ذلك الوقت » (٥٧) .

يستطيع فقيران أن يناما على بساط واحد : ولكن ملكين لا تتسع لها ملكة بأكلها (٥٨)

إذا كنت تسعى إلى الغنى فلا تطلب الهنأة (٥٩) .

إن رجل الدين الذى يغضب إذا ناله أذى لا يزال كالجدول الضحل (٦٠) .
لم يعترف قط إنسان بجهله إلا من كان في مجلس وأخذ غيره يتحدث ، وقبل أن يتم حديثه يبدأ هو بالسؤال (٦١)

لو كان فيك هضيلة واحدة وسبعون رذيلة لما رأى من يبك غير هضيلتك الوحيدة (٦٢) .

لا تعجل . . . وتعلم الآناة . فإن الجواد العربي يعلو أشواطاً قليلة بأقصى سرعته ثم تخور قواه ؛ أما الحمل فيمشى على مهل ولكنه يسافر بالليل وبالنهار حتى يصل إلى آخر سفره^(٦٣) .

حصل العلم لأن المال والثراء لا يعتمد عليهما . . . فإذا فقد صاحب المهنة ماله فليس له أن يندم على فقدته لأن علمه في حد ذاته معين للثراء لا ينضب^(٦٤) إن قسوة المعلم أعظم نفعاً من لين الأب^(٦٥) لو محيت العقول من وجه الأرض لما وجد من يقول « أنا جاهل »^(*)^(٦٦) إن خفة البندقة لدليل على أنها فارغة^(٦٧) .

وكان السعدى فيلسوفاً ، ولكنه أضاع سمعته الفلسفية لأنه كان يكتب في وضوح ؛ وكانت فلسفته أصح وأسلم من فلسفة عمر الخيام ؛ فهم تفهم ما في الإيمان من سلوى ، وتعرف كيف تداوى جراح المعرفة بما في الحياة الحنونة من نعمة . ولقد قاسى السعدى كل ما في ملهاة الحياة البشرية من مأس ، ولكن أجله مع ذلك طال حتى بلغ مائة عام . ولقد كان السعدى شاعراً كما كان فيلسوفاً : كان مرهف الحس بكل أنواع الجمال الظاهر والمكنون ، الحسى منه والمعنوى ، من جسم المرأة الجميلة إلى النجم الذى يستأثر لحظة بالسما وقت المساء ؛ وكان فى وسعه أن يعبر عن الحكمة والتفاهة بإيجاز ، ورقة ، وظرف . ولم يكن يعجز فى أية لحظة عن الإتيان بتشبيه نير جميل ، أو عبارة بليغة فائنة . ومن أقواله ما أشبه تعليم السفلة بقذف القبة بالجو^(٦٨) « إني كنت وصديقي كحبتين فى قشرة لوزة »^(٦٩) ، « لو أن قرص الشمس كان فى جيبه » هذا التاجر البخيل « لما رأى لإنسان

(*) قارن هذا بالسطور الأولى من كتاب ديكارت المسمى « أحاديث عن الطريقة Discourses on Method » حيث يقول : « إن الإدراك السليم هو أكثر الأشياء كلها توزيعاً بالقسطاس المستقيم بين الناس ، ذلك بأنه ما من أحد إلا يظن نفسه ذا حظ موفور منه ، وحتى الذين يصعب علينا أن نرضيهم بمظهرهم فى غيره من الأمور لا يرغبون عادة فى أكثر مما لديهم منه » .

ضوء النهار إلى يوم القيامة» (٧٠) . وقد ظل السعدي شاعراً إلى آخر يوم من حياته رغم ما كان ينطق به من حكمة . وكان يسلم حكمته راضياً معتبلاً إلى عبودية الحب :

لقد قدر على ألا أضم حبيتي إلى صدري
وألا أتسى بعدى الطويل في قبلة أطبعها على شفيتها الحلوتين
وسأختلس منها ذلك الشراك الذي تقتنص به ضحاياها في طول البلاد
وعرضها حتى أستطيع أن أغريها بالهجيء إلى جانبي
ولكنني لن أجسر على أن أمس شعرها بيد مسرقة في الجراءة
فكم في هذا الشعر من قلوب للمحبين حبيسة احتباس الطيور في الأقفاص
أنا عبد لهذا القند المياس الذي يبدو في نظري كأنما قد فصلت عليه الرشاقة
تفضيلاً كما يفصل الخياط الثوب

يا شجرة السرو يا أطرافاً من اللجين ، إن لونك ورائحتك قد فاقت رائحة
الآس ونضرة الورد البري

احكى بناظريك وضعى قدمك فوق كل حر وبخيل
وامشى فوق الياسمين والأزهار
ولا تعجبني إذا أيقظت في زمن الربيع من الحسد ما يجعل السحب تبكى
بينما الأزهار الصغيرة تبسم ، وكل هذا يا حبيتي من أجلك
وإذا ما وطئت جسم ميت بقدميك الجميلتين الخفيفتين ، فلا عجب إذا
سمعت صوتاً يخرج من طيات أكفانه

لم يبق مكان للحيرة في بلدنا هذا أيام حكم مولانا المليك
سوى أنني جنتت بمحك وجن الناس بقناني في حبك (٧١) ؛

الفصل التاسع

علوم المسلمين

١٠٥٧ - ١٢٥٨

قسم العلماء المسلمون الشعوب في العصور الوسطى طبقتين - طبقة الذين يعلمون وطبقة الذين لا يعلمون ؛ ووضعوا في الطبقة الأولى الهنود ، والفرس ، والبابليين ، واليهود ، واليونان ، والمصريين ، والعرب ، أولئك في اعتقادهم هم الصفوة المختارة من عباد الله في العالم ؛ أما الطبقة الثانية - وخير من تشملهم الصينيون والأتراك - ، فهي أشبه بالحيوان منها بالإنسان (٧٢) . وأكبر خطأ في هذا التقسيم هو وضع الصينيين في الطبقة الثانية .

وحافظ المسلمون في العصر الذي نتحدث عنه على تفوقهم غير المنازع في العلوم ، وكان أعظم ما بلغوه من التقدم في علم الرياضة في مراكش وأذربيجان ، ففيها نشاهد مرة أخرى ما بلغته الحضارة الإسلامية من رقي عظيم ؛ ففي مدينة مراكش نشر حسن المراكشي في عام ١٢٢٩ جداول تشتمل على جيوب الزوايا لكل درجة من الدرجات ؛ وجداول يجيبون التمام ، وجيوب الأقواس ، ومماسات الأقواس والأقواس المتماصة . وبعد جيل من ذلك الوقت أصدر ناصر الدين الطوسي أول رسالة بحث فيها حساب المثلثات بوصفه علماً مستقلاً بذاته لا بوصفه فرعاً من فروع علم الهيئة . وقد بقي كتابه المسنى شكل القطاع لا ينافس منافس في هذا الميدان حتى نشر رجيومتانس Regiomontanus كتابه المثلثات De Triangulis بعد مائتي عام من ذلك الوقت ، وربما كان حساب المثلثات الذي ظهر عند الصينيين في النصف الثاني من القرن الثالث عشر عربي النشأة (٧٣) .

وأشهر ما ظهر من الكتب في العلوم الطبيعية في ذلك العهد هو كتاب ميرزا المحسنة الذي ألفه في عام ١١٢٢ مولى يونانى من آسية الصغرى يدعى أبا الفتح . وفي هذا الكتاب تاريخ لعلم الطبيعة ، وقوانين الروافع ، وجداول بالكثافة النوعية لكثير من المواد السائلة والأجسام الصلبة ، وفيه عرض لنظرية الجاذبية بوصفها قوة عامة تجتذب كل شيء نحو مركز الأرض (٧٤) . وقد أدخل المسلمون كثيراً من التحسينات على السواقي التي كانت معروفة عند اليونان والرومان ، وشاهد الصليبيون هذه السواقي ترفع الماء من نهر العاصى فأدخلوها في ألمانيا (٧٥) . وعلا شأن الكيميائيين ، وكانوا يعرفون كما يقول عبد اللطيف ثلثمائة طريقة لتضليل الناس (٧٦) ، ويقال إن أحد هؤلاء الكيميائيين حصل من نور الدين على قرض كبير ينفقه في البحوث العلمية ثم اختفى عن الأنظار ، وبعدئذ نشر أحد الظرفاء ثبناً بأسماء المغفلين وعلى رأسهم نور الدين نفسه ، ووعد أن يضع اسم الكيميائي إذا رجع مكان اسم نور الدين ، ويبدو أن هذا المؤلف الظريف لم يمسه أذى (٧٧) .

وفي عام ١٠٨١ صنع إبراهيم السهلي أحد علماء بلنسية أقدم كرة سماوية معروفة في التاريخ . وقد صنعت هذه الكرة من النحاس الأصفر وكان طول قطرها ٢٠٩ ملليمتر (٨١.٥ بوصة) ، وحفر على سطحها ١٥١٥ نجماً مقسمة إلى سبع وأربعين كوكبة ، وتبدو النجوم فيها حسب أقدارها (٧٨) . وكانت خرلدة أشيلة منارة ومرصداً في وقت واحد ، وفيها قام جابر بأرصاده التي نشرها في كتابه *إصطوخ المسطى* (١٢٤٠) . كذلك ظهرت نفس هذه الثورة على نظريات بطليموس الفلكية في مؤلفات أبي إسحق البطروجي القرطبي (المعروف عند علماء الغرب باسم *الپتراجيوس* Alpetragius) والذي مهد السبيل لكوبرنيك بنقده الهدام لنظرية أفلاك التدوير والدوائر المختلفة المراكز وهي التي حاول بها بطليموس أن يفسر حركات النجوم ومساراتها .

وأنجب هذا العصر عالين في تقويم البلدان طبقت شهرتهما العالم كله في العصور الوسطى ، ونعني بهما الإدريسي وياقوت . فأما أبو عبد الله محمد الإدريسي فقد ولد في سبته عام ١١٠٠ وتلقى العلم في قرطبة ، وكتب في بلرم إجابة لطلب روجر الثاني ملك صقلية ، كتابه المسمى كتاب روجمباري . وقد قسم فيه الأرض سبعة أقاليم مناخية ثم قسم كل إقليم إلى عشرة أجزاء ، ورسم لكل جزء من الأجزاء السبعين خريطة تفصيلية إيضاحية ، وكانت هذه الخرائط أعظم ما أنتجه علم رسم الخرائط في العصور الوسطى ، ولم ترسم قبلها خرائط أتم منها ، أو أدق ، أو أوسع وأعظم تفصيلاً . وكان الإدريسي يجزم كما تجزم الكثرة للغالبية من العلماء المسلمين بكرية الأرض ، ويرى أن هذه حقيقة مسلم بصحتها . ويقاسمه هذا الشرف العظيم شرف حمل لواء علماء الجغرافية في العصور الوسطى أبو عبد الله ياقوت (١١٧٩ - ١٢٢٩) . وكان ياقوت بمولده يونانياً من سكان آسية الصغرى ، وأسرى الحرب وبيع في سوق الرقيق ، ولكن التاجر البغدادي الذي ابتاعه أحسن تربيته وتعليمه ، ثم أعتقه . وكان ياقوت كثير الأسفار ، سافر أولاً للتجارة ، ثم سافر للدراسة الأرض وأهلها ، لأنه أعجب أشد الإعجاب ببلادها ، وسكانها المختلفي الأجناس ، ولباسهم وأساليب حياتهم . وقد سره وأثلج صدره أن يجد عشر مكاتب عامة في مرو تحتوي إحداها على ١٢٠٠٠ مجلد ، وفطن أمين هذه المكتبة لشأن الزائر فسمح له أن يأخذ منها مائتي كتاب إلى حجرتة دفعة واحدة . وما من شك في أن الذين يحبون الكتب ويرون أنها دم الحياة يجرى في عروق عظماء الرجال يدركون ما شعر به ياقوت من بهجة حين حصل على هذا الكنز العظيم من كنوز العقل . ثم انتقل ياقوت بعدئذ إلى خيوة وبلخ ، وهناك أوشك المغول أن يقبضوا عليه أثناء زحفهم المخرب للفتاك ، ولكنه استطاع الفرار عارياً من الثياب ، وهو محتفظ بمخطوطاته ، واجتاز بلاد الفرس إلى الموصل . وأتم وهو يعاني آلام الفاقة وشظف العيش أثناء عمله في نسخ الكتب كتابه الشهير معجم البلدان (١٢٢٨)

- وهو موسوعة جغرافية ضخمة جمع فيها كل المعلومات الجغرافية المعروفة في العصور الوسطى . ولم يكد يترك شيئاً من هذه المعلومات إلا أدخله في هذه الموسوعة - من فلك ، وطبيعة ، وعلوم الآثار ، والجغرافية البشرية ، والتاريخ ؛ هذا إلى ما أثبتته فيها من أبعاد المدن بعضها عن بعض ، وأهميتها وحياة مشهورى أهلها وأعمالهم ، ولسنا نعلم أن أحداً أحب الأرض كما أحبها هذا العالم العظيم .

وبعث علم النبات بعثاً جديداً على أيدي المسلمين في ذلك العصر وقد كاد ينسى بعد ثاويراسطوس ؛ فقد وضع الإدريسي كتاباً في النباتات وصف فيه ثلثمائة وستين نوعاً مختلفاً منها ، ولم يقصر اهتمامه بها على الناحية الطبية ، بل عنى أيضاً بالناحية العلمية النباتية . وذاعت شهرة أبي العباس الإشبيلي (١٢١٦) لدراسته حياة أنواع النبات المختلفة التي تنمو بين المحيط الأطلنطي والبحر الأحمر . وجمع أبو محمد بن البيطار الماتى (١١٩٠-١٢٤٨) كل ما عرفه المسلمون في علم النبات في موسوعة عظيمة غزيرة المادة ظلت هي المرجع المعترف به في هذا العلم حتى القرن السادس عشر ، ورفعته إلى مقام أعظم علماء النبات والصيدالة في العصور الوسطى^(٧٩) . ومن أهم ما ظهر من الكتب في العلوم الزراعية كتاب الفلاحة الذي وصف فيه مؤلفه ابن الأوان الإشبيلي أنواع التربة والسماد ، وطريقة زرع ٥٨٥ نوعاً من أنواع النبات ، وخمسين نوعاً من أشجار الفاكهة ، وشرح طرق التطعيم ، وبحث أعراض أمراض النبات وطرق علاجها . وكان كتابه هذا أكمل البحوث في علم الفلاحة في العصور الوسطى جميعها^(٨٠) .

وأنجب المسلمون في هذا العصر ، كما أنجبوا في غيره من العصور أعظم الأطباء في آسية ، وإفريقية ، وأوربا . وكان أهم ما نبغوا فيه علم الرمد ، ولعل سبب هذا النبوغ أنه كان واسع الانتشار في بلاد الشرق الأدنى ، ففي هذه البلاد كان الناس يبدلون أكثر المال لعلاج الأمراض وأقله للوقاية منها . وكان أطباء العيون يجرّون

كثيراً من العمليات لإزالة إظلام العنسة (سادة العين أو الكتركتا) . وقد بلغ من ثقة الطبيب خليفة بن أبي المحاسن الحلبي (١٢٥٦) بحذقه في هذه العمليات أنه أجرى هذه الجراحة لرجل أعور^(٨١) . ووضع ابن البيطار في كتاب الجامع تاريخ الطب النباتي . فقد وصف في هذا الكتاب ألفا وأربعمائة من أنواع النبات والأغذية ، والعقاقير ، ثلثمائة منها لم تكن معروفة من قبل ، وحلل تركيبها الكيميائي ، وخصائصها العلاجية ، وأضاف إلى ذلك ملاحظات دقيقة عن طرق استخدامها في علاج الأمراض . ولكن أشهر أطباء المسلمين على بكرة أبيهم هو أبو مروان ابن زهر (١٠٩١ - ١١٦٢) الأشبيلي المعروف في عالم الطب الغربي باسم أفنزور Avenzoar . وكان أبو مروان الثالث من ستة أجيال من أطباء ذاتعي الصيت متصلي النسب ، كل منهم يحمل لواء الطب في أيامه . وقد ألف كتابه المسمى كتاب التيسير إجابة لطلب صديقه ابن رشد (أعظم فلاسفة زمانه) الذي كان يعده أعظم من أنجبه العالم من الأطباء منذ أيام جالينوس . وكان أهم ما برع فيه ابن زهر هو الوصف الإكلينيكي ، وقد ترك وراءه تحليلات صادقة للأورام الحيزومية ، والتهاب الثامور ، ودرن الأمعاء ، والشلل البلعومي^(٨٢) . وكان للترجمين العبرية واللاتينية لكتاب التيسير أعظم الأثر في الطب الأوربي .

كذلك تزعم الإسلام العالم كله في إعداد المستشفيات الصالحة وإمدادها بمحاجاتها . مثال ذلك أن البيارستان الذي أنشأه نورالدين في دمشق عام ١١٦٠ ظل ثلاثة قرون يعالج المرضى من غير أجر ويمدهم بالدواء من غير ثمن ؛ ويقول المؤرخون إن نيرانه ظلت مشتعلة لا تنطفئ^(٨٣) ٢٦٧ سنة . ولما وفد ابن جبير إلى بغداد في عام ١١٨٤ دهش أيما دهشة من بيارستانها العظم الذي كان يعملو كما تعلقوا القصور الملكية على شاطئ^(٨٤) نهر دجلة ، والذي كان يطعم المرضى ويمدهم

بالدواء من غير ثمن (٨٤)* . وفي القاهرة بدأ السلطان قلاوون في عام ١٢٨٥
تشييد بيمارستان المنصور أعظم مستشفيات العصور الوسطى على الإطلاق ،
فقد أقام في داخل فضاء واسع مسور مربع مباني أربعة يتوسطها فناء يزدان
بالبواكى ، وتلطف حرارته الفساقى والجداول . وكان يحتوى على أقسام
منفصلة لمختلف الأمراض وأخرى للناقيين ؛ ومعامل للتحليل ، وصيدلية ،
وعيادات خارجية ، ومطابخ ، وحمامات ، ومكتبة ومسجد للصلاة ، وقاعة
للمحاضرات ، وأماكن للمصابين بالأمراض العقلية ، زودت بمناظر تسمر
العين . وكان المرضى يعالجون فيه من غير أجر رجالا كانوا أو نساء ،
أغنياء أو فقراء ، أرقاء ، أو أحراراً ؛ وكان كل مريض يعطى عند خروجه
منه بعد شفائه مبلغاً من المال حتى لا يضطر إلى العمل لكسب قوته بعد
خروجه منه مباشرة . وكان الذين ينتابهم الأرق يستمعون إلى موسيقى
هادئة ، وقصاصين محترفين ، ويعطون في بعض الأحيان كتباً تاريخية
 للقراءة (٨٥) . وكان في جميع المدن الإسلامية الكبيرة مصحات للمصابين
بالأمراض العقلية .

(*) يقول ابن جبير في وصف هذا اليمارستان : « وهو حل دجلة ويتفقدده الأطباء كل
يوم اثنين وخميس ، ويطلعون أحوال المرضى به ، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه ؛ وبين
أيديهم قوم يتناولون طبخ الأدوية والأغذية ؛ وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع
مرافق المساكن الملوكية ، والماء يدخل إليه من دجلة » . (المترجم)

الفصل السابع

الغزالي والنهضة الدينية

وبينا كانت العلوم تسير قدماً في طريق الرقي كان الدين يكافح للاحتفاظ بولاء الطبقات المتعامة ولإبقائها إلى جانبه ، وأدى النزاع الذي قام بين الدين والعلم إلى تشكك الكثيرين في عقائد الدين ، بل إنه دفع بعضهم إلى الإلحاد والكفر . وقد قسم الغزالي المفكرين المسلمين ثلاث طوائف : كلها في نظره كافرة وهي المولثة ، والرَبَوِيَّة (أو الطبيعية) ، والمادية . فأما المولثة فتؤمن بالله ، وبخلود الروح ولكنها تنكر الخلق وبعث الأجسام ، وتقول إن الجنة والنار حالات روحية لا غير ؛ أما الثانية فتؤمن بالله ولكنها تنكر خلود الروح وترى أن العالم آلة تعمل بنفسها ؛ وأما المادية فترفض فكرة وجود الله إطلاقاً(*) . وقامت حركة أخرى على شيء من النظام هي حركة الدهرية ، وهؤلاء لا أدريون صريحون لا يؤمنون بشيء ؛ وقد أعدم عدد من أتباع هذه الحركة . ومن متبعي هذا المذهب إصهان بن قرة الذي قال في يوم من أيام رمضان لأحد الصائمين الأتقياء إنه يعذب نفسه من غير داع ، فالإنسان كالحبلة ينبت وينمو ثم يحصد لكي يفنى إلى أبد الدهر . . . ثم نصحه بأن يأكل ويشرب (٨٦) .

وكان رد الفعل الذي نتج من هذه الحركة المتشككة هو ظهور أبي حامد الغزالي أعظم علماء الدين المسلمين ، الذي جمع بين الفلسفة والدين ، فكان بذلك عند المسلمين ، كما كان أوغسطين وكانت عند الأوربيين . ولد أبو حامد الغزالي في طوس عام ١٠٥٨ ، ومات أبوه في صغره فكفله صديق له متصوف . ودرس الغلام الشريعة ، وعلوم الدين ، والفلسفة . ولما بلغ سن الثلاثين عين أستاذاً

(*) نلخص المؤلف هذا من المقدمة الثانية من كتاب تهافت الفلاسفة . (المترجم)

في المدرسة النظامية الكبرى ببغداد ؛ وسرعان ما أعجب العالم الإسلامي بفصاحته ، وغزارة علمه ، وبراعته في الجدل . وبعد أن قضى في هذا العمل ثلاث سنين طبقت فيها شهرته الآفاق أصيب بمرض غريب أقعده عن العمل وأفقده شهوة الطعام والشراب والقدرة على الهضم ؛ وكان شلل لسانه يشوه منطقه في بعض الأحيان ، ثم بدأت قواه العقلية تنهار . وشخص طبيب ماهر مرضه بأنه في الأصل مرض عقلي . ولقد أقر الغزالي في ترجمته لحياته بأنه لم يعد يؤمن بقدرة العقل على فهم أسرار الدين الإسلامي ، وأنه لم يكن يطبق ما في دروسه الدينية من نفاق . وغادر الرجل بغداد في عام ١٠٩٤ يريد الحج إلى بيت الله في الظاهر ، ولكنه في الحقيقة كان يريد اعتزال الناس ، وينشد الوحدة والصمت ، والهدوء وإطلاق العنان للتفكير والتأمل . ولما عجز عن أن يجد في العلم ما يطلبه من عون يعيد إليه إيمانه المتداعى ، انقلب من التفكير في العالم الخارجي إلى تأمل العالم الداخلي ؛ معتقداً أنه سيجد في هذا العالم من أقرب سبيل تلك الحقيقة الخالدة وهي القاعدة الثابتة الأكيدة للإيمان بعالم الروح . وتعرض بالنقد الشديد لعالم المحسوسات - وهو عماد النزعة المادية وأساسها ؛ وفقد الثقة بالحواس واتهمها بأنها تجعل النجوم تبدو ضئيلة مع أنها بلا ريب أكبر كثيراً عن الأرض ، وإلا لتعدرت رؤيتها من بعدها الشاسع ؛ واستخلص من هذا المثال ومن مئات غيره من الأمثلة أن الحواس وحدها ليست طريقاً موثوقاً به موصلاً إلى الحقيقة . وأما العقل فهو في رأيه أرقى درجة من الحواس وهو يصحح ما يصل إليها عن طريق إحداها بما يصل إليه عن طريق الأخرى ، ولكنه هو الآخر يعتمد في النهاية على الحواس نفسها . فهل عند الإنسان نوع من المعرفة ، يهديه إلى الحقيقة ، أصدق من العقل وأوكد ؟ وأحس الغزالي بأنه قد عثر على هذا النوع من المعرفة في تأمل الصوفية الباطني : فالصوفي يقترب من سر الحقيقة المكنون أكثر مما يقترب منه الفيلسوف ؛ وأرق أنواع المعرفة هو التأمل في معجزة العقل حتى يظهر

الله للمتماثل من داخل نفسه ، وحتى تخفى النفس ذاتها في رؤية الواحد (٨٧) .
وبهذه النزعة وهذا المزاج كتب الغزالي أعظم كتبه كلها تأثيراً ونعنى
به كتاب *تهافت الفلاسفة* واستعان فيه على العقل بجميع فنون العقل ،
فاستخدم الصوفي المسلم الجدل الفاسفي الذي لا يقل دقة عن جدل كانت
Kant ليثبت أن العقل يؤدي بالإنسان إلى التشكك في كل شيء ، وإلى
الإفلاس الذهني ، والانحطاط الخلقى ، والتدهور الاجتماعي . وأنزل الغزالي
العقل - قبل أن ينزله هيوم Hume بسبعة قرون - إلى مبدأ العلية ، وأنزل
مبدأ العلية نفسه إلى مجرد التتابع إذ قال إن كل ما ندركه هو أن ب تتبع
على الدوام ولا ندرك أن ا هي علة ب . ومن أقواله أن الفلسفة ، والمنطق ،
والعلوم لا تستطيع قط أن تثبت وجود الله ، أو خلود الروح بل إن الإلهام
المباشر هو وحده الذي يؤكد لنا هاتين العقيدتين اللتين لأقيام بغيرهما لأى
نظام أخلاقي ، وهو النظام الذي لأقيام لأية حضارة إلا به (٨٨) .

وعاد الغزالي في آخر الامر عن طريق التصوف إلى العقائد الدينية
السليمة جميعها ، وعاد إليه كل ما كان يساوره في شبابه من مخاوف
وآمال ، وجهر بأنه يحس بعيني إله قوى قاهر قريبتين من رأسه تتوعدانه
وتنذرانه ، وأخذ ينذر الناس من جديد بأهوال الجحيم ويؤكد أن دعوته
هذه لا غنى عنها لتقويم أخلاق العامة (٨٩) ، وعاد إلى الإيمان بكل ما جاء
به القرآن والحديث ، وقد شرح في كتابه *إملاء علوم الدين* هذه العودة
إلى عقائده الأولى ، ودافع عنها بكل ما كان له في شبابه من قوة وحماسة
أصبح بهما أقوى عدو للمتشككة والفلاسفة الذين لم يواجهوا من قبله
عدواً أشد منه عنفاً . ولما توفي في عام ١١١١ كانت موجة الإلحاد قد
ردت على أعقابها ، واطمأنت جميع قلوب المؤمنين المتمسكين بالدين ،
بل إن رجال الدين المسيحيين أنفسهم قد أثلج صلورهم ما وجدوه
في كتبه ، بعد أن ترجمت إلى اللغات الأجنبية ، من دفاع حار عن

الدين ، وعرض بليغ لقواعد التقى والصلاح لم يروا له نظيراً بعد أيام أوغسطين . واختلفت الفلسفة منذ أيامه ، بالرغم من ظهور ابن رشد ، في أقصى أركان العالم الإسلامى ، وضعفت البحوث العلمية ، وأصبح الحديث والقرآن دون غيرها من العلوم موضع اهتمام العقول الإسلامية وشغلها الشاغل (*) .

وكان اعتناق الغزالي للمذهب التصوف نصراً باهراً للصوفية ، فأخذ أهل السنة من بعده بالتصوف حتى طغت عقائد المتصوفة وقتاً ما على قواعد الدين . نعم إن علماء الدين والشريعة الإسلامية كانوا لا يزالون من الوجهة الرسمية أصحاب الكلمة العليا في عالم الدين والشريعة ، ولكن ميدان التفكير الدينى استسلم لمشايخ الطرق وأولياء الله الصالحين . ومن عجب أن ظهور طائفة الرهبان الفرنسيس في المسيحية قد عاصره نوع جديد من الزهد والنسك في العالم الإسلامى في القرن الثانى عشر الميلادى ، فقد أخذ الزهاد المتصوفة يهجرون الحياة الغائلية ويحيون حياة الأخوة الدينية بزعامة شيخ لهم ويسمون أنفسهم الفقراء أو الدراويش ، وثانيتها لفظ فارسى معناه السائل . وكان هؤلاء يسعون بطرق مختلفة إلى التمسك بأرواحهم ليرتفعوا بها إلى الفناء في روح الله فيستطيعوا بذلك الإتيان بعجائب الأعمال : فمنهم من كانت وسيلته إلى هذا التمسك هى الصلاة والتأمل ، ومنهم من كانت سبيله إليها التثوية التى تعقب الأذكار العنيفة .

وقد صيغت نظريات الصوفية فى المائة والخمسين من الكتب التى ألفها محيى الدين بن العربى (١١٦٥ - ١٢٤٠) - وهم مسلم أندلسى أقام فى دمشق . ومن أقواله أن العالم لم يخلق قط لأنه هو المظهر الخارجى لما هو فى حقيقته الداخلية الله نفسه ، والجحيم مقام مؤقت ، لأن الناس كلهم سينجون آخر الأمر ، والحب يخطئ إذا كان هو حب المظهر الجسمى الزائل ، لأن الله هو الذى يظهر فى صورة

(*) لا شك فى أن هذا التعميم كثيراً من المبالغة . (المترجم)

المحوب ، والمحبة الصادق يجد في أية صورة جميلة باعث الجمال كله ويعشقه .
ولعل محبي الدين قد تذكر أقوال بعض المسيحيين من أيام جيروم فأخذ يعلم
الناس أن « من أحب وعف ثم مات مات شهيداً » ، ووصل إلى أسمى
درجات الصلاح والورع . وكان كثير من الدراويش المتزوجين يجهرون بأنهم
يجبون هذه الحياة الطاهرة مع أزواجهم^(٩٠) .

وأثرت بعض الطوائف الدينية الإسلامية مما كان يغدقه عليها الناس من
العطايا ، ورضيت أن تستمتع بطيبات الحياة . وقد شكوا من ذلك أحد شيوخ
الشام حوالي عام ١٢٥٠ فقال إن الصوفية كانوا من قبل إخوة مختلفين في الجسم
ولكنهم متحدون في الروح ، أما الآن فهم طائفة تكتسى أجسامها بالثياب
الحسنة ولكن سرانها ممزقة خلقة . وكان الناس يبتسمون لهؤلاء الذين جمعوا
بين الدين والدنيا ويتركونهم وشأنهم ، ولكنهم كانوا يعظمون الأتقياء المخلصين
الصادقين ، ويعزون إليهم قوى وأفعالاً غير عادية ، ويحتفلون بموالدهم ،
ويرجون منهم الشفاعة لهم عند الله ، ويزورون قبورهم . ذلك أن الإسلام
كالمسيحية دين يتطور ويكيف نفسه تكيفاً يدهش له محمد والمسيح إذا قدر
لها أن يعودا إلى هذا العالم^(*) .

ولما انتصر أهل السنة على هذا النحو ضعفت روح التسامح الديني ، وعادت
إلى الوجود شيئاً فشيئاً القواعد الصارمة التي يعزونها إلى الخليفة عمر بن الخطاب .
فطلب إلى غير المسلمين أن يميزوا ثيابهم بخطوط صفراء ، وحرّم عليهم أن يركبوا
الحيل ، وأذن لهم أن يركبوا الحمير أو البغال ، ولم يسمح لهم بإنشاء كنائس أو معابد

(*) ليست العقائد الدينية الأساسية هي التي تتطور وتقبل على مر الأيام بل التي يتطور
هو ما لا يمس صميم الدين كالتشريع وأمثاله . وهناك أعمال ليست من الدين في شيء وبعضها يخالف
له وإن أتاها بعض المسلمين ومنها الحج إلى مقابر الأولياء والتبرك بهم والتشفع بهم عند الله
وهو ما لا يقره الدين . (المترجم)

جديدة وإن أجزئ لهم أن يصلحوا ما يحتاج منها إلى الإصلاح ؛ ولم يكن يجوز لهم أن يظهروا الصليب في خارج الكنائس ، أو يدقوا نواقيسها ؛ ولم يكن أبناء غير المسلمين يقبلون في المدارس الإسلامية ، ولكن كان في وسع غير المسلمين أن ينشئوا لأبنائهم مدارس خاصة بهم . كان هذا كله هو ما يجب اتباعه من الوجهة النظرية ، ولكنه لم يكن يتفد على الدوام . ولا تزال هذه هي النصوص الحرفية للشريعة الإسلامية وإن لم تكن هي المعمول بها على الدوام (٩٢) (*) . ومع هذا فقد كان في بغداد وحدها في القرن العاشر ٤٥٠٠٠ مسيحي (٩٣) ، وكانت جنائز المسيحيين تسير في الشوارع دون أن يتعرض لها أحد (٩٤) ؛ وظل المسلمون على الدوام يحتجون على استخدام المسيحيين واليهود في المناصب العليا ؛ ولقد كان صلاح الدين ، في سورة الحروب الصليبية وحدتها وما أوجدته في النفوس من أحقاد ، كريماً رحياً بمن في دولته من المسيحيين .

(١) لا ندري من أين جاء الكاتب بقوله إن هذه هي النصوص الحرفية للشريعة الإسلامية ، فلننا نعلم أن الشريعة تنص على هذا ؛ ولعل بعض هذه القيود قد وضعت على غير المسلمين في بعض العهود ، وضمتها بعض الملوك أو الأمراء ، ولكنها لم تكن قاعدة متبعة . ولبت من الدين في شيء . وحسبنا ما قاله المؤلف نفسه بعد هذا دليلاً على تسامح المسلمين في أقرب العهود إلى نشأة الإسلام . (الترجم)

الفصل الثامن

ابن رشد

عاشت الفلسفة وقتاً ما في أسبانيا الإسلامية بما كانت تهبه بحكمة وحذرن من الآراء التي تتفق مع الدين بين محاولات النقد الهين غير العنيف ، وقد وجد الفكر شيئاً من الحرية المزعزعة في بلاط الأمراء الذين كانوا يستمتعون سرّاً بالبخوث التي يرونها ضارة بعامة الشعب . ومن أجل ذلك اختار أمير سرقسطة وهو من المرابطين أبا بكر بن باجة الذي ولد في تلك المدينة حوالي عام ١١٠٦ ليكون وزيراً له . وكان ابن باجة ، أو أفمباس Avempace كما اختار الأوربيون أن يسموه فيما بعد ، قد بلغ ، وهو لا يزال في شبابه ، مرتبة عليا غير عادية في العلوم الطبيعية ، والطب ، والفلسفة ، والموسيقى ، والشعر ؛ ويقول ابن خلدون إن الأمير أعجب بأبيات قالها العالم الشاب إعجاباً دفعه إلى أن يقسم ألا يدخل عليه قط إلا وهو يسير على الذهب ؛ وخشى ابن باجة أن يقلل هذا القسم من الحفاوة به فوضع قطعة من النقود الذهبية في كلاحذاهيه . ولما سقطت سرقسطة في أيدي المسيحيين ، فر الوزير - العالم - الشاعر منها إلى فاس حيث وجد نفسه فقيراً معلماً بين مسلمين يتهمونهم بالكفر ، ومات ابن باجة في سن الثلاثين مسموماً كما تقول بعض الروايات . وتعدت رسالته في الموسيقى التي لم نقف لها على أثر خيراً ما كتب في هذا الموضوع الدقيق في الآداب الإسلامية في الغرب . وأشهر مؤلفاته كلها كتاب مرشده الحيراني الذي جدد فيه البحث في أحد الموضوعات الأساسية في الفلسفة الإسلامية . فقد قال ابن باجة إن العقل البشري يتكون من جزأين : العقل المادى الذي يتصل بالجسم ويموت بموته ؛ والعقل الفعال أو العقل الكونى غير البشري الذي يوجد في الناس كلهم ، وهو وحده الذي

لا يموت بموتهم . والتفكير هو أسمى وظائف الإنسان ، وبالتفكير وحده ،
لابالنشوة الصوفية ، يصل الإنسان إلى معرفة العقل الفعال وهو الله .
ولكن التفكير مغامرة خطيرة ، إلا إذا كانت في صمت . وللرجل العاقل
يعيش في عزلة هادئة ، بعيداً عن الأطباء ، ورجال القانون ، والناس أجمعين ؛
أو لعل عدداً قليلاً من الفلاسفة يوالفون فيما بينهم جماعة تسمى مجتمعة لطلب
المعرفة في رفق وتسامح بعيدة، عن صخب الشعب وجنونه^(٩٥) .

وواصل أبو بكر بن طفيل (أبو باسر Abubacer عند الأوربيين)
(١١٠٧ - ١١٨٥) أفكار ابن باجة ، وكاد يحقق مثله العليا . وكان هو
الآخر عالماً ، وشاعراً ، وطبيباً ، وفيلسوفاً ؛ وكان وزيراً وطبيباً للخليفة
أبي يعقوب يوسف في مدينة مراکش عاصمة الموحدين . وقد استطاع أن
يقضي معظم ساعات يقظته في المكتبة الملكية ووجد بين الدرس وشئون الحكم
متسعاً من الوقت كتب فيه ، من بين الكتب الفنية العميقة ، أعظم قصة
فلسفية في أدب العصور الوسطى . وقد أخذ ابن طفيل عنوان قصته من ابن
سينا ولعلها هي التي أوجت إلى ديفود (Defoe) بقصة ربنسن كروزو
Robinson Crusse (بعد أن ترجمها أكلي Ockley إلى الإنجليزية
في عام ١٧٠٨) .

وخلاصة القصة أن حى بن يقظان ، الذي سميت القصة باسمه أتى وهو
طفل في جزيرة خالية من السكان ، فأرضعته عذرة ، وشب الفتي متوقد
الذكاء . عظيم المهارة ، فكان يصنع حذاءيه وأثوابه بنفسه من جلود
الحيوان ، ودرس النجوم ، وشرح الحيوانات حية وميتة ، حتى وصل
في هذا النوع من المعرفة إلى أرق ما وصل إليه أعظم المشتغلين بعلم
الأحياء^(٩٦) . ثم انتقل من العلوم الطبيعية إلى الفلسفة وعلوم الدين ،
وأثبت لنفسه وجود خالق قادر على كل شيء ، ثم عاش معيشة
الزهاد ، وحرّم على نفسه أكل اللحم ، واستطاع أن يتصل اتصالاً روحياً

بالعقل الفعال (٩٧) . وأصبح حتى بعد أن بلغ التاسعة والأربعين من العمر متأهباً لتعليم غيره من الناس : وكان من حسن الحظ أن متصوفاً يدعى أسال أستطاع في سعيه إلى الوحدة أن يلتقي بنفسه على الجزيرة ، فالتقى يحيى ، وكان هذا أول معرفة له بوجود بنى الإنسان . وعلمه أسال لغة الكلام وسره أن يجد أن حياً قد وصل دون معونة أحد إلى معرفة الله ، وأقر يحيى بما في عقائد الناس الدينية في الأرض التي جاء منها من غلظة وخشونة ، وأظهر له أسفه على أن الناس لم يصلوا إلى قليل من الأخلاق الطيبة إلا بما وعدوا به من نعم الجنة ، وما أنذروا به من عقاب النار . واعتزم يحيى أن يغادر جزيرته ليهدى ذلك الشعب الجاهل إلى دين أرقى من دينهم وأكثر منه فلسفة . فلما وصل إليهم أخذ يدعوهم في السوق العامة إلى دينه الجديد وهو وحدة الله والكائنات . لكن الناس انصرفوا عنه أو لم يفهموا أقواله . وأدرك أن الناس لا يتعلمون النظام الاجتماعي إلا إذا مزج الدين بالأساطير ، والمعجزات ، والمراسيم ، والعقاب والثواب الإلهيين . ثم ندم على إقحامه نفسه فيما لا يعنيه ، وعاد إلى جزيرته ، وعاش مع أسال يرافق الحيوانات الوديمة والعقل الفعال ، وظلا على هذه الحال يعبدان الله حتى الممات .

وقدم ابن طفيل إلى أبي يعقوب يوسف حوالي عام ١١٥٣ شاباً قاضياً وطيباً يعرفه المسلمون باسم أبي الوليد محمد بن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨) ويعرفه الأوروبيون في العصور الوسطى باسم أفروس (Averroës) ، أكبر فلاسفة المسلمين تأثيراً في العقول . ودل ابن طفيل بعمله هذا على تجرده من الغيرة والحسد تجرداً نادر الوجود في بنى الإنسان . وكان جد ابن رشد وأبوه كلاهما قاضيين للقضاة في قرطبة ، وقد هياأ له من التعليم كل ما تستطيع أن تهيبه له هذه العاصمة القديمة . ونقل إلينا أحد تلاميذه هذه الفقرة التي يقولون إنها هي التي وصف بها ابن رشد نفسه أول لقاء له بالأمير فقال إنه لما قدم عليه لم يجد معه إلا ابن طفيل ، وأخذ ابن

طفيل هذا يمتدحه بما لا يستحقه من المديح . . . وبدأ الأمير حديثه بأن سأل الفيلسوف عن رأيه في السموات ، هل هي أزلية أو أن لها بداية ؟ فارتاع الفيلسوف لذلك واضطرب ، وأخذ يتلمس المعاذير للفرار من الإجابة : وأدرك الأمير ما هو فيه من اضطراب فالتفت إلى ابن طفيل وأخذ يتحدث إليه في الموضوع ، ويعيد على مسامحة آراء أفلاطون وأرسطو وغيرهما من الفلاسفة ، وما لفقهاء المسلمين عليها من اعتراض ؛ لا يرجع في شيء من هذا إلا إلى ذاكرته بما لم يكن يظن أن له نظيراً حتى بين من كانت الفلسفة مهنته . وطمان الأمير الفيلسوف وامتنحن علمه ، ولما انصرف من حضرته بعث إليه بشيء من المال ، وبجواد ، وحلة غالية الثمن (٩٨) .

وعين ابن رشد في عام ١١٦٩ قاضياً للقضاة في إشبيلية وفي عام ١١٧٢ قاضياً للقضاة في قرطبة ، ثم استدعاه أبو يعقوب إلى مراكش بعد عشر سنين من ذلك الوقت ليكون طبيبه الخاص ، وظل يشغل هذا المنصب حتى ورث الخلافة يعقوب المنصور . وفي عام ١١٩٤ نفى ابن رشد إلى أليسانة القريبة من قرطبة لغضب الشعب عليه بسبب آرائه . ثم عفى عنه وعاد إلى مراكش في عام ١١٩٨ ولكن المنية عاجلته في العام التالي ، ولا يزال قبره حتى الآن قائماً في تلك المدينة .

وكاد كتابه في الطب ينسى بسبب شهرته الواسعة في الفلسفة ، ولكنه كان في الحقيقة من أعظم أطباء زمانه ، فقد كان أول من شرح وظيفة شبكية العين ، وقال إن من يمرض بالجدري يكتسب الحصانة من هذا الداء (٩٩) . وكانت موسوعته الطبية المسماة كتاب الكليات في الطب بعد أن ترجمت إلى اللغة اللاتينية واسعة الانتشار في الجامعات المسيحية . وأبدى الأمير أبو يعقوب في ذلك الوقت رغبته في أن يكتب له أحد العلماء شرحاً واضحاً لآراء أرسطو ، وأشار ابن طفيل أن يعهد هذا العمل إلى ابن رشد . ورحب الفيلسوف بهذا الاقتراح ، لأنه كان يرى أن الفلسفة كلها قد اجتمعت في آراء الفيلسوف اليوناني ، وأن كل ما تحتاجه (٢٦ - ج ٢ - مجلد ٤)

لكي تصبح موائمة لكل زمان هو أن تشرح وتفسر (*). واعتزم ابن رشد أن يعد لكل كتاب من كتب أرسطو الكبرى خلاصة موجزة في أول الأمر ، ثم شرحا لها موجزاً أيضاً ، ثم شرحا مطولاً للطلبة المتقدمين في الدرس - وكانت هذه الطريقة طريقة الشروح المتدرجة في الصعوبة مألوفة في الجامعات الإسلامية . ولقد كان من سوء الحظ أنه لا يعرف اللغة اليونانية ، وأنه اضطر لهذا السبب إلى الاعتماد على الترجمة العربية للترجمة السريانية لكتب أرسطو ؛ ولكن صبره ، وصفاء ذهنه ، وقدرته على التحليل الدقيق العميق ، أذاعت شهرته في أوروبا كلها وأكسبته اسم الشارح الأعظم ورفعته إلى أعلى مقام بين فلاسفة المسلمين لا يعلو عليه في المنزلة إلا ابن سينا العظيم .

وأضاف ابن رشد إلى هذه الشروح كتباً ألفها هو في المنطق ، والطبيعة ، وعلم النفس ، وما بعد الطبيعة ، والفقه ، والشريعة ، والفلك ، والنحو ، ورداً على نهج الفلاسفة للفيزياء سماه نهجته الشهيرة . وهو يقول كما قال فرانسيس بيكن من بعده إن القليل من الفلسفة قد يميل بالإنسان إلى المروق من الدين ، ولكن الدرس الواسع يؤدي إلى الائتلاف بين الفلسفة والدين . ذلك أن الفيلسوف ، وإن كان لا يأخذ تعاليم القرآن ، والتوراة ، وغيرهما من الكتب المنزلة (١٠٠) بمعناها الحرفي ، يدرك أنها لا غنى عنها لإنماء روح التقوى الطيبة والأخلاق السليمة في عقول الناس ؛ الذين تشغلهم مطالب الحياة الملحة فلا يجدون من الوقت ما يكفي لغية التفكير العارض ، السطحي ، الخطر في مبادئ الأشياء وأواخرها . ومن ثم فإن الفيلسوف الناجح لا ينطق بلفظ أو يشجع لفظاً يعارض الدين (١٠١) ، ومن حق الفيلسوف في مقابل هذا أن يترك حراً يسعى وراء الحقيقة ، ولكن عليه مع ذلك أن يحرص مناقشاته في دائرة المتعلمين ومداركهم ، وألا يعتمد

(*) وأبدي ستانانا Santavanna في كتابه حياة العقل The Life of Reason هذا

الرأي نفسه .

إلى الدعوة لآرائه بين العامة (١٠٢). وهو يرى أن العقائد الدينية إذا فسرت تفسيراً رمزياً تتفق مع ما يكشف عنه العلم والفلسفة (١٠٣). ولقد ظل هذا التفسير الرمزي للنصوص المقدسة المبني على الاستعارة والتشبيه سنة متبعة حتى عند رجال الدين أنفسهم مئات السنين. وابن رشد لا يقول صراحة بالنظرية التي يعزوها إليه النقاد المسيحيون وهي أن قضية من القضايا قد تكون صادقة في الفلسفة (بين المتعلمين) ، ولكنها قد تكون خاطئة (مضرة) في الدين (والأخلاق) (١٠٤) ؛ وإن كانت تعاليمه تتضمن هذا المعنى . ومن أجل هذا يجب ألا يبحث عن آراء ابن رشد في رسائله الصغرى التي وضعها لجمهور الطلاب ، بل في شروحه لأرسطو التي هي أكثر عمقاً وأصعب فهماً من الرسائل السالفة الذكر.

وهو يفسر الفلسفة بأنها البحث في معنى الوجود بقصد إصلاح شأن الإنسان (١٠٥) ويقول إن العالم أزلّي ، وإن حركات الكواكب لا بداية لها ولا نهاية ؛ وإن القول بالخلق خرافة ، فالقائلون بالخلق يدعون أن الله ينشئ شيئاً كائناً (جديداً) من غير أن يحتاج في إنشائه إلى مادة موجودة من قبل . . . وهذا التصور هو الذي جعل علماء الأديان الثلاثة القائمة في هذه الأيام يقولون إن الشيء قد ينشأ من لا شيء (١٠٦) . . . والحركة أزلية ودائمة ؛ وكل حركة تنشأ من حركة أخرى قبلها . وبغير الحركة لا يكون زمن وليس في وسعنا أن نتصور حركة ذات بداية أو نهاية (١٠٧) .

ولكنه مع هذا يقول إن الله هو خالق العالم ، ويعني بهذا القول أن العالم موجود في أي وقت من الأوقات بقوة الله الحافظة ، وإنه يمر في كل لحظة بعملية خلق مستمرة بقدره الله الفعالة (١٠٨) ؛ فالله هو نظام الكون ، وقوته وعقله .

ومن هذا النظام الأعلى والعقل الكلي يكون نظام الأفلاك والنجوم وعقلها المحرك . ومن عقل أدنى الأفلاك السماوية (فلك القمر) يأتي العقل الفعال الذي يدخل في جسم الإنسان المفرد وعقله . والعقل الإنساني مكون من عنصرين

أحدهما العقل القابل أو المادى وهو استعداد الإنسان أو قدرته على التفكير أو المعرفة العقلية ، وهذا العقل جزء من الجسم يقنى بفنائه (الجهاز العصبي ؟) ، والثانى هو العقل الفعال ، المستمد من الله . وهو الذى يعث العقل القابل على التفكير الفعلى . وهذا العقل الفعال لا يختلف فى فرد عنه فى آخر ؛ بل هو سواء فى الناس كلهم ، وهو وحده الخالد الذى لا يقنى (١٠٩) . ويشبه ابن رشد عمل العقل الفعال فى الفرد أو فى العقل القابل بتأثير الشمس التى يجعل ضوءها كثيراً من الأجسام نيرة ، ولكنه يبقى فى كل مكان ، ويظل على الدوام كما كان (١١٠) . ويسعى العقل الفردى للاتحاد مع العقل الفعال ، كما تمتد النار إلى الأجسام القابلة للاحتراق . وبهذا الاتصال يصبح العقل البشرى شبيهاً بالله ، لأنه يستحوذ على الكون كله بالقوة فى فكره ؛ والحق أن العالم وكل ما فيه ليس له وجود بالنسبة لنا ، وليس له معنى ، إلا عن طريق العقل الذى يدركه (١١١) . وإدراك الحقيقة وحده عن طريق الذهن هو الذى يؤدى بالعقل إلى الاتحاد مع الله ذلك الاتحاد الذى يظن المتصوفة أنهم يستطيعون الوصول إليه بالتدريب النفساني على الزهد أو بالنشوة التى تحدث بالأذكار . وابن رشد بعيد كل البعد عن عقائد المتصوفة وعن الأسرار الخفية ، ويرى أن اللجنة ليست إلا ما يستمتع به العقلاء من حكمة هادئة محببة إلى النفوس (١١٢) .

وهذه هى النتيجة التى وصل إليها أرسطو نفسه ، ولا حاجة إلى القول بأن نظرية العقل الفعال والعقل المنفعل (nous pathetikos nous poietikos) مرجعها كتاب النبوس لأرسطو De Anima (المقالة الثالثة) ، كما فسرها الإسكندر الأفروديسى ، وثامسطيوس الإسكندري ، وهى التى استحالت إلى نظرية الفيض emanation التى تقول بها الأفلاطونية الحديثة ، التى انتقلت إلينا عن طريق الفارابى وابن سينا وابن باجة ، وأصبحت هذه الفلسفة العربية فى نهايتها كما كانت فى بدايتها هى فلسفة أرسطو استحالت إلى أفلاطونية حديثة ؛ ولكن

بينما كانت عقائد أرسطو قد عدلت وحورت على أيدي معظم الفلاسفة المسلمين والمسيحيين حتى توفي بحاجات الدين ، فإن العقائد الإسلامية قد أنقصت على يدى ابن رشد إلى أقل قدر حتى يوفق بينها وبين آراء أرسطو . ومن أجل هذا كان أثر ابن رشد فى المسيحية أعظم منه فى بلاد الإسلام ، فقد اضطهده معاصروه من المسلمين ، ونسيه من جاء بعده منهم ، وتركوا معظم كتبه تضيع أصولها العربية ؛ ولكن اليهود احتفظوا بالكثير منها مترجماً إلى اللغة العبرية . وسار ابن ميمون على نهج ابن رشد فحاول أن يوفق بين الدين والفلسفة . أما فى العالم المسيحي فإن الشروح بعد أن ترجمت من العبرية إلى اللاتينية كانت من أكبر البواعث على نزعة سيجرده برابانت Siger de Brabant الإلحادية ، ونزعة مدرسة بدوا Padua العقلية ، وكانت خطراً يهدد أساس العقيدة المسيحية . وأراد تومس أكويناس أن يرد هذا التيار الذى بعثه ابن رشد بمؤلفاته فكتب كتابه Summae لهذا الغرض ، ولكنه سار على الطريقة التى اتبعها ابن رشد فى شروحه وفى كثير من تفسيراته المختلفة لأرسطو ، وفى قوله إن المادة هى منشأ الفروق بين الكائنات ، وفى تفسيره الرمزي للنصوص الخاصة بالتجسيد فى الكتاب المقدس ، وفى قبوله الفكرة القائلة إن العالم قد يكون أزلياً ، وفى رفضه التصوف أساساً كافياً للدين ، وفى اعترافه بأن بعض العقائد الدينية فوق إدراك العقل ، وأنه يمكن قبولها عن طريق الإيمان (١١٣) . وقد وضع روجر بيكن ابن رشد فى المرتبة الثانية بعد أرسطو وابن سينا ، وأضاف إلى ذلك قوله مع المبالغة التى هى من خصائصه « تحظى فلسفة ابن رشد فى هذه الأيام (حوالى عام ١٣٧٠) بقبول جميع العقلاء » (١١٤) .

و عام ١١٥٠ أمر الخليفة المستنجد فى بغداد بإحراق جميع كتب ابن سينا وإخوان الصفا الفلسفية . وفى عام ١١٩٤ أصدر الأمير أبو يوسف يعقوب المنصور وكان وقتئذ فى إشبيلية أمراً بإحراق جميع كتب ابن رشد لإعداداً قليلاً منها

في التاريخ الطبيعي ، وحرّم على رعاياه دراسة الفلسفة ، وحثهم على أن يلقوا في النار جميع كتبها أيّما وجدت . : وبإحدى العامة إلى تنفيذ هذه الأوامر ، وكان يسوونهم ويحز في نفوسهم هجوم الفلاسفة على إيمانهم الذي كان عند بعضهم أعز سلوى لهم في حياتهم المضيئة النكدة . وفي هذا الوقت بالذات أعدم ابن حبيب لدراسته الفلسفة (١١٥) ، وأعرض الإسلام بعد عام ١٢٠٠ عن كل تفكير نظري . ولما أن ضعفت القوة العباسية في العالم الإسلامي ، أخذت تتجه اتجاهاً متزايداً نحو طلب المعونة من رجال الدين والفقهاء من أهل السنة . وأمدوا هؤلاء بما تحتاجه من هذه القوة ، نظير كتبها للتفكير الحر المستقل . ومع هذا كله فإن هذه المعونة لم تكن كافية لإنقاذ الدولة المضمحلة . ففي أسبانيا كان المسيحيون يتقدمون من بلد إلى بلد ، حتى لم يبق للمسلمين إلا غرناطة وحدها ؛ وفي الشرق استولى الصليبيون على بيت المقدس ، وفي عام ١٢٥٨ استولى المغول على بغداد ودمروها تدمراً .

الفصل التاسع

غارة المغول

١٢١٩ - ١٢٥٨

وهنا يثبت التاريخ مرة أخرى الحقيقة القائلة إن نعم الحضارة تغري الهمج بالهجوم على البلاد المتحضرة(*) . وكان السلاجقة قد بعثوا في بلاد الإسلام الشرقية قوة جديدة ، ولكنهم هم أيضاً ركنوا إلى الدعة والنعيم ، وتركوا دولة ملك شاه تنقسم مملكتين مستقتلتين ذواتي حضارة رائعة ولكنهما ضعيفتان من الناحية العسكرية . وكان التعصب الديني والعداء العنصرى قد قسا الشعب أقساما شديدة التباغض والتنازع وحالا بينه وبين الاتحاد لمقاومة الصايبيين .

وفي هذه الأثناء كان المغول الضاربون في شمالى آسية الغربى يزداد عددهم لقوة إخصابهم ، ويشتد بأسهم لما يلاقون من شظف العيش وصعابه . وكانوا يعيشون في الخيام أو في العراء ، ويرحلون وراء قطعانهم إلى مراعى جديدة ، ويرتدون جلود الماشية ، ويدرسون فنون الحرب دراسة المتحمس لها الراغب فيها . وكان أولئك الهون الجدد ، كما كان بنو جنسهم منذ ثمانية قرون ، بارعين في استعمال الخناجر ، والسيوف ، والسهام يطلقونها من فوق جيادهم التى تسابق الريح . وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله فيهم جيوفنى ده بيانو كرپينى Giovanni de Piano Carpini المبشر المسيحى ، فإن هولاء الأقوام كانوا « يأكلون كل ما يستطيعون أكله حتى القمل نفسه » (١١٦) ، ولم يكونوا يشمزون من أكل الفئران ، والقطط ، والكلاب ، ودم الآدميين ، أكثر من اشمزاز أعظم الناس ثقافة في هذه الأيام من أكل ثعابين الماء والقواقع البحرية . ونظم چنكيز خان - أى الملك

(*) انظر مقدمة ابن خلدون في هذا المعنى . (المترجم)

العظيم - أولئك الأقوام بما فرضه عليهم من القوانين الصارمة حتى أنشأ منهم قوة عظيمة البأس ، وقادهم لفتح أواسط آسية الممتدة من نهر الفلجا إلى سور الصين العظيم . وبينما كان چنكيز خان غائبا عن حاضرة ملكه في كركورم خرج عليه زعيم مغولى ، وعقد حلقا مع الشاه علاء الدين محمد صاحب خوارزم المستقلة . وقع چنكيز خان هذه الفتنة وعرض الصلح على الشاه فقبله ، ولكن نائبه في أترار Ottrar قتل بعد قليل من ذلك الوقت تاجرين من المغول فيما وراء نهر جيحون ، وطلب چنكيز خان أن يسلم إليه الوالى لمحاكمته ، فرفض محمد هذا الطلب ، وقتل رئيس البعثة المغولية ، ورد بقية أعضائها مخلوقى اللحى ، فلم يكن من چنكيز خان إلا أن أعلن الحرب وبدأ بذلك هجوم المغول على بلاد الإسلام (١٢١٩) .

وهزم جيش من المغول بقيادة جوجى ابن الخان جيش محمد البالغ أربعمائة ألف جندى عند جند ، وفر الشاه على أثر هذه الهزيمة إلى سمرقند وترك ١٠٠٠٠٠ من رجاله قتلى فى ساحة الوغى . وتقدم جيش مغولى آخر بقيادة چجتاى ابن الخان نحو أترار واستولى عليها ونهبها ، وسار جيش ثالث بقيادة الخان نفسه إلى بخارى وحرقتها عن آخرها ، وسبى آلافا من نسائها ، وذبح ثلاثين ألفا من رجالها . واستسلمت له سمرقند وبلغ حين وصل إلى أبوابها ولكنها لم تنجوا من النهب والمذابح العامة ، وزار ابن بطوطة هذه المدن بعد مائة عام من ذلك الوقت ووصفها بأن أكثرها لا يزال خرابا . ينحى فيها اليوم . وزحف تولوى بن چنكيز خان بجيش يبلغ سبعين ألفا اخترق به خراسان وخرب كل ما مر به من المدن . وكان المغول يضعون الأسرى فى مقدمة جيوشهم ويخبرونهم بين قتال مواطنهم - من أمامهم أو قتلهم من خلفهم . وفتحت مرو وخيابة وأحرقت عن آخرها ، ودمرت فى اللهب مكتبتها التى كانت مفخرة الإسلام ، وسمح لأهلها بأن يخرجوا من أبوابها يحملون معهم كنوزهم ، ولكنهم لم يخرجوا على هذا النحو إلا ليقتلوا وينهبوا فرادى . ويؤكد لنا المؤرخون المسلمون أن هذه المذابح استمرت ثلاثه

عشر يوماً هلك فيها ١٣٠٠٠٠ نسمة (١١٧) . وقاومت نيسابور الغزاة
بمسالة زماً طويلاً ، فلما استسلمت آخر الأمر (١٢٢١) قتل كل من فيها
من الرجال ، والنساء ، والأطفال ، ما عدا أربعائة من مهرة الصناع
أرسلوا إلى منغوليا ، وكومت رووس القتلى في كومة مروعة ؛ وخربت
كذلك مدينة الري الجميلة ومساجدها البالغ عددها ثلاثة آلاف ،
وما كان فيها من مصانع الفخار الدائعة الصيت ، وقتل أهلها عن آخرهم
كما يقول أحد المؤرخين المسلمين (١١٨) . وجمع ابن الشاه محمد جيشاً جديداً
من الأتراك حارب به جيش چنكيز خان عند نهر السند ولكنه هزم وفر
إلى دهلي . ولما خرجت هزاة على واليها المغولي كان جزاؤها ذبح ستين ألفاً
من أهلها . لقد كانت هذه الوحشية جزءاً من علوم الحرب عند المغول ،
وكانوا يقصدون بها شل قوى أعدائهم بما يقذفونه من الرعب في قلوبهم ،
ولارهاب المغلوبين على أمرهم حتى لا يفكروا في الخروج عليهم . ونجحت
هذه الخطة .

وعاد چنكيز خان بعدئذ إلى بلاده ليستمتع بأزواجه وخليلاته الخمسمائة ،
ومات في فراشه . وسير ابنه وخليفته أجتاي جيشاً من ٣٠٠٠٠٠ للقبض
على جلال الدين ، وكان قد جيش جيشاً جديداً في ديار بكر . وهزم
جلال الدين وقتل ، ولم يلق الغازون بعدئذ مقاومة فعاثوا فساداً في
أذربيجان ، وبلاد النهرين ، والكرج ، وأرمينية (١٢٣٤) . وسمع المغول
أن فتنة قامت في إيران بقيادة الحشاشين ، فزحف هولاكو حفيد
چنكيز خان بجيش مغولي اخترق به سمرقند ، وبلخ ، ودمر حصن
الحشاشين في الموت وولى وجهه شطر بغداد .

وكان المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين في المشرق من جلة العلماء ، وكبار
المخطاطين ، وكان مثال الرقة ودمائة الأخلاق ، بشديد الاهتمام بأمر الدين ،
وبالكتب ، والصدقات : وكل هذه أمور لا تنفق مع ذوق هولاكو . واتهم
المغول الخليفة بأنه يتستر على العصاة ، ويمنع ما وعد به من المساعدة على الحشاشين ،
وطلب إلى الخليفة جزاء له على فعلته أن يكون خاضعاً للخان الأعظم ، وأن تجرد

بغداد من الأسلحة ومن جميع وسائل الدفاع . ورفض المتعصم هذه الطلبات . بإياء وكبرياء ، وحاصر المغول بغداد ، وأرسل الخليفة إلى هولاكو بعد شهر من بدء الحصار هدايا وعرض عليه الصلح ؛ وخذع بما وعد به من الرحمة فأسلم هو وولداه أنفسهم إلى المغول ، ودخل هولاكو وجنوده بغداد في الثالث عشر من فبراير عام ١٢٥٨ ، وأعملوا فيها السلب والنهب والقتل أربعين يوما كاملة ، فتكوا فيها بثمانمائة ألف من أهلها على حد قول بعض المؤرخين . وهلك في هذه المذبحة الشاملة آلاف من الطلاب ، والعلماء ، والشعراء ، ونهبت أو دمرت في أسبوع واحد المكاتب والكنوز التي أنفقت في جمعها قرون طوال ، وذهبت مئات الآلاف من المجلدات طعمة للنيران ، وأرغم الخليفة وأفراد أسرته على أن يكشفوا عن مخائب ثروتهم ، ثم قتلوا (١١٩) . وهكذا قضى على الخلافة العباسية في آسية .

ثم عاد هولاكو إلى منغوليا ، وبقي جيشه وراءه ، يتقدم لفتح الشام تحت إمرة غيره من القواد ، حتى التقى عند عين جالوت بجيش مصرى يقوده قطز وبيبرس من أمراء المماليك (١٢٦٠) . وزفت البشرية إلى كل مكان في بلاد الإسلام وفي أوروبا نفسها ، وابتهجت نفوس الناس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، فقد جل الطلسم وذهب الروح ؛ ذلك أن معركة حاسمة دارت رحاها بالقرب من دمشق عام ١٣٠٣ وكانت عاقبتها أن هزم المغول ، ونجت بلاد الشام للمماليك ، ولعلها أيضا احتفظت للمسيحية بأوروبا .

ولسنا نعرف أن حضارة من الحضارات في التاريخ كله قد عانت من التدمير الفجائي ما عانت الحضارة الإسلامية على أيدي المغول . لقد امتدت فتوح البرابرة لبلاد الدولة الرومانية قرنين من الزمان ، وكان في استطاعة بلاد الدولة أن تنتعش بعض الانتعاش بين كل ضربة والتي بعدها ، وكان الفاتحون الجرمان يكتون في قلوبهم بعض الإجلال للدولة المحتضرة التي يعملون على تدميرها ، ومنهم من حاول المحافظة عليها . أما المغول فقد أقبلوا وارتدوا في

أربعين عاما لا أكثر ؛ ولم يأتوا ليفتحوا و يقيموا ، بل جاءوا ليقتلوا ،
وينهبوا ويحملوا ما يسلبون إلى منغوليا . ولما ارتد تيار فتوحهم الدموى خلف
وراءه اقتصاداً مضطرباً ، وقنوات للرى مطمورة ، ومدارس ودوراً للكتب
رماداً تذرره الرياح ، وحكومات منقسمة على نفسها ، معدمة ، ضعيفة ،
لاتقوى على حكم البلاد ، وسكاناً هلك نصفهم ، وتحطمت نفوسهم .
واجتمع الانغماس الأبيقورى فى اللذات ، والهزال الجسمى والعقلى ، وخور
العزيمة والعجز الحربى ، والانقسام الدينى والالتجاء إلى المراسم الغامضة
الخفية ، والفساد السياسى والفوضى الشاملة ، اجتمعت هذه العوامل كلها
واثقلت لتحطيم كل شىء فى الدولة قبل الغزو الخارجى . لقد كان هذا كبله
... لا تبدل المناخ ، هو الذى بدل آسية الغربية من زعامتها على العالم فقراً
مذمماً ، وخزابا شاملا . وأحل محل مئات المدن العامرة المثقفة فى الشام ،
بأرض الجزيرة ، وفارس ، والقفقاس ، والتركستان ما تعانیه فى الوقت
الحاضر من فقر ، ومرض ، وركود (*) .

(*) لقد أخذت تلك البلاد تنفض عن كاهلها ما كانت تعانیه من الفقر والمرض
والركود ، وشرعت تعمل مجد وعزيمة لاستعادة مجدها الغابر الذى أراد هؤلاء الفزاة المتوحشون
أن يقضوا عليه . وفى بلاد آسية الغربية فى الوقت الحاضر نهضة قوية مباركة فى جميع المرافق
الحيوية تبشر بأن هذه البلاد تستعيد عما قريب ما كان لها من منزلة سامية فى تلك الأيام الحالية .
ولقد استطاعت فى وقت قصير أن تحقق الشىء الكثير من أسباب الرقى وأن ترفع عن كاهلها ما كان
يطلوئها به الاستعمار البغيض من قيود ، ويقتننا أنه لولا هذا الاستعمار لكانت خطاها فى هذه
السييل أوسع وأثبت . (المترجم)

الفصل العاشر

الإسلام والعالم المسيحي

إن قيام الحضارة الإسلامية واضمحلالها لمن الظواهر الكبرى في التاريخ . لقد ظل الإسلام خمسة قرون من عام ٧٠٠ إلى عام ١٢٠٠ يتزعم العالم كله في القوة ، والنظام ، وبسطة الملك ، وجميل الطباع والأخلاق ، وفي ارتفاع مستوى الحياة ، وفي التشريع الإنساني الرحيم ، والتسامح الديني ، والآداب ، والبحث العلمي ، والعلوم ، والطب ، والفلسفة . وفي العارة أسلم مكانته الأولى في القرن الثاني عشر إلى الكنائس الكبرى الأوربية ، ولم يجد فن النحت القوطي منافساً له في بلاد الإسلام التي كانت تحرم صنع التماثيل . أما الفن الإسلامي فقد أبقى قوته في الزخرفة ، وعانى الشيء الكثير من ضيق المدى ووحدة الطراز المملة ، ولكنه في داخل هذا النطاق الذي فرضه على نفسه لم يفقه حتى الآن فن سواه . وكان الفن والثقافة في بلاد الإسلام أعم وأوسع انتشاراً بين الناس مما كانا في البلاد المسيحية في العصور الوسطى ، فقد كان الملوك أنفسهم خطاطين ، وتجاراً ، وكانوا كالأطباء ، وكان في مقدورهم أن يكونوا فلاسفة .

ويغاب على الظن أن البلاد المسيحية كانت متفوقة على بلاد الإسلام من ناحية الآداب الجنسية في خلال تلك القرون ، وإن لم يكن في كليهما حظ لختار . غير أننا لا يسعنا إلا أن نذكر أن الاقتصار على زوجة واحدة في البلاد المسيحية ، مهما بلغ من عدم التقييد بهذه العادة من الناحية العملية ، فقد أبقى الغريزة الجنسية في نطاق محدود ، ورفع منزلة المرأة رفعاً بطيئاً ، في حين أن الإسلام قد أخفى وجه المرأة بالحجاب والقناع . (ولقد أفلحت الكنيسة في تقييد الطلاق ، ويبدو أن اللواط لم يبلغ في البلاد المسيحية ، ومنها إيطاليا في عهد النهضة ، ما بلغه من الحرية .

والإنتشار - حاشأً أن نقول في الإسلام ، بل نقول في حياة المسلمين . غير أن المسلمين ، كما يلوح ، كانوا رجالاً أكمل من المسيحيين ؛ فقد كانوا أحفظ منهم للعهد ، وأكثر منهم رخصة بالمغلوبين ، وقلما ارتكبوا في تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عند ما استولوا على بيت المقدس في عام ١٠٩٩ . ولقد ظل القانون المسيحي يستخدم طريقة التحكيم الإلهي بالقتال أو الماء ، أو النار ؛ في الوقت الذي كانت الشريعة الإسلامية تضع فيه طائفة من المبادئ القانونية الراقية ينقلها قضاة مستنبرون . واحتفظ الدين الإسلامي ، وهو أقل غموضاً في عقائده من الدين المسيحي ، بشعائره أبسط ، وأنى ، وأقل اعتماداً على المظاهر المسرحية من الدين المسيحي ، وأقل منه قبولاً لنزعة الإنسان الغريزية نحو الشرك . وهو شبيه بالمذهب البروتستنتي في احتقاره ما يعرضه دين البحر المتوسط من عون للخيال والحواس وما يطلقه لها من عنان ؛ (ولكنه يستسلم للنزعة الجنسية في تصويره الجنة) (*) . وقد ظل هذا الدين بعيداً كل البعد تقريباً عن النظم الكهنوتية ، ولكنه قيد العقل في الوقت الذي كانت فيه المسيحية مقبلة على أخصب عصور الفلسفة الكاثوليكية .

ويكاد تأثير العالم المسيحي في الإسلام يكون مقصوراً على بعض المظاهر الدينية وعلى الحرب . فأما من حيث المظاهر الدينية فأكبر الظن أن التصوف قد جاء إلى العالم الإسلامي من نماذج مسيحية ، ومن الرهبنة ، وعبادة القديسين . ولقد تأثرت النفس الإسلامية بقصة عيسى وشخصيته وظهرت في الشعر والنثر الإسلاميين وكانت فيهما موضع العطف الكبير (١٢٠) . أما العالم الإسلامي فقد كان له في العالم المسيحي أثر بالغ مختلف الأنواع . لقد تلتقت أوربا من بلاد الإسلام الطعام ، والشراب ، والعقاقير ، والأدوية ؛

(*) لقد قال المؤلف من قبل ، لئلا عن بعض الفلاسفة ، إن ما ورد في وصف الجنة من متع جسمية يجب ألا يؤخذ بحرفيته بل هل أنه تقريب للمتعة الروحية من أذهان الناس . (المترجم) .

والأسلحة . وشارات الدروع ونقوشها ، والدوافع الفنية ، والتحف ،
والمصنوعات ، والسع التجارية ، وكثيراً من الصناعات ، والتشريعات
والأساليب البحرية ؛ وكثيراً ما أخذت عن المسلمين أسماء هذه كلها :

Orange, lemon, sugar, syrup, sherbet julep; elixir, jar
azure, arabesque, mattress, sofa muslin, salin, fustian, bazaar,
caravan, check mate, Tariff, tarffic, douane, magazine, risk,
loop barge, cable, admiral.

ويقابل هذه في العربية : البرتقال ، والليمون ، والسكر ، والشراب ،
والشربات ، والجلاب ، والإكسير ، والإبريق ، والأزرق ، والنقش
العربي ، والحشية (واللفظ الإنجليزي مشتق من المطرح) والأريكة (اللفظ
الإنجليزي مشتق من الصفة) ، والموصلين ، والساتان ، والفستان ، والسوق .
والقافلة ، والشاه مات . والتعريف ، وحركة المرور ، والديوان ، والخزن ،
والخطر ، والفارب بنوعيه ، والحبل ، وأمير البحار (وبعض هذه الألفاظ
مأخوذة عن الفارسية مثل Bazaar وبعضها الآخر عن العربية) . وقد
جاءت لعبة الشطرنج إلى أوروبا من الهند عن طريق بلاد الفرس ، واتخذت
لها في طريقها أسماء فارسية وعربية ؛ فلفظ Ckeck mate مثلاً مأخوذ من
عبارة الشاه مات . وبعض آلاتنا الموسيقية تحمل بين طيات أسمائها أدلة
على أصولها السامية ؛ ومن هذه الألفاظ lute من العود ، و rebeck من
الربابة ، و guitar من القيثارة ، و tambourine من الطنبور . وقد انتقل
شعر شعراء الفروسية الغزليين troubadour وموسيقاهم من بلاد الأندلس إلى
پروفانس في فرنسا ، ومن صقلية المسلمة إلى إيطاليا . ولعل الأوصاف العربية
للرجلات إلى الجنة والجحيم كان لها نصيب في المسلاة الإلهية The Divine
Comedy لدانتى . وقد دخلت القصص الخرافية ، والأعداد الهندية إلى أوروبا
في زياها العربي أو صورتها العربية . والعلماء العرب هم الذين احتفظوا بما كان
عند اليونان من علوم الرياضة ، والطبيعة ، والكيمياء ، والفلك ، والطب ،

وارتقوا بها ، ونقلوا هذا التراث اليوناني بعد أن أضافوا إليه من عندهم ثروة عظيمة جديدة إلى أوروبا . ولا تزال المصطلحات العلمية العربية تملأ اللغات الأوربية ، ونذكر منها على سبيل المثال Algebra للجبر ، Zero و Cipher للصفر ، Azimuth السُمُوت و Alembic للأنبيق ، و Zenith للسمت ، و Almanac للتقويم وهي مشتقة من لفظ المناخ . وظل أطباء العرب يحملون لواء الطب في العالم خمسمائة عام كاملة ، وفلاسفة العرب هم الذين احتفظوا لأوروبا بمؤلفات أرسطو وشوهوا لها هذه المؤلفات . وكان ابن سينا وابن رشد نجمين لاحا من الشرق للفلاسفة المدرسين الذين كانوا يتقنون عنهما ، ويعتمدون على كتبهما ، ويتقنون بها ثقة لا تزيد عليها إلا تقنيهم بالنصوص اليونانية .

والقباب المضلعة أقدم في بلاد المسلمين منها في أوروبا (١٢١) ، وإن لم يكن في مقدورنا أن نتبع الطريق الذي وصلت منه إلى الفن القوطي ، وأبراج الكنائس المسيحية المستدقة ، وأبراج نواقيسها مدينة بالشيء الكثير إلى مآذن المساجد (١٢٢) ، ولعل زخارف التوافد القوطية المقطعة المصنوعة من الحجارة قد أوحى بها بوائك برج الخرلدة ذات الأقواس المقرنة (١٢٣) . ويعزى انتعاش فن الخزف الرفيع في إيطاليا وفرنسا إلى انتقال صناع الخزف المسلمين في القرن الثاني عشر إلى هذين البلدين ، وإلى زيارة صناعه الإيطاليين إلى بلاد الأندلس الإسلامية (١٢٤) . ولقد أخذ صناع الحديد والزجاج في البندقية ، ومجلدو الكتب في إيطاليا ، وصانعو الدروع والسلاح في أسبانيا ، أخذ كل هؤلاء فنونهم عن الصناعات المسلمين (١٢٥) ، وكان النساجون في جميع أنحاء أوروبا تقريباً يتطلعون إلى بلاد الإسلام ليأخذوا منها النماذج والرسوم ، وحتى الحدائق نفسها قد تأثرت إلى حد بعيد بالحدائق الفارسية .

وسنشرح فيما بعد بالتفصيل السبل التي جاء منها هذا التأثير الإسلامي إلى بلاد الغرب ، غير أننا نقول هنا بإيجاز إنه جاء عن طريق التجارة ، والحروب

الصليبية ؛ وعن آلاف الكتب التي ترجمت من اللغة العربية إلى اللاتينية ؛ وعن الزيارات التي قام بها العلماء أمثال جريرت Gerbert ، وميخائيل اسكت Michael Scot وأدلارد Adelard من أهل باث Bath إلى الأندلس الإسلامية ؛ ومن الشبان المسيحيين الذين أرسلهم آباؤهم الأسبان إلى بلاط الأمراء المسلمين ليتربوا فيها ويتعلموا الفروسية (١٣٦) - ذلك أن بعض الأشراف المسلمين كانوا يعدون « فرساناً وسادة مهذبين كاملين وإن كانوا مسلمين » (١٢٧) ؛ ومن الاتصال الدائم بين المسيحيين والمسلمين في بلاد الشام ، ومصر ، وصقلية ، وأسبانيا . وكان كل تقدم للمسيحيين في أسبانيا تتبعه موجة من آداب المسلمين ، وعلومهم ، وفلسفتهم ، وفنونهم تنتقل إلى البلاد المسيحية ، وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال أن استيلاء المسيحيين على طليطلة في عام ١٠٨٥ قد زاد معلومات المسيحيين الفلكية ، وأبى على الاعتقاد بكرة الأرض (١٢٨) .

لكن نار الحقد لم تطفىء لظاها هذه الاستنادة العلمية . ذلك أن لا شيء بعد الخبز أعز على بنى الإنسان من عقائدهم الدينية ، لأن الإنسان لا يحيا بالخبز وحده ، بل يحيا معه بالإيمان الذي يبعث في قلبه الأمل . ومن أجل هذا فإن قلب الإنسان يتلظى غيظاً على من يهدده في قوته أو عقيدته . ولقد ظل المسيحيون ثلاثة قرون يشهدون زحف المسلمين ، ويبصرونهم يستولون على قطر مسيحي في إثر قطر ، ويمتصون شعباً مسيحياً بعد شعب ؛ وكانوا يحسون بأيدي المسلمين القوية تقبض على التجارة المسيحية ، ويستمعون لإيهم وهم يسمون المسيحيين كفرة (*) ؛ وأمسّت المعركة المرتقبة في آخر الأمر معركة حقيقية ؛ فاصطدمت الحضارتان في الحروب الصليبية ، وقتل خير ما في الشرق أو الغرب

(*) إن الدين الإسلامي لا يقول قط بأن المسيحيين كفرة بل يعتبرهم من اللئيمين أهل الكتاب . (المترجم)

خير ما في الغرب أو الشرق ، وكان هذا العداء المتبادل عاملاً فعالاً في تاريخ العصور الوسطى كله ، مضافاً إليه دين ثالث هو الدين اليهودي قائماً بين الطائفتين المحتربتين الرئيسيتين يتلقى ضربات كليهما . وخسر الغرب الحروب الصليبية ، ولكنه ربح معركة الأديان ؛ فقد طرد كل مسيحي محارب من الأرض المقدسة ؛ ولكن المسلمين ، وقد اسنزف النصر البطيء دماءهم ، وخرب المغول بلادهم ، مرت بهم فترة من العصور المظلمة ساد فيها الجهل والفقر ، على حين أن الغرب المنهزم قد أنضج ما بذل من جهود ، ففسى هزائمه ، وأخذ عن أعدائه التعطش إلى العلم والولع بالرقى . فأقام الكنائس عالية تناطح السحاب ، وأخذ يجوب ميادين العقل ، وحول لغاته الفجة الجديدة إلى أساليب داني وتشوسر Chaucer و فيون Villon ، وسار تحذوه العزة إلى عصر النهضة :

وبعد فإن القارئ العادي ستعثره الدهشة من طول هذه الإلمامة بمحضارة المسلمين ، وسيأسف العالم . الباحث لما يجده فيها من إنجاز غير خليق بها : إن عصور التاريخ الذهبية دون غيرها هي التي أنجب فيها المجتمع ، في مثل هذا الزمن القصير ، ذلك العدد الجم من الرجال الذين ذاع صيتهم في الحكم ، والتعليم ، والآداب ، واللغة ، والجغرافية ، والتاريخ ، والرياضة ، والفلك ، والكيمياء ، والفلسفة ، والطب ، كما أنجب الإسلام في الأربعة القرون الفاصلة بين هرون الرشيد وابن رشد . وقد استمد بعض هذه النشاط المتألى مادته من تراث اليونان ، ولكن الكثير منه ، وبخاصة في الحكم ، والشعر ، والفن كان نشاطاً مبتكراً لا تقدر قيمته . ولقد كانت هذه الذروة من نهضة الإسلام من بعض نواحيها تحريراً للشرق الأدنى من سيطرة اليونان العلمية ؛ ولم تمتد إلى فارس الساسانية والأكيميائية فحسب ، بل امتدت كذلك إلى بلاد اليهود وبلاد سليمان ، وإلى آشور بلاد آشور بانيبال ، وإلى بابل حمورابي ، وأكاد سرجون ، وسومر بلد الملوك الذين لا تعرف أسماؤهم : وهكذا يثبت مرة أخرى اتصال حلقات التاريخ (٢٧ - ج ١٢ - مجلد ٤)

بعضها ببعض ؛ ذلك أن الأسس الجوهريّة في الحضارة لا تضيع أبداً مهما حل بها من زلازل وأوبئة ، وجذب ، وهجرات مدمرة ، وحروب مخربة مهلكة . بل إن ثقافات فنية تمد أيديها إلى هذه الأسس فتنتشلها من هذا اللهب ، وتمد حياتها بالتقليد والمحاكات ، ثم بالخلق والابتكار ، حتى ينبعث في الشعب الناشئ شباب جديد وروح وثابة جديدة . وكما أن الناس أعضاء في مجتمع ، والأجيال لحظات في تسلسل الأسر ، فإن الحضارات وحدات في كل أكبر منها وأعظم اسمه التاريخ ؛ فهي مراحل في حياة الإنسانية . إن الحضارة متعددة الأصول ، وهي نتاج تعاوُن كثير من الشعوب ، والطبقات ، والأديان ؛ وليس في وسع من يدرس تاريخها أن يتعصب لشعب أو لعقيدة . ومن أجل هذا فإن العالم وإن كان مواطناً في بلده يجبه لما يربطه به من صلوات وثيقة ، يحس أيضاً بأنه مواطن في بلد العقل ، الذي لا يعرف عداوات ولا حدوداً . وهو لا يكاد يكون خليقاً باسمه إذا ما حمل معه في أثناء دراسته أهواء سياسية ، أو نزعات عنصرية ، أو عداوات دينية ؛ وهو يقدم لكل شعب حمل مشعل الحضارة وأغنى تراثها شكره وإجلاله :

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد في المراجع مجملة في الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت في بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الفصل ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل. أو الآية في القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAPTER VIII

1. Burton, Sir R., ed., *Thousand Nights and a Night*, I, vii
2. Hell, J., *The Arab Civilization*, 7. Dawson, Christopher, *The Making of Europe*, 136.
3. Encyclopaedia Britannica, II, 184
4. Doughty, Chas., *Travels in Arabia Deserta*, I, xx.
5. Margoliouth, D. S. *Mohammed and the Rise of Islam*, 29; Nödeke, *Sketches*, 7.
6. Burton, R.F., *Personal Narrative of a Pilgrimage to al-Medinah and Meccah*, II, 98.
7. Blunt, Lady A. and Sir W. S., *The Seven Golden Odes of Pagan Arabia*, 43.
8. Ibid.
9. القرآن الكريم tr. and ed. Pickthall, *The Meaning of the Glorious Koran*. Pickthall's numbering of the verses differs occasionally from that of other translations.
10. Sale, G., in Wherry, E.M. *Commentary on the Qur'an*, with Sale's tr., I, 43.
11. Herodotus, III, 8.
12. الطبرى - المقدمة
Margoliouth, *Mohammed*, 59,
- Muir, Sir W., *Life of Mohammed* 512.
13. Browne, E. G., *Literary History of Persia*, I, 261.
14. الطبرى الجزء الثالث الفصل السادس والأربعون ص ٢٠٢
15. Pickthall, p. 2.
16. Browne, *Literary History*, I, 247.
17. Tiedall, W. S., *Original Sources of the Koran*, 264, Poole, S., *Speeches and Table Talk of the Prophet Mohammed'* xxiv.
18. Nicholson, R. A., *Translations of Eastern Poetry and Prose*, 38-40. Cf. Koran, xcvi.
19. Muir, *Life*, 51.
20. القرآن الكريم
21. II, 91.
22. Lxxxvii, 6.
23. Ali, Maulana Muhammad, *The Religion of Islam*, 174.
24. Macdonald, D. B., *Religious Attitude and Life in Islam*, 42.
25. Margoliouth, *Mahammed*, 45.
26. Dozy, R., *Spanish Islam*, 15.
27. Hell, 19.
28. Sale in Wherry, I, 80.
29. البلاذرى
30. Ameer Ali, Sayed, *Spirit of Islam*, 54.
31. Muir, *Life*, 214, 234.

23. Ibid., 286.
 33. Ibid., 238, quoting traditions.
 34. Ibid.
 35. Andrae, Tor, *Mohammed*, 206; Muir, 245f, quoting Ibn Hisham and al-Tabari.
 36. Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 58f.
 37. Muir. 252f.
 38. البلاذرى
 39. المصدر عينه
 40. Amer Ali, 94.
 41. Andrae, 238.
 42. Macdonald, D. B., *Development of Muslim Theology, Juris-prudence, and Constitutional Theory* 69.
 43. القرآن
 44. القرآن
 45. Andrea, 267.
 46. القرآن
 47. Muir, 77, 244.
 48. القرآن
 49. Muir. 201.
 50. Bukhsh, S. K., *Studies, Indian and Islamic*, 6.
 51. Muir, 511.
 52. Lane - Pool, *Speeches*, xxx.
 53. Ameer Ali, *Spirit of Islam* 110.
 54. Bukhsh, *Studies*, 6.
 55. Irving. W. *Life of Mahomet*, 238
 56. Margoliouth, 105; Irving, 231.
 57. القرآن
 58. المجلستان للسمنى
 59. Margoliouth, 458.
 60. Gibbon, V, 264.
 61. Margoleiouth, 466.
- CHAPTER IX
1. سورة الرحمن
 2. Lane - Poole, *Speeches*, 180.
 3. القرآن الكريم
 4. القرآن الكريم
 5. القرآن الكريم
 6. القرآن الكريم
 7. Margoliouth, 69.
 8. القرآن الكريم Lane-Poole, 167
 9. Ibid. 158.
 10. Ali, Maulana M., *Religion of Islam*, 587.
 11. Lane-Poole, 161, 163.
 12. Ibid., 162.
 13. Ibid.
 14. Ali, Maniana. 890.
 15. القرآن
 16. Ali, Maniana, 655.
 17. القرآن
 18. Ali, 602.
 19. القرآن الكريم
 20. القرآن الكريم
 21. Pickthall, p. 594 n.
 22. Lane-Poole, 161.
 23. القرآن الكريم
 24. Ameer Ali, 183.
 25. Lane-Poole, 167.
 26. Quoted in Muir, *Life*; 520.
 27. Lane-Poole, 159.
 28. Ibid.
 29. Sale in Wherry, I, 122.
 30. E.g., Deut. xviii, 15-18 ; Hag. ii, 7 ; Songs, ii, 8, xxi, John xvi, 12-13.
 31. Talmud, Pirk Aboth ii, 18.
 32. Nöldeke, *Sketches*, 44.
 33. القرآن Talmud, Sanh., ii, with Ber., i, 2, and Nöldeke. 31.
 34. Lane-Poole, xi.
 35. Bevan, E. R., *Legacy of Israel*, 147, Hitti, P. K., *History of the Arabs*. 125.

36. Baron, S.W. *Social and Religious History of the Jews*, I, 335-7.
37. Hurgronje. C. S., *Mohammedanism*, 65.

CHAPTER X

1. *Cambridge Medieval History*, II, 331.
2. Burton, *Personal Narrative*, I, 149.
3. Finlay, G., *Greece under the Romans*, 367.
4. Muir, Sir W., *The Caliphate*, 56.
5. *Ibid.*, 57.
6. *Ibid.*, 189.
7. Hitti, 176.
8. Gibbon, V, 296.
9. Macdonald. *Development of Muslim Theology*, 23.
10. Hitti, 197.
11. Sykes, Sir P., *History of Persia*, I, 538.
12. Hell, J., 59 - 60.
13. Meir, *Caliphate*, 376; Hitti, 222.
14. Dozy, 161. Hitti, 227.
15. Muir. *Caliphate*, 428-37, Hitti, 285
16. Nöldeke, 132.
17. الجلسان
18. Burton, Sir R.F., *The Thousand Nights and a Night* I, 186.
19. Palmer, E.H., *The Caliph Haroun Alraschid*, 30, 78.
20. Arnold, Sir T. W., *Painting in Islam*, 16.
21. Abbott, Nabia, *Two Queens of Baghdad*, 183.
22. Muir, *Caliphate*, 482.
23. Palmer, 221.
24. *Ibid.*, 85, Abbott, 113.
25. Palmer, 81f. البرامكة
26. ابن خلدون المقدمة
27. Hitti, 300.

28. Eginhard, *Life of Charlemagne* xvi, 3.
29. Palmer, 121. البرامكة
30. Nicholson, R A., *Translation of Eastern Poetry and Prose*, 64.
31. العتبي : الكتاب البيهقي
32. Saladin, H., et Migeon, G., *Manuel d'art musulman*, I, 441.

CHAPTER XI

1. Lestrage, G., *Palestine under the Moslems*, quoting Masudi, II, 48.8
2. Hitti, 351,
3. Milman, H. H., *History of Latin Christianity*, III, 65n.
4. Lane, E. W., *Arabian Society in the Middle Ages*, 117.
5. Usher, A. P., *History of Mechanical Inventions*, 178-9.
6. De Vaux, Baron Carre, *Les Penseurs d'Islam*, I, 8.
7. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, III.
8. Renard, G., *Life and Work in Prehistoric Times*, 118.
9. Hitti, 344.
10. Thompson, J. W., *Economic and Social History of the Middle Ages*, 373.
11. ابن خلدون المقدمة
12. Hitti. 348.,
13. Muir *Caliphate*, 501.
14. Hitti, 344.
15. Hurgronje, 128.
16. Browne, E.G., *Literary History*
17. *Ibid.*, 318.
19. Browne, I, 223; Muir *Caliphate*, 510.
20. Nöldeke, 146-76.
21. Arnold, *Painting in Islam*, 104.
22. Guillaume, A., *The Traditions of Islam*, 13.
23. *Ibid.*, 134-8; Becker, C. H., *Christianity and Islam*, 62.

24. Guillaume, 47-52, 77.
25. Margoliouth, *Mohammed*, 80.
26. Guillaume, 80.
27. Sykes, I, 521.
28. Andrae, 101.
29. Sale in Wherry, I, 172.
30. Ali, Maulana, 780.
31. Philby, H., *A Pilgrim in Arabia*
32. Doughty, I, 59.
33. Burton, *Pilgrimage*, I, 325.
34. Ali Maulana, 529.
35. Burton, *Pilgrimage*, II, 68 ; Sale in Wherry, I, 185.
36. Graetz, H., *History of the Jews*, III, 87 ; Hitti, 284.
37. LeStrange, *Palestine*, 212 ; Arnold, Sir T. and Guillaume. A., *The Legacy of Islam* 81.
38. Baron, S. W., *History*, I, 319.
39. Guillaume, 132.
40. Catholic Encyclopedia, VIII, 459.
41. Becker, 32.
42. Hitti, 685 ; Sarton, G., *Introduction to the History of Science* Vol. II, Part I, 80.
43. Westermarck E., *Origin and Development of the Moral Ideas*, II, 476.
44. Kremer. A. von, *Kulturgegeschichte des Orients unter den Khalifen*, 52.
45. Abbott, 68.
46. Lane, E. W., *Arabian Society*, 219-20.
47. Bukhsh, S. K., *Studies*, 83.
48. Hitti, 239.
49. Ali, Maulana, 890.
50. Lane-Poole, S., *Saladin*, 247.
51. Macdonald, D. B. *Aspects of Islam*, 294 ; Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 262.
52. Müller-Lyer, F., *Evolution of Modern Marriage*, 42.
53. Lane-Poole, *Saladin*, 217.
54. Ibid., 251 ; Sumner, W. G. *Folkways*, 353.
55. Lane E. W. *Arabian Society*, 221
56. Ibid., 223.
57. Hitti, 342.
58. Bukhsh, *Studies*, 88.
59. Abbott, 187, 149.
60. Bukhsh, 84.
61. الغزالي ، كيمياء السعادة
62. Himes, N. E. *Medical History of Contraception*, 136.
63. Lane-Poole, *Saladin*, 415.
64. Guillaume. *Traditions*, 115.
65. Westermarck, *Moral Ideas*, I, 94.
66. Sale in Wherry, I, 168.
67. Hitt. 398.
68. De Vaux, II, 272 f ; Chardin, Sir J. *Travels in Persia*, 198.
69. Muir, *Caliphate*, 374.
70. Ibid., 519.
71. Lane, *Saladin*. 285.
72. Bury, J. B., *History of the Eastern Roman Empire*. 326.
73. Hingronje, 98.
74. Macdonald, *Muslim Theology*, 84 . Guillaume, 69 ; Burton. *Personal Narrative*, I, 148, 167,
75. Arnold and Guillaume *Legacy*. 305.
76. Macdonald. *Theology*, 305.
77. Muir, *Caliphate*, 170.
78. LeStrange, *Palestine*, 24.
79. Hitti, 236 f.
80. In LeStrange, 120.
81. Ibid., 342.
82. Ibid 301.
83. Ibid., 295-301, 312, 348, 353, 361 377.
84. Ibid., 265.
85. Ibid., 287.
86. Creswell, K. A. C., *Early Muslim Architecture*, I, 137; Rivoirin C. T., *Moslem Architecture* 110.
87. Yaqub, II, 587, in LeStrange,
88. Lane. *Saladin*, 184.
89. Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 339.
90. Baron, I, 320.

٩١. أبو الفدا في
The Troubadours and the Courts of Love, Rowbotham, J.E., 16n.
٩٢. Lestrangé, G., *Baghdad during the Abbasid Caliphate*, 253.
٩٣. Lane, E. W., *Arabian Society*, 203.
٩٤. Lane - Poole, S. *Studies in a Mosque*, 185.
- CHAPTER XII
1. In Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 331.
2. Lane, *Saladin* 86.
3. Lane-Poole, S., *Cairo*, 188.
4. Hitti, 409.
5. Macdonald, *Aspects of Islam*,
6. Bukhsh, *Studies* 195.
7. Carter, T. F. *The Invention of Printing in China*, Introduction and p. 86; Thompson, Sir E. M., *Introduction to Greek and Latin Palaeography*, 34; Barnes,
8. Bukhsh, 49, 50.
9. Ibid., 197.
10. Gibbon, V, 411.
11. Browne, *Literary History*, 1, 275.
12. Pope, *Masterpieces of Persian Art*, 151.
13. Sartón, I, 662.
14. Gibbon, V, 298.
15. تاريخ الطبري ج ١
16. المصدر عينه
17. المصدر عينه
18. Sartón, I, 637.
19. De Vaux, I, 78.
20. ابن خلدون الجزء الأول
21. Sartón, I, 530.
22. Arnold and Guillaume, *Legacy* 385.
23. Sartón, I, 602.
24. Bukhsh, 168.
25. De Vaux, II, 76.
26. Ibid., 78. :
27. البيروني ٧٨
28. البيروني
29. In Boer, T. J. de, *History of Philosophy in Islam*, 146.
30. De Vaux, II, 217; Arnold and Guillaume, 395.
31. البيروني
32. Bukhsh, 181.
33. Sartón, I, 707.
34. Ibid., 693.
35. Lane, *Arabian Society*, 54 n.
36. ابن خلدون الجزء الثاني
37. Thompson, J. W., *Economic and Social History*, 358.
38. Grunebaum, G. von, *Medieval Islam*, 381.
39. Ameer Ali, *Spirit of Islam*, 392.
40. Kellogg, J. H. *Rational Hydrotherapy* 1928, 24.
41. Ibid.
42. Lane, *Arabian Society*, 56.
43. Garrison, F., *History of Medicine*, 1929, 137.
44. Arnold and Guillaume, 336.
45. Bukhsh, 197.
46. Hitti, 364.
47. Ibid.
48. Campbell, D., *Arabian Medicine* 661.
49. Sartón, I, 609.
50. وفيات الأعيان لابن خلكان الجزء الأول
ص ٤٤٠
51. المرجع عينه ص ٤٤٣
52. In Draper, J. W., *History of the Intellectual Development of Europe*, I, 411.
53. John, I, 1-8.
54. Bukhsh, 59.
55. Boer, 101; Arnold and Guillaume, 255.
56. Aristotle *De Anima*, III, 5.
57. Macdonald, *Muslim Theology*, 150
58. Barhebraeus in Grunebaum, 182;

- Hitti, ٢٥٣ ; Muir *Caliphate*, ٥٢١.
٥٩. In Ameer Ali, *Spirit of Islam*, ٤٠٨.
٦٠. Dawson, ١٥٥.
٦١. ابن خلدون
٦٢. O'Leary DeL., *Arabic Thought and Its Place in History*, ١٥٣.
٦٣. Ueberweg, F., *History of Philosophy*, I, ٤١٢.
٦٤. De Vaux, IV, ١٢-١٨.
٦٥. Boer ١٢٣.
٦٦. Ibid., ٨١١.
٦٧. Husik, I., *History of Medieval Jewish Philosophy*, xxxix.
٦٨. Salibu, D., *Etude sur la metaphysique d'Avicenna*, ٢١.
٦٩. Ibid., ١٠٦, ١١٤, ١٢١, ١٥١ ; Hastings *Encyclopedia of Religion and Ethics*, XI, ٢٧٥-٦ ; Boer, ١٣٦.
٧٠. Salibu, ١٧٠ ; Gruner, O. C. *Treatise on the Canon of Medicine of Avicenna*, introd., p. ٩.
٧١. Beer, ١٨٨-٤٢.
٧٢. Salibu, ٢٠٨.
٧٣. In Ameer Ali, ٣٩٥.
٧٤. Boer, ١٤٤.
٧٥. البلاذرى ج ١ ص ٦ Bocon, Roger, *Opus Matus*, tr. R. B. Burke, Vol. I, p. ١٥.
٧٦. Salibu, ٢٧.
٧٧. Arnold and Guillaume, ٨١١.
٧٨. قانون ابن سينا ص ١١٨
٧٩. In Nicholson, R. A., *Mystics of Islam*, ٧.
٨٠. ابن خلدون
٨١. Browne, *Literary*, I, ٤٢٥.
- ٨٢ Hitti, ٤٣٥.
٨٣. Nicholson, R. A., *Studies in Mysticism*, ٤-٥.
٨٤. Macdonald, *Religious Attitude*, ١٦٩-٢١.
- Nicholson, *Studies in Mysticism*, ٧٨.
٨٥. Ibid., ٢٥.
٨٦. Arnold and Guillaume, ٢١٩.
٨٧. Hitti, ٤٣٨.
٨٨. Browne, II, ٢٦٥.
٨٩. Nicholson, *Studies in Mysticism*, ٦-٢١.
٩٠. Id., *Translations of Eastern* ٩٨-١٠٠.
٩١. In Browne, II, ٢٦٥.
٩٢. Nicholson, *Mysticism*, ٢٨-٣١, ٣٨.
٩٣. Browne, I, ٤٠٤ ; Dawson, ١٥٨.
٩٤. Hitti. ٤٤٣.
٩٥. مروج الذهب للمعمودى الترجمة الفرنسية ج ٤ ص ٨٩
٩٧. Lane-Poole, *Cairo*, ١٥٤.
٩٨. Nicholson, *Studies in Islamic Poetry*, ٤٨.
٩٩. Id., *Translations*. ٣٨.
١٠٠. Nicholson, R. A: *Literary History of the Arabs*, ٢٩٥ ; ابن خلكان ج ١ ص ٣٩٢
١٠١. De Vaux, IV. ٢٥٢.
١٠٢. Browne, I, ٣٦٩.
١٠٣. Nicholson, *Islamic Poetry*, ١٨٣-٧
١٠٤. Rihani, A: F., *The Quatrains of Abu'l Ala (al-Ma'arri)*, vii.
١٠٥. Nicholson, *Literary*, ٣١٩.
١٠٦. Id., *Islamic Poetry*, ١٤٨.
١٠٧. Ibid ١٠٢, ١٤٥, Rihani, ١٢٠.
١٠٨. Nicholson, *Islamic Poetry*, ١٠٨.
١٠٩. Ibid., ١٩١-٢.
١١٠. Ibid., ١٢١.
١١١. Id., *Translations*, ١٠٩.
١١٢. Id., *Islamic Poetry*, ١٥٠.
١١٣. Ibid., ١٦٠.
١١٤. Ibid., ١٦١-٥.
١١٥. Id., *Translations*, ١٠٢.
١١٦. Id., *Islamic Poetry*, ١١٩.
١١٧. Ibid., ١٢٧.
١١٨. Id., *Translations*, ١٠٩.

119. Id., *Islamic History*, 140.
 120. In Browne, II, 120.
 121. للفردوسى الحدينامة
 122. الفردوسى الشاهنامة
 123. نفس المرجع ترجمة انكسن وقد
 ترجمه ماثيو آرنلد في سهراب ورسم
 124. In Pope, *Survey of Persian Art*,
 II, 975.
 125. Cf. "The Nazarene Broker's
 Story" in Burton, *Thousand
 Nights and a Night*, I, 270.
 126. Pope, *Survey*, II, 1439.
 127. Lane-Poole, *Saladin*, 29.
 128. Lane *Arabian Society*, 54-61.
 129. Pope, II, 927; Hell, 109.
 130. Creswell, I' 239.
 131. In Lane, *Arabian Society*, 58.
 132. Pope, II, 975.
 133. Pope, IV 317-28.
 134. Pope, Arthur U., *Introduction
 to Persian Art*, 200.
 135. Arnold and Guillaume, 117.
 136. Pope, II, 1447.
 137. Fenollosa, F. F., *Epochs of
 Chinese and Japanese Art*, I, 21;
 Pope, *Survey* I, 2.
 138. Pope, II, 1468.
 139. Guillaume, 128.
 140. *Encyclopaedia Britannica*, XV,
 654.
 141. Ibid.; Hitti, 420.
 142. Arnold, *Painting in Islam*, 85.
 143. Ibid., 21.
 144. Lane, *Arabian Society*, 117.
 145. Ibid., 15.
 146. Hitti, 274.
 147. Farmer, H. G., in Arnold and
 Guillaume. 358.
 148. الخليلستان
 149. In Arnold and Guillaume. 859.
 150. Farmer in Arnold and Guil-
 laume, 867.
 151. Ibid., 372.
 152. Ibid., 861; Farmer, H.G., *His-
 tory of Arabian Music*, 154.
 153. Farmer in Arnold and G., 359.
 154. Hitti, 214.
 155. Farmer, 31.
 156. Ibid., 112.
 157. Ibid., 60-4; Lane-Poole, *Cairo*,
 156.
 158. Farmer, 120.
 159. Ibid., 124.
 160. Lane, *Arabian Society*, 172-6.
- CHAPTER XIII
1. Gibbon, V, 344.
 2. Sartou, I, 466; II (ii), 599.
 3. Ueberweg, I, 409.
 4. Tarn W.W., *Hellenistic Civilization*,
 217; Sartou, I, 466.
 5. Gibbon, V, 346.
 6. Munro, D. C., and Sellery, G.,
Medieval Civilization, 170.
 7. Lane-Poole, *Cairo*, 65.
 8. Browne, II, 228.
 9. Hitti, 625.
 10. Browne, II, 223, Margoliouth,
 D.S., *Cairo, Jerusalem, and
 Damascus*, 46.
 11. Nöldeke, 8.
 12. Hitti, 626.
 13. Arnold and Guillaume, 168.
 14. Pope, Arthur U., *Iranian and
 Armentian Contributions to the
 Beginnings of Gothic Architecture*,
 287.
 15. Lane, *Arabian Society*, 541.
 16. Lane-Poole, *Cairo*, 44. 60.
 17. Pope, II, 1488.
 18. Arnold and Guillaume, 116.
 19. Dimand, M. S., *Handbook of
 Muhammadan Art*, 255; Arnold,
Painting in Islam, 127.
 20. Margoliouth, *Cairo*, '69.
 21. Arnold and Guillaume, 333.
 22. Arnold, Sir T.W., *The Preaching
 of Islam*, 102.

23. Pirenne, Henri, *Mohammed and Charlemagne*, 160f.
24. Hitti, 606.
25. Waern, Cecilia, *Medieval Sicily*, 20.
26. Arnold and Guillaume, 241.
27. Waern, 25.
28. Calvert, A.F., *Moorish Remains in Spain*, 239.
29. المقرئ في نفع الطيب
30. المصدر عينه
31. المصدر عينه
32. Dozy, 458 - 65.
33. المقرئ
34. Dozy, 516.
35. Ibid., 522; Calvert, A.F., *Seville* 11
37. Lane-Poole, S., *Story of the Moors in Spain*, 34.
38. Dozy, 688, 689:
39. المقرئ
40. Dozy, 284.
41. Gibbon, V, 876.
42. Chapman, C., F., *History of Spain*, 53.
43. Ibid., 41; Dozy, 236; Laue-Poole, *Moors*, 50.
44. Chapman, 41.
45. Clapham, J. H., Power, E., *Cambridge Economic History of Europe*, 136; Barnes, *Economic History*, 114.
46. Clapham, 354-5; Thompson, J.W., *Economic and Social History*, 547.
49. *Cambridge Medieval History*, III, 482.
49. Pirenne, Jacques, *Les grands Courants de l'histoire universelle*, II, 117.
50. Ibid., 19.
51. Arnold. *Preaching*, 184; Dozy, 235.
52. Chapman, 49, 58.
53. Dozy, 268.
54. Ibid.
55. Arnold, *Preaching*, 144.
56. Dozy, 285; Lane-Poole, *Moors*, 47
57. Rivoira *Moslem Architecture*, 240.
58. Dozy, 278.
59. Ibid., 286.
60. Aronld, *Preaching*, 141.
61. Dozy 584.
62. المقرئ
63. Thompson, J.W., *Economic and Social History*, 549.
64. المقرئ
65. المصدر عينه
66. Calvert, *Moorish Remains*, 189.
67. Calvert, A.F., *Cordova*, 107.
68. المقرئ
69. Dozy, 495; Chapman, 50.
70. Pirenne, J., II, 20.
71. المقرئ
72. In Dozy, 576.
73. Sarton, I, 713.
74. Dozy, 281.
75. المقرئ
76. Arnold and Guillaume, 186.
77. Dozy, 326.
78. Ibid.
79. Tr. by Dulcie Smith in Van Doren, Mark, *Anthology of World Poetry*, 99.

CHAPTER XIV

1. Browne, II, 176.
2. Ibid., 177; Gibbon, V, 17.
3. Browne, II, 190.
4. Marco Polo, *Travels*, i, 24.
5. Ameer Aly, *Spirit of Islam*, 813.
6. Hitti, 446.
7. Thompson, J.W., *Economic and Social History*, 391; Arnold, *Preaching*, 96.

8. William of Tripoli in Lane-Poole, *Cairo*, 84.
9. Hftti, 679.
10. Adams, Brooks, *Law of Civilization and Decay*, 128.
11. In Lane-Poole, *Cairo*, 27.
12. Irving. W., *The Alhambra*, 47.
13. Lane-Poole, *Moors*, 225.
14. Pope, *Introduction*, 30; Pope, *Survey*, II, 1048.
15. Cf. Migeon, G., *Les arts musulmans*, II, 11.
16. Fry. Roger, in *Persian Art: Souvenir of the exhibition of Persian Art at Burlington House* xix.
17. Dillon. E., *Glass*, 165.
18. Lane, *Arabian Society*, 200.
19. Pope, *Masterpieces*, 65.
20. Dimand, *Handbook*, 280.
21. *Time Magazine*, Jan. 23, 1939.
22. Arnold, *Painting*, 127.
23. *N. Y. Times Book Review*, May 19, 1940, p. 2.
24. Bukhsh, 96.
25. Nicholson, *Translations*, 116.
26. ابن خلدون
27. المصدر عينه
28. Browne, II, 875.
29. *Ibid.*, 392.
30. Sarton. I, 759.
31. *Ibid.*, II (1), 8.
32. *Ibid.*, I, 760.
33. Browne, II, 246.
34. Nicholson, *Islamic Poetry*, 4-5.
35. Weir, T.H., *Omar Khayyam the* [Post], 21.
36. Nicholson, *Islamic Mysticism*, 1.
37. Browne, II, 108.
38. *Ibid.*, 258.
39. Heron-Allen, Edw., in Houstma, M., ed., *Encycloepia of Islam*, III, (ii), 988.
40. Weir, 16; Nicholson, *Islamic Poetry*, 5.
41. Browne, II, 249.
42. Quatrain cxv of the Bodleian MS. in Weir, 36.
43. Weir, 71.
44. In Browne, II, 247.
45. Smith. Margaret, ed., *The Persian Mystics: Attar*, 20-7.
40. جلال الدين الرومي، مختارات من ديوان شمسي تبريزي
47. المصدر عينه ٧١
48. المصدر عينه ٤٧
49. Sarton, II (ii), 872.
50. Browne; II, 521.
51. السعدى
52. السعدى في الجلسان
53. المصدر عينه
54. In Browne, II, 530.
55. الجلسان
56. Bustan in Grousset, R., *The Civilizations of the East, Vol. 1: The Near and Middle East*, 272.
57. الجلسان ١٢
58. ٣ - ٢
59. ٢٧ - ٢
60. ٤٠ - ٢
61. ٧ - ٤
62. ٥ - ٥
63. ٤ - ٥
64. ٢٠ - ٧
65. ٤ - ٧
66. ٣١ - ٨
67. ٣٨ - ٨
68. ٤ - ١
69. ٨ - ٧
70. ٢ - ٣

71. Browne, II, 534.
72. Grumebum, 39,
73. Sartone, II (I), 12.
74. Ibid., 216.
75. Ibid., 27; II (ii), 632.
76. Ibid., II (i), 31.
77. Margolfourth, *Cairo*, 220.
78. Sarton, II, (II), 1014.
79. Ibid., II (i), 51; II (ii), 668.
80. Ibid, II (i), 424.
81. Hitti, 686.
82. Sarton, II (i), 282.
83. Carrison, 136.
84. Lestrangle, *Baghdad*, 104.
85. Carrison, 136; Hell, 117; Lane-Poole, *Cairo*, 34, Margollouth, *Cairo*, 124-9, Hitti, 677.
86. Baron, S., ed., *Essays on Maimonides*, 112.
87. النزالي
88. النزالي (التهافت)
89. Macdonald, *Muslim, Theology*, 230.
90. Asin y Palacios, Mihuel, *Islam, and the Divine Comedy*, 273-5.
91. السعدى - المجلسان
92. Muir *Caliphate*, 146.
93. Arnold, *Painting*, 54.
94. Becker, 81.
95. Boer, 175; [Duhem, P., *Le système du monde*, IV, 522, 526; Macdonald, *Muslim Theology*, 250.
96. أبو بكر بن طفيل - حى بن يقظان
97. المصدر عينه
97. In Renan, E., *Averroës et l'averroïsme*, 16.
99. Sarton, II (i), 305.
100. ابن رشد
101. المصدر عينه
102. ابن رشد
Olson, E., Reason and Revelation in the Middle Ages, 40f.
103. ابن رشد
104. Sarton. II (1), 358.
105. ابن رشد
106. Commentary on Aristotle's *Metaphysics*, xii, in Renan, 108.
107. Commentary on Aristotle's *Physics*, viii, in Renan, 112; Duhem, IV, 549.
108. De Vaux, IV, 70.
109. Commentary on Aristotle's *De Anima*, bk. iii, [in Renan, 122; Duhem, IV, 573.
110. التهافت in Renan, 137n.
111. In Renan, 143.
112. Ibid., 146.
113. Arnold and Guillaume, 277-9; Tornay, S. C., *Averroës' Doctrine of the Mind, Philosophical Review*, May, 1943, 282n.; De Vaux, IV, 71; Duhem, IV, 566.
114. Racon, R., *Opus matus*, I, 6; De Vaux, IV 87.
115. Renan, 32.
116. In Browne, II, 440.
117. Ibid., 429.
118. Pope, *Survey*, II, 1542.
119. Lestrangle, *Baghdad*, 850; Browne, II, 460.
120. Cf. Arnold, *Painting*, 99.
121. Pope, *Survey*, II, 1044.
122. Burton, *Personal Narrative*, 90-2
123. Arnold and Guillaume, 166.
124. Encyclopaedia Britannica, XVIII, 389.
125. Arnold and Guillaume, 121; Pope, *Introduction*, 241; Encyclopaedia Britannica, XV, 657.
126. Dennis, Oeo., *Cities and Cemeteries of Etruria*, I, 37.
127. Brone, II, 432.
128. Arnold and Guillaume, 93.